المرأة في أدب العصر العباسي

تأليف

الدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي

إصدارات
مركز زايد للتراث والتاريخ

المرأة في أدب العصر العباسي

تأليف

الدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي

إصدارات

مركز زايد للتراث والتاريخ

المرأة في أدب العصر العباسي

رقم التصنيف	: ديوي 809.05 تاريخ ووصف ونقد آداب متعددة في عصور معينة
المؤلف ومن هو في حكمه	: الدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي
عنوان الكتاب	: المرأة في أدب العصر العباسي
الموضوع الرئيسي	: وصف ودراسة أدب المرأة ودوره وتأثيره في العصر العباسي
قيد الكتاب	: تم قيد الكتاب في سجل الإبداع النوعي، بقسم الملكية الفكرية وحقوق المؤلف بوزارة الإعلام والثقافة تحت رقم: أ م ف ٤/ ١٢٥ ـ ٢٠٠٢ م تاريخ ٢٦/أغسطس/٢٠٠٢ م
الناشر	: مركز زايد للتراث والتاريخ ـ العين دولة الإمارات العربية المتحدة
توصيف الكتاب	: مقاس ١٧ × ٢٤، عدد الصفحات ٤٩٠ ص
الرقم الدولي	: ردمك ISBN 9948 - 06 - 078 - 4

الطبعة الأولى

٢٠٠٢م ــ ١٤٢٣ هــ

مركز زايد للتراث والتاريخ

ZAYED CENTER FOR HERITAGE AND HISTORY

ص. ب. ٢٣٨٨٨ العين ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٧٦١٥١٦٦ ـ ٣ ـ ٩٧١ ـ فاكس: ٧٦١٥١٧٧ ـ ٣ ـ ٩٧١

P.O. BOX: 23888 AL AIN - U. A. E. - TEL: 971 - 3 - 7615166, - FAX: 971 - 3 - 7615177

E-mail: zc4HH@zayedcenter.org.AE

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة المركز

من خلال استقراء لتاريخ الأدب العربي والأعمال البيبلوغرافية الخاصة بالمرأة نجد أن المرأة احتلت حيزاً كبيراً من اهتمام الكتاب والمفكرين وأعمالهم على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم.

وإن الطفرة من أخبار النساء تضع الباحث أمام حقائق كثيرة لا يمكن إغفالها منها: دور المرأة في الحياة السياسية والحياة الإجتماعية والأسرية ودورها في الجانب المالي والاقتصادي والعلمي وغير ذلك الكثير...

إلا أن موضوع المرأة عموماً يضع الباحث أمام تساؤلات كثيرة تحتاج إلى مباحث جادة ومعمقة للإجابة عليها بتجرد، فمن ذلك مثلاً: دور مجتمع الحرائر من النساء ودور مجتمع الإماء (الجواري) كما ينبغي البحث عن دور المرأة في المجتمع الجاهلي عموماً ـ قبل الإسلام ـ وبعده ونسبة اضطهاد المرأة في مجتمعنا العربي وشيوعه، وهل كان في أماكن ومجتمعات معينة دون أخرى، وكم هي نسبة سطوة المرأة وهيمنتها، إذ أننا لا نستطيع إغفال دورها في كلا المرحلتين: الجاهلية والإسلامية.. وما هي الإجابة الحقيقية على ملك بلقيس ملكة سبأ في اليمن، وملك الزبّاء في تدمر، وما سبب وأد الفتيات وما مدى انتشار تلك الظاهرة.

كما لا يمكننا أن نسلم ـ أمام الوقائع والحقائق التاريخية ـ بما بات يصور في أن المرأة كانت قصيرة الباع قليلة الشأن ضعيفة الحول، وإلا عددنا ممن ينظرون بعين واحدة..

ولعل الكثير قد خفي عنه المواضيع المطروحة في شأن المرأة في موروثنا التاريخي والأدبي والإسلامي فمن ذلك مثلاً:

أخبار النساء، أشعار النساء، حقوق الإناث، تاريخ النساء، أعلام النساء،

أحكام النساء، المتعبدات والصالحات من النساء، عجائب النساء، تعليم البنات، المحدثات من النساء، أدب النساء، نعوت النساء، بلاغات النساء، محاسن النساء، نباهة النساء، ذم النساء، مكائد النساء، عشرة النساء... وغير ذلك

وبين أيدينا كتاب المرأة في أدب العصر العباسي الذي يلقي الضوء على أدب المرأة ومبلغ علمها ومدى تفاعلها وتأثرها وتأثيرها في مجتمعها في الفترة العباسية، اختاره مركز زايد للتراث والتاريخ كأحد الأبحاث والمصادر الجامعة في موضوعه، ليقدمه للقارىء والباحث عونا له وإثراء لمكتبته...

والله ولي التوفيق..

د. حسن محمد النابودة

مدير المركز

المقدّمة

. . . وبعد. . . فليس من شك في أن دراسة المرأة في وقت اشتد فيه الحرص على حسن إعدادها، وعهد أولى المرأة الكثير من الاهتمام لإيمانه بعمق أثرها في البناء والتقدم، ولاعتقاده بأن المجتمع لا يكون قوياً رصيناً إلا إذا نهض بنصفيه المتكاملين. . . يأتي مظهراً من مظاهر الانسجام والتلاحم بين الماضي والحاضر. . ودليلاً على أن تقويم الحاضر وتطويره لا يمكن أن يتم دون وقوفنا على جوانب الضعف والقوة في الماضي لنتجاوز عوامل الضعف ودواعيه. . ولنأخذ بأسباب القوة ونحسن التقدم في مسيرة البناء.

من هنا جاء اختياري لموضوع بحثي (المرأة في الأدب العباسي). . وما إن وقفت أمام الموضوع حتى تمثلت في ذهني الدوافع التي شدتني إلى الحرص على العمل فيه وهي: ـ

أولاً: تصويب الرأي القائل بأن العصر العباسي كان بجملته عصراً شمله تيار التحلل والتفسخ، وأن هذا التيار قد لف المرأة بصورة عامة حتى جعل منها هذه الصورة التي نقلها أكثر شعراء العصر اشتهاراً أمثال بشار وأبي نواس وغيرهما. ذلك أن الصورة التي أشيعت كانت في الغالب صورة الجواري الأجنبيات لا صورة الحرائر العربيات. . فقد كان للحرائر في الأسرة وفي المجتمع شأن آخر. . وكانت لهن سيرة أخرى عرضها لنا عدد من أدباء العصر وشعرائه في صورة مشرقة وأحوال محمودة في الأسرة أو في المجتمع. .

ثانياً: الكشف من خلال الأدب والتاريخ عن جوانب تعزز دور المرأة وتكشف عن الممارسات التي كانت تقوم بها في الثقافة والدين والأعمال والسياسة. . وعرضها بشكل يؤكد فاعلية المرأة في المجتمع

وحسن بلائها في التطور الحضاري.

ثالثاً: الحرص على تقديم خدمة أمينة للتراث بالكشف عن جوانب مهملة مغفلة تتناول أدب المرأة، وإظهار معالمه المجهولة وتنظيم أشتاته المتناثرة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ والأخبار والسير لإبراز دور المرأة في الأدب ومساهمتها فيه ولأمحو شيئاً من الصورة المشوهة التي رسمها البعض لها على أنها قاصرة العقل ضعيفة الإدراك محدودة القابلية، ولأبين من خلال النماذج الأدبية أنها كانت لا تقلّ عن الرجل في القدرة على الإبداع فيما لو توفرت لها الظروف الثقافية والاجتماعية وأتيحت لها الفرص لكشف قابلياتها وقدراتها.

وربما كنت أول من تناول دراسة المرأة في الأدب في العصر العباسي في بحث موسع مستقل..

فقد كتب الدكتور شوقي ضيف بعض الملاحظات المفيدة عن الحرائر والجواري[١] في العصر العباسي الأول، وأفرد فصلاً للحديث عن الرقيق والجواري والغناء. كما خصص الدكتور مصطفى الشكعة[٢] الفصل الخامس من الباب الرابع لدراسة شعر النساء وجعله في قسمين، الأول لشعر الحرائر والثاني لشعر القيان.

ويعتبر بحثي هذا امتداداً للدراسات التي قام بها كل من الدكتور أحمد محمد الحوفي في كتابه: (المرأة في الشعر الجاهلي) والدكتور علي الهاشمي في كتابه الموسوم بـ (المرأة في الشعر الجاهلي).

وسار الدكتور مصطفى جاووك قليلاً في دراسة المرأة فتناول دراسة (المرأة في الجزيرة في القرن الأول الهجري).

---

(١) العصر العباسي الأول ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي.

وكان لزاماً عليّ قبل أن أتناول دراسة المرأة في الأدب، أن أقدم لها بتمهيد عن (المرأة في العصرين الجاهلي والإسلامي)، ولقد اكتفيت خلال ذلك ببعض الإشارات والملاحظات العامة التي تكشف عن منزلة المرأة في المجتمع وعن أثرها فيه.

ثم تناولت بشيء من التفصيل استعراض أحوالها في المجتمع (المرأة في المجتمع العباسي) وقد وقفت عند التأثير الذي أثرت به السبايا والجواري على المجتمع بصورة عامة والانتكاسة التي منيت بها المرأة في ذلك العهد نتيجة لتغلغلهن في أكثر جوانب المجتمع ولشيوع الكثير من مظاهر التحلل والتفسخ.

وقد استعرضت بعض المواقف التي تصدت للحد من تغلغل الأعاجم في العصر الأموي ثم في مطلع العصر العباسي.. حتى أفلت زمام الأمر حينما صار تيارهم أعنف من أن يحد أو يقضى عليه.. فأثر ذلك في تحديد بعض المظاهر والمواقف تجاه المرأة الذي أدى إلى المبالغة في عزل الحرائر وحجبهن عن المجتمع.

على أني لم أغفل الإشارة إلى أن المجتمع العربي الذي طفح بذلك الفيض الغزير من الإماء والجواري كان من الممكن أن تبتذل المرأة فيه إلى درجة كبيرة لولا النظرة الإنسانية ولولا تلك التنظيمات الاجتماعية التي استنها العرب لحفظ حقوق هذا الصنف من النساء، رغم أنه ميز الحرائر وحفظ لهن المكانة والحقوق فلم يجز للرجل أن يتزوج جارية وعنده حرة ويجوز له العكس.. وأباح ملك اليمين وحدد لملك اليمين قواعد وتنظيمات شرعية واجتماعية فقد كان للرجل أن يملك منهن ما يشاء بماله الخاص ولا يجوز له أن يقرب ملك زوجته أو ملك أحد أبنائه.. أو إخوته أو جاره أو صاحبه.. وفي كتب الأدب والأخبار والفقه والتاريخ إشارات كثيرة توضح لنا ذلك..

ولا شك في أن العرب قد أحسنوا التصرف بذلك الفيض الزاخر من النساء.. ورغم ما ظهر من النتائج السلبية لكثرة الإماء والجواري إلا أن العلاج لتلك الظروف في حينها كان سليماً وجيداً إلى حد بعيد.

وكان من المفيد ونحن ندرس المجتمع أن نقف وقفة قصيرة عند الحالة الثقافية.. وقد بينت الحالة الثقافية للحرائر والجواري واستعرضت عدداً منهن مبينة المجال الثقافي والاجتماعي الذي برزن فيه..

كما عرضت للحالة الاقتصادية لهن، واستعرضت أحوالهن ومجالات كسبهن وأعمالهن.. وبينت أن المرأة كانت تتمتع في كثير من الأحوال بالاستقلال الاقتصادي وبالحرية في التصرف بأموالها.. ووقفت وقفة مناسبة عند الأعمال والمهن التي مارستها المرأة في ذلك العصر.

وعرضت بعد ذلك إلى الأدوار السياسية التي قامت بها المرأة منذ بدء الدعوة العباسية سواء في الثورات، أو في المواقف الحربية التي شاركت فيها. ولقد عمدت إلى استقصاء الأدوار التي قامت بها الحرائر في السياسة والتي كانت تتصف في أغلبها بالحكمة وبعد النظر وتتسم بالإيمان والأصالة في التفكير، وميزت بين أدوارهن في البناء وبين الأدوار التي قامت بها الجواري والقهرمانات ممن تسلمن مسؤوليات مباشرة وكانت لهن مكانة مرموقة في قصور الخلفاء، في إشاعة الفوضى والاضطراب والوهن في كيان الدولة العباسية الأمر الذي آل بها أخيراً إلى الاضمحلال والسقوط.

ويسير البحث بعد ذلك في مسارين كبيرين: المسار الأول منهما هو صورة المرأة في الأدب.. وبالنظر لسعة هذا المسار وتشعب أطرافه فقد جعلته في بابين: الباب الأول منهما درست فيه الحرائر (المرأة في

الأسرة) وضم خمسة فصول، كان الفصل الأول عن (صورة الابنة في الأدب) بينت فيه المواقف المختلفة منهن في كرههن والتهنئة بموتهن ومحبتهن والتهنئة بولادتهن وفي مواساتهن والإشفاق عليهن ورثائهن وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية التي تباينت في المجتمع العباسي.. وكان الفصل الثاني عن (الأم في الأدب) تناولت فيه مكانة الأم في النفوس من خلال ما ورد من ذلك في أدب العصر، وكانت مواقف مختلفة متباينة.

أما الفصل الثالث فقد درست فيه (الزوجة في الأدب)، وعرضت فيه لأحوال الزوجة في علاقاتها بالزوج من حب يتمثل بمدحهن أو تبادل المودة معهن أو برثائهن بعد موتهن ومن كره يتجلى في الخصومات التي تقع بينهما، وفي ذمهن أو طلاقهن وقد بدت صورة تلك المواقف واضحة في النماذج الشعرية والنثرية التي أوردتها.

وكان الفصل الرابع عن (الأخت في الأدب) تناولت فيه مكانة الأخت وعرضت لنماذج توضح ذلك سلباً أو إيجاباً.

أما الفصل الخامس فقد كان عن (الحبيبة) وغالباً ما كنا نراها ابنة العم أو إحدى القريبات من الحرائر.. واتسم هذا النوع من الغزل بالحرائر، بالعفة، وكانت الحبيبة غالباً منيعة شريفة في حسبها ونسبها وفي سلوكها وخلقها.. وذلك ما بدا لنا من خلال النصوص التي استعرضناها.

أما الباب الثاني فقد جعلته معرضاً لصورة الجواري في الأدب وكانت في أكثر ما ظهر لنا صورة المخلوق الجميل الذي ملأ قلوب الشعراء وحرك عواطفهم فتوسعوا في الغزل وتعددت موضوعاته لوجود الحقائق في أوساط الجواري التي أمدت بسيل من المواقف أغنت شعر الغزل ومعانيه.

وكان الغزل في أكثره صورة مترامية الأطراف تعكس لنا أحوال الجارية في علاقاتها وصفاتها وأحوالها. .

ومهدت للباب بالحديث عن العشق وأحاديث الخاصة وآرائهم فيه مبينة أنه كان من الظواهر التي تجلت بوضوح في عصر الحضارة والثقافة والفن والجمال، ثم جعلت الباب على أربعة فصول، الفصل الأول عن (الجواري والشعراء) تناولت البحث فيه عن الصورة التي أظهرها شعراء العصر للجارية. . ووقفت عند بعض صور العفة متمثلة في الغزل العفيف لعدد من شعراء العصر ممن عرف بالشرف والتقوى والعفة. . كما ذكرت بعض ومضات للعفة لدى بعض شعراء العصر الماجنين كبشار وأبي نواس مع بعض العفيفات من الجواري. ثم وقفت عند نوع آخر من الجواري ممن عرفن بالتقلب والخيانة والتحول، واستشهدت ببعض النماذج الشعرية لذلك. وعرضت بعد ذلك لنوع آخر من الجواري، هن الساقيات وما جاء في الشعر من وصف لجمالهن وملابسهن.

ولما كان لجواري القصور آثار معينة في الأدب فقد تناولت عرض أحوالهن وعلاقاتهن وأثرهن في الفصل الثاني (الجواري والخلفاء) وأوردت فيه نماذج عديدة من غزل الخلفاء بالجواري ووصفهم لهن كما أوردت أمثلة من مراثيهم فيهن وحنينهم إليهن وأسفهم على فوات الأنس والبهجة والسرور بعدهن. . مما رفد الأدب بجانب من شعر الخلفاء في التعبير عن عواطفهم وأحاسيسهم.

ثم تناولت صنف القيان الذي أثر في المجتمع بالكثير من المؤثرات التي تجلت في الأدب. . بينت أثرهن في الشعر والنثر في مختلف الأغراض. حيث وقف الأدب جزءاً كبيراً منه في ذلك العصر لوصف القيان أو التغزل بهن أو هجائهن أو رثائهن. . وقد عرضت لنماذج نثرية للجاحظ والوشاء وغيرهما، وشعرية لبشار وأبي نواس وابن

الرومي وابن المعتز وغيرهم. وذكرت ذلك مفصلاً في الفصل الثالث.

أما الفصل الرابع فقد استفدت فيه من الغزل الحسي والوصف المادي للجواري لإبراز المعالم الحضارية التي تجلت في مظاهر جمال المرأة وزينتها.

وتناولت في هذا الفصل معايير الجمال مع مقارنتها بها في العصور السابقة، ثم تناولت المظاهر الجمالية للمرأة في شعرها وملابسها وفي تزينها بأنواع الزينة المختلفة من خضاب وكحل وطيب وحلى وغيرها.. وقد استطعت في هذا الفصل أن أكشف عن المستوى الحضاري الذي بلغته المرأة في هذا العصر، وأن أشير إلى أن اصطناع وسائل التجميل كان لا يقل في إتقانه والبراعة فيه عن أفضل مختبرات التجميل في العصر الحاضر.

أما المسار الثاني من البحث، فقد تناولت فيه دراسة أدب المرأة، وأفردت الباب الثالث له وجعلته في خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول منه دراسة أدبها في المجالس والمناظرات والمطارحات، وقد أثبتت المرأة براعة وتفوقاً في هذا المجال شهد بهما فحول شعراء العصر.

وكان الفصل الثاني عن أدب المرأة في الرسائل والتوقيعات.. وشاع هذا النوع من الأدب في العصر، فكثيراً ما كان المراسل أو المراسلة يجعلان المعنى الذي يريدانه في رسائلهما شعراً أو قطعة أدبية بليغة...

واتسمت رسائل الجواري إلى أصحابهن بأن أكثرها كانت في الدعوة إلى اللقاء أو في العتب على فراق أو بث الشوق والهوى.

أما رسائل الحرائر فكانت في أكثر ما ورد منها لأغراض جدية كالموعظة والإرشاد أو كإبداء رأي في موقف من المواقف أو مهمة

المهام أو عرض مشكلة اللهم إلا ما جاء لعلية بنت المهدي في غير الأغراض الجادة.

وتمثل التوقيعات إجابات مقتضبة بليغة عن بعض الرسائل وصلنا القليل منها للحرائر والجواري.

وكان الفصل الثالث لدراسة أهم الأغراض الشعرية للمرأة، وتناولت في الفصل دراسة المديح والهجاء والرثاء والغزل والزهد.

أما الفصل الرابع فقد عرضت فيه لأدب الإعرابيات بفنونه المختلفة وأغراضه المتعددة التي تلائم الحياة البدوية وتتلون بألوانها...

وجعلت الفصل الخامس من الباب الثالث لدراسة الملامح الفنية لأدب المرأة واستعرضت بإيجاز أهم الملامح التي يمكن للباحث في أدب المرأة أن يميزها فيه..

وبالنظر لسعة الموضوع وتشعب أطرافه، فقد كان عليّ أن أطلع على أهم ما كتب في التاريخ عن النساء.. وكثيراً ما كنت أجد فيه مادة خصبة تمدني بالمعرفة في إدراك مكانة المرأة في المجتمع ودورها فيه كما تمدني بفيض مفيد في أدبها..

وقد استفدت من تاريخ الطبري في مواضع كثيرة، إذ كان يروي لنا أخبار بعض النساء ضمن ما يرويه من أخبار، أميناً في نقلها ملتزماً بتأديتها على نحو ما أديت إليه وكان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين الذين قالوا إن سياقة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد.

أما المسعودي (ت٣٤٦هـ) فهو كاتب موسوعي كبير ويعتبر من أكثر المؤلفين ثقافة واطلاعاً.. ويعتبر كتابه (مروج الذهب) من أهم المصادر التي يعتمدها المؤرخون في سرد الحوادث والأخبار.. ثم هو بعد ذلك

معين لا ينضب لدراسة الأحوال الاجتماعية وتصوير الحياة التي يستعرضها.

أما في الأدب والأخبار فقد كان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني من أهم الكتب التي أفادتني في البحث، وقد ظهر لنا أبو الفرج فيه إخبارياً يحرص على الرواية والنقل، واستطاع أن يؤرخ جانباً من جوانب الحياة الفنية والاجتماعية، ونقل لنا جانباً كبيراً من أدب النساء ضمن ما نقله عن أدب العصر بصدقه وكذبه وجيده ورديئه.. وهي ما يشتمل عليها كل عصر رغم غلبة جانب الإمتاع والمؤانسة على مرويات الكتاب وأخباره.

واستفدت من كتب الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في الوقوف على بعض الحقائق الاجتماعية والأدبية ولا يمكن لباحث يبحث في العصر العباسي أن يستغني عما كتبه الجاحظ في كتبه ورسائله.

ويقال مثل ذلك عن ابن المعتز في طبقاته والصولي في أوراقه وأخبار أولاد الخلفاء، حيث سلك الأول في أخبار الشعراء المحدثين والثاني في أخبار الخلفاء من بني العباس وشعرائهم ووزرائهم، وذكر الصولي غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه وكان محظوظاً في العلم ممدوداً بالمعرفة.

وأفادني التنوخي أبو علي المحسن من كتبه كثيراً وبخاصة في كتابه نشوار المحاضرة وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه ينفرد بالكثير من الأخبار والحكايات، لأن المؤلف لم يعتمد فيه على المنسوخ المدون الذي كان يتردد في أكثر كتب العصر كالبيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبدربه.. وغيرها والتي تتفق في الكثير من أخبارها ومروياتها لاتفاق مصادرها.

أقول: إنه لم يعتمد على المنسوخ، وإنما اعتمد على سماع

الأخبار ممن عرف بالمذاكرة وحفظ الحكايات. . ولهذا قال في مقدمته حينما ذكر دوافعه إلى تأليف كتابه النشوار أنه لما قدم بغداد عام ٣٦٠ هـ وجد أنها قد أصبحت خالية من كثير من الشيوخ الذين عرفوا بالمذاكرة وحفظ الأخبار والحكايات فإن لم يبادر إلى تسجيلها أصابها التحريف أو الاندثار باندثارهم[١]. . إضافة إلى ما دونه لأبناء عصره من نظم ونثر وعلم وفن مما هو حري بالتسجيل والحفظ.

وسار المتأخرون على نهج المتقدمين واستفادوا من كتبهم وما فيها، ولهذا رأينا أن ما كتبه التنوخي أو الأصفهاني أو ابن المعتز أو الصولي أو ابن طيفور، أو ابن مسكويه. يكون جزءاً لا يستهان به من كتب المتأخرين من أمثال ابن الجوزي في مؤلفاته المنتظم والأذكياء وأخبار الحمقى والمغفلين وذم الهوى وتلبيس إبليس، أو ياقوت الحموي في معجميه الأدباء والبلدان، أو ابن خلكان في وفياته. . .

ومن الكتب المتأخرة التي أفادتني كثيراً كتب السيوطي (ت٩١١هـ) وهو وإن كان متأخراً، إلا أنه أحسن الأخذ عن المتقدمين ونوع مصادره وعددها. . فقد استفاد في كتابيه اللذين حفظا جزءاً مهماً من أدب النساء (المستظرف من أخبار الجواري) و (نزهة الجلساء في أشعار النساء) من كتب مهمة ذات أثر كبير، نذكر منها كتاب النساء الشواعر لابن الطراح (ت٧٢٠هـ) وتاريخ بغداد للحافظ محب الدين بن النجار (ت٦٤٣هـ) واليتيمة للثعالبي والوزراء والكتاب للجهشياري وأخبار النساء لأسامة بن منقذ وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز والأغاني والإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ).

وقد استفدت بصورة مباشرة من دواوين الشعراء. . وكنت لا أمر بغرض من الأغراض أو قصيدة من القصائد دون إطالة النظر فيها ودون

---

(١) تنظر: مقدمة النشوار، عبود الشالجي.

تمحيصها لآخذ منها ما يفيدني في جانب من الجوانب التي تناولت دراستها في البحث، وهي كثيرة.

وربما كان الدكتور صلاح الدين المنجد من المعاصرين من أكثر من كتب في النساء وأدبهن في العصر العباسي وكشف عن نواح مهمة كانت مبهمة، فقد حقق كتابي السيوطي: (نزهة الجلساء في أشعار النساء) و (المستظرف من أخبار الجواري) كما ألف في هذا المجال كتبه الموسومة بـ (جمال المرأة عند العرب) و (الحياة الجنسية عند العرب) و (بين الخلفاء والخلعاء) وقد أفادتني كثيراً في رفد البحث بالكثير من المعلومات وهدتني إلى أصولها.

تلك هي أهم المصادر والمراجع التي أفدت منها إلى جانب مصادر ومراجع ثانوية سأكتفي بذكرها في ثبت المصادر والمراجع التفصيلي مشيرة إلى طبعاتها التي اعتمدتها ليستفيد منها من يريد أن يسلك الطريق.

ولا أشك في أن هذا المجهود الذي استغرق مني سنوات من العمل غير قليلة لا يزال في حاجة إلى المزيد من الدرس والتقويم وإلى الكثير من التمحيص والمتابعة ولا أظنني في عملي هذا قد انتهيت وإنما أعتقد كل الاعتقاد أنني أصبحت قادرة على أن أبتدىء وأن أصل إلى ما فيه خدمة تراثنا العربي..

وفق الله العاملين بصدق وسدد خطى المخلصين إنه سميع الدعاء.

واجدة الأطرقجي

جامعة بغداد/ كلية التربية

التمهيد

١ ـ صورة المرأة في المجتمع في العصرين الجاهلي والإسلامي

قامت عند الإنسان منذ أقدم العصور عقائد صورتها الأساطير والخرافات النابعة من مصادر متعددة وكان لهذه العقائد تأثير عميق في حياة المرأة ومكانتها الاجتماعية، فقديماً بحثوا في هل للمرأة نفس وهل لها حق في الحياة إذا ما أراد أبوها أو زوجها لها الموت. .؟ والتاريخ حافل بالأخبار التي تحدثنا عن وأد البنات ودفن الزوجات وهن على قيد الحياة مع جثث أزواجهن، وفي هذه دلالة على استبداد الرجل بالمرأة وتسلطه عليها. . ولا شك في أن يؤدي هذا وغيره إلى تخلف المرأة عن النشوء الطبيعي والتطور، فوهن جسمها وضعف ذكاؤها حتى أصبحت المخلوق العاجز الجبان. .

ولما كانت عزلاء من كل سلاح، دفعتها الحياة في الكثير من المجتمعات إلى التسلح بالمكر والخداع وبالحيلة والكيد، واستغلال الضعف والدموع وهي كلها حيل العاجز المغلوب. . فهل رأينا منتصراً يبكي؟ أو حراً يتذلل وقوياً يحتال أو يخادع. . فيسلك طريق الظلام وقد أتيح له طريق النور؟

وربما كان حظ المرأة العربية في المجتمع العربي القديم أفضل بكثير من حظها في مجتمعات الفرس أو الرومان أو اليونان(١).

إلا أن التاريخ لم يعدم ومضات قوية في بعض العصور. . ومضات كشفت نبوغ عدد غير قليل من النساء في السياسة وتدبير الملك وفي الشعر والخطابة والحكمة وغيرها، وما ذاك إلا لتوفر الظروف المساعدة على نمو مواهبها واستعداداتها الفطرية، ولأن الفرص كانت مواتية

---

(١) ينظر المرأة في الشعر الجاهلي (الحوفي) ص١٨ ـ ٦٥، ٥٤٩ ـ ٥٥٤).

لبروزها في الميادين المختلفة، وربما ساعدها الرجل في حالات نادرة كهذه فأخذ بيدها لترتفع إلى المستوى العالي الذي وصلت إليه.

لقد كانت المرأة تابعة للرجل يوجهها الوجهة التي يريدها وقد يعلو شأنها ويقوى مركزها ويعظم أمرها حتى تستطيع أن توجه الرجل ذاته والتاريخ العربي في جميع أدواره وعصوره حافل بالكثير من أمثال هذه المواقف.

لقد صور لنا القرآن الكريم[1] عظمة الملكة بلقيس[2] وبعد نظرها وحسن تدبيرها واعتمادها الشورى في إدارتها للبلاد.

ووردت في الشعر الجاهلي إشارات تشيد وتفخر بالملكة بلقيس، قال أسعد تبع في فخره[3].

ولدتني من الملوك ملوك   كل قيل متوج صنديد
ونساء متوجات كبلقيس   وشمس ومن لميس جدود

ويظهر أنها كانت على جانب من العظمة والثراء؟.. ونسب إلى تبع قوله في وصف عرشها[4]:

عرشها رافع ثمانون باعا   كللته بجوهر وفريد
وبدر قد قيدته وبالياقو   ت بالتبر إيما تقييد

---

(١) القرآن الكريم سورة النمل الآية ٢٣ ـ ٤٤.

(٢) بلقيس: هي الملكة بلقيس بنت ذي شرح ملكة سبأ وكانت مشهورة بالعقل الراجح والرأي الصائب، خلدت في التاريخ صفحة زاهية تحدثنا عن حياتها وأعمالها العظيمة التي قامت بها خلال حكمها فتركت أثراً حميداً في الحضارة والعمران (أعلام النساء ج١ ص١٤٢).

(٣) المرأة في الشعر الجاهلي (الحوفي) ٥٢٧ عن منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري ٨.

(٤) المرأة في التاريخ والشرائع ص١٠٨ (طبع بيروت ١٩٢١).

وصور لنا التاريخ زنوبيا[١] ملكة تدمر التي بسطت رقعة مملكتها حتى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ومصر. ومن الملكات العربيات اللائي يذكرهن التاريخ: العمردة بنت الأعشى (وكانت أعظم تأثيراً من إخوتها في الناس، وأعمق نفوذاً لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها في تدبير شؤون الحكم[٢]. وماوية الغسانية التي تولت الحكم في سيناء بعد زوجها في أواسط القرن الرابع بعد الميلاد[٣].

أما في العصر الجاهلي فقد تجلت شخصيات نسائية في مختلف المجالات سواء في الفضائل الخلقية كالكرم والشجاعة والوفاء والعفة أو في القدرات الأدبية والعقلية..

ففي كتب الأدب أخبار عن والدة حاتم الطائي التي كانت من أسخى الناس حتى اضطر إخوتها إلى الحجر على أموالها خوفاً من إضاعتها.

وعن ابنته سفانة التي كان يعطيها من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها حاتم: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكي وإما أن أمسك وتعطي فإنه لا يبقى على هذا شيء.. فقالت: والله لا أمسك أبداً، وقال أبوها: وأنا والله لا أمسك أبداً. قالت فلا نتجاور، فقاسمها ماله وتباينا[٤].

وممن اشتهرن بالشجاعة دختنوس[٥] ابنة لقيط بن زرارة الدارمي

---

(١) زنوبيا: ملكة جليلة ذات رأي وحكمة وعقل وسياسة ودقة نظر وفروسية وشدة بأس وجمال فائق اعتلت أريكة الملك باسم ابنها وهب اللات بعد قتل زوجها اذينة (أعلام النساء ج٢ ص١٢٩).

(٢) تاريخ حضرموت السياسي ٧٤.

(٣) المرأة في الشعر الجاهلي (الحوفي) ٥٣٤ والمرأة في التاريخ والشرائع ١٠٢، ١٩٢١).

(٤) أعلام النساء ٢/١٩٦.

(٥) أعلام النساء ١/٤٠٥ وبلاغات النساء ص٢٠٣.

وكبشة[١] بنت معد يكرب، وعفرا[٢] بنت عقال.

ومنهن من اشتهرت بالوفاء والشهامة، فقد ذكر عن فكيهة بنت قتادة بن مشنوء خالة طرفة بن العبد أن السليك بن السلكة قد استجار بها فقامت دونه حتى نجا فقال[٣] فيها:

لعمر أبيك والأنباء تنمي ... لنعم الجار أخت بني (عوارا)[٤]
من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لإخوتها شنارا
كأن مجامع الأرداف منها ... نقى درجت عليه الريح هارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي ... ويتبع الممنّعة النوارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخمارا

ومما يدل على التزام المرأة بعزة النفس واتصافها بالأنفة ما عرف عن أم عمرو بن كلثوم، وأخبارها معروفة في الأدب العربي تؤكدها معلقته المشهورة.

وهناك عدد من النساء عرفن بالفطنة والدهاء والفصاحة مثل هند بنت الخس[٥] التي سجل لها الأدب مواقف بارعة في سرعة البديهة وحسن الجواب وبلاغة القول وحدة الذكاء[٦]، وفاطمة بنت الخرشب[٧] التي عدت من النساء المنجبات في الجاهلية وسئلت عن (عمارة) أحد أبنائها فقالت فيه: لا ينام ليلة يخاف ولا يشبع ليلة يضاف، وقالت في

---

(١) أعلام النساء ٤/ ٢٣٤.
(٢) أعلام النساء ٣/ ٢٨٨.
(٣) الأغاني ٢٠/ ٣٥٥ وأعلام النساء ٤/ ١٨٠.
(٤) في البيت إقواء.
(٥) هند بنت الخس: شاعرة خطيبة ذات فصاحة ورجاحة عقل (أعلام النساء ٥/ ٢٣١).
(٦) بلاغات النساء ص٥٩.
(٧) أعلام النساء ٤/ ٤٨.

(الربيع): لا تعد مآثره ولا يخشى في الجهل بوادره، وقالت في أنس: إذا عزم أمضى وإذا سئل أرضى وإذا قدر أغضى. وقالت في الآخرين أقوالاً بليغة لم تحفظ عنها[1].

وقد نبغ في الجاهلية والإسلام شاعرات أضاعت الأزمان الكثير من أشعارهن، اللهم إلا ما ورد عرضاً في بعض الأخبار.. ومما يؤكد هذا أن أبا نواس الشاعر العباسي (القرن الثاني للهجرة) كان يفخر بأنه يروي لستين شاعرة.. فممن اشتهرن بقول الشعر خرنق[2] بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه، وجليلة[3] بنت مرة أخت جساس الشيباني، وخرقاء[4] العامرية، وليلى الأخيلية[5].

ورغم ما لاحظناه من تفوق المرأة في مجالات متعددة ورغم أننا وجدنا فيهن الملكة والمحاربة والشاعرة والحكيمة إلا أنها كانت مستضعفة ممتهنة في أهم علاقة تربطها بالرجل وهي علاقة الزواج.. واستعراضنا لأنواع الزواج في الجاهلية وأحكام كل منها. ولحرية الرجل المطلقة في تعدد الزوجات يؤكد الاضطراب وعدم التوازن في تقييم منزلة المرأة.

يضاف إلى هذا ما نعرفه عن امتعاض بعض قبائلهم وكرههم لولادة البنات حتى لقد كانوا يستترون إذا ما ولدت لهم بنات حياء من القوم وكأنهم اقترفوا ذنباً وارتكبوا عاراً.. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾[6].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) خرنق: أعلام النساء ١/٣٤٨.

(٣) جليلة: أعلام النساء ١/٢٠١.

(٤) خرقاء: أعلام النساء ١/٣٤٦.

(٥) بلاغات النساء ص١٨٥.

(٦) سورة النحل، الآية ٥٨.

إلا أنهم كانوا يميزون الوالدة ويختصونها بالإكرام، فالمرأة لم تكن ذات شأن حتى تصير أمّاً فيعلو مقامها.. ولذلك (لم يكونوا يعزون بالمرأة بعد موتها إلا أن تكون أمّاً)[1].

وكانت الأم مجالاً مهماً للفخر والمدح أو للمهانة والهجاء فقد يمدح الشخص بأنه (ابن فلانة) التي شرفت قومها بخلقها وشرفها وسيرتها وعقلهاومكانتها ولا نزال في عصرنا هذا يفخر الرجل فينا بأن يقول: (أنا ابنك يا فلانة).

ولهذا وجدنا ظاهرة النسبة إلى الأم والتكني بها، فكان الكثير من رجالات العرب وشعرائهم يتكنون بأسماء أمهاتهم فالمناذرة نسبوا إلى أمهم (ماء السماء) وعمرو بن المنذر ملك الحيرة كان يقال له عمرو بن هند.. ولا نشك في أن لكل من أمهاتهم شخصيتها الفذة ومواقفها الحميدة التي أدت إلى الافتخار بها والانتساب إليها.

وأعتقد أن من الخطأ أن نتوسع في هذا فنرى أن النسبة إلى الأم تعني الرفع من منزلة المرأة دائماً أو أنها موطن للافتخار لا محالة..، إذ ربما كانت النسبة إلى الأم مدعاة للذم والهجاء أحياناً فإن قيل للشخص (ابن فلانة) فليس معنى هذا أن أمه مشرفة إياه لا شك في ذلك وأن نسبته إليها لرفع منزلته ومنزلتها.. فقد يكون العكس صحيحاً أو قد يكون ممن لا يعرف له أب وفي هذا مدعاة للذم كذلك.

وقد ألفت الكتب الكثيرة في شعرائهم وأدبائهم وشخصياتهم الذين نسبوا إلى أمهاتهم وهو ضرب من التأليف طريف عالجه إمام من أئمة الأخبار والأنساب ورواية الشعر وهو محمد[2] بن حبيب بن جعفر

---

(١) العقد الفريد ج٢ ص٢٦٤.

(٢) قال ياقوت (من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب ثقة مؤدب ولا يعرف أبوه وحبيب أمه).

وكتاب آخر في الباب نفسه لمجد الدّين بن يعقوب الفيروز آبادي[١].

ولا بد لنا إذا ما تكلمنا عن المرأة ومكانتها في المجتمع أن نفصل بين المرأة الحرة والمرأة الأمة لأن لكل منهما مكانة تميزها.

فالمرأة الحرة لدى الجاهليين محترمة محصنة يعترف الرجل بأولادها أما المرأة السبية فهي أحط منزلة وأقل قدراً وولدها هجين على كل حال سواء أكانت أمه عربية أم غير عربية وسواء أكانت الأم بنت رئيس شريف أم بنت رجل من عامة الناس[٢].

ولعلهم في هذا يرجعون إلى تفوق الآسرين على قوم السباء بالغلبة، يضاف إلى ذلك عرف الجاهلية في إشاعة السبايا وعدم إحصانهن[٣]، قال قيس بن الخطيم في ذلك:

فلست لحاصن إن لم ترونا نجالدكم كأنا شرب خمر[٤]

واستمرت النظرة نفسها في كثير من الأحيان حتى في العصر الإسلامي إذ يقول حسان في رجل من مخزوم[٥]:

(كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء (المقدمة)).
والكتاب يضم تسعة وثلاثين اسماً لشاعر منسوب إلى أمه يبدأ بـ (ابن شعوب ص٨٣) وينتهي بـ (عمرو بن الاطنابة ص٩٦) وأكثرهم جاهليون. والكتاب هذا ضمن مجموعة نوارد المخطوطات.
ورد في كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري فصل ذكر فيه المنسوبين إلى غير آبائهم وجاء عدد منهم ممن نسبوا إلى أمهاتهم ص٢٥٨.

(١) الكتاب هو تحفة النبيه فيمن نسب إلى غير أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ويذكر فيه المؤلف واحداً وستين اسماً لمن لم ينسب إلى أبيه ويبدأ بـ (إبراهيم ابن علية ص١٠٠ وينتهي إلى يونس بن حبيب الأديب الشاعر، وحبيب أمه ص١١٠).

(٢) المرأة في الجزيرة ص١٨٤.

(٣) المرأة في الجزيرة ص٩٧.

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ص٦٠.

(٥) ديوان حسان ص١٤٣ ـ ١٤٥.

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرّغ في رماد
فأشهد أن أمك ملبغايا[1] وأن أباك من شر العباد
مهاجنة إذا نسبوا عبيد عضاريط مغالثة[2] الزناد

ولعل هذا هو الذي أدى إلى عدم الاعتراف بأولاد الإماء إلا أن يتفوق الهجين بشاعرية أو فروسية أو بموقف مشهود يدفع أباه إلى الاعتراف به، ولكنه يبقى رغم اعتراف أبيه بأبوته دون أبناء الحرائر في المنزلة، قال ابن عبد ربه[3]: (وكانت العرب في الجاهلية لا تورث الهجين) ولا تزوجه حرة[4].

وجاء الإسلام فساوى بين المسلمين جميعاً قال ﷺ: **«لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي»**[5].

وقد حرم الإسلام من الإماء ما حرم من الحرائر إلا العدد، فلا يجوز للمسلم أن يجمع بين أمتين أختين ولا يجمع بين الأمة وعمتها وخالتها ولا يستسر أمها أو ابنتها[6].

وللأمة الأم مركز يجعلها بمنزلة الحرة أثناء حياتها مع الرجل فإذا مات تحررت من الرق، ولم يجز التفريق بينها وبين أبنائها[7].

وخلاصة ما يمكن قوله أن الإسلام قد رفع مكانة المرأة بصورة

---

(١) ملبغايا: قوله ملبغايا: هو من البغايا كما يقال بلحرث أي بني الحارث.
(٢) مغالثة: أي رخو والزناد: تقول: غلث الزناد: لم يور.
(٣) العقد الفريد ٦/ ١٢٩.
(٤) المرأة في الجزيرة ٩١.
(٥) مسلم ١٥/ ٥.
(٦) البخاري فتح الباري ١١/ ١٢١.
(٧) دائرة المعارف الإسلامية أم الولد ٢/ ٦٣٥.

عامة وكانت نظرته إليها إنسانية.. فقد ساوى بينها وبين الرجل[1]، ودفع عنها اللعنة التي ألصقتها المعتقدات السابقة في أنها أغوت آدم فأخرج من الجنة، وجعلهما مشتركين في الغواية والذنب[2].

وعمل الدين الإسلامي على النهي عن التشاؤم والحزن لولادتها وحرم وأدها[3].. وكرم مقامها زوجة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[4].. وأماً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[5].

وقد حث على تعليمها وأعطاها حق الإرث أماً وزوجة وبنتاً، ونظم قضية الطلاق بما يمنع من تعسف الرجل فيه واستبداده في أمرها، فجعل له حداً لا يتجاوزه، وجعل له عدة تتيح للزوجين العودة إلى الصفاء والوئام.

وأسبغ الإسلام على المرأة مكاناً اجتماعياً كريماً في مختلف مراحل حياتها وكافة علاقاتها الاجتماعية.

ونتيجة لذلك وجدنا عدداً لا يستهان به من النساء يبرزن في المجتمع نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر السيدة خديجة الكبرى[6] زوجة الرسول ﷺ التي كانت أول من آمن بالله ورسله وساندت الرسول بنفسها وبمالها، والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله

---

(١) قال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) سورة النساء الآية: ١، وجاء في الحديث الشريف: (إنما النساء شقائق الرجال): رواه أحمد وأبو أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم/ المرأة بين الفقه والقانون ص٢٥.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٦.

(٣) سورة التكوير الآية: ٩.

(٤) سورة الروم الآية: ٩.

(٥) سورة الأحقاف الآية: ١٥.

(٦) أعلام النساء ١/٣٢٦.

عنها التي عرفت بنشاطها الديني والسياسي والتي شاركت في الفتيا وروي عنها ١٢٠٠ حديث[١] والسيدة فاطمة[٢] بنت رسول الله ﷺ التي اشتركت مع أبيها في فتح مكة وحجة الوداع وروت بعض الأحاديث عن أبيها ﷺ، والسيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنها الشاعرة التي شهرت بجمالها وأناقتها وندواتها والتي كانت تحسن نقد الشعراء والمفاضلة بينهم عن علم وذوق، ومثلها عائشة بنت طلحة الأديبة العالمة التي عرفت بجمالها وعفتها وأخبارها مع الشعراء كثيرة ولها مجلس معروف عند هشام بن عبدالملك تجلى فيه علمها أمام شيوخ أمية[٣].

وقد عرفت أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب بالفصاحة والجرأة ورجحان الرأي حتى أنها أفحمت معاوية[٤] وعمرو بن العاص ونذكر في هذا المجال الخنساء الشاعرة التي تفوقت على الكثير من شعراء زمانها.

وممن يذكر في التاريخ الإسلامي من النساء اللائي سجلت أسماؤهن على صفحات المجد والبطولة خولة بنت الأزور التي أبلت أحسن البلاء يوم أسرت النساء في موقعة (صحورا) فأثارت نخوتهن ولم يكن من السلاح معهن شيء إلا عمد الخيام إلا أنها استطاعت بشجاعتها أن تنقذ النساء من أيدي الروم وخرجت وهي تقول:

نحن بنات تبع وحمير   وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر   اليوم تسقون العذاب الأكبر

---

(١) الموسوعة الميسرة ص١١٧٤ وأعلام النساء ٣/ ٩.

(٢) الموسوعة الميسرة ص١٢٦٧ وأعلام النساء ٤/ ١٠٨.

(٣) الموسوعة الميسرة ص١١٧٥ وأعلام النساء ٣/ ١٣٧.

(٤) أعلام النساء ١/ ٢٨ والموسوعة الميسرة ص١٢٦.

ومثلها أزدة بنت الحارث بن كلدة[1] التي خاضت ساحات الوغى بكل بسالة ورباطة جأش مع نساء المحاربين الذين خرجوا للجهاد حازت النصر المبين.

وممن يذكر في مجال البطولة والشجاعة غزالة الحرورية[2] زوج شبيب بن يزيد قائد الخوارج وبطلهم. قيل إن الحجاج بن يوسف عامل بني أمية المشهور بسفك الدماء خرج مرة في جنده شاكي السلاح مستكمل العدة فعرضت له غزالة في أربعين فارساً وهو في أربعة آلاف فاختلط عليه الأمر وانخلع قلبه من الفزع وولى هارباً وفي ذلك قال عمران بن حطان متهكماً به حينما لج في طلبه:

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر تركت كتائبه كأمس الدابر

ومن المحدثات الفاضلات والمجاهدات الجليلات أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية وكانت من ذوات العقل والدين والشجاعة والخطابة حتى لقبوها بـ (خطيبة النساء)[3]. وقد بلغ من شأنها أنها أتت النبي ﷺ وهو في أصحابه فقالت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله: أنا وافدة النساء إليك أن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقتضى شهواتكم وحاملات أولادكم وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا في الجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل

(١) أعلام النساء ١/٤١.
(٢) أعلام النساء ٤/٧.
(٣) أعلام النساء ١/٦٦.

منكم إذا خرج حاجاً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفلا نشارككم في هذا الأجر؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: (هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا.. إلخ) ولعل دعوة أسماء بنت يزيد هذه هي أول دعوة إلى عدم إغفال شأن المرأة وإعطائها حقوقها من الأجر في المشاركة في الجهاد..

أما حقوق المرأة الحرة والأمة في الزواج ومكانة كل منهما في المجتمع فلا بد من الإشارة إليها بإيجاز.

لقد ظلت مكانة الحرائر في العهد الإسلامي والأموي مكانة تطغى على مكانة الجواري.. وكانت هناك بعض الأمور التي تفرق بين منزلة الحرائر والإماء[١] فالحجاب مثلاً فرض على الحرائر دون الإماء. قال الإمام فخر الدين الرازي: (وكان في الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم، فأمر الله الحرائر بالتجلبب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[٢]. قيل: يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن[٣].

ويقول القاضي البيضاوي[٤] في تفسيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يميزن من الإماء والقينات فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن.

---

(١) الحجاب: أبو الأعلى المودودي ص٣٦٨.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٥٩.

(٣) التفسير الكبير للرازي ج٦ ص٥٩.

(٤) تفسير البيضاوي ج٤ ص١٦٨.

ولهذا رأينا حرص الأمة أحياناً على التشبه بالحرة وهو أمر يصوره في الإسلام ما رواه الإمام مالك[1]: (أنه بلغه أن أمة كانت لعبدالله بن عمر بن الخطاب رآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد تهيأت بهيئة الحرائر، فدخل على ابنته حفصة فقال: ألم أر جارية أخيك تجوس الناس وقد تهيأت بهيئة الحرائر؟) وأنكر ذلك.

ولعل نظرتهم إلى الإماء وإلى أبنائهم هي التي أدت إلى حرصهم على التزوج من الحرائر من ذوات الشرف والحسب أو كما كانوا يسمونهم (عقائل القوم)، ومما يؤكد هذا ما جاء في أقوالهم وأخبارهم فمن ذلك قول عثمان[2] بن أبي العاص الثقفي لبنيه: (يا بني إني قد أمجدتكم في أمهاتكم، وأحسنت في مهنة أموالكم، ثم يقول والناكح مغترس فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين)[3].

وقيل: (إن أبا الأسود الدؤلي قال لبنيه: (أحسنت إليكم قبل أن ولدتم وبعده. قالوا: كيف أحسنت قبل الولادة؟ فقال: لأني اتخذت أمهاتكم من حيث لا تعابون به)[4].

ولما جلس عثمان بن عفان رضي الله عنه على المنبر قال: (إي أيها الناس إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وقد بعث إليكم ابن أبي سرح عبد الله بن الزبير بالفتح. قم يا ابن الزبير، قال: فقمت فخطبت، فلما

---

(١) الموطأ ج٢ ص١٣٥، المرأة في الجزيرة ص٥٠.

(٢) عثمان بن أبي العاص: صحابي من أهل الطائف، استعمله الرسول ﷺ عليها ثم ولاه عمر عمان والبحرين سنة ١٥هـ. (الأعلام ٣٦٨/٤).

(٣) البيان والتبيين ج٣ ص٢٦٧ وج٢ ص٦٧، وجاء في الأغاني ج١٢ ص٤٥ أن الوصية لغيلان بن سلمة.

(٤) محاضرات الأدباء ج١ ص٣٢٩.

نزلت قام فقال: يا أيها الناس انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن فإني لم أر لأبي بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا)[١] وذاك أن أم عبدالله بن الزبير هي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه.

(وكانوا لا يرون بأساً بأن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها)[٢] واعتبرت معاودة المرأة للزواج بعد أن تمضي عدة وفاة زوجها أو عدة طلاقها أمراً طبيعياً لا ينكره أحد. قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٣].

وهناك عدد كبير من عقائل المسلمين وسيدات المجتمع ممن عرفن بالجمال والخلق ورجاحة العقل وجزالة الرأي قد تزوجن من سادات المسلمين وسراتهم منهن عاتكة بنت زيد بن عمرو[٤] وعائشة بنت طلحة[٥] وأسماء بنت عميس[٦].

وقد تلون الأدب العربي باللون الذي يناسب هذا الوضع الاجتماعي وكثرت في كتب الأخبار والأدب أقوال الأزواج يخشون

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص٤٠٦ وج٢ ص٩٥.

(٢) رسالة القيان ص٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٣٤.

(٤) أعلام النساء ٣/ ٢٠١ تزوجها عبدالله بن أبي بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب (رضي) ثم الزبير بن العوام ثم تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب ثم تأيمت بعده فكان عبدالله بن عمر يقول: من أراد الشهادة فليتزوج بعاتكة.

(٥) أعلام النساء ٣/ ١٣٧ تزوجها عمر بن عبيدالله وعبد الله بن عبدالرحمن بن أبي بكر ثم تزوجها بعده مصعب بن الزبير وتزوجت بعد قتله عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي.

(٦) كانت أسماء قبل أبي بكر عند جعفر بن أبي طالب ثم لما قتل عنها تزوجها أبو بكر فلما مات تزوجها علي بن أبي طالب (الف باء البلوى ٢/ ٥٧٨) وينظر في ذلك ذم الهوى لابن الجوزي ص٦٤٧ ـ ٦٥٢.

على زوجاتهم أن يتزوجن بعدهم. ذكر عن الحسن المدايني أنه قال: (احتضر رجل من العرب فنظر إلى ابنه يدب بين يديه واسمه معمر وأم الصبي عند رأسه جالسة فقال:

وإني لأخشى أن أموت وتنكحي ويقذف في أيدي المراضع معمر
وترخى ستور دونه وقلائد ويشغلكم عنه خلوق ومجمر[1]

ويروى[2] عن عبدالله بن عكرمة قال: دخلت على عبدالرحمن بن الحارث بن هشام أعوده فقلت له: كيف تجدك فقال: أجدني والله للموت وما موت علي بأشد من أم هاشم أخاف أن تتزوج بعدي فحلفت له أنها لا تتزوج بعده فغشي وجهه نور ثم قال: : (فلينزل الموت متى شاء).

وكما أن الرجل يهتم كثيراً باختيار الزوجة الموافقة.. كان الآباء حريصين على اختيار ذوي العقل والشرف لبناتهم وأن يكونوا موسرين من عقل ودين على حد قولهم.. (قيل للحسن: فلان خطب إلينا فلانة قال: أهو موسر من عقل ودين قالوا: نعم، قال: فزوجوه)[3].

وعن الأصمعي أن رجلاً مكثراً من مال مقلاً من عقل خطب ابنة رجل فقير، فلما شاور فيه أجيب (بأن لا تفعل ولا تزوج إلا عاقلاً ديناً فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها)[4].

وكانوا كثيراً ما يحسبون لرأي الفتاة حساباً في موافقتها على الزواج فيأخذون رأيها في خطابها فيعددون لها الحسب والنسب ويذكرون المكارم والصفات ويصفون الأخلاق والطباع..

---

(١) الف باء ٢/ ٤٤٩.

(٢) الف باء ٢/ ٤٤٩.

(٣) العقد الفريد ٦/ ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه.

جاء عن هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان أنها طلبت من أبيها أن لا يزوجها من أحد حتى يعرض عليها أمره ويبين لها خصاله. وقيل إنها لما خطبها الخطاب وعرضت عليها خصالهم وناقشتها وفاضلت بينهم. فضلت أبا سفيان[1].

وكانت الفتاة الحرة تربى على حسن معاشرة الزوج وطاعته وفهم جوانب نفسه كما تربى على المجالسة والمنادمة وتروي الشعر[2] وتحفظ الأحاديث والنوادر وقد تعلم العلوم والفقه ويدل على ذلك ما روي عن الحجاج حينما ذكرت النساء عنده أنه قال: (عندي أربع نسوة: هند بنت المهلب وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبدالرحمن بن أسيد وأمة الله بنت عبدالرحمن بن جرير بن عبدالله البجلي، فأما ليلتي عند هند بنت المهلب فليلة فتى بين الفتيان يلعب ويلعبون. وأما ليلتي عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتي عند أم الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم. وأما ليلتي عند أمة الله بنت عبدالرحمن بن جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء[3].

ومما يدل على أنهم كانوا حريصين على اطلاع الفتيات على الأدب ورواية الشعر ما ذكره صاحب الأمالي عن عمارة بن عقيل أنه قال[4]: (كانت مولاة لبني الحجاج تحفظ شعراً وترويه وتنشده فتيات بني الحجاج، فأنشدتهن ذات ليلة كلمتي في حمادة ـ وفيهن واحدة وهي عقيلتهن ـ فلما انتهت إلى قولي:

فإن تصبح الأيام شيَّبن مفرقي وأذهبن أشجاني وفلّلن من غربي

(١) المصدر نفسه ٦/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) العقد الفريد ٦/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الأمالي ٢/ ٦٠.

فيا رب يوم قد شربت بمشرب شفيت به هيم الصدى بارد عذب
ومن ليلة قد بتها غير آثم بساجية الحجلين ريّانة القلب

ضحكت، ثم أعرضت وضربت بكمها على وجهها وقالت:

هلا إثم..! حرمه الله..!

ولا بد لنا ونحن في مجال الحديث عن المرأة في المجتمع الجاهلي والإسلامي أن نقف وقفة قصيرة عند التشبيب لأنه يمثل جانباً من جوانب صورة المرأة في المجتمع.

أما في العصر الجاهلي فرغم كون الزواج والطلاق وتعدد الزوجات على كثير من الفوضى وعدم الانتظام، إلا أنهم كانوا مع ذلك جد حريصين على العفاف والصيانة حتى أدى حرصهم على ذلك إلى وأد البنات عند بعض القبائل كما سبق أن مرّ بنا.

وكانوا إذا توسم رجل منهم نظرة إلى امرأته أو أخته أو ابنته بريبة طلب الناظر إلى التبارز أو التجالد أو المصارعة، وربما نشب القتال[١] بين القبائل غيرة على نظرة مريبة قال الجاحظ: (ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة)[٢].

وكانوا إذا ما وقع الحب بين اثنين يحظرون على العاشقين الخلوة حظراً شديداً، ويمنعونهما من الزواج[٣] غالباً ولهذا أبى أهل ليلى تزويج ابنتهم من ابن عمها قيس بن الملوح.

وكان المسلمون في صدر الإسلام قريبين من البداوة فحرصوا حرص آبائهم على العرض وزادوا عليهم في التزام العفاف واعتباره من

---

(١) ينظر كتاب المرأة في التاريخ والشرائع في تفصيل بعض الحوادث ص١٢٧.

(٢) رسالة القيان ص٥٨.

(٣) الأغاني ٢/ ٨.

أشرف الخصال، لا خوفاً من القصاص فحسب وإنما تديناً وتقوى، إلا أن الموقف الإنساني للدين الإسلامي والنظرة إلى العلاقة بين المرأة والرجل عدلا من سنة العرب بمنع تزويج الرجل من امرأة استحسنها وأحبها.

وتحدثنا كتب الأخبار والأدب عن العشاق في صدر الإسلام وعن أخبار عفافهم وشرفهم[1]، وكيف أنهم كانوا يكتفون بالنظرة وببث الشكوى وتناشد الأشعار، وكانوا يعتبرون القبلة إثماً وزنى يجب التكفير عنهما[2].

قيل إن أم البنين[3] قالت لعزة صاحبة كثير: أخبريني عن قول كثير[4]:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه   وعزة ممطولٌ معنًّى غريمها

أخبريني ما ذلك الدين؟ قالت: وعدته قبلة فحرجت منها، قالت أم البنين: أنجزيها وعليّ إثمها.

وقيل إن رجلاً سأل أعرابياً ما الزيا عندكم؟ فقال: القبلة والضمة[5]. وكان للعفة مظاهر شتى عندهم قد تتجاوز الأعمال، فهم يريدون من المرأة أن تكون عفيفة حتى في قولها وحديثها. قال سويد بن أبي كاهل:

تسمع الحدّاث قولاً حسنا   لو أرادوا غيره لم يستمع[6]

---

(١) المستظرف ٢/١٤٦ وينظر الغزل العذري للدكتور أحمد عبدالستار.

(٢) عيون الأخبار م٤ ص٩٢، ٩٤.

(٣) المستظرف ٢/١٤٦ وينظر الغزل العذري.

(٤) هي ابنة عبدالعزيز أخت عمر بن عبدالعزيز وزوجة الوليد بن عبدالملك.

(٥) عيون الأخبار ٤/٩٢.

(٦) المصدر نفسه.

وقال آخر:

ويخالها المرح السفيه تحبه ونوالها غير الحديث بعيد[1]

وكان الغزل أغلبه موقوفاً على الحرائر العربيات[2]، وكانت صورة المرأة في ذلك العصر صورة رائعة تمثل الجمال والحياء والعفة والعزة والعقل والإرادة.

نخلص مما مر بنا إلى أنه كانت هناك حدود اجتماعية ومثل عليا للرجال والنساء تواضع عليها الناس ومنهم الشعراء، حدوداً التزمها الأكثرية بدلالة ما بين أيدينا من أدب وتجاوزها قلة من الشعراء الذين جاهروا بالفحش وانساقوا وراء الحياة اللاهية كامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة ومن شاكلهما.

وكان لذلك كله أثره البيِّن على مكانة المرأة ومركزها الاجتماعي في الجاهلية والإسلام.

---

(١) المفضليات ١/ ١٩٠.

(٢) المؤتلف والمختلف ١٢٧.

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص١٣.

٢ ـ صورة المرأة في المجتمع في العصر العباسي

المرأة في المجتمع العباسي:

لقد أدى توالي الفتوحات الإسلامية واتساعها في العصر الأموي إلى انتكاس في قضية المرأة في العصر العباسي. (ولما كثرت الفتوحات كثر الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة، ووزع المسترقون رجال ونساء وذراري على العرب الفاتحين، حتى يروي المسعودي أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة، وهذا الرقيق يعد مملوكاً للسيد كالمتاع، له الحق في بيعه وهبته، وإذا كان أمة جاز للسيد أن يستمتع بها، ولا يقيد الملك بعدد، فيصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد كما يصح أن يكون في بيته عدد من الإماء)[١].

وأدت الانتصارات إلى أن غمرت البلاد بالسبايا والجواري والأموال والخيرات كما أدت إلى تسرب أخلاق الأعاجم إلى العرب، وإذا بهذا التطور الذي أصاب أخلاق العرب بسبب الامتزاج الاجتماعي والثقافي، وبوفرة المال يقترن بحيف شديد أصاب المرأة وعاد عليها بالتضييق وأفسد الثقة بها.

ورغم أن هذه الظاهرة بدأت بوادرها بالظهور منذ العصر الأموي، إلا أن المجتمع حافظ جهد المستطاع على التقاليد القومية، والمثل العربية، فقد وقف موقف المحتاط المتوجس الذي لا يريد أن يفسح للأجنبي المجال للانصهار في عروبة المجتمع وللتأثير فيه.

لهذا لم يكن للجواري في ذلك العهد شأن ولا خطر[٢]. فلم

---

(١) فجر الإسلام، ص٨٨ ـ ٨٩.

(٢) المرأة العربية، ص٧.

يتخذن إلا قهارم للخدمة أو سراري في الأسرة، وبقي العرب في عهد بني أمية سادة المجتمع، فقد رفضوا حتى فكرة التسوية بالموالي وتعصبوا لجنسهم تعصباً قوياً..

روي عنهم الكثير من الأخبار الطريفة التي تدل على ذلك، فقد زعموا أن نافعاً بن جبير[١]، كان إذا مرت به جنازة وقيل عربي، صاح: يا قوماه! وإن قيل مولى، قال: مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء[٢].

وكان العرب، وبخاصة أبناء القبائل منهم لا يرتضون زواج بناتهم من الموالي فقد روي أن أحدهم خطب بنتاً من أعراب سليم وتزوجها[٣]، فركب محمد بن يسير الخارجي إلى المدينة فشكا إلى الوالي ذلك، ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه وفيها يقول محمد بن يسير[٤]:

وفي المائتين للمولى نكال ... وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالي من مزيد
فأيّ الحق أنصف للموالي ... من اصهار العبيد إلى العبيد

وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا لا تصلح لهم العرب[٥]، وربما كانت هذه هي نظرة الخلفاء أنفسهم حتى ولو كان

---

(١) نافع بن جبير من قريش، من كبار الرواة للحديث، تابعي ثقة من أهل المدينة، كان فصيحاً عظيم النخوة جهير المنطق يفخم كلامه وفيه تيه، وكان ممن يؤخذ عنه ويفتى بفتواه (الأعلام ٨/٣١٦).

(٢) محاضرات الأدباء ١/٣٤٧.

(٣) محاضرات الأدباء ١/٢١٨، وضحى الإسلام ١/٢٣.

(٤) محمد بن يسير: هو محمد بن يسير الرياشي، وكان شاعراً ظريفاً مقلاً، وكان ماجناً هجاء خبيثاً، وكان من بخلاء الناس، ترجمته في الأغاني ١٤/١٨، وكثيراً ما يتصحف اسمه إلى (بشير) وله أخبار في كتاب الحيوان ١/٥٩، وترجمة في الشعر والشعراء ٢/٧٥٦.

(٥) العقد الفريد ٦/١٣٠.

أبناؤهم من الإماء أفضل من أبنائهم من الحرائر وأكثر منهم نباهة. قيل إن عبدالملك سابق بين سليمان ومسلمة فسبق سليمان مسلمة، فقال عبدالملك(١):

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المران هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركنه خالاته فنزعنه ألا إن عرق السوء لا بد يدرك

على أن طبيعة الحضارة تغلبت في آخر دولة الأمويين على الحرص الشديد على النسب العربي وقضى الامتزاج بالأعاجم باختلاط الأنساب فبايعوا لأبناء الإماء فكان أول من تولى الخلافة من الهجناء يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فقد قيل إن أمه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى سباها قتيبة من بلاد الصغد ثم أرسلها الحجاج إلى الوليد بن عبدالملك(٢).

هذه بعض الأمور التي استدعت المناسبة الاقتصار عليها ذكرناها بإيجاز لنؤكد ونوضح أن المجتمع الذي كان يلفظ الموالي ويستخف بأولاد الإماء لا يمكن له أن يسيغ أخلاقهم وعاداتهم، وأن المرأة العربية في هذا العصر بالذات قد حافظت إلى حد بعيد على مكانتها وعزتها في نفوس رجال الأسرة وفي المجتمع بصورة عامة.

ولسنا هنا في معرض القيام بتفضيل وضع اجتماعي على آخر، ولكن رأينا أن نجعل ما ذكرناه بإيجاز مدخلاً لدراسة وضع المرأة في المجتمع العباسي..

---

(١) نفسه ٦/ ١٣٠.

(٢) الكامل ٤/ ٢٧٥، ٥/ ١٤٧.

فهل يمكن القول إن المجتمع العربي بقي محافظاً على نقائه إلى حد ما..؟ وهل في بيوت الخلافة، وهي القدوة للمجتمع بأسره دليل على ذلك..؟ أجل يمكننا أن نقر بهذا، وبخاصة في مطلع الخلافة العباسية.. فأبو العباس السفاح أمه عربية، وهي ريطة[١] بنت عبدالمدان الحارثي. ولعل عروبة أمه كانت السبب في تقدمه على أخيه المنصور الذي كان يكبره في السن والذي أبلى بلاءً حسناً في تأسيس الدولة العباسية، لأن أم المنصور كانت بربرية اسمها سلامة[٢].

ومن خلفاء بن العباس الذين ولدوا من أمهات عربيات: المهدي بن المنصور فأمه أم موسى[٣] بنت منصور بن عبدالله الحميرية، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة[٤] بنت جعفر بن المنصور.

وكانت مسيرة التأثير الأجنبي في أبناء الخلافة متباطئة محدودة في بادىء الأمر فقد رأينا أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور رغم أنهما كانا قد حصلا على الثروة والجاه وعلى كل مباهج الحياة، إلا أنهما فرضا على نفسيهما وعلى أتباعهما، بل على دولتهما حياة الصلابة[٥] والجد وعدم الانسياق وراء الملذات والملاهي.

ولكن تيار الأعاجم ما لبث أن اشتد حتى صار أعنف من أن يمكن الحد منه أو القضاء عليه.. حتى رأينا المجتمع في العصر العباسي تعمل فيه المدنية عملها فتقوض الكثير من تقاليده وتدفع جزءاً كبيراً منه إلى الجري وراء الحياة ولذائذها ومباهجها.

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٤٧١.

(٢) لطائف المعارف، ص١٢٥ ومروج الذهب ٣/ ٢٠٩.

(٣) تاريخ الطبري ٨/ ١٠٢ ولطائف المعارف ص١٢٥.

(٤) المصدر نفسه ٨/ ٣٥٩، ولطائف المعارف ص١٢٥.

(٥) مروج الذهب ٣/ ٢٣٢.

إلا أن هذا لم يمنع جزءاً آخر من المجتمع من التمسك بالتقاليد والمثل العربية والالتزام بالفرائض والتعاليم الدينية، وسنرى آثار ذلك في بعض المواقف والقواعد والعادات الاجتماعية، نذكر منها:

أ ـ **الحجاب**: على أن الذيَ يعنينا من هذا المجتمع هو مكانة المرأة فيه. نعم. . لقد كان لانتشار حياة البذخ والترف في الكثير من الأوساط الاجتماعية ولكثرة تدفق القيان والجواري آثارها في تحديد بعض المظاهر والمواقف تجاه المرأة، الأمر الذي أدى إلى عزل الحرائر وحجبهن عن المجتمع.

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن عادة عزل الحريم التي كانت منتشرة عند الفرس منذ أقدم الأزمنة لم تظهر عند المسلمين إلا في عهد الوليد الثاني[1]، أي في أواخر العهد الأموي، ولهذا دلالته لأن عنصر الزمن يجب أن يحسب له حسابه.

وقد أشار الجاحظ إلى إباحة الاختلاط عند العرب، بقوله: (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ويزدوجوا في المناسمة والمشافعة، ويسمى المولع بذلك من الرجال بالزير المشتق من الزيارة، وكل ذلك بعين الأولياء وحضور الأزواج، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمنوا المنكر)[2].

ويضرب الجاحظ لذلك مثلاً ببثينة وصاحبها جميل بعد أن استعظم أخوها مخالطتها جميلاً ومحادثتها إياه، فشكا ذلك إلى زوجها، فكمنا لجميل عند إتيانه بثينة ليقتلاه، فلما دنيا لحديثه وحديثيهما سمعاه يقول ممتحناً لها: (هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل

(١) مختصر تاريخ العرب ص١٨٩.

(٢) رسالة القيان، ٥٧.

العشق ويطفىء ثائرة الشوق؟ قالت: لا. قال: ولم؟ قالت: إن الحب إذا نكح فسد، فأخرج جميل سيفاً كان قد أخفاه تحت ثوبه فقال: أما والله لو أنعمت لي لملأته منك. فلما سمعا ذلك منه وثقا به وركنا إلى عفافه وانصرفا عن قتله وأباحاه النظر والمحادثة)(١).

وقال الجاحظ(٢): (فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي ﷺ خاصة).

ويبدو أن الحضارة والمدنية والاختلاط بالأجانب هي التي أدت إلى التشديد في حجب الحرائر عن الرجال، ويؤكد ذلك ما ذكره ياقوت في أعراب مرباط الذين حافظوا في باديتهم على نقاء مجتمعهم (فكانوا لا يجدون حرجاً في أن تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم لمسامرة الرجال ومجالستهم إلى أن يذهب آخر الليل، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وعمته وخالته، وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه فيعرض عنها ويمضي على امرأة غيره فيجالسها كما فعل بامرأته)(٣).

ويعلل ابن قيم الجوزية(٤) إطلاق الحرية للمرأة في محادثة الرجل والجلوس معه بقوله: (لما يرون من النقص في الريب، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران وما يعرف بعضهم عن بعض من استعمال الوفاء والتحرز من العار، لأن الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزوجة من حرمه، لا يرى أحد منهم لنفسه رخصة في إضاعة ذلك وإنما يتحمل العذر ويرخص نفسه فيه من باين البوادي وخالط الحضر، لأنه يرى أجناس العبيد وأخلاط العوام، وقد نشأوا على عادة فجروا عليها).

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفسه، ص٥٧.

(٣) معجم البلدان (مرباط) ٤/ ٤٨٢.

(٤) أخبار النساء ص١٤٥.

ولا شك في أن الجاحظ وابن قيم الجوزية يلتقيان عند مبرر واحد لإباحة الاختلاط حينذاك وهو (أمن المنكر).

وهو ما نلتقي به معهم على بعد الزمن من عهدهم، رغم اختلافنا معهم في الأسباب المؤدية إلى إباحة الاختلاط (لا من المنكر)، فإن كان السبيل عندهم إليه سذاجة الأعراب وشهامتهم ونقاء سريرتهم والتزامهم بمثلهم الأصيلة في الغيرة على الحرم وعدم التأثر بأجناس العبيد وأخلاط العوام ـ على حد قولهم ـ فسبيلنا اليوم إلى (أمن المنكر) هو حسن التربية والتوجيه والثقافة القويمة التي تسمو بالرجل والمرأة عن الدني من الأمور، وتنزههم عن التحلل والفساد، وتصون خلقهما عن التبذل والتحلل. . وإنما هو لقاء يرجى منه السمو بالفكر والنفس ويقصد به إلى البناء والتقدم.

وهكذا رأينا أن التضييق على المرأة في فرض الحجاب ومنع الاختلاط والحذر منه كان واقعاً تحت تأثير المجتمع وكلما زاد تحللاً . . وكلما كثرت السبايا والجواري وانتشر الفساد، خيف على المرأة من أن تهدر كرامتها وتبيح عفتها، فتشددوا في الحجاب وأكدوا عليه.

ونشط الفقهاء في الاجتهاد بمنع المرأة من الخروج من بيتها[1]. وكانوا يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري، ويحجبون الحرة ويشددون في حجبها[2]، ويحرصون عليها أن تظن بها الظنون وأن تكون من المبتذلات بالخروج من الدار.

فقد ذكر أبو عمر القاضي محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدي[3]

(١) البخاري ٢/ ٣٤.

(٢) ضحى الإسلام ١/ ٨١.

(٣) أبو عمر القاضي: ولد بالبصرة سنة ٢٤٣هـ، كان ثقة فاضلاً غزير العلم والحلم والذكاء، يضرب به المثل بعقله وسداده وحلمه، توفي سنة ٣٢٠هـ (المنتظم ٦/ ٢٤٦).

أنه كان مرة عند التاجر أبي عبدالله بن الجصاص[1]، وكان في صحنه سرادق مضروب، وبينما كانوا يتحدثون إذا بصرير نعل من خلف السرادق. فصاح ابن الجصاص يا غلام: جئني بمن مشت خلف السرادق الساعة، فأخرجت إلينا جارية سوداء. فقال: ما كنت تعملين ها هنا؟ قالت: جئت إلى الخادم لأعرفه أني قد فرغت من الطبيخ وأستأذن في تقديمه، فقال: انصرفي لشأنك، قال: فعلمت أنه إنما أراد أن يعرفني أن ذلك الوطء وطء سوداء مبتذلة، وأنها ليست من حرمه ولا ممن يصونه، فيزيل عني أن أظن به مثل ذلك في حرمه[2].

ولم يقتصر الحجب على الحرائر فقط، وإنما تعداهن إلى الكثير من جواري القصور والبيوتات، فكان الخروج ممنوعاً على حريم الخلفاء والأمراء والوجهاء إلا على القهرمانات اللائي سمح لهن بالدخول والخروج لقضاء الحاجات[3] ولهذا رأينا إحدى مملوكات السيدة أم المقتدر حينما اشتهت رؤية الناس، سعت إليها حتى جعلتها قهرمانة[4].

وبلغ من تشددهم في صون النساء، وحراستهم أنهم كانوا يبذلون في سبيله المؤونة العظيمة، وإلى ذلك أشار الجاحظ بقوله[5]: (ولو لم يكن إلا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهن والجناية عليهن، لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمتعة الشديدة، غير أن أولى

(١) أبو عبدالله بن الجصاص: الحسين بن عبدالله بن الجصاص الجوهري، كان ذا ثروة عظيمة، وفي (نشوار المحاضرة للتنوخي) قصص تتحدث عن كيفية إثرائه وعن ذكائه، توفي سنة ٣١٥هـ.

(٢) نشوار المحاضرة ١/ ٣٦.

(٣) نشوار المحاضرة ٤/ ١٨٣.

(٤) نشوار المحاضرة ٤/ ١٨٣.

(٥) المحاسن والأضداد ص٢١٢.

الأشياء بالرجال حفظهن وحراستهن).

ومن ذلك ما يرويه أبو الفرج الأصفهاني[1] أنه (كان للمراكبي جارية يقال لها مظلومة، جميلة الوجه، بارعة الحسن، فكان يبعث بها مع عريب[2] إلى الحمام أو إلى من تزوره من أهله ومعارفه، فكانت ربما دخلت معها إلى ابن حامد الذي كانت تميل إليه، فقال فيها بعض الشعراء، وقد رآها عنده:

لقد ظلموك يا مظلوم لمّا أقاموك الرقيب على عريب

ويتضح من هذا الخبر أن الرقيب قد لا يجدي نفعاً مع أمثال عريب ممن غرقن في حياة العبث والمجون وألفن الانسياق وراء الملذات. كما يتضح منه السبب الذي حدا بأولياء الأمور إلى أن يتشددوا في حجب الحرائر حرصاً منهم على إبعادهن عن مواطن الغواية ومواضع الشبهة.

فقد كان في المجتمع العباسي الكثير مما يساعد على ذلك، فالجواري اللائي ربين ودربن على الغواية والتحلل والفساد منبثات في كل مكان يمارسن الوسائل المختلفة لإرضاء غرائز الرجال وأبصارهم وأسماعهم.. والشباب العابث اللاهي يتصيد الغفلة وينتهز الفرصة.

قيل إنه لما توفيت ـ بانة ـ مولاة جنان التي يشبب بها أبو نواس وكان يوم ثالثها، خرجت الجواري إلى قبرها فتبعهن الشباب والشعراء وكان معهم محمد بن مناذر[3] فقال[4]:

---

(١) الأغاني ٢١/ ٧٢.

(٢) عريب: جارية من القيان. انظر: (تعريف بأعلام النساء).

(٣) محمد بن منافر: شاعر عباسي عاصر الرشيد. ترجمته في الشعر والشعراء ٢/ ٧٤٧، والأغاني ١٨/ ١٠٣.

(٤) الأغاني ١٨/ ١٠٩.

اليوم يوم الثلاثا ويوم ثالث بانه
اليوم تكثر فيه الظبا ء في الجبانه[1]

ولا شك في أن هذه الطائفة من النساء اللائي كن يمارسن التهتك والمجون هن اللائي أوحين للشعراء الماجنين بفكرتهم السيئة عن النساء. جاء في الأغاني أن مطيع بن أياس مر بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان فسألهما عما يتحدثان. فأجابا: في قذف المحصنات، فقال: أو في الأرض محصنة تقذفانها[2].

أما بشار فقد رمى جميع النساء بالفاحشة، وحث الناس على الفجور بقوله:

قاس الهموم تنل بها نجحا والليل إن وراءه صبحا
لا يؤيسنك من مخبّأة قول تغلظه وإن قبحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

وقد نتج عن أمثال هذه الظواهر الاجتماعية ظهور شكورى كثيرة عامة صدرت عن الرجال تدعو إلى عدم الثقة بالنساء وحتى بالحرائر المحجبات. فالوشاء[3] يصور ذلك بقوله[4]: (وليس بنات البيوت في الخدور وربات الحجال والقصور كذوات المذق من القينات، وكذوات التكسب من المتقينات. فإن هؤلاء معروفات بطلب الدراهم والأموال، منسوبات إلى التكسب بتعشق الرجال لا يقدم عليهن إلا مغرور، ولا يثق بهن إلا مسحور، وإنما يذهب على أهل الألباب وأهل التظرف والآداب

(١) الجبانة: المقبرة.
(٢) الأغاني ١٣/٢٨٦.
(٣) الوشاء: هو أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، كان أديباً فاضلاً حسن التصنيف، مليح الأخبار، توفي سنة ٢٨٦هـ.
(٤) الموشى ٢/١٥٢ ـ ١٥٤.

مكر البنات المخدرات والغواني المحجبات، اللواتي لم ترهن العيون ولـم تكثر فيهن القالة والظنون، اللواتي يُبذلن نفيس الأموال لمن يتعشقنه، ويعنين من راسلنه وكاتبنه، ويزعمن أنهن وراء الحجاب ودون الأقفال والأبواب، وأنهن لا فرج لهن إلا في المكاتبة، ولا فرح إلا في المراسلة، ولا سرور إلا في النظر من بعيد، ولا يقدرن على اللقاء إلا في الخروج كل عيد، وأولئك اللائي تخف أمورهن وتعنى سرائرهن ويطمع الجاهل فيهن، ويصبو النزق إليهن ويثق بحبهن الأحداث والأطفال، ولا يتمسك بمودتهن إلا الجهال مع أن مكرهن أخفى من الخيال وأعظم من راسيات الجبال، تنفذ حيلتهن على الرجال، ويتمكن كيدهن من الأبطال).

وربما ذهب البعض إلى عدم الثقة بالنساء عامة كما هي الحال عند أبي العلاء المعري الذي كان لا يرى للمرأة عفة يحفظها عليها دين أو تأديب، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية. قال[١]:

إذا بلغ الوليد لديك عشراً　　فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتني وأضعت نصحي　　فأنت وإن رزقت حجًى بليد
ألا إن النساء حبال غيّ　　بهنّ يضيّع الشرف التليد

وقال[٢]:

وليس عكوفهن على المصلّى　　أماناً من غوار مجرمات

وهناك نظرة أخرى تحمل الرجال وزر التحلل والفساد تتمثل بنظرة الشافعي.. فهو يؤكد أن على الرجال أن يعفوا ويتجنبوا ما لا يليق بهم لتعف نساؤهم.. لأنه يرى أن الزنى إذا ما أقرضه الرجل رد إلى أهل

(١) اللزوميات ١/ ٣٣٧.
(٢) اللزوميات ١/ ٢٣٦.

بيته. قال[1]:

عفّوا تعف نساؤكم في المحرم ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنى دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

الزواج: نعود فنقول: إن هذه الأمور وأمثالها أدت إلى شيء من الاضطراب في بناء المجتمع كما أدت إلى ظهور انحراف في النظرة إلى المرأة الحرة وإلى علاقة الرجل بها.. لقد صار البعض يرى الزواج[2] غلاً ووثاقاً، وصاروا يعجبون لمن عرف السراري كيف يتزوج الحرائر المهائر[3].

وكان أبو نواس الشاعر الماجن بما يدل عليه ما وصلنا من شعره شيخهم في هذا المجال خلال إغراقه في الفسوق والعبث والمجون، فقد رفض العرض الذي عرضته عليه إحدى النساء بالزواج من امرأة موسرة جميلة لأنه لا يريد أن يتزوج على مهر حتى ولو كان المهر درهماً، فقال[4]:

ولو أنها في الحسن كانت كيوسف ... وبلقيس أو كانت كخط جمال
وقالت تزوجني على مهر درهم ... لقلتُ اغربي عنّي فمهرك غالي

ولكنه حينما ينزع عن نفسه العبث والضلال ويركن إلى عقله خلال ومضات من الإيمان تمس قلبه يحث على التزوج بذوات الشرف والعفة، فيقول[5]:

---

(١) ديوان الإمام الشافعي، ص٧٦.

(٢) ينظر ص ١٤٢ وما بعدها من البحث إذ فيه تفصيل عن الزواج والزوجات.

(٣) العقد الفريد ٦/١٢٩.

(٤) ديوان أبي نواس ص٣١٢، وأخبار أبي نواس ص٢٧.

(٥) ديوان أبي نواس ص٦١٨.

فاسم بعينيك إلى نسوة مهورهن العمل الصالح

ومن الظواهر الاجتماعية التي بدت في العصر العباسي فيما يخص الزواج الحث على الاكتفاء بزوجة واحدة[1].. وربما كانت هذه الظاهرة تكملة للموقف السابق من الزواج، إذ لا داعي للإكثار من الزوجات ما دام البيت يعج بملك اليمين، وما دامت القيان وبيوتهن ومجالس العبث واللهو منبثة في كل مكان على اختلاف المستويات، الأمر الذي كان يصرف كثيراً من الرجال عن أسرهم وزوجاتهم.

وربما كان لعدم الثقة بالمرأة وللنظرة السلبية، أثر في ذلك كما ظهر عند أبي العلاء المعري إذ يقول:

وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات
وإن أرغمت صاحبة بضر فأجدر أن تروع بمعرمات[2]
زجاج إن رفقت به وإلاّ رأيت ضروبه متقصمات[3]

إلى أن يقول:

فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللممات

وقال في النهي عن التزوج بأكثر من واحدة[4]:

متى تشرك مع امرأة سواها فقد أخطأت في الرأي التريك
فلو يرجى مع الشركاء خير لما كان الإله بلا شريك

وقال مبيناً أن من يتزوج اثنتين فكأنه محارب لعدوين، فكيف إذا

(١) الحضارة الإسلامية ٢/ ١٧٣، وآراء أبي العلاء المعري ص١١٨، اللزوميات ١/ ٢٣٨.

(٢) الضر: الزواج بالضرائر، المعرمات: الشدائد.

(٣) مقتصمات: متكسرات.

(٤) آراء أبي العلاء المعري، ص١١٩ واللزوميات ٢/ ٢٤٢.

تزوج ثلاثاً.. ويرى أن القران بالنساء أذية، فعلى العاقل أن لا يتحمل الأذاة فإن كان غراً بالزمان وأهله فلتكفه واحدة منهن. قال[1]:

إذا كنت ذا ثنتين فاغد محارباً ... عدوين واحذر من ثلاث ضرائر
وإن هنّ أبدين المودة والرضا ... فكم من حقود غيّبت في السرائر
قرانك ما بين النساء أذية ... لهن فلا تحمل أذاة الحرائر
وإن كنت غراً بالزمان وأهله ... فتكفيك إحدى الآنسات الحرائر

وقد يكون الموقف من المرأة إيجابياً فيكون الحث على الاكتفاء بالزوجة الواحدة صادراً عن الحرص على المصلحة المشتركة بين الزوجين.

ذكر عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أنه خاطب جماعة من الشيوخ قائلاً لهم: (وأقبلوا بعد الأعمال على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن، فينغص عيشكم وتعود المضرة عليكم.. إلى أن يقول.. فحسب الرجل الواحد الواحدة)[2].

وجاء في المقامة المضيرية للهمذاني قوله على لسان أحد تجار بغداد عن زوجته: (ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظراً تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقني ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته، وأن يسعد بظعينته)[3].

وتغيرت النظرة إلى المرأة، تتزوج بعد وفاة زوجها، فبعد أن كانوا

---

(١) المصدر نفسه، ص١١٨.

(٢) الخطط للمقريزي ١/ ٣٥٢.

(٣) شرح مقامات الهمذاني ص١٢٥.

لا يرون بأساً في أن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج؛ لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها، صاروا يكرهون ذلك ويستسمجونه في بعض، ويعافون المرأة الحرة إذا فارقت زوجاً واحداً، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم[1].

وتلحق السخرية أبناء المتزوجات فيقال فيهم الهجاء وترسل إليهم رسائل التعزية مملوءة بالتندر والاستخفاف[2] مما سنعرض له خلال حديثنا عن صورة المرأة (الأم) في الأدب في العصر العباسي، بينما كنا نرى أولاد الأم الواحدة من عدة أزواج[3] يجتمعون في كثير من الأحيان، في صدر الإسلام، على وفاق ووئام، ولم يكن زواج أمهم ليثير في نفوسهم أي شعور بعدم الرضا أو بالخجل.

ومن الأمور التي أدت إلى اضطراب الحياة العائلية، أن الرجل في كثير من الأحيان لم يك ليصبر على زوجته إذا ما كبر سنها وذوى جمالها فيعمد إلى أحد أمرين. إما أن يطلقها ليتزوج شابة غيرها، وإما أن ينصرف عن ذلك ـ وما أكثر ما كان يفعل ـ إلى اتخاذ جارية شابة تكفيه شؤونه فيوهم نفسه بأنه إنما عاد إلى الشباب وأعاد النضارة إلى حياته بالعيش معها...

وقد لاحظنا رضوخ الزوجة الحرة لذلك الواقع وقبولها واعتيادها للحياة مع ذلك العدد من الجواري في بيتها.. ويبدو أن الذي خفف من وقع ذلك على نفسها أنها كانت في الغالب سيدة البيت حتى ولو لم تكن

(١) ثلاث رسائل، ص٦٢.

(٢) رسائل الخوارزمي، ص١٧٣، نشوار المحاضرة ٢/ ٢٦٤.

(٣) كانت أسماء بنت عميس قد تزوجت ثلاثة من سراة المسلمين، وهم جعفر بن أبي طالب وأبو بكر وعلي بن أبي طالب وولدت من كل منهم. ألف باء البلوى ٢/ ٥٧٨ والبصائر والذخائر ١/ ٢٠٠.

سيدة لقلب زوجها . . ولقد أدت هذه الظروف إلى أن خفت غيرة المرأة على زوجها إلى مدى بعيد من الجواري والإماء . . فمن ذلك ما روي عن السيدة زبيدة حينما أهدت زوجها (هارون الرشيد) عشر جوار من جواريها منهن (مارية) أم المعتصم و (مراجل) أم المأمون و (فارهة) أم صالح بن الرشيد لتشغله عن كلفه (بدنانير) المغنية جارية يحيى بن خالد البرمكي[١].

إلا أن هذا لا يعني أن غيرة المرأة على زوجها كانت قد تلاشت وانعدمت في العصر العباسي . . وإن كانت قد خفت كثيراً بحكم رضوخ المرأة للواقع، ومما لا شك فيه أن قصص كيد الزوجات الحرائر للإماء مما كثر وروده في (ألف ليلة وليلة) دليل على وقوع أمور كثيرة من هذا القبيل.

وقد يشتد الخلاف بين الحرائر الزوجات والجواري السراري، حتى ذهب بعض اللغويين إلى أن تسميتهن بالسراري كان سببه الغيرة، فقد نقل اللسان عن بعضهم أن السرية: الأمة التي يتسراها صاحبها منسوبة على غير قياس إلى السر وهو الإخفاء لأن الإنسان كثيراً ما يسرها ويسترها عن حرته[٢]. وكثيراً ما ينسل الرجل الواحد الحرائر والجواري فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجواري ويعتزون بأنهم لم يجر في عروقهم دم رقيق كالذي كان بين الأمين والمأمون حينما بلغه أن أخاه المأمون قد عدد مثالبه وفضل نفسه عليه فقال[٣]:

لا تفخرنّ عليك بعد بقية   والفخر يكمل للفتى المتكامل

---

(١) ولعلها كانت مسوقة بتخفيف العلاقة بين هرون الرشيد ويحيى بن خالد . . وقد عرف عن السيدة زبيدة بعد نظرها وحرصها على الحد من التأثير الفارسي.

(٢) ضحى الإسلام ١/ ٨٠.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص٣٠٤.

وإذا تطاولت الرجال بفضلها — فاربع، فإنك لست بالمتطاول
أعطاك ربك ما هويت وإنما — تلقى خلاف هواك عند مراجل
تعلو المنابر كل يوم آملاً — ما لست من بعدي إليه بواصل
فتعيب من يعلو عليك بفضله — وتعيد في حقي مقال الباطل

الحالة الثقافية

١ ـ الحرائر:

كان العصر العباسي عصر ازدهار حضاري شمل كافة المرافق الحيوية في المجتمع.. ومما لا شك فيه أن الثقافة والآداب كانت من أهم الأمور التي عمها التقدم وشملها الازدهار، حتى صار الناس يقدرون الأشخاص بمقدار نصيبهم من العلوم والآداب..

وقد نتج عن ذلك أننا رأينا المرأة تنال قسطاً لا بأس به منها لتساير تيار العصر في ذلك، وقد استطاعت، رغم ما فرض عليها من حجر وحجاب، في أكثر الأحوال، أن تثبت جدارة واستحقاقاً، وأن تتبوأ منزلة لا يستهان بها.

وكان لا بد للفتاة، كحد أدنى للتعلم، أن تلقن مبادىء الدين وبعض الفنون المنزلية.. لتكون على تبصرة بأمور الدين بصورة عامة، ولأمور الدنيا بالقدر الذي تحتاجه في مسؤولياتها عن البيت وشؤون العائلة.

أما بنات السراة والأغنياء فلم يوقف بهن عند هذا الحد من التعليم، وإنما قد يتجاوزن ذلك إلى تعلم القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية، حتى إذا برعن فيها أوقفن في الغالب على أسرار اللغة وفروع البيان والمعاني والبديع وقرض الشعر والمنطق وغيرها من العلوم والآداب[1].

وكان يستعان على تعليم البنات بالنساء المتخصصات، ويشتد

(١) المرأة في حضارة العرب، ص١٥٠.

الإقبال عليهن، وتكثر الحاجة على من أثبتت جدارة وأهلية منهن، وتميزت بالخلق والعلوم والآداب[1].

على أن المرأة لم تقتصر على طلب العلم فقط، في هذا العصر العلمي، وإنما تضلعت فيه حتى أصبحت تعد أحياناً في عداد مدرسية الثقات. وقد ترجم الخطيب البغدادي[2] (ت٤٦٣هـ) في تاريخ بغداد لاثنتين وثلاثين من النساء من أهل بغداد المذكورات بالفضل ورواية العلم، مبتدئاً بـ (الخيزران)، المتوفاة (ت١٧٣هـ) ومنتهياً بـ (خديجة بنت محمد الشاهجانية) المتوفاة (ت٤٦٠هـ) وقد ذكر لكل منهن مآثرهن الاجتماعية والعلمية والأدبية والدينية، وذكر بعض أساتذتهن ومن أخذ عنهن من العلماء المعروفين. كما أن في وفيات الأعيان والوافي بالوفيات والمنتظم لابن الجوزي ونشوار المحاضرة للتنوخي ومرآة الجنان لليافعي ونزهة الجلساء للسيوطي ونساء الخلفاء لابن الساعي، إشارات كثيرة إلى عدد كبير من النساء العالمات.. وإن في الورقة لابن الجراح وطبقات ابن المعتز والأغاني ومعجم الأدباء وغيرها، ذكر لعدد كبير من الأديبات والشاعرات اللائي أثبتن جدارة واستحقاقاً في أن تدون أسماؤهن وتذكر أخبارهن وأشعارهن.

ويمكننا حصر العلوم التي تميزت بها المرأة في ثلاثة مجالات أساسية هي: العلوم الدينية وما يتصل بها من حديث وفقه، والأدب والشعر، ثم الموسيقى والغناء.

ولا بد لنا في معرض الحديث عن ثقافة الحرائر، أن نشير إشارة عامة إلى بعض الأعلام اللواتي تميزن بالعلوم الدينية، ومنهن: السيدة نفيسة (١٤٥ ـ ٢٠٨هـ) زوجة المؤتمن إسحق بن جعفر، وكانت على

---

(١) نفس المصدر، ص١٥٠.

(٢) تاريخ بغداد، ١٤/ ٤٣٠ ـ ٤٤٧.

تقواها من عالمات العصر ومن أساتذة الجيل، حتى أن الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) سمع عليها في مصر.

والسيدة أم عمر الثقفية[١] وكانت محدثة معروفة روى عنها كثير من الأعلام المشهورين، منهم أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، والسيدة زينب بنت سليمان[٢] الهاشمية (ت٢١٨هـ) وكانت من أفاضل النساء ومن ربات النفوذ والسلطان والعقل والرأي والفصاحة، حدثت عن أبيها سليمان، وروى عنها الكثير ممن اشتهر بالحديث. وعبدة[٣] بنت عبدالرحمن أم أحمد الأنصارية، وكانت محدثة ذات دين وفصاحة، حدثت عن أبيها، وروى عنها محمد بن مخلد الدوري العطار المتوفى (ت٣٣١هـ) وسليمان بن أحمد الطبراني. وسمانة بنت حمدان[٤] الأنبارية، وكانت محدثة، حدثت عن أبيها، وروى عنها أبو بكر الشافعي وأبو القاسم الطبراني. وأم عيسى[٥] بنت إبراهيم بن إسحاق الحربي، وكانت فاضلة عالمة تفتي في الفقه، توفيت في (٣٢٨هـ). وأمة الواحد[٦] بنت القاضي المحاملي، واسمها ستيتة، حفظت القرآن والفقه على مذهب الشافعي، والفرائض وحسابها والدور والنحور وغير ذلك من العلوم، وكانت فاضلة في نفسها، حدثت وكانت تفتي، وكتب عنها الحديث، وتوفيت سنة ٣٧٧هـ.

وقد اشتهرت بين النساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزي،

---

(١) انظر ترجمتها في أعلام النساء ٥/ ١٨٧.
(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٢، وأعلام النساء ٣/ ٣٤٣.
(٣) نفسه ١٤/ ٤٣٤، نفسه ٢/ ٦٨.
(٤) المصدر نفسه ١٤/ ٤٣٩، المصدر نفسه ٣/ ٢٣٩.
(٥) تاريخ بغداد، ١٤/ ٤٤٠ وأعلام النساء ٢/ ٢٦٠.
(٦) نفسه ١٤/ ٤٤٢.
(٧) نفسه ١٤/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣، الحضارة الإسلامية ١٧٢.

وقد قرأ عليها الخطيب البغدادي صحيح البخاري في خمسة أيام (الإرشاد لياقوت ١/ ٤٧ عن آدم متز، ص١٧٢.

وأمة السلام[١] بنت القاضي أبي بكر وتكنى أم الفتح، سمعت علماء عصرها وحدث عنها الأزهري والتنوخي، وأثنيا عليها ثناءً حسناً ووصفاها بالديانة والعقل والفصل، توفيت في سنة (٣٩٠هـ).

كما أن من المفيد، إضافة إلى ما أوردناه من الأعلام النسائية التي عرفت بالعلوم الدينية وتفوقت فيها أن نعرض كذلك إلى بعض السيدات اللائي عرفن بحبهن للآداب والعلوم وبأخذهن نصيبهن الذي دل على التقدم والنبوغ.

فقد كانت الخيزران[٢] على درجة كبيرة من النباهة والذكاء، وكانت عاملاً من عوامل نشاط الحركة الأدبية في قصر الخلافة، تقابل العلماء وتناظرهم، ويفد إليها الشعراء من شتى الجهات، كما كانت تحض المهدي على تشييد دور العلم ومكافأة الموهوبين، وتنشىء أولادها وأحفادها على ما نشأت عليه من حب العلم والعلماء والأدب والأدباء، أخذت العلم عن الأوزاعي[٣]، توفيت في سنة (١٧٣هـ).

وممن يذكر في هذا المجال السيدة زبيدة[٤]، وكانت جليلة في نسبها جليلة في خلقها وعلمها وأدبها وعملها، توفيت سنة (٢١٦هـ) وكانت قد أوتيت درجة من العقل وبعد النظر وحدة الذكاء، ما أهلها لأن يذكرها الجاحظ[٥] ضمن الأمور التي أتيحت للرشيد مما لم يتح

---

(١) نفسه ١٤/ ٤٤٣.

(٢) نفسه ١٤/ ٤٣١.

(٣) أعلام النساء ١/ ٤٠٠.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ١٧.

(٥) تاريخ الخلفاء ص٢٨٦.

لغيره، وعرفت عنها قدرتها على النظم والكتابة، وقد أثرت عنها أشعار[1] معروفة، ورسائل[2]، وتوقيعات[3] ووصايا[4].

ومما يدل على براعة السيدة زبيدة في الجواب، وسرعة بديهتها وتمكنها من القدرة على نظم الشعر ما ذكره (الجهشياري)[5]، إذ قال: (دخل الرشيد على أم جعفر، فقال لها: قد تهتك كاتبك سعدان[6] فاعزليه. قالت: وبأي شيء تهتك؟ قال) بالمرافق والرشا، حتى قال فيه الشاعر:

صب في قنديل سعدا ... ن مع التسليم زيتا
وقناديل بنيه ... قبل أن تخفى الكميتا

فقالت له: وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن عبدالرحمن أشنع من هذا، فقال: وما قال؟ قالت: قال:

قنديل سعدان على ضوئه ... فرج لقنديل أبي صالح
تراه في مجلسه أخوصاً ... من لمحه للدرهم اللائح

فقال لها: كذب على كاتبي وكاتبك!

وقيل: إنها قالت هذا الشعر في تلك الساعة.

ويذكر النويري أن المأمون عندما تسلم رسالة نثرية من السيدة

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٥١٤ والعقد الفريد ٣/ ٢٦١ ومروج الذهب ٣/ ٣٢٣ و٣/ ٤٢٣ وأعلام النساء ٢/ ١٧.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٤.

(٣) الوزراء والكتاب ص١٦٥ ـ ١٦٦ والفرج بعد الشدة ص١٢١.

(٤) جمهرة خطب العرب ٣/ ١٠٤.

(٥) الوزراء والكتاب ص٢٥٦.

(٦) سعدان: هو مسلم بن سعدان وكان كاتباً لأم جعفر (بغداد في تاريخ الخلافة ص١٦٣، والوزراء والكتاب ص٢٥٦.

زبيدة في تهنئته بالخلافة بعد مقتل الأمين، قال بعد أن قرأها ووقف على ما فيها من رجحان عقل وبعد نظر وبلاغة: (ما تلد النساء مثل هذه، فماذا أبقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال)[١].

وكانت تجيد الحكم على الشعر فتقابل العلماء والشعراء وتنصف المتفوقين وتشجعهم وتجزيهم بصلاتها[٢].

وقد حق لهذا العصر أن يذكر من أعلامه من النساء البارزات علية بنت المهدي[٣] (ت٢٠٩هـ) وكانت إلى جمالها تجمع بين الذكاء والصوت الحسن والصنعة الموسيقية[٤]، واستطاعت أن تتخطى الأغراض التي ألفت الحرائر القول فيها من رثاء ومديح إلى الغزل.. مما يدل على تطور روح العصر وتبدل المقاييس العامة.

ولم تقف فيه عند التغزل وإنما صارت تسن أحكام الحب وتستخلص خباياه، فمن ذلك قولها:

إني كثرت عليه في زيارته ... فملّ والشيء مملول إذا كثرا
ورابني منه أني لا أزال أرى ... في طرفه قصراً عني إذا نظرا

أو قولها[٥]:

بني الحب على الجور فلو ... أنصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى ... عاشق يحسن تأليف الحجج

---

(١) نهاية الأرب ٥/ ١٣٧.
(٢) الأغاني ٤/ ٦٨ و٨/ ٣٧٢.
(٣) الأغاني ١٠/ ١٧٢ وزهر الآداب ص١٣ وأعلام النساء ٣/ ٣٣٤.
(٤) أشعار أولاد الخلفاء، ص٥٥.
(٥) زهر الآداب ص١٣ والمحاسن والأضداد ص٢٢٩ والأغاني ١٠/ ١٨٥، وأشعار أولاد الخلفاء ص٦٦.

وقليل الحب صرفاً خالصاً   هو خير من كثير قد مزج

أما ليلى بنت طريف[1] الفارسة التي عرفها العصر العباسي تدخل الحروب لابسة عدتها وتحمل على الجيوش بعد أن قتل أخوها الوليد بن طريف، فلم تكن أقل شاعرية ممن سبق ذكرهن من الحرائر، ولعل أشهر قصيدة لها قولها في رثاء أخيها تعاتب شجر الخابور على عدم تساقط ورقه لاحتراقه بنار الحزن على قتل أخيها الوليد والتي فيها قولها:

فيا شجر الخابور مالك مورقاً   كأنك لم تجزع على ابن طريف

ولا أظن المقام يضيق بالإشارة إلى (أم القراطيس) التي قيل عنها إنها كانت (أشعر أهل عصرها وأعف النساء وأجملهن) سمع شعرها المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) وأجرى عليها نفقة تقديراً لأدبها وعفافها[2]. وقطر الندى[3] زوجة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) فهي وإن كانت تركية الأصل فقد كانت تتفهم العلم وتتذوق الأدب، فأنشأت في قصرها حلقة تجتمع فيها الأديبات والعالمات ليتناقشن ويتناظرن في شتى الأمور.

وكانت أم الشريف[4]، من السيدات اللائي عرفن بالحصافة وسعة العقل وبعد النظر ولها رسائل شعرية[5] تدل على الحكمة والاتزان في الرأي، ننقل منها قولها في رسالة إلى ابن أخيها (محمد بن أحمد بن عيسى) وكان المعتضد قد بعث بجيوشه لحصاره في سنة ٢٨٦هـ، فكتبت إليه تبصره بأموره وتنبهه إلى التفكير قبل الإقدام وتذكره بعدم الثقة

---

(١) الطبري ٨/ ٢٦١ ومرآة الجنان ١/ ٣٧٠ والعيون والحدائق ٣/ ٢٩٧ والعقد الفريد ٣/ ٢٦٩ وزهر الآداب ٤/ ٩٩٢.

(٢) المرأة في حضارة العرب ص١٥٥.

(٣) أعلام النساء ٤/ ٢١٢.

(٤) أعلام النساء ٢/ ٢٩٣.

(٥) مروج الذهب ٤/ ١٧٦ ـ ١٧٧ وجمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٩٣.

برجال يحملون له الضغينة في قلوبهم، تخشى من انقلابهم عليه، وتطلب إليه أن لا يقف في وجه الخليفة المعتضد، وأن لا يمنعه مالاً ولا أهلاً ولا ولداً، فقالت:

إقبل نصيحة أم قلبها وجع ... عليك خوفاً وإشفاقاً وقل سددا
واستعمل الفكر في قولي فإنك إن ... فكرت ألفيت في قولي لك الرشدا
ولا تثق برجال في قلوبهم ... ضغائن تبعث الشنآن والحسدا
مثل النعاج خمول في بيوتهم ... حتى إذا أمنوا ألفيتهم أسدا

٢ ـ الجواري:

وكان العباسيون يحرصون على أن لا تستأثر أبصارهم وأجسادهم بالتلذذ بالجمال، وإنما كانوا يريدون إشراك أرواحهم في التلذذ بالكمال الفني والأدبي، فصارت الجارية لا تحسن عندهم لمجرد حسنها وفتنتها ورخامة صوتها ورشاقة رقصها، ولكنهم أرادوا فيها حلاوة في الحديث، وبراعة في المنطق وذكاء في الإجابة وقابلية في الشعر، إلى غير ذلك من آداب المجالسة والمناظرة والمفاكهة..

كان فيهم نهم إلى الجمال بكل أنواعه.. فكانوا ينتشون لإجابة بارعة أو نكتة ذكية أو أبيات شعر جميلة يستمعون إليها من فم جارية.. كالذي وقع لدعبل الخزاعي حينما تعرض لفتاة بباب الكرخ وقال لها:

دموع عيني لها انبساط ... ونوم عيني به انقباض

فقالت:

وذا قليل لمن دهته ... بسحرها الأعين المراض

فقال لها:

فهل لمولاي عطف قلب ... أو للذي في الحشا انقراض

فقالت مسرعة من غير تلبث:

إن كنت تبغي الوصال منّا فالوصل في ديننا قراض

فلم يسعه إلا أنه قال: فلا أعلم أني خاطبت جارية تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها، وتختلس الأرواح ببلاغة منطقها، وتذهل الألباب برخيم نغمتها مع تلاعة جيد ورشاقة قد وكمال عقل وبراعة شكل واعتدال خلق قبلها فحار والله البصر وذهل اللب وجل الخطب وتلجلج اللسان وتعلقت الرجلان وما ظنك بالحلفاء أدنيت من النار[1].

ولم يكن الخلفاء ليدفعوا في الجواري الأثمان الباهظة لمجرد الجمال، وإنما كانوا يجرون اختبارات لهن، فقد يطلب إلى شاعر معروف أن يلقي على الجارية أبياتاً لتجيزها وأسئلة لتجيبه عنها، فيكون تقدير الثمن بقدر ما تثبته من تفوق وبراعة، وهناك شواهد كثيرة على ذلك ننقل منها ما ذكره أحد النخاسين[2] وقد عرض على المأمون جارية فصيحة متأدبة شطرنجية، فساومه في ثمنها بألفي دينار. فقال المأمون: إن هي أجازت بيتاً أقوله من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك. فأنشد المأمون:

ماذا تقولين فيمن شفّه أرق من جهد حبك حتى صار حيرانا

فأجازته بقولها:

إذا وجدنا محباً قد اضرّ به داء الصبابة أوليناه إحسانا

وعن نبت جارية المعتمد على الله أنها عرضت عليه فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها، ثم قال لبعض الشعراء قارضها.. بل لقد كانوا يشترون الجارية أحياناً وما لهم فيها من أرب

---

(١) بدائع البدائه ص٤٣ والعقد الفريد ٦/ ٣٩٧.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص٣٢٣.

غير الشعر[١].

ومن هنا رأينا النخاسين يهتمون كل الاهتمام، ويحرصون كل الحرص على تثقيف الجواري وتعليمهن صنوف الآداب والفنون لأن قيمة الجارية ومكانة النخاس بمقدار ما تتقنه الجارية من آداب وفنون ومعارف.

وكانت الجواري أنواعاً مختلفة.. فمنهن التي سبيت بعد أن بلغت حداً من السن لا مجال إلى تعليمها وتخريجها في الفنون والآداب، أو تهذيبها بآداب المجتمع، وهذه يكون حظها من الرعاية قليلاً وشأنها في المنزل الذي تحل فيه هيناً، وتكون قيمتها موقوفة على ما فيها من جمال وفتوة، فإما أن تحظى لدى سيدها أو أن تكون للخدمة وأعمال المنزل.. وهي من (السواذج) اللائي لم يتعلمن أدباً أو علماً أو فناً.

ومنهن من سبيت وهي صغيرة السن قابلة على التكيف والتعلم، فتنشأ تنشئة عربية خالصة، تحذق أساليب التعبير، وتتخلق بعادات العربيات، وتلين ألسنتهن في الكلام حتى لتكاد تمحي أو تزول آثار الأصول التي انحدرت منها.

كان لهؤلاء شأن عظيم وأدب رفيع وغناء بديع، فلقد فطن أصحابهن إلى نفاسة ما في حوزتهم منهن، وعرفوا أنهم يستطيعون بشيء من العناية أن يجعلوا منهن فنانات بارعات فإن اكتمل لهن ما أرادوه من علم وظرف وفن وذكاء إلى ما فيهن من جمال ورقة ودلال صار كل يفخر بما لديه من ثمين المتاع وما تفرد به من نفائس وطرف، وعرض بضاعته النادرة هذه على الأصدقاء والإخوان ليطلعوا على ما لدى جاريته من سحر وجمال وفن وأدب ومقال.. أو ليتغزل بها الشعراء فيشتهر أمرها.. وربما عمد مالكها إلى نظم الغزل فيها ليجري على

(١) الأغاني ٢٢/٥٢٨.

الألسنة فتعز بذلك مكانته ويصير مقصد السراة والشعراء.

وكان الموصلي إبراهيم من أنشط تجار الجواري وأعظم من كسب بهن ربحاً طائلاً، وقد ذكر (ابن خرداذبة)[1] أنه أسس شركة لتجارة الجواري مع (يزيد حوراء) المغني المعروف، واقتسما الربح بينهما[2]، وكانت الجارية تشترى بالمائة والمئتين ثم تباع بعد تعليمها الغناء ببضعة آلاف.

إذن فقد كان المغنون هم تجار الجواري وكانوا هم المعلمين لهن، إلا أن بعض التجار كان يشتريهن فيدفع بهن إلى من يؤدبهن ويعلمهن.

وعن إسحاق قال: لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء، وإنما كانوا يعلمونها الصفر والسود، (وأول من علّم الجواري المثمنات أبي فإنه بلغ بهن كل مبلغ من أقدارهن، وفيهن يقول أبو عيينة بن محمد بن أبي عيينة المهلبي[3]، وقد كان هوي جارية يقال لها (أمان) فأغلى بها مولاها السوم وجعل يرددها إلى إبراهيم وإسحاق ابنه فتأخذ عنهما فكلما زادت في الغناء زادت في سومه فقال أبو عيينة[4]:

قلت لما رأيت مولى أمان ... قد طغى سومه بها طغيانا
لا جزى الله الموصليّ أبا إسحـ ... ـاق عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسلاً بوحي من الشيـ ... ـطان أغلى به علينا القيانا

---

(١) ابن خرداذبة: جده مجوسي أسلم على يد البرامكة، وكان ابن خرداذبة مؤرخاً جغرافياً اتصل بالمعتمد العباسي. له تصانيف، منها: المسالك والممالك واللهو (والملاهي) و(الشراب) و(الندماء والجلساء) و(أدب السماع) الأعلام ٤/ ٣٤٣.

(٢) نهاية الأرب ٤/ ٣٥٠ والجواري المغنيات ص٤٦.

(٣) أبو عيينة: يكنى أبا جعفر وهو ابن المهلب بن أبي صفرة. ترجمته في الأغاني ٢٠/ ١٩.

(٤) الأغاني ٥/ ١٥٦.

مـن غـنـاء كـأنـه سـكـرات الـحـ ـب يـصـبـي الـقـلـوب والآذانـا

وكان الغناء شرطاً من شروط الحسن، ومن أهم بواعث السرور في النفوس، وربما استمع الخليفة إلى صوت من الأصوات فأعجبه فأحب إلقاءه على إحدى جواريه[1] الحسان ليمتع نفسه به كلما أراد، أو ربما سمع أبياتاً من الشعر فأمر بإلقائها على إحدى جواريه من ذوات الصنعة لتلحنه وتغنيه[2].

وكانوا يؤثرون سماع الأغاني وإجادة الصنعة من النساء من ذوات الوجوه الحسنة، وكانوا يقولون إن الله لم يخلق شيئاً أوقع في القلوب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه حسن، كما قال الشاعر[3]:

رب سـمـاع حـسـن سـمـعـتـه مـن حـسـن
مـقـرب مـن فـرح مـبـعّـد مـن حـزن
لا فـارقـانـي أبـداً فـي صـحـة مـن بـدنـي

وسئل حكيم عن فرق ما بين غناء النساء والرجال، فقال: ما خلقت الأغاني إلا للغواني[4]، وقيل: نعيم الدنيا أن تسمع الغناء من فم تشتهي تقبيله، وقال الجاحظ: كم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف بصرك عنه، وأيهما أملح أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ متخلع الأسنان متغضن الوجه، أو تغنيك جارية كطاقة نرجس أو آس[5].

---

(١) نفسه ١٠/ ١٢٣.

(٢) نفسه ٢١/ ٥٨.

(٣) العقد الفريد ٦/ ٥.

(٤) محاضرات الأدباء ٢/ ٧١٨.

(٥) محاضرات الأدباء ٢/ ٧١٨.

وقد بلغت بعض الجواري نتيجة التثقيف والتعليم شأواً بعيداً في الغناء حتى صرن من أساتذته وشيوخه.. فقد اجتمع الطنبوريون عند أبي العباس بن الرشيد يوماً وفيهم المسدود[1] وعبيده، فقال للمسدود: غن، فقال: والله لا تقدمت عبيدة وهي الأستاذة، فما غنى حتى غنت. كما بلغ من براعة عريب في الغناء والصنعة، أنه ذكر أنه كان لغنائها ديوان، قال الصولي في مجال حديثه عن عريب (ولها شعر وصنعة في أشعار كثيرة، ولغنائها ديوان مفرد من شعرها والصنعة فيه لها)[2]، وقيل إن المعتمد أمر علياً بن يحيى [3] أن يجمع غناءها الذي صنعته، فأخذ منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غناءها فكتبه فكان ألف صوت[4].

وعرف أنها كانت تلحن للمعتمد بعض ما كان يرسله إليها من أشعاره وأنها كانت تقول: (ويلي إلى كم أغني في حروف ألف باء تاء ثاء) وذلك لأنها كانت تجد في شعر المعتمد ضعفاً[5].

وكانت بعض العجائز من المغنيات الحاذقات يتولين تعليم الغناء للرجال والنساء، حتى لقد طلب إلى مخارق (المغني المشهور) حينما اختل عليه صوت من الأصوات أن يلزم عجائز الحارث بن بسخنر[6] ليقوّمن أوده[7].

---

(١) المسدود: أحد المغنين في العصر العباسي.

(٢) نساء الخلفاء، ص٥٧.

(٣) علي بن يحيى: هو أبو الحسن المنجم نديم المتوكل وبقي إلى أيام المعتمد، كان راوية للأشعار والأخبار (٢٠١ ـ ٢٧٥هـ) الأعلام ٥/ ١٨٤.

(٤) الأغاني ٢١/ ٦٠.

(٥) الديارات ص٩٩.

(٦) الحارث بن بسخنر: مولى المنصور، من ولد بهرام شوبين مرزبان الري وهو حسن الغناء والنغم بقوة وشجا واقتدار على الغناء كان في زمانه أحد المعدودين فيه.

(٧) الأغاني ٢٣/ ٥٣.

وكما نبغت الجواري في الموسيقى والصنعة والغناء فقد نبغت في نظم الشعر وبرعت في روايته وتأديته حتى لقد كانت في كثير من المواقف لتثير الإعجاب والتقدير.. قيل أن الرشيد اعترض قينة فغنت:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن نقموا[1]

فلما ابتدأت به تغير وجه الرشيد وعلمت أنها غلطت وأنها إن مرّتْ عليه قتلت، فغنت:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يجهلون إن غضبوا
وأنهم معدن النفاق بما تفسد إلا عليهم العرب

فقال الرشيد ليحيى بن خالد: أسمعت يا أبا علي؟ فقال: يا أمير المؤمنين تبتاع وتسنى لها الجائزة ويعجل الإذن ليسكن قلبها، قال: ذلك جزاؤها[2].

وكانوا لا يقفون في وصف الجارية عند حد الجمال والغناء فقط، وإنما كانوا في الأكثر يشترطون فيها أن تكون شاعرة تحسن التصرف بشعرها وتجيد النظم في المواقف المختلفة.. قيل في وصف عريب: (كانت عريب مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام، ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الضرب، وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر والأدب)[3]، وقيل في وصف عنان الشاعرة: (وكانت صفراء جميلة الوجه شكلة مليحة الأدب والشعر سريعة البديهة وكان

---

(١) الأبيات للرقيات، الأغاني ٥/٧٦.

(٢) الأغاني ٥/٧٦.

(٣) الأغاني ٢١/٥٨، والمستظرف من أخبار الجواري ٣٧ ونساء الخلفاء ص٥٥، وكانت عريب كاتبة تحسن كتابة الرسائل النثرية، ولها رقاع ومراسلات كثيرة شعرية ونثرية أشار إليها عبدالله بن المعتز (المستظرف من أخبار الجواري ص٣٧).

فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم)[1]. وقد دونت كتب الأدب كثيراً من مساجلاتها ومعارضاتها للشعراء[2].

وفضل الشاعرة التي (ذكرها[3] محمد بن داود بن الجراح في كتاب الورقة في أخبار المحدثين فقال: فضل الشاعرة العبدية مولاة المتوكل أشعر امرأة كانت في هذا العصر)[4] وكانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء[5] ولها مراسلات شعرية[6].

وقيل: (كانت فضل الشاعرة من أحسن الناس خطاً وأفصحهم كلاماً وأبلغهم في مخاطبة وأثبتهم في محاورة).

وغيرهن كثيرات لا يتسع المجال لذكرهن وسنتناول ذلك خلال حديثنا عن (أدب الجواري).

إلا أنه لا بد لنا أن نوضح أن الشاعرية والبراعة في العصر العباسي لم تكن في عدد قليل من الجواري وإنما كانت مألوفة لدى الكثير منهن، ويكفي أن نلقي نظرة على كتب التاريخ والأدب والأخبار لنجد أي نوع من الجواري المثقفات حفل بهن العصر العباسي.. فقد كان منهن الجارية الكاتبة[7] والخطاطة[8] والعالمة المتكلمة[9] حتى لقد

---

(١) الأغاني ٢٢/ ٥٢١.

(٢) المستظرف من أخبار الجواري ص٣٨ والأغاني ٢٢/ ٥٢٢ و٥٣٠، وأخبار أبي نواس ص٧٨ وزهر الآداب ٤/ ٩٧١ والمحاسن والأضداد ص١٥٢ ـ ١٥٦ ونساء الخلفاء ص٤٧ ـ ٥٣.

(٣) نساء الخلفاء ص٩٠.

(٤) لم يرد هذا الخبر في المطبوع من كتاب الورقة وهذا ما يدل على أن الكتاب ناقص.

(٥) المستظرف من أخبار الجواري، ص٥١، ونساء الخلفاء، ص٨٥، وطبقات الشافعية ١/ ٢٦٣.

(٦) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٢٨٤.

(٧) ديوان السري الرفاء، ص١٦٧.

(٨) العقد الفريد ٤/١٩٨ وأدب الكتاب ص٤٨.

(٩) الأغاني ٢١/ ٩٠.

قال المأمون في إحداهن وقد سمع منها إجابات بارعة (أترى لو كان هذا من كلام النظام ألم يكن كثيراً).

وسنكتفي عند هذا القدر الموجز من بيان الحالة الثقافية للجواري وللحديث رجعة كما قلنا وسنعمل فيها على توضيح ما أشرنا إليه وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل وإبانة...

الحالة الاقتصادية

ولا بدّ لنا ونحن في مجال الحديث عن الحالة الاقتصادية للمرأة أن نفرق بين نساء القصور ونساء العامة من حرائر وجوار..

وقد لا نجد صعوبة كبيرة في معرفة المستوى الاقتصادي لنساء القصور إذ إن أخبارهن تملأ كتب التاريخ والأخبار والسير والأدب.

فالخيزران حينما خرجت عام ١٧٣[١]هـ للحج، قسّمت بالمدينة أموالاً وأجازت بجوائز عظيمة وزوجت أيتاماً وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب، وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالاً يعطون[٢]، وقد بلغت غلتها قبل موتها مائة ألف ألف وستين ألف درهم[٣].

والسيدة زبيدة قامت بالكثير من المآثر الجليلة التي خلدها التاريخ، منها حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها من كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة، فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصي ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وكذلك إنفاقها

---

(١) وهي سنة وفاتها (تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٢)، والكامل ٦/ ١١٩.

(٢) العيون والحدائق ٣/ ٢٩١.

(٣) مروج الذهب ٢/ ٢٦٣.

الألوف على المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور، وما عمّ أهل الفاقة من بذلها من المعروف والخصب[1]، إضافة إلى ما عرف عنها من إنها كانت أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر، وصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبّسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر[2]، وما عرف عنها من إنعامها على الشعراء[3] والمغنين[4] والقضاة[5]، وكانت لها ضياع كثيرة جعلت عليها وكيلاً لها.. وقيل إن داود كاتبها حبس الوكيل لحساب عن ضياع تقلدها من ضياعها وجب عليه، ولما بعث الفيض بن صالح[6] برقعة إليها يطلب فيها أن يفتديه بالمال لإطلاق سبيله، وقعت في رقعته: (أنا أولى بالمكرمة من الفيض بن صالح، فاردد عليه كتابه بالمال، وادفع إليه الرجل)[7].

هذه الأمور وأمثالها توقفنا على الرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به السيدات الحرائر في القصور.

وممن اشتهرت أخبارهن بالغنى والثروة، بوران بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون، وأخبار زواجها به تتردد في الكثير مما سجل تاريخ ذلك العصر[8].

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٣ ووفيات الأعيان ٢/ ٣١٤ ومروج الذهب ٤/ ٤٤٤.
(٢) مروج الذهب ٤/ ٢٤٤.
(٣) الأغاني ٨/ ٣٧٢، ٤/ ٦٨.
(٤) الأغاني ٨/ ٣٧٢.
(٥) مروج الذهب ٣/ ٢٦٠.
(٦) من سادة العصر وكرمائه.
(٧) الوزراء والكتاب ص١٦٥ والفرج بعد الشدة ص١٢١.
(٨) تاريخ الطبري ٨/ ٦٠٦ ـ ٦٠٩.

وعلية بنت المهدي وأخبار ترفها وبذخها... ويشير الأصفهاني إلى أنه كان لها وكيل يقال له سباع خانها في أموالها فحبسته[1].

وممن يذكر في هذا المجال قبيحة زوجة المتوكل حتى ذكر ابن الأثير أنهم وجدوا عندها مليوناً وثمانمائة ألف دينار[2].

وتذكر أيضاً السيدة أم المقتدر، وكانت غاية في الغنى والثراء[3] قيل إن خزينة الدولة قد اعتمدت على أموالها ومساعداتها في بعض الملمات، فمن ذلك أنها قدمت للدولة مبلغ خمسمائة ألف دينار، في سنة ٣١٥هـ للمساعدة على صد جيوش القرامطة عن الكوفة[4]. وقد عرفت السيدة بنهمها في حب المال من مختلف المصادر، ويشير ابن الجوزي إلى ذلك بقوله: (كانت لها أموال عظيمة تفوق الإحصاء، وكان يرتفع لها من ضياعها كل عام ألف ألف دينار)[5].

ويذكر أن الخليفة القاهر بعد اعتقاله المقتدر (ضربها أشد ما يكون من الضرب لتعترف بما لديها من المال والمصوغ والثياب ولكنها لم تعترف بشيء)[6].

وذكر عن جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني أخت أبي تغلب وشريكته أنها حجت في سنة ٣٦٦هـ فضرب بحجها المثل، فقد استصحبت أربعمائة جمل وكان معها عدة محامل لم يعلم في أيها

(١) سيدان البلاط العباسي ص٣٥، الأغاني ١٠/ ١٩٣.

(٢) عصر الخليفة المقتدر بالله/ أطروحة، ص٦٥ عن ابن الأثير ٥/ ٣٤١. وكان قسيم الجوهري يشرف لها على ضياعها بواسط (الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص٣٨).

(٣) نشوار المحاضرة ١/ ٢٩٣.

(٤) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ج١ ص٥٥.

(٥) المنتظم ٦/ ٢٥٣.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

كانت، ونثرت على الكعبة لما رأتها عشرة آلاف دينار، وسقت جميع أهل الموسم السويق بالسكر والثلج وأعتقت ثلاثمائة عبد وجارية وأغنت المجاورين بالأموال وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب[1].

ولا نرى حاجة إلى الإفاضة في تفصيل ما ورد في أخبار غنى سيدات القصور، ونكتفي بهذا القدر لدلالته على مستوى الحياة المترفة الباذخة التي كانت تحياها نساء القصور والخلافة. .

وتشاركهن في الثروة وعيش حياة الترف، الجواري اللائي كان لهن أن يصطفين لخدمة القصور وإدخال البهجة إليها. . إلاّ أنهن في ذلك على درجات حسب مواقعهن لدى أصحابها ومنزلتهن فيها. . . فقد عرف عن عريب أنها كانت تغلف شعرها بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً، وتغسله من جمعة إلى جمعة، فتقتسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير، وما تسرحه منه بالميزان[2].

وعرف عن ذات الخال (خنث) أنه لما بعث الخليفة الرشيد في طلبها (استأجر لها حمويه) من بعض الجوهريين بدنة[3] وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار فأخرجها إلى الرشيد وهو عليها، فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويه من أين لك هذا، وما وليتك عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك مني بهذا القدر؟ فصدقه عن أمره، فبعث الرشيد إلى أصحاب الجوهر فأحضرهم واشترى الجوهر منهم ووهبه لها)[4].

وقيل إن الرشيد وهب الجارية دنانير في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار[5].

---

(١) لطائف المعارف ص٨٢.
(٢) الأغاني ٢١/٨٨.
(٣) البدنة: قميص لا كمين له تلبسه النساء.
(٤) الأغاني ١٦/٢٦٦.
(٥) المستظرف من أخبار الجواري ص٢٨.

ويذكر عن الخليفة المقتدر أنه (كان يدعو بالأموال ويفرقها على الجواري والنساء فيلعب بها ويمحقها ويهبها)[١] وقد أعطى بعض حظاياه الدرة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل)[٢].

وكثيراً ما كان الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم من سائر الموسرين يهبون الجواري المبالغ الطائلة لشعر قالته الجارية أو لجواب بارع أجابته به[٣]، وكان من الجواري من تثرى حتى لتستطيع أن تتحف الشعراء بالهدايا والأموال في حضرة الخلفاء بما يقارب هديتهم، ومن ذلك ما أمرت به (ماردة) جارية الرشيد للعباس بن الأحنف وكان قد قال فيها شعراً أعجب الخليفة وطابت له نفساً[٤].

وذكر عن (فضل) الشاعرة أنها بعثت هداياها إلى سعيد بن حميد الكاتب وكان قد افتصد ألف جدي وحمل وألف دجاجة فائقة وألف طبق ريحان وفاكهة ومع ذلك طيب كثير وشراب وتحف حسان[٥].

وربما تبادلت الجواري الهدايا بينهن وتبارين في التهادي بالتحف النفيسة ومن ذلك ما يروى عن مؤنسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهاشمية جارية علي بن هشام في يوم احتجمت فيه مخنقة (قلادة) في وسطها حبة ـ لها قيمة جليلة ـ كبيرة وعلى يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب وباقي المخنقة قد طيّب بغالية[٦].

---

(١) سمط النجوم العوالي ٣/ ٣٥٤.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص٣٨٤.

(٣) نساء الخلفاء ص٨٦.

(٤) المستظرف من أخبار الجواري ص٦١ ووفيات الأعيان ١/ ٤٢.

(٥) الأغاني ١٨/ ١٠٠، المحاسن والأضداد ص١٥٧ ومحاضرة الأبرار ١/ ١٢٨.

(٦) الأغاني ٧/ ٢٩١.

وممن كان يثري من جواري القصور (القهرمانات) وبلغ الأمر أشده في عصر (المقتدر) حيث استطاعت القهرمانات أن يصلن إلى درجات في الأمر والنهي مما أدى إلى كثرة إغداق الأموال عليهن من الأمراء وذوي الحاجات الذين كانوا يتوسلون إليهن بمختلف الوسائل للوصول إلى المناصب أو الرتب التي يبغونها أو لمساعدتهم على تذليل بعض العقبات فقد استخرجت من أم موسى الأموال والجواهر الكثيرة[١]، حتى اضطر (علي بن عيسى)[٢] إلى استحداث ديوان جديد لإدارة الأموال المقبوضة منها سماه (ديوان المقبوضات عن أم موسى)[٣] بعد قتل المقتدر.

وتذكر من القهرمانات اللائي أثرين في عهد المقتدر (زيدان) وقد نالت نصيبها الوافر من كلام الخليفة حتى تمكنت من جواهر الخلافة فحصلت على سبحة ثمينة كان يضرب بها المثل في الندرة والنفاسة وقدرت قيمتها بثلاثمئة ألف ألف دينار[٤].

أما سائر النساء، فتشير الأخبار إلى أنه كان لبعضهن أموال خاصة بهن، تنحدر إليهن إما عن طريق الإرث[٥]، أو عن طريق ما يملكهن أزواجهن من صداق[٦]، أو أولياؤهن[٧] من عطايا وهبات في مختلف المناسبات، أو عن طريق قيامهن ببعض الأعمال[٨] التي يزاولنها، وكان

---

(١) تاريخ الإسلام ٧ الورقة ٢٣.

(٢) علي بن عيسى: وزير من وزراء المقتدر، استطاع أن يصلح بعض شؤون الدولة وأن يكون مثلاً في الاقتصاد والتدقيق والكفاءة/ الوزراء ص٣٠٦.

(٣) تجارب الأمم ١/ ٨٤ ولطائف المعارف ص٨٢.

(٤) المنتظم ٦/ ٧٠.

(٥) المحاسن والأضداد ص١٩٢ والأذكياء ص١٢٢.

(٦) الأمالي ١/ ٢٨٣ والأذكياء ص٧٨ وص١٢٢.

(٧) الأغاني ٢٣/ ٣١ والعصر العباسي الأول ص٣٣١.

(٨) المستظرف من أخبار الجواري ص٢١ والأذكياء ص٦٣.

لهن حق التصرف بأموالهن في حاجاتهن ومطاليبهن الخاصة من الأمور الدنيوية كشراء الأثاث[1] والحلى[2] والملابس، أو شراء الجواري[3] لمساعدتهن على الأعمال البيتية.

أعمال المرأة:

ولعل من المفيد ونحن في مجال الحديث عن مالية المرأة في العصر العباسي أن نشير إلى بعض الأعمال التي قامت بها بعض النساء من الحرائر والجواري وربما كانت أكثر الأعمال موقوفة على الجواري والإماء لعدم التحرج في الإذن لهن بمزاولة ما يستدعي التنقل من مكان إلى آخر أو يستوعب مجالسة الرجال والتحدث معهم بحرية تامة.. وقد يتساهلون مع الحرائر اللائي بلغن سناً لا يخشى عليهن فيه من مخالطة الرجال عندهم.

ومن الأعمال التي قامت بها الجواري[4] بصورة خاصة، الخط والكتابة، فقد وردت إشارات عدة إلى المرأة الكاتبة والخطاطة.. وتناول أبو بكر الصولي (ت٣٣٦هـ) ذكر ما استحسن من خط الجواري[5] أسوة بما ذكره من خط الكتاب.

وكان الخط كما يبدو مظهراً من المظاهر الثقافية التي يستحسن توفرها في الجارية، فمن ذلك أن المأمون نظر مرة إلى جارية من جواريه

---

(١) الأوراق ص٢٤ والمحاسن والأضداد ص١٩٢.

(٢) المنتظم ٥/١٢٧.

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين ص٥٦ والأذكياء ص٧١.

(٤) على أن من أكثر الأعمال التي امتهنتها الجواري الغناء والرقص.. وسنفرد فصلاً للحديث عن (القيان)، تنظر ص(٢١٧).

(٥) أدب الكتاب ص٥٠.

تخط خطاً حسناً فقال فيها[1]:

وزادت لدينا حظوة حين أطرقت وفي إصبعيها أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المنى وهو أعجف

وكثيراً ما نجد الشعراء والكتاب يتغزلون بجمال الجارية وبحسن خطها في آن واحد.. قال القضافي[2] يصف جارية كاتبة[3]:

أفدي البنان وحسن الخط من علم إذا تقمص بالحناء فالكتم
كأنما قابل القرطاس من يدها شبهاً ثلاثة أقلام على قلم

وقال أحمد بن صالح[4] يصف جارية كاتبة ويشبه خطها الجميل بصورتها، ومدادها الأسود بشعرها الفاحم وقرطاسها ببياض وجهها، وقلمها بأناملها الرشيقة.. ثم يشبه سكينها بسيف نظراتها ومقطها بقلب محبها، قال[5]:

(كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بنانها سحر مقلتها، وكأن سكينها سيف ألحاظها، وكأن مقطها قلب عاشقها).
وأشار السريّ الرفاء إلى أن المرأة كانت تمتهن كتابة الحديث في قوله:

ولقد مررت على المحدّث مرة وإذا بحضرته ظباء رتّع
وإذا ظباء الإنس تكتب كلَّ ما يملي وتثبت ما يقول وتسمع
يتجاذبون الحبر من ملمومة بيضاء تحملها علائق[6] أربع

---

(١) العقد الفريد ٤/ ١٩٨.
(٢) أدب الكتاب ص٨٩.
(٣) أدب الكتاب ص٨٩.
(٤) أدب الكتاب ص٤٨.
(٥) ديوان السري الرفاء ص١٦٧ ـ ١٦٨.
(٦) علائق: العلاقة: ما علقته به، والعلق والعلقة: الحبل المعلق بالبكرة، اللسان/ علق.

من خالص البلور غبر لونه فكأنه سبج[1] يلوح ويلمع

واشتغلت المرأة حجامة للنساء، وإلى ذلك يشير السري الرفاء بقوله معزياً صديقاً بزوجته الحجامة:

فقدت أبا عمران عرساً شفيقة لها لوعة يدمى عليك رسيسها
وكاتبة أقلامها حين تنتضي[2] حديد وأعناق النساء طروسها[3]
وأبقت فراخاً حين أعدمن زقّها تصرّم نعماها وعاود بوسها

وقد يستفاد من المرأة الحجامة في أعمال التجسس ومعرفة أخبار المنازل لقاء راتب شهري يمنحه لها المسؤولون في الدولة، ومن ذلك ما يذكره البيهقي عن امرأة جيء بها إلى أبي جعفر ليسألها عن (محمد بن عبدالله)[4] ومكانه.. ولما استمرت على الإنكار فاجأها بقوله: (أتعرفين فلانة الحجّامة)؟ فاسود وجهها وتغيرت وقالت: (نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم)، قال: (صدقت هي والله أمتي ابتعتها بمالي، ورزقي يجري عليها في كل شهر، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف أخباركم...إلخ)[5].

وقيل إنه (كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بهن أحوال

---

(١) السبج: خرز أسود، دخيل معرب، وأصله سبه.

(٢) تنتضي: نضا السيف نضواً وانتضاه: سلّه من غمده (اللسان/ نضا).

(٣) طروسها: الطرس: الصحيفة (اللسان/ طرس).

(٤) محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية وبالأرقط وبالمهدي وهو أحد الأشراف من الطالبيين. لما بدأ الانحلال في دولة بني أمية بالشام، اتفق رجال من بني هاشم على بيعته سراً، وكان من دعاته أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور ثم قامت دولة العباسيين فتوارى هو وأخوه بالمدينة ولم يفدا على السفاح أو المنصور، قاومه المنصور حتى قتل (الأعلام ٧/ ٩٠).

(٥) المحاسن والمساوىء ص١٦٠.

الناس من الأشقياء ومن يحبه يبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن)[١].

وقد يبدو في هذا الخبر شيء من المبالغة، إلاّ أنه على كل حال يشير إلى أن المرأة كانت تمارس عمل التجسس لقاء أجر بلا شك.

ويشير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي إلى أنه اجتاز يوماً بموضع فرأى جبانة تعمل جبناً، فقال[٢]:

وزولــة[٣] مــقــربــة مــســنّــه ... ريـفـيّـة تـقـذف بـالـجـبـنّـه
فـي قـالـب أسـفـلـه مـشـنّـه[٤] ... ثـم بـدت بـيـضـاء مـقـبـثـنـه[٥]
وحـولـهـا غـيـد كـأنـهـنّ ... بـرزن مـن حـور نـسـاء الـجـنـه

ومن الأعمال التي كثيراً ما كانت تقوم بها الحرائر والجواري، الغزل، وهي من الأعمال التي استحبت للمرأة لأنها ملهاة أمينة مربحة حتى لقد أجاب الخليفة أبو جعفر المنصور أحدهم حينما جاء يشكو له كثرة عياله من البنات بقوله: (أنت أيسر العرب أربعة مغازل يدرن في بيتك)[٦] وكأن من الواجب أن يكون لكل بنت مغزل.

وقد جعل الإمام الغزالي ملازمة المرأة للمغزل من أهم نصائحه حينما عدد آداب المرأة[٧].

---

(١) بين الخلفاء والخلعاء ص٩٣.

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ص٤٢١.

(٣) امرأة زولة: برزة للرجال ذات فطنة وظرف.

(٤) المسنّة: كالمكتل، والمكتل: الزنبيل.

(٥) مقبثنة: منقبضة عن الناس.

(٦) تاريخ الطبري ٨/ ٧٥.

(٧) أحياء العلوم ٢/ ٦١.

وذكر عن (واصل بن عطاء)[1] أنه لم يكن غزالاً، ولكنه كان يلقب بذلك لأنه كان يلازم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته عليهن)[2].

وأكد أبو العلاء المعري ضرورة لزوم النساء للمغازل وفضلها على الأقلام بقوله[3]:

فحمل مغازل النسوان أولى ... بهن من اليراع مقلمات

وكان الغزل مورد رزق جيد للمرأة تقضي به حاجاتها المختلفة[4] للدنيا والدين حتى جعله أحمد بن حنبل أحل رزق للمرأة[5]، لها أن تحج به إذا شاءت.

وهناك الكثير من الأعمال التي أشير إليها مما تقوم به النساء، فقد اشتغلت بعضهن ماشطات[6] أو خبازات[7] في بيوت الموسرين أو غسالات[8] للموتى أو مولدات للنساء أو نائحات في المآتم[9] وغيرها من الأعمال التي فرضتها الظروف الاجتماعية المعاشية. إضافة إلى أن البعض منهن كان يساعد الأزواج في أعمالهم وحرفهم[10] إذا ما اتخذوا

---

(١) واصل بن عطاء: هو رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزالهم حلقة درس (الحسن البصري)، لم يكن غزّالاً وإنما لقب به لتردده على سوق الغزالين (ت١٣١هـ) الأعلام ٩/ ١٢١.

(٢) الكامل ٣/ ١٩٢.

(٣) بشار بن برد ص٦٦.

(٤) الأذكياء ص٦٣ وتاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٦.

(٥) المستظرف من أخبار الجواري ص٢١.

(٦) نفس المصدر والصفحة، أخبار النساء ص١٠٨.

(٧) المنتظم ١٠/ ٦٩.

(٨) أخبار الحمقى ص١٠٩.

(٩) الإعجاز والإيجاز ص١٣٢ والأغاني ٤/ ٢٦.

(١٠) العامة ص٥٤.

من بيوتهم دكاكين لهم.

من كل ذلك نستخلص أن المرأة في العصر العباسي كانت تتمتع بشيء من الاستقلال الاقتصادي[1]، وبسند اقتصادي يدعم لها حرية التصرف في بعض الأمور.

المرأة والسياسة

وكان للمرأة دور مهم في السياسة إلاّ أن هذا الدور قد لا يبدو لأول وهلة ساخراً للعيان بحكم كون الرجل هو القائد الموجه في جل المواقف السياسية. ويتجلى دورها في مواقف قد تبدو هينة في مظهرها إلاّ أنها على غاية من الأهمية والفاعلية..

وسنعرض في هذا المجال مساهمات المرأة في السياسة ونبين أدوارها بما يتيسر لدينا من معلومات وملاحظات.

ورغم عدم وضوح الأدوار المباشرة التي قامت بها المرأة في التهيئة للثورة العباسية فقد ترددت بعض الأسماء في أخبار الدعوة مشاركات في المواقف ومناصرات بالأموال.. قيل: (وكانت المرأة لتخرج من جميع حليها الذي على جسدها فتبعث به)[2] لنقباء الدعوة وأعلامها.

وقد تردد ذكر بعض الشخصيات النسوية في هذا المجال فقد (بعثت أم الهيثم امرأة أبي عون[3] بثلاثة أبرد وبر من غزل يدها وسواري فضة)[4].

---

(١) المنتظم ٥/ ١٢٧ والمحاسن والأضداد ص١٩٢ والأوراق ص٢٤ وأخبار الحمقى والمغفلين ص٥٦ والأذكياء ص٧١.

(٢) أخبار الدولة العباسية ص٢٢٤.

(٣) أحد رجالات الدعوة العباسية.

(٤) أخبار الدولة العباسية ص٢٢٤.

أما (ماوية بنت عمرو بن سعيد) وهي بنت خالة عامر ـ أحد رجال الدعوة ـ وكانت قبلت الدعوة عنه ـ فخلعت ما كان عليها من حلي فبعثت به، وكان سواري ذهب وطوق ذهب وخاتم ذهب وخلخال فضة)[1].

ولا يمكن أن يقف دور المرأة عند تقديمها الأموال والحلي فقط فقبولها للدعوة معناه إيمانها بالفكرة والإيمان بالفكرة يدفع إلى العمل والتضحية حتماً. ولا أشك أن لها أدواراً أخرى ربما سيتهيأ لها من يكشف عنها ليعزز لنا دور المرأة وأهميتها في المجال السياسي.

وقد وردت إشارة تفيدنا في ذلك أن امرأة تدعى (سعيدة) (كانت قد اتخذت للمسلمين سرباً في دارها يجتمعون فيه بالليل)[2].

أما الحركة الإباضية فقد أولت المرأة في مرحلة التخفي والكتمان وبعدها اهتماماً كبيراً.. فذكرت لها مشاركاتها في تحمل مسؤولياتها وإبداءها المقدرة الكبيرة في حفظ أسرار الدعوة والتكتم عليها..

وكان المرأة الإباضية على درجة من المعرفة السياسية والتنظيمية نتيجة للإعداد والدروس التي كانت تتلقاها عن مشايخ الدعوة فقد كان (جابر بن زيد)[3] يزور الإباضيات لغرض تعليمهن وكانت (عاتكة بنت المهلب) تسأله ويجيبها[4].

كما كانت الدروس الفكرية تقام على شكل مجالس ثقافية تتعلم فيها المرأة، وكانت بيوت النسوة العجائز عبارة عن خلايا يجتمع فيها

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الحركة الأباظية ص٨٣ عن السيد للشماخي ص١٠٨.

(٣) من أعلام الإباضية.

(٤) الحركة الإباضية ص٨٣.

الإباضية دفعاً للشبهة ولعدم وجود الرقابة والرصد عليها[١].

إن هذا الإعداد الفكري والتنظيمي مكن المرأة الإباضية من المشاركة في خوض المعارك الحربية التي خاضها الإباضية فيما بعد.

يتضح مما مر بنا من ملاحظات الدور الذي قامت به المرأة في الإعداد للثورات والتهيئة لها.. كما يتبين مدى الاهتمام بتثقيفها ثقافة فكرية تؤهلها لتأدية واجباتها في المجال السياسي.

وعرف بعد ذلك للنساء دور في تسيير أمور الدولة وتوجهها كن فيه قادرات على تذليل ما صعب ونيل ما بعد، وكان تقدير سلطاتهن ونفوذهن في ذلك بمقدار ذكائهن وبراعتهن وسعة اطلاعهن أحياناً أو بما لهن من مكانة وتأثير في نفوس الخلفاء أو ولاة الأمور.. وهو إما دور مباشر، أو دور غير مباشر يقوم على الشفاعات والتأثير وإبداء المشورة.

ورغم ما عرف عن بعض الخلفاء من أنهم أداروا أمور الدولة بعيداً عن الكثير من المؤثرات فقد كان لنساء البعض منهم سلطان عليهم، (فأم سلمة)[٢] حظيت عند أبي العباس السفاح فحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى (وغلبت عليه غلبة شديدة حتى كان لا يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها)[٣].

ولم يكن العباسيون أول الأمر ليسيغوا إبراز دور المرأة، وربما كان لموقف الهاشميين (خصوم العباسيين) من المرأة أثره في تهوين أمرها في نظر خلفاء بني العباس، إذ كان الهاشميون يفخرون بأمومة

---

(١) المصدر نفسه ص٨٤.

(٢) هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبدالله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، كانت عند عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك فهلك عنها ثم كانت عند هشام فهلك عنها، ثم تزوجها أبو العباس السفاح.

(٣) مروج الذهب ٣/ ١٩٠.

النساء الفضليات من العرب في حين أعيا الخلفاء العباسيين هذا الفخر لأن جلهم نسل إماء، وقد ظلت المرأة مثار ألم الخليفة أبي جعفر المنصور[1] حتى آخر عهده في الدنيا فكانت آخر وصية له لولده المهدي: (وإياك والاستماع لمشورة النساء وأظنك ستفعل)[2].

وقد عبر صراحة عن ذلك الموقف في كتاب أرسله إلى أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن الحسن: (بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد: فلقد بلغني كلامك وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة الغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أباً وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا (قال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام: واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً، وأنه لم تلدك العجم ولم تعرّف فيك أمهات الأولاد فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرًّا، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً، فإنك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولاداً وآخراً (إبراهيم)[3] بن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلاّ بنو أمهات أولاد. وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد)[4].

وبدأ سلطان المرأة يقوى منذ تولي المهدي الخلافة وتزوجه الخيزران[5] (وكان المهدي سمحاً رضي الخلق صفي النفس قطيع الخنا

---

(١) كانت أم الخليفة أبي جعفر أم ولد يقال لها سلامة (بربرية).

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ١٠٤.

(٣) أم إبراهيم عليه السلام مارية التي أهداها المقوقس عظيم القبط إلى رسول الله ﷺ.

(٤) أم علي زين العابدين سبية من بنات يزدجرد (انظر ابن خلكان ١/ ٣٢٠).

(٥) الطبري ٣/ ٤٦٦ والكامل ٥/ ٥٣.

ضاحك السن قليل الأذى والبذاء)[1] (وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية تحب النفوذ وتهوى السلطان، وقد وجدت في أخلاق المهدي ما وافق طبيعتها وشجعها على التمادي، فكانت تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض)[2].

ولما مات المهدي وتولى الهادي الخلافة أرادت الخيزران أن يتسع سلطانها ويمتد نفوذها إلاّ أن الهادي كان يختلف اختلافاً بيناً عن المهدي فقد كان على حد قول الجاحظ[3]: (شكس الأخلاق، صعب المرام قليل الإغضاء سيىء الظن) (وكانت الغيرة من أبرز صفاته)[4].

وكان يتصل بالهادي وصول القواد إلى أمه الخيزران يؤملون بكلامها قضاء حوائجهم عنده، وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي[5]، فكان يمنعها ذلك وأرسل إليها (ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلواتك... إلخ)[6]. ولما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده قال يوماً وقد جمعهم: أيما خير أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقولوا: فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منّا يحب ذلك قال: فما بال الرجال يأتون إلى أمي فيتحدثون بحديثها...؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشق ذلك عليها

---

(١) التاج للجاحظ ص٣٥.

(٢) الفخري ص١٦٧.

(٣) التاج ص٣٥.

(٤) الكامل في التاريخ ٦/ ٢٩.

(٥) تاريخ الطبري ٨/ ٢٠٦ ومروج الذهب ٣/ ٣٣٧.

(٦) العيون والحدائق ٣/ ٢٨٣.

فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة[١]. وقيل إنها سعت إلى قتله[٢] لمواقفه منها في تحديد سلطاتها.

ولما كانت الخيزران قد لعبت دوراً كبيراً في مجيء الرشيد فلا بدّ أن يستمر نفوذها فترة حكمه.. ولهذا كانت الناظرة في الأمور في عهده، وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأيها[٣]، وكان الرشيد لا يعصي لها أمراً.

وذكر الطبري أن الرشيد لما عاد من دفنها، دعا الفضل بن الربيع وقال له: وحق المهدي: إني لأهم لك من الليل بشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها[٤]، فانتزع خاتم الدولة من جعفر وحول جزءاً من صلاحياته إلى خصمه وخلفه (الفضل بن الربيع).

وكان للسيدة زبيدة زوجة الرشيد مواقف معروفة تدل على توجيهها لبعض الأمور السياسية في عهد الرشيد.. فقد بايع بولاية العهد لابنه محمد الأمين وله يومئذٍ خمس سنين لحرص أمه زبيدة على ذلك[٥].

وقيل إنها اعترضت على الرشيد في توليته محمد الأمين العراق فقالت له: (ما أنصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواعد وصيّرت ذلك إلى عبدالله دونه)، فقال لها: وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال: إني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٢٠٦ ومروج الذهب ٣/٣٣٨.

(٢) ويرى بروكلمان (أنه قتل بتحريض أمه ما في ذلك شك): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص١٨٥.

(٣) الطبري ٨/ ٢٣٤.

(٤) نفسه ٨/٢٣٨.

(٥) تاريخ الخلفاء ص٢٩٠.

ولعل من المفيد أن نقف موقف الحذر والدقة من قبول كل ما نسب إلى الأمين من صفات وما نسب إلى الرشيد من أقوال قالها في عدم الثقة به، وفي تمجيد المأمون وإسباغ صفات البطولة والحكمة عليه. فقد كان هناك صراع عنيف بين العرب والفرس أدى إلى القضاء على البرامكة في عهد الرشيد. ولم يكن ذلك بقادر على إيقاف التيار الفارسي العنيف أو الحد منه، وإنما زاد الصراع التهاباً، كالذي يحصل عادة من رد فعل للتيارات القوية إذا ما أريد إيقافها، فكان الأمين الذي يمثل الجانب العربي الضحية، حيث شوهت شخصيته وعبث بأخباره في الوقت الذي رجحت فيه شخصية المأمون الذي يمثل الاتجاه الفارسي.

إلاّ أن ـ مما ينصف الأمين ويدل على بعد نظره ورجحان تفكيره بعض ما وصلنا من رسائله التي كان يتبادلها مع أخيه المأمون أو مع عدد من قواده وولاته[1]. وكان فيها رجلاً ذا علم وعقل وبصيرة يقلب الأمور جهده لولا أن الأمر غلبه بعنف التيار الأعجمي وطغيانه..

ولا بدّ لنا بعد هذا أن نوضح أن غاية ما عرف للسيدة زبيدة من نشاط سياسي لم يكن ليتجاوز حرص الوالدة على تولية ابنها من جهة، وحرصها على أن لا يخرج الأمر إلى أيدي الفرس بتولية المأمون.. ويذكر التاريخ مواقفها في ذلك وكرهها للبرامكة وخشيتها من استفحال أمرهم وعملها على الحد من سيطرتهم، حتى قيل إنها كانت ممن حرض الرشيد على القضاء عليهم[2] حينما استفحل أمرهم وقوي سلطانهم.

إلاّ أنها كانت تحسن التصرف في جميع أحوالها سواء أكانت غالبة

---

(١) ينظر تاريخ الطبري ٨/ ٣٨٠ ـ ٣٨٥، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٩٣... إلخ، وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦٣.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٧٢.

أم مغلوبة، ولا أدل على ذلك من وصيتها لعلي بن عيسى بن ماهان[1] حينما شخص إليها قبل سفره لحرب المأمون[2]:

(يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري، فإني على عبدالله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغارّه[3] على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فاعرف لعبدالله حق والده وأخوته، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره، ولا تقتسره[4] اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراده، ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت: إن صار في يدك فقيّده، فقال لها: سأقبل أمرك وأعمل بطاعتك).

ويذكر التاريخ كذلك عن (زينب بنت سليمان)[5] أنه لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون إليها وكانت أقعد ولد العباس نسباً وأكرمهم بيتاً فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين في تغييره الخضرة، فضمنت لهم ذلك وجاءت إلى المأمون فقالت[6]: يا أمير المؤمنين إنك على بر أهلك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منهم على برهم لنا من

---

(١) علي بن عيسى بن ماهان: من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين وكان ممن حرض الأمين على خلع المأمون في حربه مع المأمون. الأعلام ٥/ ١٢٣.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦ وجمهرة خطب العرب ٣/ ١٠٤.

(٣) غاره: أنقصه. يقال في التحية: لا تغار: أي لا تنقص. (اللسان/ غرر).

(٤) اقتسر: القسر: القهر على الكره، قسره واقتسره: غلبه وقهره (اللسان/ قسر).

(٥) زينب بنت سليمان: من ربات النفوذ والسلطان والعقل والرأي والفصاحة. ينظر أعلام النساء ٢/ ٦٨ ومروج الذهب ٣/ ٢٣٦.

(٦) أعلام النساء ٢/ ٦٩.

غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك، فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحداً فيما كان منك، قال لها: يا عمة ما كلمني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك وأقصد لما أردت.. وبرر لها عمله إلاّ أنه ختم ذلك بقوله: ولا يكون بعد هذا إلاّ ما تحبون، ورجع إلى لبس السواد.

ويذكر التاريخ أم الشريف بكثير من الهيبة والاحترام.

أورد المسعودي[1] عن شعلة بن شهاب اليشكري[2]، أنه قال:

وجه بي المعتضد إلى محمد[3] بن أحمد بن عيسى بن الشيخ لآخذ بالحجة عليه، فلما سرت إليه واتصل الخبر بأم الشريف أرسلت إليّ فقالت: يا بن شهاب كيف خلفت أمير المؤمنين، قال فقلت: خلفته والله ملكاً جذلاً وحكماً عدلاً أمّاراً بالمعروف فعالاً للخير متعززاً على أهل الباطل متذللاً للحق لا تأخذه في الله لومة لائم. قال فقالت لي: هو والله أهل لذلك ومستحقه ومستوجبه وكيف لا يكون كذلك وهو ظل الله الممدود على بلاده، وخليفته المؤتمن على عباده، أعزّ به دينه وأحيا به سنته وثبّت به شريعته، ثم قالت لي: وكيف رأيت صاحبنا؟ تعني ابن أخيها محمد ابن أحمد، قال فقلت: رأيته غلاماً حدثاً معجباً قد استحوذ عليه السفهاء فاستبدّ بآرائهم وأنصت لأقوالهم، فهم يزخرفون له الكلام، ويوردونه الندم، فقالت لي: فهل لك أن ترجع إليه فلعلنا أن نحل ما عقده السفهاء قال: قلت: أجل، فكتبت إليه كتاباً لطيفاً حسناً أجزلت فيه الموعظة وأخلصت فيه النصيحة، وكانت مشورتها عليه هي

---

(١) مروج الذهب ٤/ ١٧٥.

(٢) شعلة بن شهاب اليشكري: من رجال المعتضد وجهه إلى محمد بن أحمد بن عيسى سنة ٢٨٦هـ.

(٣) محمد بن أحمد بن عيسى ابن الشيخ عبدالرزاق. تحصن بأمه وفاة أبيه. ولكن المعتضد غلبه ثم عفا عنه.

الواقعة.. إلاّ أنه لم يمتثل بها فلقي ما لقي، إلاّ أنها لم تلبث أن أصلحت الموقف وتداركته مع المعتضد بحسن تدبيرها وسياستها[1].

ورغم هذه المواقف المشهودة لما مرّ بنا من سيدات العصر العباسي فلم نذكر لهن مواقف صريحة في الحكم كالذي عرف (لست الملك) أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر (٣٨٦ ـ ٤١١هـ)، فقد لعبت دوراً في التاريخ الإسلامي لم تقم به سيدة أخرى، ذلك أن أخاها الحاكم بأمر الله كان متقلب الرأي مقرباً للباطنيين، وكان يقدم البربر والترك على المصريين مما حملهم على كرهه وسبه، فكانوا يكتبون إليه الرقاع وفيها السباب والشتائم والدعاء عليه[2].

وكانت أخته (ست الملك) من أحسن نساء زمانها عقلاً وأشدهن حزماً وعزماً، فنالت في أول الأمر ثقة الخليفة حتى صار لا يقطع في أمر إلاّ برأيها، وحظيت بمحبة الناس فصاروا يفضلونها على أخيها، ولما أفضت الوقيعة بينه وبين المصريين إلى قيامهم بالثورة التي أخمدها بالسيف اتهم أخته (ست الملك) بأن لها ضلعاً فيها، فأوجس الحاكم بأمر الله خيفة من أخته وشرع يترقب الفرص لقتلها[3] ولكنها سبقته فتآمرت عليه مع (دارس) أحد قواده. ولما أيقن الناس بقتله اجتمعوا عليها وولوها وصية على ابن أخيها الظاهر لصغر سنه.. وأنفذت الكتب إلى البلاد[4]، وفي الغد حضر ابن دارس ومعه أركان جيشه بأمر من ست الملك، فأوعزت إلى خادم لها فضربه بالسيف فقتله وهو ينادي: يالثارات الحاكم. وقد قوبل عملها بالامتنان من الشعب، وراحت ست الملك تصرف أمور الدولة أحسنت إلى الناس ورتبت الأمور وباشرت

---

(١) مروج الذهب ٤/١٧٦ وأعلام النساء ٢/٢٩٣.

(٢) المرأة في حضارة العرب ص٢٠٨.

(٣) المختصر في أخبار البشر ٢/١٥١.

(٤) المصدر السابق.

تدبير الملك بنفسها وقويت هيبتها عند الناس، وعاشت بعد قتل الحاكم أربع سنين ثم ماتت. فكان بدء انحطاط الدولة الفاطمية في مصر.

وامتاز القرن الرابع بصورة خاصة بدور القهرمانات والجواري، وكان أصل عمل القهرمانة في بلاط الخليفة أن تؤدي الرسائل من الخليفة إلى الوزير[1]، وإلى ذلك أشار الجاحظ بقوله: (إنه لم يزل للملوك إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن الدواوين ويجلسن للناس)[2]. وقامت بعض النساء بنقل الرقاع والمراسلات في بعض الظروف والمواقف كالخلاف بين الأمين والمأمون، أو بين الخلفاء وبعض الأمراء والقواد.

ويبدو أن ضعف الخلفاء واحتجابهم في قصورهم أدى إلى سيطرة القهارمة، فقد كان للمكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) داية اسمها فارس نصبها قهرمانة لما استخلف وكانت تتدخل في نصب الوزراء وفي عزلهم[3].

وجاءت دولة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) وهي دولة السيدة (شغب) أمه وكان لها كاتب يدعى[4] (أبو يوسف عبدالرحمن بن محمد) يكتب لها الكتب باسمها وقد عرف للسيدة أم المقتدر تأثيرها القوي على ابنها فكانت تشير عليه ببعض الاستشارات وتحلل له مواقف أعوانه وأعدائه لتبصره بالأمور[5] فمن ذلك أنها كلمت ابنها في شأن نصر الحاجب الذي أراد ابن الفرات[6] القبض عليه (واتصل الخبر بنصر، فلجأ إلى

---

(١) نشوار المحاضرة ٤/١٧٩.

(٢) ثلاث رسائل ص٦٣ وبين الخلفاء والخلعاء ص٦.

(٣) نشوار المحاضرة ٣/٢٦٩.

(٤) تجارب الأمم ١/١٦٤.

(٥) تجارب الأمم ١/١١٧.

(٦) ابن الفرات: علي بن محمد بن الفرات كان وزيراً للمقتدر قتل سنة ٣١٢هـ.

السيدة واستغاث بها فكلمت ابنها وقالت له: قد أبعد ابن الفرات مؤنساً[١] عنك وهو سيفك وثقتك، ويريد الآن أن ينكب حاجبك ليتمكن منك فيجازيك على ما عاملته به من إزالة نعمه وهتك حرمه، فليت شعري بمن تستعين عليه إن أراد بك مكروهاً من خلعك والتدبير عليك لا سيما ما أظهر من شره وإقدام ابنه المحسن على كل عظيمة)[٢].

وفي عهد المقتدر أصبح للقهرمانة سيطرة تامة على أمور الدولة فكانت تتدخل في ترشيح الوزراء وكبار العمال[٣] وفي عزلهم واعتقالهم[٤] وقد تحضر عقوبة الوزير المعزول[٥].

ومن شهيرات القهرمانات في هذا العصر (فاطمة) القهرمانة و (أم موسى) الهاشمية التي عينت قهرمانة سنة (٢٩٩هـ) بعد وفاة فاطمة وقد سيطرت سيطرة عظيمة، وهي التي أوصلت أبا الحسين بن أبي البغل[٦] إلى الوزارة فكان لا يخرج عن أمرها[٧]، وكانت تجلس أخاً لها عند القصر فيلقاه الناس وأصحاب الحوائج فيأخذ رقاعهم وشكاواهم[٨] إليها وانتهى أمرها عام (٣١٠هـ) بالاعتقال والمصادرة[٩]. . . وكانت الأموال المقبوضة منها كثيرة جداً حتى اضطر إلى تشكيل ديوان عرف

---

(١) مؤنس: الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي، بقي ستين أميراً وولي دمشق للمقتدر قتله القاهر ٣٢١هـ الأعلام ٨/ ٢٩٢.

(٢) تجارب الأمم ١/ ١١٧.

(٣) تجارب الأمم ١/ ٢١، ٢٤.

(٤) تجارب الأمم ١/ ٤٠.

(٥) تجارب الأمم ١/ ٩٠.

(٦) أبو الحسين بن أبي البغل: وزير من وزراء المقتدر.

(٧) الصابي ٢٧٢.

(٨) الصابي ٢٧٦.

(٩) تجارب الأمم ١/ ٨٣.

بـ (ديوان المقبوضات من أم موسى)[1].

وزيدان القهرمانة التي اعتقل عندها الوزير علي بن عيسى لما عزل من الوزارة[2]. وكان لها طبيب خاص هو عيسى البغدادي يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها إليها لتعرضها على الخليفة[3].

وثمل القهرمانة التي عرفت بالشر والإسراف في العقوبة وكانت تجلس للمظالم[4] وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، وتحض القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها.

وذاع اسم (اختيار) قهرمانة القاهر، فعرفت لها بعض المواقف في توجيه السياسة وفي تعيين الوزراء وإبداء المشورة والرأي للخليفة[5].

أما علم قهرمانة المستكفي والتي كانت تدعى بـ (حسن الشيرازية) فقد أوعزت إلى أمير الأمراء (توزون) فخلع المتقي وسمله فسيطرت على جميع مرافق الدولة وأمورها[6]، وعندما اعتقل المستكفي اعتقلت (علم) معه[7] وسملت عيناها وقطع لسانها[8].

ولم يعرف للجواري والقيان وعامة النساء في الغالب دور مهم مباشر في السياسة في هذا العهد، وكان جل ما عرف لهن بعض الشفاعات في تولية أحدهم منصباً من المناصب، أو في استرضاء

(١) نشوار المحاضرة ١/ ٢٤٢.
(٢) تجارب الأمم ١/ ٤٠.
(٣) تاريخ الحكماء للقفطي ص٢٤٩.
(٤) المنتظم ٦/ ١٤٨.
(٥) تجارب الأمم ١/ ٢٦١.
(٦) تجارب الأمم ٢/ ٧٥.
(٧) تجارب الأمم ٢/ ٨٦.
(٨) تجارب الأمم ٢/ ١٠٠.

الخليفة أو صاحب الشأن عن البعض أو في السعي لإخراجهم من السجن ولا بأس أن نكتفي ببعض الإشارات إلى ذلك فقد قيل إن الرشيد كان قد سأل (ذات الخال) في حاجة تطلبها، فطلبت إليه أن يولي مولاها (حمويه) خراج فارس سبع سنين، ففعل ذلك، وكتب عهده به وشرط على ولي عهده أن يتمها له إن لم تتم في حياته[1].

ويذكر الأصفهاني: (أن إبراهيم بن المدبر لمّا سجن سألت (عريب) وما أدراك ما عريب ـ الخليفة في إخراجه فوعدها بما تحب ثم أطلقه)[2].

وكانت القيان من ذوات الجاه والسلطان يتعصبن لطائفة سياسية أو يشايعن مذهباً، ويقضين حوائج أهله عند أولي الأمر. وقد أشار ابن المعتز إلى أن (فضلاً) الشاعرة كانت تتشيع لجماعة من الناس وتقضي حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والأشراف)[3].

إلاّ أننا لا بدّ لنا في هذا المجال أن نذكر (عائشة العثمانية) التي عرف عنها أنها كانت تقاتل في حروب الطالبيين وتجهز جيوشهم وتقوي أمورهم. ذكر لها ابن المعتز ذلك وقال: (كانت من أشجع الناس وخرجت في غير جيش وحاربت في مواطن كثيرة وقتلت بشراً كثيراً، ولها في كل وقعة شعر، وقد شوهدت على جمل أحمر نجيب تقاتل في بعض حروب الطالبيين)[4].

يتضح مما مرّ بنا الدور الذي لعبته المرأة حرة أو أمة، عربية أو أعجمية في السياسة. إلا أننا لا بدّ لنا أن نشير إلى رصانة التدخل

---

(١) الأغاني ١٦/٢٦٦.

(٢) الأغاني ١٩/١١٦.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦ والأغاني ٢٠/١٥٦.

(٤) طبقات ابن المعتز ٤٢٣.

السياسي لكل من (زينب بنت سليمان والسيدة زبيدة وأم الشريف وست الملك) وأنه كان تدخلاً رصيناً يدل على بعد النظر وصواب الرأي والحكمة في معالجة الأمور، مما يدل على أن المرأة العربية في أكثر الحالات كانت قد أجادت الممارسة، وأنها لم توصل الحكم العربي في العصر العباسي إلى التخليط والبلبلة والاضطرابات كالذي حصل على أيدي القهرمانات اللائي عملت نزعاتهن عملها في تدهور الأمور حتى آلت إلى الضعف والاضمحلال.

الباب الأول

المرأة في الأدب

الفصل الأول: الابنة في الأدب
الفصل الثاني: الأم في الأدب
الفصل الثالث: الزوجة في الأدب
الفصل الرابع: الأخت في الأدب
الفصل الخامس: الحبيبة في الأدب

تمهيد

المرأة في الأدب:

سبقت الإشارة إلى أن كتب التاريخ كانت قاصرة في إعطاء صورة واضحة عن المرأة في العصر العباسي، وذلك لأنها لم تكن لتعنى بها أو تلتفت إليها، إلا إذا كانت من سيدات القصور كالخيزران وزينب بنت سليمان والسيدة زبيدة وبوران وعلية وقبيحة وغيرهن ممن كانت لهن بعض الآثار في سير الخلفاء وأخبارهم، ولهذا بقيت صورة المرأة باهتة لا تكاد تعطينا ما يكفي لتكوين فكرة واضحة عن أحوالها وآثارها في هذا العصر.

وقد رأينا من المفيد أن نعرج على أدب العصر وهو سجل حافل للحياة، ندرسه دراسة واعية لنستخلص منه ما يمكن أن يلقي الضوء على المرأة وظروف حياتها ومكانتها وأثرها في المجتمع والأدب.

ولما كان الأدب بأساليبه المختلفة المجال المباشر الذي يفرغ فيه الأدباء والشعراء انطباعاتهم عن المرأة ويتحدثون عنها في أحوالها المختلفة وعلاقاتها المتنوعة بهم، فقد تجلت صورة المرأة فيه بشكل قد يفوق في وضوحه وأصالته وصدقه الصورة التي عرفت للمرأة في تاريخ العصر.

فالشعر وهو الميدان الفسيح للنتاج الأدبي، حفل بالكثير من أحوالها وربما كان الغزل أكثر الأغراض الشعرية تناولاً وذكراً لها. وقد أفادنا شعر الغزل الكثير في معرفة صفات المرأة والمعايير الجمالية المادية والمعنوية التي اتخذها العصر مقياساً للحسن والجمال.

ولا يمكن لتقصي أحوال المرأة أن نقف عند الغزل وحده لأن هذا

الغرض لا يصور المرأة إلا في جمالها وفي صفاتها الحلوة المستحبة التي يراها الرجل فيها، وفي زينتها، ولا يعبر إلا عن صلة الحب لها والإعجاب بها.. وربما صورها كما هي الحال في شعر الشعراء الماجنين عابثة ماجنة مستهترة.

والمرأة التي كشف عن صورتها في غزل العصر الذي يكاد يكون أكثره غزلاً حسياً يتناول صفات المرأة الجسمية ولا يمثل إلا المرأة الجارية.. لأن المرأة الحرة كانت قد حجبت عن مسرح الحياة العامة ولم تكن لتصلها العيون أو لترقى إليها الأقوال، اللهم إلا القليل مما وصلنا من تغزل بالحرائر من بنات العم أو بعض القريبات.

ولما كان غرضنا دراسة المرأة في الأدب فقد كان علينا أن نعرف مكانتها وأثرها فيه لا كحبيبة فقط، وإنما كأم وابنة وأخت وزوجة وقريبة، وأن نبرز دورها في المجتمع عاملة تمارس مختلف الأعمال والواجبات السياسية لها دورها في توجيه إدارة الدولة، وشاعرة وكاتبة وراوية وناقدة، وغير ذلك مما استطعنا أن نكشف بعض جوانبه مما توفر لدينا من مصادر، ولهذا فقد كان علينا أن ندرس أغراض الشعر المختلفة من مديح وهجاء وفخر ورثاء ووصف وتهان وتعاز، لأننا قد نجد في كل منها وقفة عندها وتصويراً لها..

ثم كان لا بد أن لا يوقف عند الشعر وحده في استجلاء ذلك، إذ كانت الأخبار والرسائل والأمثال والأقاصيص وغير ذلك من أفانين القول الأدبية مما يزيد في توضيح الصورة ويكملها.

ولم نفصل في دراستنا للمرأة بين الشعر والنثر، بفنونه المتعددة، تجنباً لوقوع تكرار في الأغراض والموضوعات العامة، ولذلك رأينا من الأجدر تناولها مجتمعة حول الفكرة الواحدة المراد توضيحها، والصورة التي رسمها الأدب للمرأة بصورة عامة لهذا الغرض، مشفوعة بما

يكملها في الأخبار والأمثال والرسائل والأقاصيص ليؤدي ذلك بلا شك إلى إظهارها أكثر وضوحاً وأعمق دلالة.

وقد تناولنا المرأة في مختلف علاقاتها بالرجل، فوضحنا صورة الحرائر في الأسرة، أمهات وأخوات وبنات وزوجات، ثم حبيبات من القريبات أو غيرهن.

ثم كشفنا عن صورة الجواري في الحياة العامة وفي الأدب، وصنفنا دراستهن إلى جواري القصور والساقيات والقيان ووقفنا على طراز حياتهن وخلقهن وصفاتهن وأثرهن من خلال الأغراض المختلفة التي تناولتهن في الغزل أو الهجاء أو الرثاء أو الوصف.. واستفدنا من الوصف والغزل في السمات الجمالية التي أرادها العصر والمظاهر الحضارية من ملابس ووسائل الزينة والتجميل.

وقد جعلنا صورة المرأة في الأدب في بابين هما: الحرائر (المرأة في الأسرة)، ثم الجواري... وسنتناول ذلك بالتفصيل.

الفصل الأول

الابنة في الأدب

وتردد ذكر الابنة في العصر العباسي في صور وأغراض مختلفة، واضطرب الموقف بين محب لها مشير إلى أهميتها ومنزلتها وبين كاره لها حريص على دفنها.. ولا نشك في أن الاختلاف في الموقف من البنت والنظرة إليها مرتبط إلى حد بعيد بالمستوى الاجتماعي للأب والعائلة، إضافة إلى بعض الظروف والمبررات الحاصلة التي تؤدي إلى التفاعل بين المجتمع من جهة والآباء وأولياء الأمور من جهة ثانية.. وقد يكون هناك رأي يسود المجتمع في فترة من الفترات فتردده الشعراء والأدباء، وتتناقله العامة والخاصة.. فإما أن تركن إلى الرأي العام السائد، وإما أن تجعل لنفسها موقفاً متميزاً يتفق مع واقع شعورها تجاه البنت دون التأثر بالمواقف والآراء السائدة.

كره البنات:

فموقف الكره للبنات موقف فيه آثار الجاهلية.. الآثار التي أشار إليها تعالى في قرآنه الكريم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾[(١)] ورغم أن الإسلام قد خفف كثيراً من غلواء هذه النظرة بالمثل الإنسانية التي أكد عليها لخدمة البشر جميعاً، إلا أن جذور التخلف بقيت ممتدة تخف حدتها أحياناً وتشتد أحياناً أخرى حتى العصر العباسي.

ولعل في الأقوال التي تتردد في كتب الأدب والأخبار ما يدل

---

(١) سورة النحل الآية: ٥٨.

بعضها على كرههم للبنات وحرصهم على موتهن ورغبتهم في الخلاص منهن.

قال الحسين رضي الله عنه: (والد بنت متعب، ووالد بنتين مثقل، ووالد ثلاث فعلى العباد أن يعينوه)[١].

وقال الزهري[٢]: (كانوا لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ولا جهاداً، وسأل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه نصيباً عن حاله فقال[٣]:

(كبر سني، ورقّ عظمي، وبليت ببنات نفضت عليهن من لوني فكسدن عليّ) قيل: فبكى عمر من قوله.

وكانوا إذا هنأوا بالبنت قالوا[٤]: أمنكم الله عارها وكفاكم مؤونتها وصاهرتم قبرها.

وكانوا يقولون: تقديم الحرم أفضل النعم، وموت الحرة أمان من المعرة أو: وما ختن أعف من القبر[٥].

ولما سأل ابن الأعرابي أبا العباس بن ثعلب عما له من الولد قال: ابنة، وأنشد[٦]:

لولا أميـة لـم أجـزع مـن الـعـدم ولم أجب في الليالي حندس الظلم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والـمـوت أكـرم نـزّال عـلـى الـحـرم

---

(١) محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٥.

(٢) محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٥.

(٣) نفس المصدر ١/ ٣٢٦.

(٤) نفس المصدر ١/ ٣٢٦.

(٥) نفس المصدر ١/ ٣٢٦.

(٦) معجم الأدباء ٥/ ١٢٢ وقد ورد البيت الثاني منسوباً إلى إسحٰق بن خلف في محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٦.

فأنشد ابن الأعرابي في المعنى:

أميمة تهوى عمر شيخ يسرّه لها الموت قبل الليل لو أنها تدري
يخاف عليها جفوة الناس بعده ولا ختن يرجى أودّ من القبر

ولا نشك في أن هذا الموقف تجاه البنت سببه في هذه الأبيات الدافع المادي إذ تظهر فيها خشية بقائها بعد أبيها الشيخ والخوف عليها من جفوة الناس بعده.

التهنئة بموتهن:

وكان منهم من إذا أراد تعزية بفقد الابنة جعل التعزية كالتهنئة لأن من نعم الله ـ كما يقولون ـ موت البنات وبقاء البنين ـ

قال البحتري يعزي أبا الحسن بن الفرات عن ابنته[1]:

أبا حسن إن حسن العزاء عند المصيبات والنازلات
يضاعف فيه الإله الثوا ب للصابرين للصابرات
ومنزلة الصبر عند البلاء كمنزلة الشكر عند الهبات
ومن نعم الله لا شك فيه بقاء البنين وموت البنات

وقال في رثاء ابنة أحد بني حميد[2]:

ظلم الدهر فيكم وأساء فعزاء بني حميد عزاء
أنفس ما تزال تفقد فقدا وصدور ما تبرح البرحاء
وسفاهاً أن يجزع الحرّ مما كان حتماً على العباد قضاء
أتُبَكّي من لا ينازل بالسيـ ف مشيحاً ولا يهز اللواء

(١) ديوان البحتري/ ٣٨٢.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

والفتى من رأى القبور لمن طاب به من بناته أكفاء

لسن من زينة الحياة لعدّ الله منها الأموال والأبناء

قد ولدن الأعداء قدما وورثن التلاد الأقاصي البعداء

فالبحتري لا يريد أن يبكي على البنات لأنهن لا ينفعن في الحروب، بل يرى أن على الفتى أن تطيب نفسه إذا ما كانت القبور أكفاء لبناته، وهن لا يمكن أن يعتبرن زينة للحياة الدنيا لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] ولم يعد البنات من تلك الزينة.. ثم أنهن يلدن الأعداء ويورثن البعداء مجد عوائلهن.

ولم يقف البحتري عند هذا الحد في ثورته على المرأة وإنما استمر يسرد لنا من مواقف كارهيها عبر التاريخ مبرراً لهم مواقفهم تلك.. ثم يختتم قصيدته التي كانت في جملتها ثورة عارمة على المرأة وعلى من يقيم لها أي وزن ويختتمها بقوله:

إن من العجز عنده أن يبيت الرجال يبكون النساء فقال[2]:

لم يئد تربهن قيس تميم غيلة بل حميّة وإباء

وتغشى مهلهل الذلّ فيهن وقد أعطى الأديم خباء

وشقيق بن فاتك حذر العار عليهن فارق الدّهناء

وعلى غيرهن أحزن يعقوب وقد جاءه بنوه عشاء

وشعيب من أجلهن رأى الوحدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء

وتلفّت إلى القبائل فانظر أمهات ينسبن أم آباء

واستزلّ الشيطان آدم في الجنة لما أغرى به حواء

ولعمري ما العجز عندي إلاّ أن تبيت الرجال تبكي النساء[3]

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٨٣.

(٣) نفسه ٣/ ٢٨٤.

ويتفق الخوارزمي الأديب بنقمته على المرأة وكرهه للبنات مع البحتري وقد عبر في عدد من رسائله عن ثورته تلك..

فقد كتب إلى كثير بن أحمد يعزيه عن ابنة صغيرة له، وكان الخوارزمي مغتبطاً كما يبدو بهذا المصاب لأنه يراه كالعوذة يتعوذ بها أمام الدهر. فوقوع سهم الزمان عنده على النسوان أمثل من وقوعه على الذكران، وهو يرى أن الله تعالى قد جعل في طي المحنة منحة وقد مزج الترحة بالفرحة فستر العورة من حيث سلب الأنس وكفى المؤونة من حيث جلب الفجيعة وأبقى الكبير وسلب الصغير.. وهو يرى أن موت الابنة في مثل هذه الحال مصيبة من مصائب المجدودين، قال: (وإذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من أطراف الكمال ولا بد من عوذة يعوذ بها وجه الجمال، فلأن تكون الواقعة في الصغير خيراً من أن تكون في الكبير، ولأن يقع سهم الزمان على النسوان أمثل من أن يقع على الذكران، فالحمد للّه تعالى الذي جعل في طي المحنة منحة، وزج الترحة بفرحة، فستر عورة من حيث سلب أنساً ونزهة، وكفى مؤونة من حيث جلب فجيعة وأبقى الكبير من حيث أخذ واحدة صغيرة، وجمل والداً من حيث أثكل والدة.. وهكذا تكون مصائب المقبلين المجدودين).

ولا يكاد يبعد عن الفكرة نفسها في رسالته التي كتبها إلى رئيس بهراه يعزيه فيها بابن أخته وبنته: في أن ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات، وأن من زف كريمته إلى القبر فقد بلَغ أمنيته من الصهر.. إلا أن يكشف لنا في هذه الرسالة عن واقع المجتمع أو عن نظرته إليه.. فالنجابة فيه (على حد قوله) غريبة في رجاله عجيبة في نسائه، والعفاف معوز في الذكران معجز في الإناث، والعقل نادر في الشيوخ معدوم في الشبان. قال[1]: (فأما البنت رحمها الله تعالى فقد

(١) رسائل الخوارزمي ص٢٠.

كانت في حياتها عفافاً وستراً، ووفاتها ثواباً وذخراً، ولقد كانت في زمان النجابة في رجاله غريبة وفي نسائه عجيبة، والعفاف في ذكرانه معوز وفي إناثه معجز. والعقل في شيوخه نادرة تفقد وفي شبابه ضالة لا توجد.. فالحمد لله الذي سترها بالحياء في حياتها وبالثواب بعد وفاتها) ثم قال: (والمستور عزيز في كل مكان ومحبب إلى كل إنسان وممدوح بكل لسان، فأن تكون خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب...

ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية فإن ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات ونحن في زمان إذا قدم أحدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر..

وختم الخوارزمي الرسالة بأقوال للشعراء تؤكد النظرة التي ذهب إليها. وكثر دوران هذه الأغراض في الشعر والنثر مع اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى إلا في القليل النادر.

فقد أورد الثعالبي رسالة(١) في التعازي عن الحرم لم يخرج فيها عن المعاني التي سبق أن قدمنا نماذجها إلا في قوله: (ورجعت إلى شبابك مرحلة، فليس بشيخ من لا بنت له ولو كان ابن مائة سنة، وليس بشاب من وراءه بنت ولو كان ابن يوم وليلة) فالبنت عنده هي التي تجعل من أبيها شيخاً مسناً ربما لثقل التفكير في همها.. أو ربما لكونها أسبق في الزواج من الأبناء.

أما أبو العلاء المعري فلم يكن رأيه في ذلك بمختلف عن سابقيه وإن حمل في لزومياته على الأولاد جميعاً إلا أنه خص البنات بالذم فقال(٢):

---

(١) سحر البلاغة وسر البراعة (١٢٢ ـ ١٢٣).

(٢) اللزوميات ١/ ٢٣٣.

وإن تعط الإناث فأي بوس ... تبيّن في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً ... ويلقين الخطوب ملوّمات
ولسن بدافعات يوم حرب ... ولو من غارة متقشمات
ودفن والحوادث مفجعات ... لإحداهن إحدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً ... فيا للنسوة المتأيّمات

فهو يرى أن ولادة البنات بؤس أي بؤس لأنهن يردن البعولة، ويكلفن آباءهن الحلي، ولأنهن لا يغنين في الغارات والحروب فدفنهن إحدى المكرمات.

ولم تكن النظرة إلى البنات على أنهن ثقل وهمّ وغلّ في أعناق الآباء بمستحدثة وإنما هي نظرة تقليدية قد يتسامى البعض عنها وقد يرتفع فيخالف تلك النظرة وقد يلفه التيار التقليدي في الموقف منها.. وكتب الأخبار والأدب مليئة بما يدل على اختلاف المواقف وتباين النظرات.

قيل[1] إن المأمون أصيب بابنة له وكان يجد بها وجداً شديداً.. فجلس للناس وأمر أن لا يمنع منه أحد وأن يثبت عن كل رجل مقالته.. فدخل إليه فيمن دخل إبراهيم بن المهدي فقال: (يا أمير المؤمنين كل مصيبة تعدتك شوى[2] إذ كنت المنتقم من الأعداء ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فإنه عُزِّي عن ابنته رقية فقال: (موت البنات من المكرمات)[3] فأمر له المأمون بمائة ألف درهم، وأمر أن لا يكتب شيء

---

(١) بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص١٠٥.

(٢) الشوى: الهين من الأمر. اللسان/ شوا.

(٣) ورد هذا القول منسوباً للرسول ﷺ كذلك في قصيدة البحتري في تعزيته لأبي الحسن بن الفرات عن ابنته قال:

لقول النبي عليه السلام ... دفن البنات من المكرمات

بعد تعزيته).

فالمأمون الخليفة رغم وجده الشديد بابنته المتوفاة.. ورغم جلوسه للناس وقبوله التعزية بها بما يثبته كل من المعزين من مقالة وقف عند التعزية التي قالها إبراهيم بن المهدي والتي ختمها بالقول: (موت البنات من المكرمات).

ولاحظنا في المجتمع نظرة أخرى هي نظرة الشفقة والرحمة إلى آباء البنات[١] فكثيراً ما كانت الأيادي تمتد بسخاء لإعانتهم على تربيتهن أو تزويجهن.

قيل أن أبا جعفر المنصور (أمر بإعطاء بنات أبي زيد الست ثلاثين ألف دينار لكل منهن، وتزويجه لهن بأكفاء)[٢].

ويبدو أن إعانة آباء البنات قد أصبح مجالاً للكسب والتندر لدى البعض.. إذ يروي صاحب الأغاني عن علي بن إسماعيل أنه قال[٣]: (كنت أسقي أبا دلامة والسيد[٤] إذ خرجت بنت لأبي دلامة فقال لها أبو دلامة:

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولا رباك لقمان الحكيم

ثم التفت إلى السيد وقال له: اجزيا أبا هاشم، فقال السيد:

وقد أشار الدكتور عبد اللطيف جاووك إلى أن هذا الحديث دائر على ألسن الناس وليس بالصحيح معتمداً على:

(كشف الخفاء ومزيل الإلباس) للعجلوني ١/٤٠٧.

(١) وهذا الموقف من آباء البنات قديم.. في المجتمع العربي وقد لاحظنا ذلك خلال حديثنا عن المرأة في المجتمع الجاهلي والإسلامي وينظر محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٥.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٨٤.

(٣) الأغاني ١٠/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٤) ربما يقصد السيد الحميري الشاعر.

ولكن قد تضمّك أم سوء إلى لبّاتها وأب لئيم

فضحك لذلك.. ثم غدا أبو دلامة إلى المنصور فأخبره بقصة بنته وأنشده البيتين فقال له: بأي شيء تحب أن أعينك على قبح ابنتك هذه.. فأخرج خريطة كان قد خاطها في الليل فقال: تملأ لي هذه دراهم، فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم).

محبة البنات:

وهناك نظرة إنسانية إلى البنت خففت الكثير من التزمت والاستكراه لها.. وفي أقوال العرب الدلالة على ذلك.. قال محمد بن جعفر[1]: (البنات حسنات والبنون نعم، والحسنات مثاب عليها والنعم مسؤول عنها)[2]، والمتأمل في هذا القول يجد أن آثار النظرة التقليدية إلى البنت في أنها همّ وثقل.. خفية مستورة لا يكاد يظهرها النص.. وإنما تحس بها من ورائه، فاعتبارها حسنات يثاب عليها يقصد به إلى أن تحمل تبعاتها وحسن رعايتها والرأفة بها والعطف عليها ما يؤدي بالآباء إلى استحصال الأجر والثواب.

وكانت هناك دعوات إلى عدم إنكار البنات وإلى حبهن ورعايتهن إلا أنها لم تكن لتخلو من الإشارات الخفية التي تدل على استمرار الجذور العميقة في نفوس الأفراد والمجتمعات بتفضيل الأبناء على البنات. قال الصاحب[3]:

إياك أن تنكر الإناث فكم أنثى غدت في فخارها ذكرا[4]

---

(١) محمد بن جعفر: ينظر الأعلام ٦/ ٢٩٦.

(٢) محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٥.

(٣) الصاحب بن عباد: وزير غلب عليه الأدب، استوزره مؤيد الدولة بن بويه الديلمي. ينظر الأعلام ١/ ٣١٢ ووفيات الأعيان ١/ ٢٢٨.

(٤) محاضرات الأدباء ٢/ ٤١١.

فهو ينهى عن إنكار الإناث.. إذ كثيراً ما تغدو الأنثى مفخرة وذكراً حسناً.

أما ابن المقفع فيوضح ذلك بقوله في كتاب إلى صديق له ولدت له ابنة[1]: (بارك الله لك في الابنة المستفادة وجعلها لكم زيناً وأجرى لكم عليها خيراً، فلا تكرههن، فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات.. ورب غلام ساء أهله بعد مسرة ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم. وأنشد في ذلك:

سخطت بنية عما قليل ... تسرّ بها عيون الناظرات

فبارك في فطيمة ربّ موسى ... وأنبتها نبات الصالحات

وزادك عاجلاً أخرى سواها ... بسخطك إذ سخطت على البنات

ورغم ما ذكرناه من مواقف سلبية من البنات على امتداد العصر تشتد أحياناً وتخف أخرى تبعاً للظروف والأحوال، فقد رأينا الكثير من المواقف التي صورها الأدب من التعاطف الرقيق بين الأب وابنته والذي يعبر عن الكثير من البر والحنان، ومن ذلك ما قاله ابن يسير[2] مصوراً عطفه على بنية له واصفاً حرصه على اقتحام المصاعب من أجل إسعادها مبيناً أن سبب رغبته في العيش هو خوفه عليها من ذل اليتم وجفوة الأهل والأقارب.. وإنه ليشفق عليها من أن تسيل عبراتها عليه إذا ما مات فتحز في نفسه الصورة فيجري دمعه دماً لتلك الذكرى إشفاقاً على ابنته وحرصاً عليها أن لا يمسها سوء أو يصيبها مصاب...

---

(١) المحاسن والمساوىء ٢/ ٣٧٧ وجمهرة رسائل العرب ٥٧ واختيار المنظوم والمنثور ١٣/ ٣٠٤.

(٢) ترجمته في الطبقات ص٢٧٩، وقد علق ابن المعتز على هذه الأبيات بقوله: ومما يستحسن لابن يسير وسار له في العرب والعجم قوله (الطبقات ٢٨١).

قال[1]:

لـولا الـبـنـيـة لـم أجـزع مـن الـعـدم ... ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نزّال على الحرم

أما عمارة بن عقيل[2] فقد صرح بعمق حبه الصادق لها وأنه قد سرى في لب عظامه واختلط بلحمه ودمه.. وأنه حب خالص يتجدد مع الأيام ولا يستطيع له كتماناً لأنها قد نزلت من فؤاده منزلة أحب وأكرم شيء لديه قال[3]:

حبّك يا ذات الأنيق الأكشم[4] ... حبّ تساقاه مشاش[5] أعظمي
ودب بين كبدي ومحزمي ... وساطه[6] الله بلحمي ودمي
فليس بالمذق[7] ولا المكتم ... ولا الذي إن يتقادم يسأم

---

(١) ورد البيت مضافاً إليه بيت آخر هو:
تهوىٰ حياتي وأهوىٰ موتها شفقاً ... والموت أكرم نزال على الحرم
وقد نسب هذا البيت إلى إسحق بن خلف في محاضرات الأدباء ١/٣٢٦.

(٢) عمارة بن عقيل: شاعر مقدم من أهل اليمامة كان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء من بني العباس فيجزلون له صلته إلى أيام الواثق. الأعلام ٥/١٩٣.

(٣) ديوان عمارة بن عقيل: ٧٦.

(٤) الأكشم: الأنف الأكشم: المقطوع، اللسان/كشم، وأراد به الشاعر هنا: الأنف الصغير وهو من دواعي الحسن.

(٥) مشاش العظم في اللسان: هو العظم لا مخ فيه ونحسب أنه أراد هنا أن حبها يسري في لب عظامه.

(٦) ساطه: مزجه وخلطه.

(٧) المذق: الكذاب.

لقد نزلت في فؤادي فاعلمي منزلة الشيء المحب المكرم

وهذا أبو فراس الحمداني يذكر ابنته عند موته، فيواسيها ويطلب إليها أن لا تجزع، وأن تكتفي بالنواح عليه دون أن تستهين بسترها وحجابها.. فهو حريص على شرفها في مماته حرصه عليه في حياته.. وهو بهذا يشير إلى عادة اجتماعية كانت سائدة وهي نبذ الحجاب في المصائب وفي حالات الروع.. فيكتفي بأن يطلب إليها أن تنوح عليه بهدوء وحسرة وأن تذكره بما هو أهل له.. قال[١]:

أبنيتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب

نوحي علي بحسرة من خلف سترك والحجاب

قولي إذا كلمتني فعييت عن رد الجواب

زين الشباب أبو فراس لم يمتع بالشباب

ومما ورد من شعر التعاطف بين الأب وابنته قول نصيب الأصغر وقد حبس باليمن مدة طويلة فلما أشخص إلى الخليفة المهدي في بغداد ودخلت إليه ابنته حجناء ورأت قيوده بكت، فقال[٢]:

لقد أصبحت حجناء تبكي لوالد بدرّة عين قلّ عنه غناؤها

أحجناء صبراً كلّ نفس رهينة بموت ومكتوب عليها بلاؤها

أحجناء أسباب المنايا بمرصد فإلا يعاجل غدرها فمساؤها

أحجناء إن أفلت من السجن تلقني حتوف منايا لا يرد قضاؤها

أحجناء إن أضحى أبوك ودلوه تعرّت عراً منها ورثّ رشاؤها

لقد كان يدلي في رجال كثيرة فيمتح ملأى وهي صفر دلاؤها

أحجناء إن يصبح أبوك ونفسه قصير تمنيها طويل عناؤها

---

(١) يتيمة الدهر ١/١٠٣.

(٢) الأغاني ٢٢/٤٠٦.

لقد كان في الدنيا تفيأ ظلها　　عليه ومجلوب إليه بهاؤها

ومن المواقف التي صورها الأدب مما يدل على احترام البنات وقبول المشورة منهن والاستماع إلى آرائهن والأخذ والعمل بها.. ما أورده البيهقي[1] أنه: كان المأمون قد وجد على قائد من قواده فاستصفى ضياعه وداره وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً ولم يكن له من الولد إلاّ بنيّة صغيرة فأجمع أن يضرب في الأرض ويطلب من فضل الله عزّ وجلّ، ويخلف ابنته، فبكت الابنة وقبضت على أبيها وقالت: اقنع بما أتاك، واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر، والزم الوطن، وارحم وحدتي وضعفي وقلة حيلتي أو اذبحني فلا أبتلى بفراقك، فبكى الشيخ وقال:

تقول ابنتي لما أردت وداعها　　وقد حضرتني نية ورحيل
لعل المنايا في رحالك تنبري　　لنفسك ختلاً أو تغولك غول
فتتركني أدعى اليتيمة بعدما　　تبين وعزّي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربك بالذي　　تشير له راع عليك كفيل
أليس ضعيف القوم يأتيه رزقه　　يساق إليه والبلاد محول
ويحرم جمع المال من قد يرومه　　يكدّ عليه رحله ويجول
فلو كنت في طود على رأس هضبة　　لها نجف[2] فيها الوعول تقيل[3]
مصعّدة لا يستطاع ارتقاؤها　　ولا لمنزل يستطاع سبيل
إذاً لأتاك الرزق يحدوه سائق　　حثيث ويهديه إليك دليل

قال: فنمي الخبر إلى المأمون فدعا بالشيخ واستنشده شعره فأنشده فرق له وأمر برد جميع ما أخذ منه، وأعاده إلى مرتبته وزاده من

---

(١) المحاسن والمساوىء ٢/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٢) النجف: التل أو المرتفع من الأرض.

(٣) تقيل: القائلة: نصف النهار، والفعل: قال: يقيل (اللسان/ قيل).

عنايته.. ولا يعنينا من الخبر صحته أو عدمها إلاّ أننا يمكننا أن نستنتج من النص الشعري مكانة الابنة في نفس أبيها الشاعر وكونها تتمتع بالعقل والحكمة في معالجة الأمور بحيث استطاعت أن تقنع أباها وتصرفه عن تنفيذ ما كان قد قرره بشأن عقده العزم على الضرب في الأرض لطلب الرزق.

ولم تقتصر المواقف الإيجابية التي سجلها الأدب تجاه البنات في المجتمع العباسي على ما أوردناه فقط وإنما تعدته لدى البعض إلى السرور الذي يستدعي التهنئة بميلادها أو التعزية بوفاتها أو رثائها بقصائد وأبيات من أرق الشعر وأصدقه، فمن ذلك ما قاله الشريف الرضي في مدح أخيه وتهنئته بمولوده[1].

الآن جاءت خيول السعد راكضة ... تجري بيوم مضيء الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته ... فطوّق المجد أعناق المواليد
كانت شهاباً كسا ظلماءه وضحا ... والليل يدخل في أثوابه السود
جاءت بها ليلة تثني سوالفها ... في صدر يوم رشيق القد أملود
للّه شمس علا جاءت بجوهرة ... غرّاء عن قمر بالمجد مسعود
ما عددت منك إلاّ نطفة سلكت ... إلى الأماني طريق الماء في العود

التعزية بوفاتهن:

وقال في تعزية أخيه عن وفاة ابنة له[2]:

ألا إن هذا الشاكل الحسب الذي ... به ثكل المجد التليد المناقبا
رمى في يمين الدهر درة سؤدد ... فأحج بها يحنو عليها الرواجبا

---

(١) ديوان الشريف ٣١٥.
(٢) نفس المصدر، ١٥٧.

وقد شنّ فيها حادث الموت غارة ... ثنتنا ولم تطلع إلينا كتائبا
فلا تحسبن رزء الصغائر هيّنا ... فإن وجى الأخفاف ينضي الغواربا

وواضح أننا لا نلحظ في هذه الأبيات تلك النظرة التي سبق أن تحدثنا عنها تجاه البنت والتي ذهب أصحابها إلى اعتبار ولادة البنت بلاءً وهمّاً، ووفاتها ستراً وصوناً ونعمة ومكرمة وإنما هو موقف مختلف، فالمصاب بالبنت مصاب بعزيز. . وفقدانها مورث للحزن والألم والحسرة لأنها ركن من أركان العائلة وثمرة من ثمارها.

قال ابن الرومي في عزاء عن ابنة(١):

تعزّيت عمن أثمرتك حياته ... ووشك التعزي عن ثمارك أجدر
تعذّر أن نعتاض من أمهاتنا ... وآبائنا والنسل لا يتعذر
فلا تهلكن حزناً على ابنة جنة ... غدت وهي عند الله تحبى وتحبر
وما هذه الدنيا بدار إقامة ... ولكنما الدنيا مجاز ومعبر

ومن التعزية بالبنت ما قاله سلم الخاسر بين يدي المهدي معزياً إياه بابنته البانوكة(٢):

أودى ببانوكة ريب الزمان ... مؤنسة المهدي والخيزران
لم تنطو الأرض على مثلها ... مولودة جنّ لها الوالدان
بانوك يا بنت إمام الهدى ... أصبحت في زينة أهل الجنان
بكت لك الأرض وسكانها ... في كل أفق بين أنس وجان

رثاؤهن:

أما الرثاء فقد حظيت البنات منه بشيء غير يسير. فالشاعر بشار بن

---

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ١٠٤.
(٢) الأغاني ١٩/ ٢٨٨.

برد رغم أنه لم يكن يهوى بنتاً ـ على حد قوله ـ استطاعت ابنته حينما بلغت الخامسة أو السادسة أن تحل في حشاه ففتتت قلبه من الجوى حين ماتت، واستطاعت أن تحمله على الإقرار بأنه يفضلها على الغلام الذي لا نفع فيه ولا فائدة. قال[1]:

يا بنت من لم يك يهوى بنتا ... ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حللت في الحشى وحتى ... فتّت قلبي من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بتا ... يصبح سكران ويمسي بهتا

ولعل من أرق الرثاء وأصدقه وأكثره دلالة على عمق العاطفة وصدق اللوعة رثاء الشاعر الصنوبري لابنته ليلى.. وله في ذلك قصائد[2] طوال تدل على شدة تعلقه بها وحبه لها ووحشته لفقدها، ولهفته عليها نذكر منها قوله في إحدى مرثياته يصف فيها حاله وقد أصبح بعد وفاتها يجد الشفاء في إراقة الدموع إثر الجنائز.. ويرى الأنس في المفاوز والمقابر.. ويذكر لوعته لموتها وهي في عز الصبا وتركها إياه يكابد هزاهز الشيب وآلامه. ثم يبين أن قدحه كان خائباً لأنه كان يتمنى أن يقدم عليها وتبقى ويمتد بها العمر حتى تحسب في العجائز. قال[3]:

وأصبح مذ أصبحت ليلى جنازة ... أبوك مراق الدمع إثر الجنائز
يرى الأنس إلاّ بالمقابر وحشة ... ويعتدّ أن الفوز سكنى المفاوز
مضيت بأثواب الصبا وتركتني ... تهزهزني للشيب أيدي الهزاهز
وكان سروري أن أكون مقدماً ... وتبقي إلى أن تحسبي في العجائز
كذا كان قدحي فائزاً حين كنت لي ... فأصبح قدحي خائباً غير فائز

---

(١) الأغاني ٣/ ٢٢٤ وديوان بشار.

(٢) ديوان الصنوبري: ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٤٣، ٢٦٤، ٥١٤.

(٣) المصدر نفسه، ١٤٣.

وقال من قصيدة أخرى يصف وقوفه على قبرها وبكاءه حوله وحدبه عليه حدب الممرض للمريض، وكيف أنه يترك مضجعه آخر الليل لتذكره خشونة مضجعها، ثم يصبّر نفسه ويواسيها بأن موتها قدر لأنها كانت قرضاً لا بدّ أن يسترده الدهر، وهيهات له أن يصبر:

أدور على جوانب قبر ليلى وأبكي حوله بدم فضيض
أراعي قبرها حدباً عليه مراعاة الممرّض للمريض
ويترك مضجعي أخرى الليالي تضيفاً ذكر مضجعها القضيض
أواحدتي رددت وكنت قرضاً وهذا الدهر مردود القروض
فكم أقرحت من قلب قريح عليك وهضت من عظم مهيض
وكم غادرت من طرف كليل وكم غادرت من طرف غضيض
وبعض الصبر ينهض حين يكبو وصبري عنك ليس بذي نهوض[(١)]

وقال يذكرها في شهر رمضان واصفاً كيف كانت أنسه في الليل والنهار، وكيف كانت تقضي الليل عاكفة على الدعاء وقراءة القرآن. . . ثم يعود ليقول والحسرة تملأ نفسه بأنها ماتت فلا صيام ولا فطور ولا سحور ولا أهبة للعيد. . .

قال[(٢)]:

يا ابنتي أين غبت عن رمضان وقد حضر
فلقد كنت أنسنا في عشاياه والبكر
ولقد كنت بعت نو م لياليه بالسهر
واعتكاف على الدعا ء أو الدرس للسور
يا أبي ليس عند من مات علم ولا خبر

(١) ديوان الصنوبري ٢٦٤.
(٢) نفس المصدر، ١٠٣.

لا هـــلال الـــصـــيـــام يـــر	عـــى ولا الـــفـــطـــر يـــنـــتـــظـــر
لا فــــطـــــور ولا ســــحــــو	ر لــــنـــــا إن دنـــــا الـــســـحـــر
لا ولا أهـــبـــة لـــعـــيـــد	حـــلا الـــعـــيـــد أو أمـــرّ
درســـت يـــا أبـــي الـــمـــحـــ	ـاســـن وانـــمـــحـــت الـــصـــور

لقد ملأت عليه فكره وشغلته عن كل شيء وعصاه الصبر فيها، فصار لا يفكر إلاّ بها، ولا يتحدث إلاّ عنها.

ولعل من المفيد أن نشير إلى وصفه لها بالورع والتقوى فهي فيما صور لنا حريصة على الصيام تبيع النوم في ليالي رمضان بالسهر والاعتكاف على الدعاء وقراءة القرآن ودراسة سوره.. وهي صورة تمثل نموذجاً من النماذج النسوية التي عرفت في العصر العباسي.

الشتم بالبنات:

ونال البنات من ظلم الشعراء أنهن اتخذن غرضاً للهجاء والشتم إذا ما وقعت الخصومة وكان آباؤهن طرفاً فيها.

فقد هجا ابن الرومي رجلاً يدعى خالداً بابنته وزوجته فقال إنها مجهولة الأب وأن ميلادها فاسد مدخول[(١)]:

انـــظـــر إلـــى بـــنـــتـــك يـــا خـــالـــد	يـــخـــبـــرك عـــن غـــائـــبـــك الـــشـــاهـــد
مـــعـــروفـــة الأم ولـــكـــنـــهـــا	مـــثـــلـــك لـــم يـــعـــرف لـــهـــا والـــد
إلا فـــراش غـــيـــر مـــا طـــاهـــر	يـــنـــتـــابـــه الـــصـــادر والـــوارد

وهجا أبا يوسف بقبح ابنته حتى لكأنها القرد أو الشيطان. وبمزاولتها الرذيلة ومساومة أبيها عليها، وامتناع ابن الرومي عنها لأنه لم يرد أن يجمع بين الخنزير والميتة، وكلاهما محرم مذموم، فقال[(٢)]:

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٤٥٥.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٧٤ .

لأبـــي يـــوســـف بـــنـــت لـــيـــتـــه أعـــقـــم لـــيـــتـــه
تـــشـــبـــه الـــقـــرد أو الـــشـــيـــطـــان إن كـــنـــت رأيـــتـــه
قـــلـــت لـــمـــا ســـامـــنـــيـــهـــا بـــعـــض مـــن يـــألـــف بـــيـــتـــه
أزنـــا وابـــنـــة يـــعـــقـــوب أخـــنـــزيـــر ومـــيـــتـــه؟

وهكذا رأينا الموقف من البنت مختلفاً متبايناً تؤثر فيه وتوجهه الظروف والمجتمعات المحلية المختلفة. . . وتلونه أحوال الأشخاص الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية وغيرها .

الفصل الثاني

الأم في الأدب

ولقد بدت صورة الأم في أدب العصر العباسي مختلفة السمات والملامح تبعاً لاختلاف الظروف وتباين النظرة إليها وتباعد مواقف القائلين فيها . .

ولعل أهم الأغراض التي بدت فيها صور الأم هي الرثاء والمديح والهجاء.

الرثاء:

وأكثر ما وردت الأمهات على ألسنة الشعراء في الرثاء، ولعل من أصدق الرثاء وأجمل الوفاء للأمهات قصيدة الشريف الرضي في والدته السيدة فاطمة بنت الناصر التي قال فيها[1]:

أبكيك لو نقع الغليل بكائي ... وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً ... لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدموع وتارة ... آوي إلى أكرومتي وحيائي
كم عبرة موّهتها بأناملي ... وسترتها متجملاً بردائي
أبدي التجلد للعدو ولو درى ... بتململي لقد اشتفى أعدائي
ما كنت أذخر في فداك رغيبة ... لو كان يرجع ميت بفداء

ثم يستمر في وصف حزنه وعدم تماسكه وتحمله، ونسيانه التعزز والإباء وثلمة الوقار من شدة الأسى. ويصف أمه بالعفة والزهادة

(١) ديوان الشريف الرضي ١/٢٦، ويتيمة الدهر ٣/١٥٠.

فيقول:

أنضيت[1] عيشك عفة وزهادة ... وطرحت مثقلة من الأعباء
بصيام يوم القيظ تلهب شمسه ... وقيام طول الليلة الليلاء
ما كان يوماً بالغبين من اشترى ... رغد الجنان بعيشة خشناء

وهو يفضلها عن الآباء لأن أمثالها يغنين عنهم بالفضل والمعروف والعمل الصالح الذي بقي ماثلاً في الحياة يقرّ عيني الشاعر ويثير حنينه إليها... يقول:

لو كان مثلك أم برة ... غني البنون بها عن الآباء
كيف السلو وكل موقع لحظة ... أثر لفضلك خالد بإزائي
فعلات معروف تقرّ نواظري ... فتكون أجلب جالب لبكائي
ما مات من نزع البقاء وذكره ... بالصالحات يعدّ في الأحياء

ثم يعدد مواقفها معه وكيف كانت تقيه النوائب وتموله إن ضاقت ذات يده وتعوله في أدوائه وتواسيه في نكباته:

فبأي كيف أستجنّ[2] وأتقي ... صرف النوائب أم بأي دعاء
ومن الممول لي إذا ضاقت يدي ... ومن المعلل لي من الأدواء
ومن الذي إن ساورتني نكبة ... كان الموفّي لي من الأسواء
شهد الخلائق أنها لنجيبة ... بدليل من ولدت من النجباء
في كل مظلم أزمة أو ضيقة ... يبدو لها أثر اليد البيضاء

ثم يمدح آباءها فيقول:

آباؤك الغرّ الذين تفجرت ... بهم ينابيع من النعماء

---

(١) أنضيت: أخلقت وأبليت، اللسان: نضا.

(٢) استجن: استتر، وكل شيء ستر عنك فقد جنّ عنك، اللسان/ جنن.

من ناصر للحق أو داع إلى سبل الهدى أو كاشف الغمّاء
نزلوا بعرعرة السنام[1] من العلى وعلوا على الأثباج[2] والأمطاء
من كل مستبق اليدين إلى الندى ومسدّد الأقوال والاراء
يرجى على النظر الحديد تكرمًا ويخاف في الإطراق والإغضاء
درجوا على أثر القرون وخلفوا طرقاً معبدة من العلياء

ولا يخفى أن الشريف الرضي برثائه، وبتعداده لمناقب أمه يكشف لنا عن هذا النموذج الأصيل للمرأة العربية التي حسن منبتها وحسنت رعايتها فكانت كما قال امرأة ذات صلاح وفعال وسداد..

ولا يمكن أن تكون هذه السيدة وحيدة عصرها بهذه الصفات والمنزلة.. ولا بدّ أن لها مثيلات في المجتمع العباسي وإنما أتيح لها ولدها الشريف الرضي ليكشف لنا عنها..

وشاعر آخر بثّ أحزانه بموت أمه، وهو ابن الرومي، إلاّ أنه لم يبلغ مبلغ الشريف الرضي في ذلك.. قال[3]:

رأيت طويل العمر مثل قصيره إذا كان مفضاه إلى غاية تؤم
تضعضعه الأوقات وهي بقاؤه وتغتاله الأوقات وهي له طعم
يريد المعزي برء كلمي بوعظه ولم يك غير الله يبرىء ما كلم
هو الواهب السلوان والصبر وحده لذي الرزء والمهدي الشفاء لذي السقم
ولست أراني مذهلي عنك مذهل يد الدهر إلا أخذة الموت بالكظم
طوى الموت أسباب المحاباة بيننا فلست وإن أطنبت فيك بمتهم
رجعنا وأفردناك غير فريدة من البر والمعروف والخير والكرم

---

(١) عرعرة السنام (بالضم): رأسه وأعلاه وغاربه (اللسان/ عرعر).

(٢) الاثباج: جمع ثبج وثبج كل شيء: وسطه وأعلاه (اللسان/ ثبج).

(٣) ديوان ابن الرومي ١/ ٣١.

فلا تعدمي أنس المحل فطالما عكفت فآنست المحاريب في الظلم

ويبدو أن خالة له كانت قد ماتت قبل أمه فرثاها بقوله[1]:

ألا ليست الدنيا بدار فلاح بعينيك صرعاها مساء صباح
لنا من كلا العصرين ساق كلاهما يدور فيسقينا بكأس ذباح
أراني وأمي بعد فقدان أختها وإن كنت في رفه بها وصلاح
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحها فبات إلى خفق بغير جناح

أما الصنوبري[2] فيرثي أمه ويذكر معاناتها للمرض قبل وفاتها.. وكيف أن أناتها كانت تودع قلبه جمرة محرقة وإن كان يتمنى لو حمل عنها شكواها لأنه كان يحمل أسهم الشكوى في كبده.. وقد كشف لنا في أبياته عن عمق حبه وصدق وفائه، قال:

قد صوّحت روضتي المونقة وانتزعت دوحتي المورقه
باب إلى الجنة ودعته مذ رأيت الموت قد أغلقه
لا يبعدن مثواك يا أمّ ما أبعد مثواك وما أسحقه
قد صدق الموت الذي لم أزل أحذره فيك وقد حقّقه
يقلق أحشائي على مضجعي تذكري أحشاءك المقلقه
وحملك السقم وأعباءه في جسد أضعف من بروقه
لله أم ما ينى حزنها مجدداً أحزاني المخلقه
كم أودعت أذني من أنّة تودع قلبي جمرة محرقه
ومن تشكٍّ كنت أولى به أسهمه في كبدي مطلقه
أقول والأنفاس قد صاعدت في الصدر منها وهي كالمطرقه
يا للمنايا كيف أنجو بها من كربها وهي بها محدقه

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٨٠.
(٢) ديوان الصنوبري ص٤٤٢.

من تتحامى أن ترى ظلمة أسكنتها في ظلم مطبقه
ومن تضيق الأرض في عينها أهديتها للحفرة الضيّقه
ما مهجة جزت فضمنتها من الثرى غير الضمين الثقه

ورغم أن شعر الصنوبري وابن الرومي صادق في عاطفته، إلاّ أنه لم يستطع أن يقدم لنا صورة للمرأة الأم كالصورة الرائعة التي قدمها لنا الشريف الرضي.. ولا شك أن لكل منهم شأناً، فأم الشريف شريفة جليلة في قدرها ونسبها ومكانتها وعملها. وأما أم الصنوبري وابن الرومي فليس هناك كما يبدو إلاّ عاطفة الوفاء والمحبة للأمومة ليس إلاّ..

وهناك ذكر للأمهات ورثاء لهن وتعداد لفضائلهن على ألسنة الشعراء في مجال التعزية والمواساة لا في مجال الإصابة بأمهاتهم.. فمن ذلك قصيدة المتنبي[١] في رثاء والدة سيف الدولة الحمداني، حيث يصفها بالصفات السامية كالكرم، فيقول:

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال
على المدفون قبل الترب صوناً وقبل اللحد في كرم الخلال
سقى مثواك غادٍ في الغوادي نظير نوال كفك في النوال

وينعتها بالمجد[٢]:

أسائل عنك بعدك كل مجد وما عهدي بمجد عنك خالي
يمرّ بقبرك العافي[٣] فيبكي ويشغله البكاء عن السؤال

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/ ١٤٤.
(٢) شرح ديوان المتنبي ٣/ ١٤٦.
(٣) العافي: السائل وطالب المعروف.

ثم يصفها بالعفة والصدق والكتمان فيقول[1]:

حصان مثل ماء المزن فيه كتوم السرّ صادقة المقال[2]

ثم يميزها عن الإناث ويضعها في صف الرجال.. بل يفضلها عليهم فيقول:

وليست كالإناث ولا اللواتي تعدّ لها القبور من الحجال[3]

إلى أن يقول:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضّلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فهو يرى أنه لو كانت النساء كهذه المرثية في الكمال لفضلن على الرجال ولم تزر بها الأنوثة كما لا يزري بالشمس تأنيث اسمها ولا يزيد الهلال فخراً تذكير اسمه.

وممن عزى بوفاة الأم وقال شعراً في رثائها أبو أحمد يحيى بن علي المنجم الذي عزى الموفق بأمه (إسحق الأندلسية) حيث قال[4]:

عزاءً فإن الدهر يعطي ويسلب وصبراً فللدنيا صروف تقلّب
وما جازع إلا كآخر صابر إذا لم يكن مما قضى الله مهرب
على أنه لا يملك القلب لوعة الـ فراق كما لا تملك العين تسكب
إذا كان سهم الموت لا بد صائباً فللصبر أولى بالكريم وأصوب

ثم قال:

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/ ١٤٧.

(٢) الحصان: العفيفة.

(٣) الحجال: جمع حجلة، وهو بيت صغير في جوف البيت يستر النساء.

(٤) معجم الأدباء ٦/ ١٣٥، ونساء الخلفاء ٨٣، والمستظرف من أخبار الجواري ١٠، والوافي بالوفيات ٨/ ٤٣٢.

لقد أظلمت بغداد عند وفاتها كإظلامها للشمس ساعة تغرب.
فولّت وولى الحمد يتبع نعشها ويصدق من يثني عليها ويندب
وما مات من أبقى الأمير ومن له من الفضل ما يعزى إليها وينسب
تقدّمها إياك بعد بلوغها المنـ ـى فيك ما كانت من الله تطلب
فقد أعطيت في ذا وذلك سؤلها وباتت كما بات الحيا المتحلب
فأحسن عزاء وابق فينا مسلّماً مفدى من الأسواء ترجى وترهب
فإن الرزايا ما تخطاك سهمها ليسهل مأتاها وإن كان يصعب

وعن المبرد أنه لما توفيت والدة القاضي إسماعيل رأيت من وجهه ما لم يقدر على ستره وكان كل يعزيه وقد كان لا يسلو فسلمت عليه ثم أنشدته:

لعمري لئن غال ريب الزمان نساء لقد غال نفساً حبيبه
ولكن علمي ما في الثواب عنـ ـد المصيبة ينسي المصيبه

فتفهم كلامي واستحسنه ودعا بدواة وكتبه ثم انبسط وزالت عنه الكآبة.

المديح:

وورد ذكر الأمهات في مجال المديح، ولعل الخليفة الأمين هو أكثر من مدح بأمه زبيدة ابنة جعفر المنصور فيما بين يدينا من شعر.. وقد علمنا فضلها وشرفها وبعد نظرها حتى لقد عدها الجاحظ[1] من ضمن الأمور التي اجتمعت للرشيد ومما لم يجتمع لغيره.

وقال سلم الخاسر في العهد للأمين[2]:

---

(١) تاريخ الخلفاء/ ٢٨٦.

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٩١.

قل للمنازل بالكثيب الأعفر أسقيت غادية السحاب الممطر
قد بايع الثقلان مهديّ الهدى لمحمد بن زبيدة بنة جعفر
قد وفق الله الخليفة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر

ويبدو أن الدافع إلى مدح الأمين بأمه إضافة إلى كونها حرة كونها من بني هاشم وإلى ذلك أشار الشاعر أبو الغول إذ يقول[1]:

ملك أبوه وأمه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج
شربت بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج

ولما حجت أم جعفر زبيدة لقيها النصيب فترجل عن فرسه وأنشأ يقول[2]:

سيستبشر البيت الحرام وزمزم بأمّ ولي العهد زين المواسم
ويعلم من وافى المحصّب أنها ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم
بنو هاشم زين البرية كلها وأم ولي العهد زين لهاشم
سليلة أملاك تفرعت الذرا كرام لأبناء الملوك الأكارم
يظن الذي أعطته منها رغيبة يقص عليه الناس أحلام نائم

قيل.. فأمرت له بعشرة آلاف درهم وفرس فأعطيه بلا سرج - فتلقاها لما رحلت وقال:

لقد سادت زبيدة كلّ حي وميت ما خلا الملك الهماما
تقى وسماحة وخلوص مجد إذ الأنساب أخلصت الكراما
إذا نزلت منازلها قريش نزلت الأنف منها والسناما

(١) مروج الذهب ٣/٣٩٦ وقد ورد البيتان على لسان أشجع في الأغاني ١٨/١٥٦.
(٢) الأغاني ٢٢/٤١٩.

بلغت من المفاخر كلّ فخر   وجاوزت الكلام فلا كلاما
وأعطيت اللّها لكنّ طرفي   يريد السرج منكم واللجاما[1]

فأمرت له بسرج ولجام.

وواضح أن الشاعر قد مدحها بصفات لو نسبت إلى سادة الرجال لشرفتهم.. فهي سليلة المجد والسؤدد والسماحة والتقى، وهي التي تحمل الغرم عن الغارمين وتمنح الهبات والعطايا التي تفوق حدود التصور، بل هي سيدة الأحياء ـ خلا الملك ـ وسيدة الأموات قد بلغت من المفاخر غايتها وجاوزت صفاتها ما يسعه الكلام.

وقال أبو نواس يمدح الأمين ويذكر أمه[2]:

إن الخلافة لم تزل   تزهو وتفخر بالأمين
جاءت به ابنة جعفر   قمر جلا ظلم الدجون
مهدية خير النساء   كذا ابنها خير البنين
فالله يبقيه ويبقيها   لنا حقب السنين

وقال مروان بن أبي حفصة وكأنه قد جعلها في كفة ميزان وجعل النساء جميعاً في الكفة الأخرى رجحت عليهن بالتقى[3].

رجحت زبيدة والنساء شوائل   والله أرجح بالتقى ميزانها

ومدح ابن هرمة محمد بن عبدالله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية بكون أمه حرة فقال[4]:

---

(١) اللّها: جمع اللهوة وهي العطية، والطرف: الفرس الكريم.

(٢) ديوان أبي نواس ص٤١١.

(٣) المحاسن والمساوىء ٢/ ١٥٣.

(٤) ديوان ابن هرمة، ص٢٣٥.

مـا غـيـرت وجـهـه أمّ مـقـصـرة   إذا الـقـتـام تـغـشّـى أوجـه الـهـجـن

المواساة:

وتجري الأمهات على ألسنة الشعراء في أشد حالات المحنة والضيق فقد كتب أبو فراس إلى والدته من الأسر وقد ثقلت جراحه[1] يبثها أشجانه ويواسيها ويصبرها على مصابها به قصيدة جاء فيها قوله:

وإن وراء الـسـتـر أمًّـا بـكـاؤهـا   عـلـيّ وإن طـال الـزمـان طـويـل
فـيـا أمّـتـا لا تـعـدمـي الـصـبـر إنـه   إلى الخير والنجح القريب رسول
فـيـا أمّـتـا لا تـحـبـطـي الأجـر إنـه   على قدر ذي الصبر الجميل جزيل
تـأسـي كـفـاك الله مـا تـجـديـنـه   فـقـد غـال هـذا الـنـاس قـبـلـك غـول

وكتب إليها قوله[2]:

لـولا الـعـجـوز بـمـنـبـج   مـا خـفـت أسـبـاب الـمـنـيـه
ولـكـان لـي عـمـا سـألـت   مـن الـفـدى نـفـس أبـيـه
لـكـن أردت مـرادهـا   ولـو انـجـذبـت إلـى الـدنـيـه
أمـسـت بـمـنـبـج حـرّة   بـالـحـزن مـن بـعـدي حـريـة
فـيـهـا الـتـقـى والـديـن مـجـمـ   ـوعـان فـي نـفـس زكـيّـه
لا زال يـطـرق مـنـبـجـاً   فـي كـل غـاديـة تـحـيـه
يـا أمـتـا لا تـحـزنـي   وثـقـي بـفـضـل الله فـيّـه
يـا أمـتـا لا تـيـأسـي   لـلّـه ألـطـاف خـفـيـه
أوصـيـك بـالـصـبـر الـجـمـيـ   ـل فـإنـه خـيـر الـوصـيّـه

---

(١) اليتيمة ١/٧٨ـ٧٩.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

الشتم بالأم:

وقد تقع الخصومة بين الشعراء وتشتد وتقوى فتكون المرأة هي الضحية في ذلك وتكون حصيلتها سباً وشتماً وكلاماً فاحشاً ينسب إليها حقاً أو باطلاً.. وربما كانت الأم أكبر مجال للشتم والهجاء فمن ذلك قول ابن الرومي يهجو الأخفش[1]:

ألا قلْ لنحويك الأخفش أنست فأقصر، ولا توحش
وما كنت عن غية مقصراً وأشلاء أمك لم تنبش
تحديت صلاً وفي نفثه نذير فأقلع ولم تنهش

ثم يقول:

وما أحد جاء من أمه بأعجب من ناقد أخفش
أسيود جاءت به قردة سويداء غادية المفرش
كأن سنا الشتم في عرضه سنا الفجر في السحر الأغبش
أتت بك أمك من أمة فإن كنت أعمى فلا تطرش

ويختم قصيدته في هجائه بقوله:

وما كل من أفحشت أمه تعرّض للقذع الأفحش[2]

وقال في هجاء أبي بكر الحريثي يهجوه[3] بضعف نسبه وبكذبه في انتمائه إلى العرب أو العجم.. وبأن أمه كتمت عليه آباءه لكثرة من كان يغشاها من القوم.. وهو هجاء مقذع وسيلته هذه الأم المشؤومة التي تفنن ابن الرومي في نسبة الخزي والعار إليها:

---

(١) الأخفش: النحوي من أهل بغداد كان كثير المزاح والمجون في كلامه ونظمه، الأعلام ٧/ ١٣.

(٢) ديوان ابن الرومي ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩ و٢/ ٢٩١.

(٣) ينظر هجاؤه له في ديوانه وذكره لأمه ١/ ٩٢ و١/ ٩٣.

للحريثي أبي بكر غبب ولـه قرنان أيضاً وذنب
فإذا ما قال: أنا عجم قال قرناه جميعاً قد كذب
وإذا ما قال: أنا عرب دفعت ذاك ولم ترض العرب
ما ترى لابن حريث حسباً أتراه جاء من بيض الترب
كتمته أمه آباءه فلهذا أنكر القوم النسب
ليتها أنبته عن آبائه فلقد صور في خلق عجب
لم تزل عرس حريث مركباً لجميع الناس تحنى للركب
لك وجه محكم صنعته ما ترى عَقْب إلا بعقب
جثة الكشحان تنبي أنها جمعت نطفتها من ألف أب[1]

ويستمر في سبه بأفحش الكلام ثم يقول:

أنا لا أشتم إلاّ أمه فليزدني غضباً فوق غضب
وليقل ما شاء في شتمي له إن طبعي شتمه لا مكتسب
ما لمن يفخر في أنسابه ولعيب الشعر من أهل الأدب
إن يكن يطلب شتمي أمّه فلقد نال الذي منّي طلب
كلكم آل حريث عرة لعن الله حريثاً وكتب[2]

وهجا خالد القحطبي[3] وإبراهيم البيهقي[4] وغيرهما[5] بأمهاتهم هجاءً فاحشاً مقذعاً لا يتسع المجال لذكره وإنما نكتفي بالإشارة إليه.

ومن شعراء الهجاء الذين اتخذوا من الأمهات موضوعاً للسب

(١) ديوان ابن الرومي ٣/٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه ٣/٣٢٩.
(٣) ينظر ديوان ابن الرومي ١/١٢٩ و٣/٣٣٦.
(٤) ينظر ديوان ابن الرومي ٣/٣٣٧ و٢/٢٠٣.
(٥) ينظر ديوان ابن الرومي ٢/٢٠٢ و١/١٤٤ و١/١٢٩.

والشتم الحكم الخضري[1] والرماح بن أبرد[2] المعروف بابن ميادة.

قال الحكم الخضري في هجاء ابن ميادة[3]:

وما لك فيهم من أب ذي دسيعة[4] ولا ولدتك المحصنات الكرائم
وما أنت إلاّ عبدهم إن تربهم من الدهر يوماً تشتريك المقاسم

ثم يسب أمه سباً فاحشاً لا يسمح المجال بذكره.

وقيل إن ابن ميادة وكان محرّضاً للشر طالباً لمهاجاة الشعراء ومسابة الناس، كان يضرب بيده على جنب أمه ويقول[5]:

اعرنزمي[6] ميّاد للقوافي واستمعيهن ولا تخافي

وقد هجا الحكم الخضري ابن ميادة بأمه في بعض قصائده بأمور كانت وما تزال مستهجنة في المجتمع وهي الإضرار بالجيران والشح والبخل فقال[7]:

يا بن التي جيرانها تضرّ وتتبع الشول[8] وكانت تمتصر[9]

---

(١) الحكم الحضري: شاعر معاصر لابن ميادة.

(٢) الرماح بن أبرد: واشتهر بابن ميادة. شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وقيل إنه عاش في أيام هشام بن عبد الملك وبقي إلى زمن المنصور، الأغاني ٢/٢٣٦.

(٣) الأغاني ٢/٢٢٨.

(٤) الدسيعة: كرم الفعل، وقيل مائدة الرجل إذا كانت كريمة.

(٥) الأغاني ٢/٢٢٩ والشعر والشعراء ٢/٦٥٥ وطبقات ابن المعتز ص١٠٧.

(٦) أعر نزمي: اعرنزم: تجمع وتقبض، واعرنزم الشيء: اشتد وصلب. اللسان/ اعرنزم.

(٧) الأغاني ٢/٢٥٦.

(٨) الشول من اللبن: البقية في الضرع: اللسان/ شول.

(٩) التمصر: حلب بقايا اللبن في الضرع بعد الدر، وصار مستعملاً في تتبع القلة/ اللسان/ شول.

ومما هجا به عبدالرحمن بن جهيم الأسدي[١] ابن ميادة بأمه كثرة عملها فقال بأنها مدماة الكعبين خشنة الأطراف غليظتها لم تعرف كفاها خضاباً ولم تشرق ثيابها بعطر. . .

ولا شك في أن الشاعر يشير بذلك إلى أنها ليست من المخدومات المرفهات، قال[٢]:

لقد كذب العبد ابن ميادة الذي ربا وهي وسط الشول تدمى كعابها
شرنبثة[٣] الأطراف لم يقن[٤] كفها خضاب ولم تشرق بعطر ثيابها

وقال أبان بن عبدالحميد اللاحقي في أبي نواس ثلاثة أبيات سارت في الدنيا يهجوه فيها بأمه[٥]:

أبو نواس بن هاني وأمّه جلبّان
والناس أفطن شيء إلى حروف المعاني
إن زدت بيتاً على ذي ما عشت فاقطع لساني

ومن المظاهر الاجتماعية الواضحة في العصر العباسي كره التزوج بالأرامل. . وقد امتدت هذه الظاهرة إلى أبناء الأرامل فأثرت فيهم بمواقفهم السلبية من أزواج أمهاتهم. . فبعد أن كان المجتمع يسيغ للأم أن تتزوج بعد وفاة زوجها. . فيجتمع أبناء الأرملة الواحدة لعدة آباء

---

(١) عبد الرحمن بن جهيم الأسدي: شاعر عباسي.

(٢) الأغاني ٢/ ٢٩٤.

(٣) الشرنبث: الغليظ الكفين، وفي الصحاح والرجلين، وفي المحكم والقدمين لخشنهما. اللسان/ شربث.

(٤) يقن: يصبغ.

(٥) طبقات ابن المعتز ٢٤١، والعصر العباسي الأول/ ٣٣٣، وطبقات ابن المعتز، وقيل إن هذه الأبيات قالتها عنان في هجائه.
ورود له في الأغاني ٢٣/ ٢٢ هجاء أبان في أبي نواس بأمه، وهو من الهجاء الفاحش.

فيفخر كل منهم أمام أخيه بنسب أبيه وصفاته وأعماله فلا يثير ذلك أي شعور في نفوسهم بل ولا يثير أي امتعاض حتى في نفس زوجها الأخير الذي وقف ابنه أمامه يفاخر إخوته به[1].

نرى أن الأبناء في العصر العباسي صاروا يخجلون من زواج أمهاتهم وصار الناس يعزونهم بذلك ويجعلون منهم مواطن التندر والسخرية، فمن ذلك رسالة الخوارزمي إلى مسكويه وقد تزوجت أمه[2].

(وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت اللهتعالى. الذي رزقك والداً لا يلزمك حق أبوته، ووعدك أخاً لا يحملك حمل أخوته، وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها، والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها فإن القبر أكرم صهر، وإن الموت أستر ستر، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليه الرزق فلا حمية فيما أحل الله ولا مضايقة من حيث وسع الله، وللإنسان أباء والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها، ووقع الجفاء من جنبتها، فإنك بررتها صغيراً وبلغت مرادها كبيرا، فاجتمع لك برّان ووقع لك على الله أجران).

وواضح أن الرسالة تنطوي على التندر والسخرية وعدم استساغة زواج الأم[3].

وقال أبو الفرج الببغا[4]:

---

(١) كانت أسماء بنت عميس قد تزوجت ثلاثة من سراة المسلمين هم جعفر بن أبي طالب وأبو بكر وعلي بن أبي طالب وولدت من كل منهم/الف باه البلوى ٢/٥٧٨.

(٢) رسائل الخوارزمي ص١٧٣.

(٣) قال الخوارزمي في ذم شخص: (يا نظر إلى زوج الأم على الريق).

(٤) أبو الفرج الببغا: عبدالواحد بن نصر بن محمد المخزومي.

(وجرى بحضرة الأمير سيف الدولة ذكر رجل تزوجت أمه من أصحابه، وحديث الترسل والكتابة فقال لي: اكتب الساعة على البريد رقعة عن نفسك إلى هذا الرجل تعزيه بتزويج أمه. فكتبت رقعة[1] بين يديه ارتجالاً وحفظتها:

(من سلك سبيل الانبساط، لم يستوعر مسلكاً في المخاطبة فيما يحسن الانقباض في ذكر مثله، واتصل بي ما كان من أمر الواجبة الحق عليك المنسوبة بعد نسبتك إليها، إليك، ومن الله صيانتها في اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره، وشرع المروءة يحظره لكنت في مثله بالرضا أولى وباعتداد بما جدده الله من صيانتها أحرى. فلا يسخطنك من ذلك ما رضيه موجب الشرع، وحسنه أدب الديانة فمباح الله أحق أن يتبع، وإياك أن تكون ممن إذا عدم اختياره سخط اختيار القدر له والسلام).

والذي يشير إليه الكاتب بوضوح وصراحة أن الأنفس تتناكر لزواج الأم، وأنه رغم إباحة الله وتحسين الشرع له فإن شرع المروءة يحظره ويأباه...

ومما قيل في زواج الأم قول الصاحب بن عباد في رجل تزوجت أمه[2]:

عذلت لتزويجه أمّه ... فقال فعلت حلالاً يجوز

فقلت حلال كما قد زعمت ... ولكن سمحت بصدع العجوز

وقال أيضاً[3]:

زوجت أمك يا فتى ... وكسوتني ثوب القلق

(١) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٦٤.

(٢) أخلاق الوزيرين ص٢٨٣.

(٣) يتيمة الدهر ٣/ ٢٧٣.

والـــحـــرّ لا يـــهـــدي الـــحـــرا م إلـــى الـــرجـــال عـــلـــى طـــبـــق

وسنتناول خلال حديثنا عن موقف المجتمع من زواج الأرامل بصورة عامة هذه الظاهرة الاجتماعية بصورة أوفى وأوسع...

الفصل الثالث

الزوجة في الأدب

الموقف من الزواج:

وتباينت المواقف واختلفت الأقوال في الزواج والزوجات فكانت النظرة المتعلقة التي تحرص على الحياة الزوجية وتقدس الزواج وتؤكد على حسن الاختيار وتنظر إلى الزوجات نظرة الاحترام والود.. وكانت تقابلها في ذلك الجانب الصاخب العابث من المجتمع النظرة التي ترى في الزواج عبئاً ثقيلاً وهمّاً مستديماً وترى في الزوجات شريكات مستقبحات الشركة مستكرهات العشرة سيما بعد مرور السنين ونضوب سمات الجمال والشباب.. وما حاجة أمثالهم إلى الزوجات ومجتمعهم يعج بالإماء الحسان ويزخر باللذة الرخيصة المبذولة..

وقد بدت آثار هذين الموقفين المتباينين في أقوالهم وأشعارهم وأخبارهم.. فهناك إشارات كثيرة إلى تفضيل التزوج بالحرائر على التسري بالجواري ننقل منها قول بعضهم[(١)]: (لا تغترس من تداولتها أيدي النخاسين ووقع ثمنها في الموازين) أو قولهم: (لا خير في بنات الكفر وقد نودي عليهن في الأسواق ومرت عليهن أيدي الفساق) وكانوا يقولون في أمثالهم: (الجواري كخبز السوق والحرائر كخبز الدور)[(٢)] وقال الشاعر يحث على التزوج من الحرائر ونبذ الجواري:

إذا لم يكن في منزل المرء حرة ... رأى خللاً فيما يولى الولائد

---

(١) المحاسن والأضداد ص٣٠٠.

(٢) المحاسن والأضداد ص٣٠٠.

فلا يتخذ منهن حر قعيدة فهن لعمر الله شر القعائد[1]

أما أولئك الذين كانوا يرون في الزواج غلاً ووثاقاً وعبثاً فقد كانت دوافعهم إلى ذلك متعددة مختلفة نستفيدها مما بين أيدينا من نصوص.. منها المهر الغالي الذي يرهق كاهل طالب الزواج، ومنها صعوبة توفير أسباب المعيشة للعيال، ومنها الانغماس في العبث والتحلل والاستهتار.

يحدثنا صاحب الأمالي عن أعرابي من ضبة قدم البصرة فخطب امرأة من قومه فشطوا عليه في المهر فأنشأ يقول[2]:

خطبت فقالوا هات عشرين بكرة ودرعاً وجلباباً فهذا من المهر
وثوبين مرويين في كل شتوة فقلت الزنى خير من الجرب القشر[3]

فواضح أن الذي صرف هذا الأعرابي من الزواج إلى الزنى هو غلاء المهر وكثرة تكاليف الزواج.

ولما قيل للشاعر العتابي[4] لو تزوجت! أجاب: (إني وجدت مكابدة العفة أيسر علي من الاحتيال لمصلحة العيال)[5] فقد آثر العتابي مكابدة العفة على الاحتيال لمصلحة العيال لأنها أيسر عنده وأهون عليه.

---

(١) المحاسن والأضداد ص٢٩٩ وفي البيت (أقواء).

(٢) الأمالي ١/ ٢٨٣.

(٣) الجرب: بثر يعلو أبدان الناس والإبل: اللسان/ جرب.
وقشره: سحا لحاءه أو جلده، وفي الصحاح نزعت عنه قشره وهو كناية عن كثرة الطلبات إلى حد تعريته من المال.

(٤) العتابي: شاعر محسن وكاتب في الرسائل مجيد عاصر الخليفة المأمون، ترجمته الأغاني ١٣/ ١٠٧.

(٥) الأغاني ١٣/ ١١٤.

أما أبو نواس الشاعر العابث فإنه يرفض الزواج لا لمهر أو عيال وإنما لأنه استطاب حياة التحلل والمجون والعبث فلا يريد أن يرعوي أو يرتدع، قيل إن أهله دسوا عليه امرأة[1] لترغبه في الزواج فعرضت عليه فتاة ذات جمال ومال فكان جوابه لها[2]:

أقول لها لما أتتني تدلني ... على امرأة موصوفة بجمال
أصبت لها يا أخت فحلاكما اشتهـ ... ـت إذا اغتفرت مني ثلاث خصال
فمنهن فسق لا ينادى وليده ... ورقة إسلام وقلة مال
ولو أنها في الحسن كانت كيوسف ... وبلقيس أو كانت كخط جمال
وقالت تزوجني على مهر درهم ... لقلت اغربي عني فمهرك غالي

وقيل إن أهله ما زالوا به حتى زوجوه[3] جارية جميلة من أهل بيته إلا أنه طلقها بعد ليلة وأنشأ يقول فيها:

صاحبة القرقر لا تشغبي[4] ... تحملي طالقة واذهبي
مري فكم مثلك من حرة ... رائعة لم تك من مطلبي

وربما شاع مثل موقف أبي نواس من الزواج لدى الكثيرين من أمثاله ممن يفضل المتعة العابرة بالنفقة الخفيفة والمؤونة القليلة فكانوا يقولون: (من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر) وكان بعضهم يقول: (عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر، ويقول: السرور باتخاذ السراري)[5].

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٠٧ ـ ١٠٨.
(٢) ديوان أبي نواس ص٣١٢، وأخبار أبي نواس (لأبي هفان) ص٢٧، وألحان الحان ٢٨٥.
(٣) ألحان الحان ص٢٨٤، وأخبار أبي نواس (لابن منظور) ١/١٠٦.
(٤) القرقر: لباس خاص بالنساء: تشغبي: تهيي الشر.
(٥) المحاسن والأضداد ص٢٩٩.

ومع ذلك فإننا نلاحظ أن أبا نواس عندما يشعر بذنبه ويرجو الرحمة والغفران يقف موقف المتعقل يدعو إلى اتخاذ الزوجات الصالحات فيختلف موقفه من الزواج ربما خلال ومضات طارئة من الإيمان تمس قلبه ثم لا تلبث أن تهرب من واقعه الأليم، فقد قال[1]:

أيـة نـار قـدح الـقـادح ... وأي جـد بـلـغ الـمـازح
لـلّـه در الـشـيـب مـن واعـظ ... ونـاصـح لـو سـمـع الـنـاصـح
يـأبـى الـفـتـى إلا اتـخـاذ الـهـوى ... ومـنـهـج الـحـق لـه واضـح
فـاسـم بـعـيـنـيـك إلـى نـسـوة ... مـهـورهـن الـعـمـل الـصـالـح
لا يـجـتـلـي الـحـوراء مـن خـدرهـا ... إلا امـرؤ مـيـزانـه راجـح
مـن اتـقـى الله فـذاك الـذي ... سـيـق إلـيـه الـمـتـجـر الـرابـح

وربما أقبل بعضهم على الزواج مكرهاً لأنه رآه أمراً لا بد منه كالذي وقع للعباس بن الأحنف الذي يوضح ذلك في مخاطبته لحبيبته فوز حينما حالت عن عهدها القديم له بعد زواجه لأنها اعتبرت ذلك ذنباً قال[2]:

إلـى الله أشـكـو أن فـوزاً تـغـيـرت ... وحالت عن العهد القديم فأنهجا
وقـد حـسـبـت ذنـبـاً عـلـي تـزوجـي ... فـقـلـت كـلانـا مـذنـب قـد تـزوجـا
كـلانـا عـلـى مـا كـان مـن ذاك مـكـره ... يـحـاول أمـراً لـم يـجـد مـنـه مـخـرجـا
كـلانـا مـشـوق أنـضـج الـشـوق قـلـبـه ... يـعـالـج جـمـراً فـي الـحـشـا مـتـأجـجـا

وقد حفل الشعر في العصر العباسي بالكثير من المشاعر المختلفة المتباينة تجاه الزوجات، فتعددت المواقف، وبدت صور ذلك في الأغراض الشعرية المختلفة.

---

(١) ديوان أبي نواس ص٦١٨، وزهديات أبي نواس ص٣٧.
(٢) ديوان العباس بن الأحنف ٧١.

إلا أن من المفيد أن نبين أن ما بين أيدينا منه لم يستطع أن يكشف لنا عن تلك العاطفة الجياشة القوية من الحب الخالص التي كانت تربط بين الزوج وزوجته في العصر الأموي، لقد كانت صورة الزوجة في الشعر بصورة عامة متأثرة إلى حد بعيد بالتيارات والأحوال الاجتماعية، ولهذا لاحظنا أن صفة الإشراق والوضوح والقدرة على التأثير قد خفت كثيراً في العصر العباسي مما كانت عليه صورة الزوجة الحرة في العصر الأموي، فلم نعد نستمع إلى أناشيد الوفاء والثبات على العهد للزوجة في حياتها بالنغمة التي أسمعنا إياها الطرماح عندما فارق زوجته حولاً كاملاً مؤكداً وفاءه لها زاعماً أنه منذ فارقها، لم يعط قلبه وحبه لغيرها[1]:

كفى حزناً يا سلم أن كنت داعياً ... بكرمان بي حول ولم أتسرح
أنام لألقى أم سلم وربما ... رماني الكرى بالزائر المتزحزح
ويا سلم ما أربحت إن أنا بعتكم ... بدنيا وكم من تاجر غير مربح

ثم يصف لها ما تفعله الذكرى به وكيف أنها كانت تصرفه عن غيرها من النساء اللائي يتحببن إليه:

كأن فؤادي بين أظفار طائر ... إذا سنحت ذكراك من كل مسنح
وذكراك ما لم تسعف الدار بيننا ... تباريح من عيش الحياة المبرح
أغار على سلمى لسلمة خاليا ... ولو عرضت لي كل بيضاء بيدح
تملح ما اسطاعت ويغلب دونها ... هوى لك ينسي ملحة المتملح
وما وصلكم بالرث يا سلم فانعمي ... صباحاً ولا بالمستعار الممنح

وإنما صرنا نستمع إلى لون آخر من أناشيد السلو وإثارة الغيرة مما انعكست فيه ألوان المجتمع بكثرة غلمانه وجواريه وبتفشي روح التحلل

---

(١) ديوان الطرماح ٩٧٠.

وعدم الثبات، وقد بدأت هذه الظاهرة بالتوسع منذ توسع الفتوحات في العصر الأموي وما فتئت تقوى وتشتد كلما تقدمنا إلى العصر العباسي.

فقد خرج رجل مع قتيبة بن مسلم[1] إلى خراسان وخلف امرأة جميلة يقال لها (هند) ولبث هناك مدة طويلة فاشترى جارية اسمها (جمانة) فوقعت الجارية منه موقعاً فأنشأ يقول[2]:

ألا لا أبالي اليوم ما فعلت هند ... إذا بقيت عندي الجمانة والورد[3]
شديد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاء صنهاجية، زانها العقد
فهذا لأيام الحروب وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

كما تغير الصوت إلى حد ما لدى المرأة الزوجة نفسها فبعد أن كنا نستمع إلى صوتها الذي أسمعنا إياه عمر بن أبي ربيعة لامرأة بلغها أن زوجها قد تزوج بأخرى[4]:

خبروها قد تزوجت فظلت ... تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى ... جزعاً: ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها ... لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبي كأنه ليس مني ... وعظامي كأن فيهن فترا
من حديث نما إليَّ فظيع ... خلت في القلب من تلظيه جمرا

استمعنا إلى صوت (هند) التي سلا زوجها واستعاض عنها

---

(١) قتيبة بن مسلم: أمير فاتح له الفتوحات كثيرة، كخوارزم وسمرقند وغزا أطراف الصين، تولى إمارة خراسان زمن عبد الملك بن مروان وأقام بها ثلاث عشرة سنة (الأعلام ٦/ ٢٨ ووفيات الأعيان ٤/ ٨٦).

(٢) دولة النساء ٥٩٨.

(٣) الورد: اسم لفرس.

(٤) ودولة النساء/ ٦٠١.

(بجمانة) الجارية، فقالت حينما نمي إليها شعر زوجها[1]:

ألا أقره مني السلام وقل له غنينا بفتيان غطارفة[2] مرد
بحمد أمير المؤمنين أقرهم شباباً وأغزاكم حواقلة[3] الجند
إذا شئت غناني غلام مرجل ونازعني من ماء معتصر ورد
فما كنتم تقضون من حاج أهلكم شهوداً قضيناها على النأي والبعد
فعجل علينا بالسراح فإنه منانا ولا ندعو لقولك بالرد
فلا قفل الجند الذي أنت فيهم وزادك رب الناس بعداً إلى بعد

وأكبر الظن أن (هنداً) هذه لم تكن صادقة في دعواها باتخاذها الغلام المرجل ـ على حد قولها ـ في غياب زوجها، وإنما قصدت بذلك إلى إثارة غيرته وحميته[4]، إلا أنها مع ذلك أباحت لنفسها أن تدعي هذه الدعوى، وإني لألمح حتى في مجرد الادعاء على هذه الصورة شيئاً من آثار التحلل الاجتماعي...

ولكن هذا لا يعني اختفاء غيرة النساء على أزواجهن.. وفي كتب التاريخ إشارات إلى أن المرأة قد تبلغ بها الغيرة من الجواري إلى حد الجنون بقتل الزوج[5] والتوسل بأنواع المكائد والحيل لصرف الرجل عن التعلق بجارية.

---

(١) دولة النساء/ ٥٩٨.

(٢) غطارفة: الغطريف: السيد الشريف والسخي السري، ج الغطارفة (القاموس المحيط).

(٣) حواقلة: الحوقل: الشيخ الضعيف.

(٤) وتتمة الخبر أنه: (لما ورد كتابها لم يزد الزوج على أن ركب فرسه وأردف الجارية ولحق بها، فكان أول شيء بدأ به بعد السلام أن قال: بالله هل كنت فاعلة، قالت: الله أجل في قلبي وأعظم وأنت في عيني أذل وأحقر من أن أعصي الله فيك؟ فكيف ذقت طعم الغيرة؟ قيل: فوهب لها الجارية وانصرف ـ دولة النساء/ ٥٩٨.

(٥) تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٦.

ورغم ذلك فقد كانت هناك بعض المواقف التي صورها شعر العصر تعبر عن تأصل العلاقة الزوجية وصدق المحبة، وقد بدأ أكثر ذلك في رثاء الزوجات:

رثاء الزوجات:

ولعل من أجود ما رثيت به النساء وأشجاه وأشده تأثيراً في القلب وإثارة للحزن قول محمد بن عبدالملك الزيات في زوجته (سكرانة أم عمر) مصوراً في رثائه لها لوعته وهو يرى طفله تسيل دموعه ويبحث بعينيه عن أمه في هدأة الليل وقد رأى الأمهات يناجين أطفالهن فقال[1]:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران[2]
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحثه[3] بلابل قلب دائم الخفقان

ثم قال:

ألا إن سجلاً[4] واحداً إن أرقته من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما أداوي بهذا الدمع ما تريان
وإن مكاناً في الثرى خط لحده لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل أنتما إن عجت منتظران[5]

---

(١) العمدة ٣/ ١٥٦ وديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص٦٧.

(٢) تبتدران: تسيلان بالدموع، اللسان/بدر، وقد وردت في الديوان تنسكبان.

(٣) تحثه: في ديوانه: تجنه.

(٤) السجل: الدلو الضخمة المملوءة ماء (اللسان/ سجل).

(٥) ديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص٦٧ والعمدة ٣/ ١٥٦.

ومن أشجى الشعر قوله في هذه القصيدة:

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليد فمن بالصبر لابن ثمان

ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة ولا يأتسي بالناس في الحدثان

ألا من أمنيه المنى فاعده لعثرة يا أمي وصرف زماني

ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي وإن غبت عنه حاطني ورعاني

فلم أر كالأقدار كيف تصيبني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

ولا مثل أيام فجعت بعهدها ولا مثل يوم بعد ذاك دهاني

أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غد تعداني

أعيني أن أنع السرور وأهله وعهد الرضى عندي فقد تفياني

أعيني إن أبك البشاشة والصبا فقد أذنا مني وقد بكياني

ألا إن ميتاً لم أزره لشد ما تلبس من قلبي به وعناني

ألا إن ميتاً لم أزره لعز ما تضمن منه في الثرى الكفنان

ولعل البيتين اللذين قالهما في زوجته أم عمر من أصدق وأروع ما قيل في الوفاء للزوجة والإخلاص لها.. قال[1]:

يقول لي الخلان لو زرت قبرها فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قدرها ولم أبلغ السن التي معها الصبر

ومن جيد الرثاء أيضاً قول مسلم بن الوليد في زوجته وكان قد جزع على موتها جزعاً شديداً أو تنسك مدة طويلة وعزم على ملازمته ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه أن يزوره ففعل فأكلوا وقدموا الشراب، فامتنع منه مسلم وأباه وأنشأ يقول[2]:

بكاء وكأس كيف يتفقان سبيلاهما في القلب مختلفان

---

(١) ديوانه ص٢٨ ـ ٢٩ والأغاني ٢٢/ ٤٧٣.

(٢) الأغاني ١٨/ ٣٤٢.

دعـانـي وإفـراط الـبـكـاء فـإنـنـي ... أرى الـيـوم فـيـه غـيـر مـا تـريـان
غدت والثرى أولى بها في وليّها ... إلـى مـنـزل نـاء لـعـيـنـك دانـي
فلا حزن حتى تذرف العين ماءها ... وتـعـتـرف الأحـشـاء لـلـخـفـقـان
وكيف بدفع اليأس للوجد بعدها ... وسهماهما في القلب يعتلجان

أما ابن الرومي فيرثي امرأته رثاء المحب الوفي، ولكنه حائر بين البكاء والصبر والإمساك عنه، لأنه يعلم أن الأسى والبكاء كالداء والدواء فهو يرى أن من صدق الوفاء وصحته أن يترك داءه وحزنه بوفاة زوجته لأنه لا يريد دواء لدائه ولأنه لا يريد العيش بعدها فيقول[1]:

عـيـنـي سـحـا ولا تـسـحـا ... جـل مـصـابـي عـن الـبـكـاء
تـركـكـمـا الـداء مـسـتـكـنًّـا ... أصـدق عـن صـحـة الـوفـاء
ومـا ابـتـغـاء الـدواء إلا ... بـغـيـا سـبـيـل إلـى الـبـقـاء
ومـبـتـغـي الـعـيـش بـعـد خـل ... كـاذبـة خـلـة الـصـفـاء

إلاّ إنه لا يلبث في أبيات أخرى أن يستدر دموع عينيه عليها لأنه يستنكف أن يزيد عليه غيره في البكاء، ولأنه حريص على أن يذيب عينيه أسىً وبكاء. قال[2]:

عـيـنـي جـودا عـلـى حـبـيـبـكـمـا ... بـالـسـجـل فـالـسـجـل من صـبـيـبـكـمـا
فـاسـتـغـزرا درة الـشـؤون عـلـى ... بـدركـمـا بـل عـلـى قـضـيـبـكـمـا
هـذا فـؤادي والـرزء رزؤكـمـا ... يـبـكـي لـه غـيـر مـسـتـثـيـبـكـمـا
فـاسـتـنـكـفـا أن يـكـون غـيـركـمـا ... أبـكـى لـمـا فـات مـن نـصـيـبـكـمـا

(١) ديوان ابن الرومي ٢/ ٣٠٥.

(٢) ديوان ابن الرومي ٢/ ٣٠٥.

ولديك الجن[1] في رثاء زوجته[2] قصائد كثيرة[3] اخترنا منها قوله في مناجاتها وبيان لوعته وحسرته على وفاتها.. مشيراً إلى لوم الناس له ببكائها بعد قتلها، مشبهاً فعلته هذه بصياد الطيور يذبحها ثم يبكي عليها.. قال[4]:

أساكن حفرة وقرار لحد ... مفارق خلة من بعد عهد
أجبني إن قدرت على جوابي ... بحق الود كيف ظللت بعدي
وأين حللت بعد حلول قلبي ... وأحشائي وأضلاعي وكبدي
أما والله لو عاينت وجدي ... إذا استعبرت في الظلمات وحدي
وجد تنفسي وعلا زفيري ... وفاضت عبرتي في صحن خدي
إذاً لعلمت أني عن قريب ... ستحفر حفرتي ويشق لحدي
ويعذلني السفيه على بكائي ... كأني مبتلًى بالحزن وحدي
يقول قتلتها سفهاً وجهلاً ... وتبكيها بكاء ليس يجدي
كصياد الطيور له انتحاب ... عليها وهو يذبحها بحدٌ

وكان أبو حية النميري[5] تزوج ابنة عم له فتوفيت عنه وكاد يخرج

---

(١) ديك الجن: هو عبدالسلام بن رغبان. شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي سمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين (الأعلام ٤/١٢٨).

(٢) كان ديك الجن قد اشتهر بجارية نصرانية اسمها (ورد) هويها وتمادى به الأمر حتى دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها فأجابته وتزوجها.. وقيل إن خصومة بينه وبين ابن عم له حملت ابن العم على إذاعة خيانة ورد لزوجها مع غلام خلال سفر زوجها لبعض أعماله، فلما عاد الزوج من سفره وعلم بالخبر قتلها.. ثم بلغه الخبر على حقيقته واستيقنه فندم ومكث أكثر حياته يتحسر على فعلته ويرثيها بالقصائد الكثيرة.

(٣) الأغاني ١٤/ ٥٣ ـ ٥٨.

(٤) الأغاني ١٤/ ٥٧.

(٥) توفي عام ١٦٠هـ.

عليها من الدنيا، وقد ذكر ابن المعتز[1] أن (أشعاره الجياد كلها فيها وفي وصفها في حياتها، ومراثيها بعد مماتها).

ومما يستحسن له قوله فيها[2]:

ألا حي من بعد الحبيب المغانيا	لبسن البلى مما لبسن اللياليا
إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة	تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

وقوله متحسراً على ذكرياته الماضية معها:

تجود لك العينان من ذكر ما مضى	إذا ضن بالدمع العيون الغوارز
الوفان ينهلان من غصص الهوى	كما انهل شق غيبته الجوارز[3]
يهيج لي نوح الحمام صبابة	ونوح مرنات سجتها الجنائز
لتفريق ألاف كأن عيونها	عيون المها جازت بهن الأماعز
أولئك من بعد اجتماع من الهوى	تصدع شعب بينهم فتمايزوا
تركن بقلبي إذ نأين حزازة	أبت أن تجلى إذ تجلى الحزائز

ولا حاجة بنا إلى أن نشير إلى ما في هذه الشواهد من حرارة العاطفة وحدتها وقوتها، وما في لغتها من أصالة وابتعاد عن التكلف فالعواطف والألفاظ تنساق انسياقاً طبيعياً كتدفق الماء الصافي من الينبوع العذب.

وتردد ذكر الزوجات في مجال التعزية بوفاتهن إلاّ أن الشعراء لم يزيدوا على ما قيل في التعزية بالمرأة الأم أو الأخت أو الأبنة، فإن أهم

---

(١) طبقات ابن المعتز ص١٤٦.

(٢) المصدر السابق ص١٤٤.

(٣) المصدر السابق ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٤) الجوارز: الأرض الجرز: التي لا نبات بها كأنه انقطع عنها المطر اللسان/ جرز.

الصفات التي تنسب إليها لا تتعدى العفّة والبر والزهد والتقوى[1]، فمن ذلك قول الصنوبري يعزي أبا الحسين الهاشمي بفقد زوجته بقصيدة طويلة نذكر منها قوله[2]:

كريمة ضمنتها بقعة كرمت ... أكرم بها بقعة تشتاقها البقع
تلك التي شيعتها في خلائقها ... إلى البلى شيع ما مثلها شيع
ناحت على البر والتقوى نوائحها ... وكفن الزهد في الأكفان والورع

التعاطف مع الزوجات:

ومن المواقف التي صورها الشعر في العصر العباسي ما يدل على قوة الأصالة في العلاقة الزوجية التي تفصح عن العواطف التي يبثها الشاعر حين يذكر زوجته.. فمن ذلك ما قاله القاسم بن يوسف[3] في رثاء أولاده مشيراً إلى أن سلوته الوحيدة التي بقيت إلى جانبه تشاركه الحزن الطويل والعزاء هي زوجته لبابة.. قال[4]:

هلك البنون محمد ... ومحمد ومحمد
وردوا موارد سبلهم ... ولكل نفس مورد
واستأثرت بهم المنية ... والمنية موعد
تأبى المنية أن يكو ... ن على الزمان مخلد

إلى أن يقول:

(١) وقد ينسب إليها العلم والمجد كما رأينا ذلك في رثاء المتنبي لأخت الأمير سيف الدولة الحمداني (انظر ص١٤٦).

(٢) ديوان الصنوبري ص٣٤١.

(٣) القاسم بن يوسف: هو أخو أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون توفي في نحو (٢٢٠هـ) عرف من بين شعراء عصره بكثرة رثائه للبهائم، الأوراق ص١٦٤ والأعلام ٦/ ٢٢.

(٤) الأوراق ص٢٠٤.

هل لي على الحزن الطويل سوى لبابة مسعد
ثكلى بواحدها فليس لها عليه تجلد
وكأن بين ضلوعها جمر الغضا يتوقد
الباب إن الصبر أنفع في الأمور وأحمد
الباب كيف بقاء نفس كل يوم تكمد
الباب إن الصبر أبقى للإله وأرشد

ويصور الشعر مواقف بين المرأة وزوجها يتبين منها حرص المرأة على أن لا يفرط زوجها بالمال أو أن يسعى إليه ويبذل جهده لكسبه من موارده، فتكون محاورة لطيفة بين الرجل وامرأته هذه تحثه على الإمساك عن الكرم خشية على أطفالها من الحاجة وهذا يريد أن يفرق ماله في الحقوق ليحصل على المجد والثناء فلا يحتمل أن يمر به ضيف فلا يلقى عنده ما يستحقه حتى ولو ترك أطفاله في أمسّ الحاجة.. ثم ينتهي إلى أن يصر على التمسك بطبعه.. فإن شاءت الزوجة بقيت عنده على هذه الحال وإلاّ فلا يهمه أن تكون من بعض الغاضبين عليه..

وهذه المحاورة ليست جديدة على الشعراء، وتكاد تكون لازمة من لوازم الفخر عند الكرماء منذ العصر الجاهلي.. وكثيراً ما رددها الشعراء الجاهليون ولا سيما حاتم الطائي.. وقد ظلت ملازمة لموضوعات الفخر عبر العصور.. قال دعبل الخزاعي في ذلك[1]:

قالت سلامة أين المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمد فرق مالي في الحقوق فما أبقين ذماً ولا أبقين لي نشبا
قالت (سلامة) دع هذي اللبون لنا لصبية مثل أفراخ القطا زغبا
قلت: احبسيها ففيها متعة لهم إن لم ينخ طارق يبغي القرى سغبا

---

(١) ديوان دعبل ١/٥٦.

لما احتبى الضيف واعتلت حلوبتها بكى العيال وغنت قدرنا طربا
هذي سبيلي وهذا فاعلمي خلقي فارضي به أو فكوني بعض من غضبا

أما امرأة العتابي ـ الذي يبدو أنه قد طلق عفة العزوبة المزعومة فتزوج ـ فتحثه على كسب المال والسعي وراء الغنى لأنها تريد أن ترفل بالثراء إلاّ أن الشاعر لا يريد أن يقدم على المخاطر لأنه يخشى نتائجها فيضرب لها مثلاً بجعفر ويحيى بن خالد، وما نالاه من مال وعز وجاه، ثم ما انتهى إليه أمرهما من غضبة أمير المؤمنين والقضاء عليهما. . ولهذا فهو حريص على أن تجيئه ميتته مطمئنة دون أن يتجشم الأهوال والمخاطر قال[1]:

تلوم على ترك الغنى باهلية زوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أني نلت ما نال جعفر من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني مغصهما بالمشرقات البوارد
رأيت رفيعات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجئني ميتتي مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد

وقد يقع الزوج في ضائقة فتشير عليه زوجته بأن يستعين بإخوانه على تحسين حاله كالذي حصل لأبي شراعة[2] حيث سقطت دار له فلما عجز عن بنائها أشارت زوجته بأن يستعير مالاً من إخوته إلاّ أنه رفض وأبى أن يريق ماء وجهه فقال[3]:

تلوم ابنة البكريّ حين أؤوبها هزيلاً وبعض الآئبين سمين

(١) الأغاني ١٣/ ١٢٢.
(٢) الأغاني ٢٢/ ٤٣٩.
(٣) الأغاني ٢٢/ ٤٣٥.

وقالت لحاك الله تستحسن العرا عن الدار إن النائبات فنون
وحولك إخوان كرام، لهم غنى فقلت لإخواني الكرام عيون
ذريني أمت قبل احتلال محلة لها في وجوه السائلين غضون
سأفدي بمالي ماء وجهي إنني بما فيه من ماء الحياة ضنين

ومثله حديث مفداة إلى زوجها عمارة بن عقيل[١] حينما رأت أرقه وكثرة همومه لما وقع به من عدم بعد أن فرق أمواله في الأقربين والأباعد... فأشارت عليه بأن يطلب منهم أن يردوا إليه بعض ما كان يسديه إليهم.. إلاّ أنه رفض مشورتها وقال[٢]:

قالت مفداة لما أن رأت أرقي والهم يعتادني من طيفه لمم
نهبت مالك في الأدنين آصرة[٣] وفي الأباعد حتى حفك العدم
فاطلب إليهم ترى ما كنت من حسن تسدي إليهم فقد باتت لهم صرم[٤]
فقلت عذلك قد أكثرت لائمتي ولم يمت حاتم هزلاً ولا هرم

التزوج طمعاً بالمال:

ويكشف لنا الشعر عن الكثير من الصور الاجتماعية التي لم يكن العصر العباسي خلواً منها، كالتزوج بالمرأة الموسرة طمعاً بالمال. أو التزوج باثنتين وبيان مشاكل الرجل في هذا الزواج، ولوم من يقدم على التزوج بالأرملة أو الخصومات التي تحدث بين الزوجين والتي قد تنتهي في بعض الأحيان إلى الطلاق.. أو همسات الضجر من عشرة بعض الزوجات وصيحات الكره والسخرية من بعضهن الآخر.. وغيرها من

(١) عمارة بن عقيل: طبقات ابن المعتز: ٣١٦ والأغاني ٢٠/ ١٨٣، ٢٣/ ٤٢٤.
(٢) الأغاني ٢٠/ ١٨٤.
(٣) الآصرة: الرحم (اللسان/ أصر).
(٤) صرم: جمع صرمة، وهي القطعة من النخل أو القطعة من الإبل. (اللسان/ صرم).

المواقف والمشاعر التي حفل بها الأدب في العصر العباسي ننقل منها النماذج التي توضح هذه الصور.

فمن ذلك قول السري الرفاء في هجاء رجل يدعى (ابن حسان) من عدول الموصل وكان قد تزوج امرأة موسرة بإرث ملكته فاستولى على ذلك الإرث وراح رخي البال يعبث بأموالها.. وراحت هي تعاني العوز والحرمان قال[١]:

ومالكة إرثاً حوى الإرث دونها ... وقد أملكته النائبات قيادها
فراحت وما امتدت إلى الزاد كفها ... وراح رخي البال يأكل زادها

أو قول أبان اللاحقي في هجاء رجل جار له من ثقيف يسمى (محمد بن خالد) وكان شديد العداوة له.. ويبدو أنه حسده لتزوجه من عمارة[٢] بنت عبدالوهاب الثقفي وكانت كثيرة المال.. فقال قصيدته يصف فيها ما أعد للعرس من زينة وفرش وحلوى ومن مغنين وموسيقيين.. ثم أخذ يحذرها منه ويصف لها قبحه وبخله ويحبب إليها الفرار منه[٣].

لما رأيت البز والشارة ... والفرش قد ضاقت به الحاره
واللوز والسكر يرمى به ... من فوق ذي الدار وذي الداره
وأحضروا الملهين لم يتركوا ... طبلاً ولا صاحب زماره
قلت لماذا قيل أعجوبة ... محمد زوج عماره

---

(١) ديوان السري الرفاء ص١٠٠.

(٢) عمارة بنت عبدالوهاب الثقفي وهي مولاة جنان التي يشبب بها أبو نواس ويقول فيها:

خرجت تشهد الزفاف جنان ... فاستمالت بحسنها النظاره
قال أهل العروس لما رأوها ... ما دها نابها سوى عماره

(٣) الأغاني ٢٣/٣١ ـ ٣٢ والأوراق ص٢٤ والعصر العباسي الأول ص٣٣١.

لا عمر الله بها بيته ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأت فيه وماذا رجت وهي من النسوان مختاره
أسود كالسفود ينسى لدى التنور بل محراك قياره[1]
يجري على أولاده خمسة أرغفة كالريش طياره
وأهله في الأرض من خوفه إن أفرطوا في الأكل سيّاره
ويحك فري واعصبي ذاك بي فهذه أختك فراره
إذا غفا بالليل فاستيقظي ثم اطفري إنك طفاره

وفي كتب الأخبار إشارات إلى مثل ذلك منها ما يذكره ابن الجوزي عن القاضي (أبو الحسين بن عتبة) أنه قال: (كانت لي ابنة عم موسره وتزوجتها فلم أوثرها لشيء من الجمال ولكني كنت أستعين بمالها وأتزوج سراً... إلخ)[2].

تعدد الزوجات:

وظاهرة اجتماعية أخرى نقلها لنا أحد الأعراب وكان قد اغتر بقول سمعه من أحدهم وهو أنه من لم يتزوج بامرأتين لم يذق حلاوة العيش فتزوج ثم ندم فأنشأ يقول[3]:

تزوجت اثنتين لفرط جهلي بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفاً أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسي تداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذي يهيج سخط هذي فما أعرى من احدى السخطتين

(١) القيارة: ما يوضع فيها القار.
(٢) الأذكياء ص١٢٢.
(٣) الأمالي ٢/ ٣٥.

وألقى في المعيشة كل ضرٍّ كذاك الضرُّ بين الضرَّتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى عتاب دائم في الليلتين

فقد حسب بعد أن أغري بالزواج من اثنتين أنه سيعيش خروفاً منعماً بين نعجتين ـ على حد قوله ـ إلاّ أنه صار بعد أن تزوج كالخروف يداول بين أخبث ذئبتين، فهو مسخوط عليه دائماً إذا أرضى هذه سخطت تلك وإذا أرضى تلك لامته الأخرى، ثم ينهي أبياته بقوله: إنك إذا أردت أن تبقى كريماً مملوء اليدين من الخيرات فما عليك إلاّ أن تصرف النظر عن الزواج وتعيش عازباً مرتاحاً..

كره التزوج من الأرملة:

ومن الصور الاجتماعية التي اتضحت في الأدب عدم الرغبة في التزوج من الأرملة، وقد لاحظ الجاحظ[1] هذه الظاهرة واستغرب من أبناء عصره أنهم صاروا يعافون المرأة الحرة إذا فارقت زوجاً واحداً، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ويعيرونه بذلك بينما يتحظون الأمة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالي فيكون منهن أمهات الأولاد حظايا الملوك..

وقد مرت بنا خلال الحديث عن (الأم) وصورتها في الأدب كيف كان الأبناء يعيرون بزواج أمهاتهم ويكونون مواضع للتندر والسخرية.. وكثيراً ما أرسلت إليهم رسائل التعزية لأنهم كانوا يرون زواج الأمهات مصائب لا تحتمل.

ويحدثنا صاحب الأغاني أن (سعيد بن المهلب) تزوج بنتاً لسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا

(١) ثلاث رسائل للجاحظ ص٦٢.

عنها، فكتب أبو عيينة[(١)] يعنفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها.. فقال[(٢)]:

رأيت أثاثها فطمعت فيه   وكم نصبت لغيرك من أثاث
فصيّر أمرها بيدي أبيها   وسرّح من حبالك بالثلاث
وإلا فالسلام عليك مني   سأبدأ من غد لك بالمراثي

الخصومات والطلاق:

ومما صوره الأدب في العصر العباسي الخصومات التي تحدث بين الزوجين والتي تؤدي إلى الطلاق. وقد تعددت دواعي الطلاق كما بدا لنا من الشعر.. فقد يكون كرهاً عميقاً وتنافراً في الصفات والطباع، وقد يكون داعي الطلاق عبثاً وتحللاً من قيود الزوجية واستخفافاً بها، وقد يكون الدافع رغبة في التمتع بالصبا والجمال بعد أن نضب ماء الصبا في الزوجة وتلاشت معالم الجمال فيها.. وقد بدت تلك الصور جلية في الشعر ننقل منها ما يوضح لنا معالمها، فمن ذلك ما قاله (عمار ذو كبار)[(٣)] في زوجته وكانت كما يبدو قبيحة الشكل سليطة اللسان كثيرة العراك..[(٤)]:

إن عرسي لا هداها الله بنت لرباح
كل يوم تفزع الجلاس منها بالصياح
ولها لون كداجي الليل من غير صباح
ولسان صارم كالسيف مشحوذ النواحي

---

(١) أبو عيينة المهلبي: وهو عبدالله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة، ترجمته في الأغاني ٢٠/١٩ وطبقات ابن المعتز ٢٨٨ ـ ٢٩١ والشعر والشعراء ٢/٧٥٠.

(٢) الأغاني ٢٠/١٩ والمحاسن والأضداد ص١٩٢ والشعر والشعراء ٢/٧٥٤.

(٣) عمار بن عمر بن عبد الأكبر، يلقب ذا كبار.

(٤) الأغاني ٢٣/٣٧١.

يـقـطـع الـصـخـر ويـفـريـه كـمـا تـفـري الـمـسـاحـي
عــجــل الله خــلاصــي مــن يــديــهــا وســراحــي
تـتـعـب الـصـاحـبـة والـجـار وتـبـغـي مـن تـلاحـي

ثم إنه طلقها واشترى جارية حسناء، فثارت ثائرة الزوجة وتجنت على زوجها بالصياح والضرب، إلاّ أنه لم يهتم بذلك لأنه كان مصراً على بينها، ولأنه شعر بالحرية المريحة من إساره بزواجه منها ولأنه كان سعيداً بجاريته الحسناء قال:

ثــم غــارت وتــجــنــت   وأجــدت فــي الــصــيــاح
لابـتـيـاعـي أمـلـح الـنـسـوان   مــن فــيء الــرمــاح
دمــيــة الــمــحــراب حــســنــاً   وحــكــت بــيــض الأداحــي
هـي أشـهـى لـصـدى الـظـمـآن مـن بـرد الـقـراح
قــلــت يــا دومــة بــيــنــي   إن فــي الــبــيــن صــلاحــي
لـسـت مـمـن ظـفـرت كـفـي بـهـا الـيـوم بـصـاح
أنــا مــجــنــون بــريــم   مــخــطــف الــخــصــر رداح
مـشـبـع الـدمـلـج والـخـلـخـال جـوّال الـوشـاح

وقد يطلق أحدهم زوجته بشرب نبيذ، فيستطيب اعتياضه الكأس عن زوجته قال سوار بن أبي شراعة[1]: حلف أبي ألا يشرب نبيذاً بطلاق امرأة كانت عنده فهجره حولين، ثم حنث فشرب وطلق امرأته وانشأ يقول[2]:

فمن يك لم يسمع عجيباً فإنني   عجيب الحديث يا أميم وصادقه
وقد كان لي إنسان يا أم مالك   وكل إذا فتشتني أنا عاشقه

---

(١) سوار بن أبي شراعة: شاعر بصري من شعراء الدولة العباسية.
(٢) الأغاني ٢٢/٤٣٩ ـ ٤٤٠.

عزيزة والكأس التي من يحلها تخادعه عن عقله فتصادقه
تحاربتا عندي فعطلت دنها وأكوابها والدهر جم بوائقه
وحرمتها حولين ثم أزلني حديث الندامى والنشيد أوافقه
فلما شربت الكأس بانت بأختها فبان الغزال المستحب خلائقه
فما أطيب الكأس التي اعتضت منكم ولكنها ليست بريم أعانقه

فالشاعر وإن كان متأسفاً على طلاق امرأته ذات الخلائق المستحبة إلاّ أنه لم يستطع الثبات أمام إدمانه الخمر فضحى بامرأته في سبيلها.

ومن مظاهر التسرع بطلاق الزوجات لغير ما سبب اللهم إلاّ العبث واللهو والمجون ما يذكره علي بن دعبل. قال حدثني أبي قال: خرجت ومعي أعرابي ونبطي إلى موضع يقال له بطياثا من أمصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا، فقال الأعرابي: قل بيت شعر فقلت:

نلنا لذيذ العيش في بطياثا

فقال الأعرابي:

لما حثثنا أقدحاً ثلاثا

فأرتج على النبطي حتى قال:

وامرأتي ذي طالق ثلاثا

ثم جلس يبكي حتى الصباح.. فسأله دعبل: ما يبكيك؟ فقال: ذهبت امرأتي بقافية[1].

ويبدو أن الحلف بالطلاق كان خفيفاً على الألسن يكثر دورانه وكثيراً ما كان يقع الطلاق فعلاً لأن أحدهم رأى قينة ـ مثلاً ـ فأعجبته فقال: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها،، فيقع الطلاق، وما كان

(١) المحاسن والأضداد ص١٩١ ـ ١٩٢ وأخبار الحمقى والمغفلين ص٨٠.

أسهل ذلك لدى أمثال هؤلاء الأزواج من الحمقى.

وصور لنا الأدب كذلك فرحة بعض الأزواج لطلاق زوجاتهم وعدم تأسفهم على فراقهم، وشعورهم بالراحة من غل الوثاق ـ على حد قولهم ـ لغير علة أو ذنب.

عن أبي النضير[1] قال: (دخلت على الفضل بن الربيع فقال: هل أحدثت بعدي شيئاً؟ قلت نعم، قلت أبياتاً في امرأة تزوجتها وطلقتها لغير علة إلاّ بغضي لها، وإنها لبيضاء بضة كأنها سبيكة فضة، فقال لي وما قلت فيها؟ فقلت قلت:

رحلت سكينة بالطلاق ... فأرحت من غل الوثاق[2]
رحلت فلم تألم لها ... نفسي ولم تدمع مآقي
لو لم تبن بطلاقها ... لأبنت نفسي بالإباق
وشفاء ما لا تشتهيه ... النفس تعجيل الفراق

فقال: يا غلام: الدواة والقرطاس، فأتي بهما، فأمرني فكتبت له الأبيات ثم قلت له: أنت والله تبغض بنت أبي العباس الطوسي ـ زوجته ـ فقال: اسكت، أخزاك الله ثم ما لبث أن طلقها.

انصراف الأزواج إلى الجواري:

أما أبو دلامة فقد خرج إلى الخيزران حينما حجت فقال لها: أيتها السيدة إني شيخ كبير وأجرك مني عظيم، قالت: فمه؟ قال: تهبين لي جارية من جواريك تؤنسني وترفق بي، وتريحيني من عجوز عندي، قد أكلت رفدي وأطالت كدي، وقد عاف جلدي جلدها وتمنيت بعدها،

(١) الأغاني ١١/ ٢٧٣.

(٢) وردت الأبيات في العقد الفريد ٣/ ٤٧١، وشرح ديوان الحماسة ٤/ ١٨٦٨ رقم ٨٦٥ وفيها اختلاف في اللفظ.

وتشوقت فقدها، فضحكت ووعدته بتحقيق طلبه عند عودتها. فلما رجعت بعث إليها برقعة كتب فيها[1]:

أبلغي سيدتي بالله يا أم عبيده[2]
إنها أرشدها الله وإن كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليده
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفت لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فراش من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طري في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعيده

فأبو دلامة يريد جارية فتية لأنه سئم الحياة مع العجوز التي أكلت رفده وأطالت كده وعاف جلده جلدها فتمنى بعدها وتشوق فقدها والتي يشبه ساقها بالقديدة[3] ووجهها بالحوت الطري في العصيدة.

وربما كان أبو دلامة يتكلف مثل هذه المواقف الهزلية على سبيل النكتة والإضحاك... وربما كان الرواة والقصاص قد وضعوا أمثال هذه النوادر.. إلاّ أنها تدل على أي حال على صحة ما ذكرناه.. ولعلها على ما فيها من خفة النوادر تلطف الشواهد الجادة التي ذكرناها.

على أني لا أشك أن الدوافع إلى أمثال هذه المواقف من الزوجة كانت بسبب ما يشعر به أصحابها من التحلل والتخفف من الوفاء للعشرة والإخلاص للحليلة بعد السنوات الطوال ولابتذال الجواري وسهولة

(١) نهاية الأرب ٤/ ٤٥ والأغاني ١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٢) أم عبيدة: حاضنة موسى الهادي وهارون.
(٣) القديدة: انقد اللحم والجلد: انشق.

الحصول عليهن.

وقد صرح بذلك (محمد بن يسير) في رسالة كتبها إلى زوجته وكانت تعاتبه في هوى قينة من قيان أبي هاشم بالبصرة[1]:

لا تذكري لوعة إثري ولا جزعاً ... ولا تقاسن بعدي الهم والهلعا
بل انتسي تجدي أني انتسيت أسا ... بمثل ما قد فجعت اليوم قد فجعا
ما تصنعين بعين عنك قد طمحت ... إلى سواك وقلب عنك قد نزعا
إن قلت قد كنت في خفض وتكرمة ... فقد صدقت ولكن ذاك قد نزعا
وأي شيء من الدنيا سمعت به ... إلا إذا صار في غاياته انقطعا
ومن يطيف خليعاً عند صبوته ... أم من يقوم لمستور إذا خلعا

ويدور مثل ذلك كثيراً في كتب الأدب والأخبار:

قال محمد بن المنتشر[2]: إذا أيسر الرجل ابتلي به أربعة: مولاه القديم ينتفي منه، وامرأته يتسرى عليها، وداره يهدمها ويبني غيرها، ودابته يستبدل بها[3].

ومما هو شبيه بما أوردناه من سأم الزوج من زوجته العجوز ورغبته في اتخاذ جارية شابة قول امرأة لزوجها وكان قد طلقها (أبعد صحبة خمسين سنة؟) فقال لها: (ما لك عندنا ذنب غيره).

كره الزوجات وهجاؤهن:

ومن الصور التي نقلها لنا الأدب همسات الشكوى وصرخات الكره والهجاء والسخرية من الزوجات وأشكالهن وطباعهن.

---

(١) الأغاني ١٤/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) محمد بن المنتشر: من ثقات المحدثين.

(٣) البيان والتبيين ٣/ ١٨١.

ولنستمع إلى همسة خافتة مريرة من الشاعر محمد بن كناسة وكان قد مرّ في طريق بغداد فنظر إلى مصلوب على جذع وكانت عند الشاعر امرأة يبغضها وقد ثقل عليه مكانها فقال ملمحاً بها[1]:

أيا جذع مصلوب أتى دون صلبه ... ثلاثون حولاً كاملاً هل تبادل
فما أنت بالحمل الذي قد حملته ... بأضجر مني بالذي أنا حامل

ومن صيحات هجاء الزوجات، : ما قاله أعرابي وقد تزوج امرأة في البصرة فلما دخل بها وأغلقت الأبواب عليه ضجر بها وطالت ليلته حتى إذا أصبح الصبح وأراد الخروج منع من ذلك وقيل له: لا ينبغي لك أن تخرج إلاّ بعد سبعة أيام فقال[2]: وقد ضاقت أنفاسه:

أقول وقد شدوا عليها حجابها ... ألا حبذا الأرواح والبلد القفر
ألا حبذا سيفي ورحلي ونمرقي ... ولا حبذا منها الوشاحان والشذر
أتوني بها قبل المحاق بليلة ... فكان محاقاً كله ذلك الشهر
وما غرني إلا خضابٌ بكفها ... وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
تسائلني عن نفسها هل أحبها ... فقلت ألا لا والذي أمره الأمر
تفوح رياح المسك والعطر عندها ... واشهد عند الله ما ينفع العطر

أما صيحات الكره والسخرية من أشكال الزوجات والذم لطباعهن فكثيرة ننقل منها هجاء ابن أبي الزوائد[3] لامرأته التي طال لبثها عنده حتى ملها وأبغضها فصار يشبهها بالغول والسعلاة فيقول[4]:

(١) الأغاني ١٣/ ٣٤٠.

(٢) عيون الأخبار ٤/ ٣٢.

(٣) ابن أبي الزوائد: سليمان بن يحيى بن زيد بن معبد من مخضرمي الدولتين، الأغاني ١٤/ ١١٧.

(٤) الأغاني ١٤/ ١١٧.

يا رمل أنت الغول بين رمال لم تظفري بتقى ولا بجمال
يا رمل لو حدثت أنك سلفع[1] شوهاء كالسعلاة بين سعالي
ما جاء يطلبك الرسول بخطبة مني ولا ضمت عليك حبالي
ولقد نهى عنك النصيح وقال لي لا تقرنن بذية بعيالي

ثم ينتهي بهجائها بأفحش الكلام وأقذعه، ورسم البعض لزوجاتهم صوراً شعرية ساخرة مضحكة لو كان أتيح لرسام أن يصورها على ما عرضوها عليه من صفات لكانت غاية في القبح والمسخ والتشويه.. فمن ذلك ما قاله دعبل الخزاعي في هجاء زوجته وقد أبده في إظهارها في أقبح الصور قال[2]:

يا ركبتي خزر[3] وساق نعامة وزبيل كناس ورأس بعير
يا من أشبهها بحمى نافض قطاعة للظهر ذات زفير
صدغاك[4] قد شمطا ونحرك يابس والصدر منك كجؤجؤ الطنبور[5]
يا من معانقها يبيت كأنه في محبس قمل وفي ساجور[6]
قبلتها فوجدت لدغة ريقها فوق اللسان كلسعة الزنبور

وقال آخر[7]:

ألام على بغضي لما بين حية وضبع وتمساح تغشاك من بحر

---

(١) سلفع: الصخابة البذيئة السيئة الخلق.
(٢) ديوان دعبل ١/١١٦.
(٣) الخزر: هو الذكر من الأرانب.
(٤) الصدغ: هو ما بين اللحاظ إلى أسفل الأذن (الأساس/ صدغ/ ٥٢٤).
(٥) الطنبور: الذي يلعب به، معرف وقد استعمل في لفظ العربية (اللسان/ طنبر).
(٦) ساجور: القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب (اللسان/ سجر).
(٧) شرح ديوان الحماسة ٤/١٨٧٦ رقم ٨٧٣.

تحاكي نعيماً زال في قبح وجهها وصفحتها لما بدت سطوة الدهر
هي الضربان في المفاصل خاليا وشعبة برسام ضممت إلى النحر
إذا سفرت كانت بعينك سخنة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر
وإن حدثت كانت جميع مصائب موفرة تأتي بقاصمة الظهر
حديث كقلع السن أو نتف شارب وغنج كحطم الأنف عيل به صبري
وتفتر عن قلح عدمت حديثها وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

فالشاعر لم يقف عند وصف قبح وجهها وطبعها وإنما وصف حديثها ووقعه على نفسه وشدة ألمه وتوجعه منه.. فهي إن حدثت جاءت بجمع من المصائب التي تقصم ظهره فكأنه يقاسي أثناء تحدثها ما يقاسيه من يقلع سنه أو ينتف شاربه أو يحطم أنفه.. وهي أشد ما يؤلم من الأوجاع.

وقال إسماعيل بن عامر[١] في هجاء أم ولد له[٢]:

منيت بز نمردة كالعصا ألص وأخبث من كندش
تحب النساء وتأبى الرجال وتمشي مع الأخبث الأطيش
لها شعر قرد إذا ازينت ووجه، كبيض القطا الأبرش
وثدي يجول على نحرها كقربة ذي الثلة المعطش
لها ركب مثل ظلف الغزال أشد اصفراراً من المشمش
وساق مخلخلها حمشة كساق الجرادة أو أحمش
كأن الثآليل في وجهها إذا سفرت بدد القشمش[٣]

(١) شاعر مخضرم من شعراء الدولتين.
(٢) الأغاني ١٠/ ١٣١ (التقدم) وقد وردت في شرح ديوان الحماسة منسوبة إلى (أبي الغطمش الحنفي). شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٨٨١ رقم ٨٧٩.
(٣) البدد: القطع المتفرقة.

لـهـا جـمـة فـرعـهـا جـثـلـة كـمثـل الـخـوافي مـن الـمـرعـش[1]

الشتم بالزوجات:

وكما سبق أن رأينا أن المرأة الأم أو الأخت أو الابنة قد تكون الضحية فيما إذا وقع الخلاف بين شاعرين حيث يكون الشتم بهن والهجاء لهن نرى الشتم بالزوجات كان من أمر الهجاء.. ولا شك أن الدافع الذي دفع الشعراء بصورة عامة إلى الهجاء بالنساء هو الموقع الحساس الذي تقعه المرأة في المجتمع وشدة الحرص على شرفها وعفتها ولهذا رأينا أن أشد الشتم بابتذال شرف النساء وانعدام عفتهن، ولعل ابن الرومي من أكثر من هجا بهن وقال فيهن أقذع الشتم ونسب لهن فاحش الكلام، فقد هجا أبا حفص الوراق بزوجته فقال[2]:

قالوا هجاك أبو حفص فقلت لهم لا شب قرن أبي حفص ولا زرعا
لئن هجاني وفرط الجهل أوقعه لقد تزوج أيضاً بعد ما صلعا
قد قلت إذ قيل قد زفت حليلته صبراً كأني بقرن الشيخ قد طلعا
طلقتها منه أن عفت له أبدا ما أبصرت منه ذاك المنظر الشنعا
أقبح بوجه أبي حفص وعفتها هذان شيئان لا والله ما اجتمعا

وزاد على ذلك بتفصيل قصة زواجه منها بعد أن شاخ وضعف وقل كسبه، وعرض في تلك القصة الكثير من الغمز والتشهير به وبزوجته فقال[3]:

وقـائـل إن أبـا حـفـصـل أحـمـق مـحـتـاج إلـى ضـرب

---

(١) الجمة من الشعر: دون اللمة في الطول، الجثلة: الكثيرة الأصول، المرعش: الحمام الأبيض.

(٢) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٧٣.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٧٠.

لم يتزوج حدثاً ناشئاً يهتز مثل الغصن الرطب
تزوج المائق لا سيما في مثل هذا الزمن الصعب
أحوج ما كان إلى كاسب يجدي عليه جاء بالأدب
زاد على عيلته زوجة يا لك من نكب على نكب
يحمل كلاً وهو من ضره كلّ فيا لله من خطب
فقلت لا تعجل على شيخنا باللوح والتعنيف والعتب
لعل ما تحسب من أمره وأمرها بالعكس والقلب
هو الذي يرتع في كسبها فافطن له يا نائم القلب.
ما مثله من ساء تدبيره هيهات إن الشيخ ذو إرب
لما رأى أقلامه أصبحت ترعى رياض المحل والجدب
تزوج المسكين ليلية أضحى بها في الرفه والخصب

وقال في هجاء خالد القحطبي[1]:

لخالد بيت سوء مثل ساكنه بلعنة الله محفوف التوابيع
يأوي إليه نسيات له مجن سلين بالفسق هم العري والجوع

وقال يهجو البيهقي[2]:

فاغضب على عرسك التي تركت عرضك عهناً لكل نفاش

ومن الشتم بهجاء الزوجات قول السري الرفاء في رجل يدعى جعفراً ذكر فيه كيف أن الزمان أتاح للزوج سفرة سرّ لها الزوجان لأن كلاً منهما كان يصبو إلى غير قرينه. . حتى لقد ودا بعد أن أتيح لهما الفراق أن لا يلتقيا إلى يوم الحساب فقال[3]:

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/٣٣٦.
(٢) المصدر نفسه ٢/٢٠٣.
(٣) ديوان السري الرفاء ص٥٨.

تباعد عن عرسه جعفر   فسرّهما البعد بعد اقتراب
وكانت تصب إلى غيره   وكان إلى غيرها ذا تصاب
فبيناهما يتبعان الهوى   على حذر منهما وارتقاب
أتاح الزمان له سفرة   معجلة لم تكن في الحساب
فودّا وقد وفقا للفراق   بأن التلاقي يوم الحساب

وهكذا نأتي إلى نهاية الحديث عن الزوجة في الأدب وقد وضحنا صورتها فيه والمواقف المتباينة والنظرات المختلفة إليها بين من يقدس الزوجية ويحترمها وبين من تحلل منها فكان موقفه من الزواج والزوجات موقف الكاره المستريب ولا شك في أن شخصية الرجل ونفسيته وظروفه الاجتماعية هي التي توجه النظرة العامة إلى المرأة وتعين الموقف منها . وهكذا رأينا التباين والاختلاف في صورة المرأة في الأدب .

الفصل الرابع

الأخت في الأدب

وكان للأخت مكان في النفوس واختلف الأفراد بينٌ معبر عن تلك المكانة ومصرح بفضل الأخت وصلاحها وعلمها وعفتها، وبين كاتم لصفاتها مضمر لعاطفة الأخوة لأنه كان يرى أنها لا تستحق أن تذكر في حضرات الرجال أو أنه يغار في ذكرها أمامهم..

وربما كان العرف الاجتماعي في العصر الأموي أو قبله يدعو إلى عدم التعزية بالنساء، ويدل على ذلك ما ذكر عن عمر بن عبدالعزيز أنه لما عُزِّيَ بأخت له بعد دفنها لم يرد على المعزين.. فلما شعر الناس منه بذلك أمسكوا عن تعزيته.. فأقبل على الناس بوجهه وقال: (أدركت الناس وهم لا يعزون في المرأة إلا أن تكون أماً)[1].

أما أبو بكر الخوارزمي فإنه يغار لجنبة الوزير بن عباد ـ على حد قوله ـ أن يذكر النساء في حضرته ويتطير لنعمته من ذكر التعازي والمراثي، ويأنف من أن يقف منه موقف الواعظين المنبهين، فيكتفي بسرد محاسن الوزير ويشير إشارة خفيفة إلى وفاة أخته، وليس ذلك لعجز منه، فإن قريحته متدفقة وخواطره مجيبة وشاعريته معروفة فيقول[2]: (فإني أغار لجنبة الوزير من ذكر النساء أولاً، وأتطير لنعمته تتجللها التعازي والمراثي ثانياً، وآنف له من أن أقيمه مقام من يوعظ وينبه ثالثاً، وإلا فالقريحة بحمد الله تعالى متدفقة والخواطر مجيبة والشعر ليس بعازب).

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٣١٠.

(٢) رسائل الخوارزمي ٨٤.

إلا أن هناك من لم ير ذلك فعزى بالأخت فأجاد ونسب إليها من الصفات ما قد يعز وجوده في سادة ذلك العصر، ولعل أفضل شاهد على ذلك قصيدة أبي الطيب المتنبي في تعزية سيف الدولة عن أخته خولة إذ قال[١]:

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب   كناية بهما عن أشرف النسب
أجلّ قدرك أن تسمي مؤبنة   ومن يصفك فقد سمّاك للعرب

ويبدو أنه كان متألماً مشاركاً لسيف الدولة في أحزانه على الفقيدة فقد التهب فؤاده وانسكبت دموعه أسىً عليها.. وعدد فيها في المكارم والصنائع الجميلة ما يدل على أنها كانت ذات قدر ومنزلة وعلم وأدب وأنها كانت تقصد للنوال.. ثم نعتها بعلو الهمة وكبر العقل وبانشغالها عما كان يهم أترابها من لهو ولعب فقال[٢]:

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت   فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب   وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية   لحرمة المجد والقصاد والأدب
ومن مضت غير موروث خلائقها   وإن مضت يدها موروثة النشب
وهمها في العلى والمجد ناشئة   وهم أترابها في اللهو واللعب

ولم ينس المتنبي رغم تعداده للكثير من الصفات الحميدة التي نسبها إليها أن يذكر شيئاً ربما كان من أهم ما توسم به المرأة وهو الستر فقد كان دونها كل حجاب، وكانت رؤيتها عصية على الأعين لا تكاد تدركها فقال:

قد كان كل حجاب دون رؤيتها   فما قنعت لها يا أرض بالحجب

---

(١) شرح ديوان المتنبي ١/ ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢١٧.

ولا رأيت عيون الإنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب

ثم اختتم رثاءه لها بقوله: إنها وإن خلقت أنثى فقد تميزت على بنات جنسها بالعقل والأدب كما تميزت على قبيلتها كلها:

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب
وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن في الخمر معنى ليس في العنب

أفلا يحس القارىء أن المتنبي قد أدرك أن الظروف المحيطة بالفرد هي التي تخلق منه شخصاً كاملاً كريماً عظيماً أو تخلق منه ضعيفاً تافهاً.

تلك والدة سيف الدولة التي قال فيها المتنبي كما سبق أن مرّ بنا:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وهذه أخته، ربيتا على النبل والكرم والمجد والعقل والعفة فكانتا خيراً من الرجال في نظر المتنبي ذلك الشاعر الحكيم الأريب.

ورثى أبو الطيب الأخت الصغرى لسيف الدولة.. إلا أن مصابه فيها - كما بدا في شعره - لم يكن كمصابه في (خولة) لأن جل ما قاله فيها لم يكن ليتجاوز ما كان سائداً في التعزية بالمرأة (الأخت أو البنت) إنها زفت إلى القبر واتخذت الموت بعلاً لها.. قال[1]:

لعمري لقد شغلت المنايا بالأعادي فكيف يطلبن شغلا
وكم انتشت بالسيوف من الدهـ ـر أسيراً وبالنوال مقلا
خطبة، للحمام ليس له رد وإن كانت المسماة ثكلا

---

(١) ديوان المتنبي ويتيمة الدهر ١/ ٢٢٩.

وإذا لـم تـجـد مـن الـنـاس كـفـوا ذات خـدر أرادت الـمـوت بـعـلا

وقد علق الثعالبي على هذه الأبيات بقوله: هذا أحسن ما قيل في مرثية حرم الملوك.

أما الشريف الرضي فقد رثى بعض أخواته ونعتها أيضاً بما يحسن أن تنعت به المرأة من المجد والعفة والصون فقال[1]:

يـا ديـن قـلـبـك مـن بـارق يـنـير ويـخـبـو
عـلـى سـريـقـي نـجـد مـرعـى لـعـيـنـيـك جـدب
كـمـا تـلـيـح ذراع فـيـهـا مـن الـنـضـر قـلـب
كـأنـه نـار عـلـيـاء لـلـضـيـوف تـشـب
قـضـيـت نـحـبـاً قـضـى بـعـده مـن الـمـجـد نـحـب
ولـم يـك لـك إلا مـن الـمـقـاديـر خـطـب
ودون كـل حـجـاب مـن الـعـفـافـة حـجـب
وقـبـرك الـصـون مـن قـبـل أن يـضـمـك تـرب

وهكذا وجدنا أن الأخت قد نالت قسطها من الأدب لدى هذه الطبقة المتميزة على غيرها بالعلم والأدب والشرف والخلق..

(١) ديوان الشريف الرضي ص١٥٩.

الفصل الخامس

الحبيبة في الأدب

ومما لا شك فيه أنه لم يكن للحرائر نصيب كبير في الغزل في هذا العصر، وذلك لأن الحجاب الذي فرض عليهن والذي كان يزيد كلما تقدم العصر، ويشتد بازدياد التفسخ الاجتماعي نتيجة لتغلغل التأثير الأجنبي في المجتمع العربي أدى إلى إبعادهن تماماً عن الأعين، في الوقت الذي كانت فيه الجواري والقينات يرتعن في ذلك المجتمع وقد تسلحن بأمضى أسلحة الفتنة والجمال ليعبثن بقلوب الرجال ويحظين منهم بالحب والرعاية والاهتمام داخل الأسرة وخارجها . .

وقد ظهر نوع من الغزل بالحرائر القريبات لم يصلنا منه إلا القليل . . وكان غزلاً عفيفاً . . إذ لا يعقل للقريب أن ينسب إلى قريبته ما يمكن أن يسيء إلى سمعتها .

وكان ممن تغزل بإحدى قريباته من الحرائر: محمد بن أبي العباس وكان محباً (لزينب بنت سليمان)[1] وله فيها أشعار كثيرة ننقل منها قوله[2]:

قولا لزينب لو رأيت تشوقي لك واشترافي[3]
وتلفتي خوف الوشاة وكان حبك غير خاف

---

(١) زينب بنت سليمان: أميرة عباسية من ذوات الرأي والفصاحة توفيت بعد سنة ٢١٨هـ. الأعلام ٣/ ١٠٧ وأعلام النساء ٢/ ٦٨.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص٥.

(٣) اشترافي: تطلعي.

وقوله فيها وهو يذكر ما بينهما من صلة القربى والنسب، ويشير إلى أنها لم تكن ممن يواصل الحبيب، فهي لا تنصف ولا تسعف، فعليه أن يكتم حبه جاهداً رغم أنه يفضح بما يجن:

أحـبـبـت مـن لا تـنـصـف ... ورجـوت مـن لا يـسـعـف

نـسـب تـلـيـد بـيـنـنـا ... وودادنـا مـسـتـطـرف

بـالله أحـلـف جـاهـداً ... ومـصـدق مـن يـحـلـف

إنـي لأكـتـم حـبـهـا ... جـهـدي لـمـا أتـخـوف

والـحـب يـنـطـق إن سـكـت بـمـا أُجِـنُّ ويُـعـرف؟

وقال واصفاً حبه لها وهيامه بها.. وكيف أنه أحبها منذ طفولتهما، وأن مولدها قريب من مولده وأن جدها هو جده[1].

يا قمر المربد قد هجت لنا ... شوقاً فما أنفك بالمربد

أراقب الفرقد من حبكم ... كأنني وكلت بالفرقد

أهيم ليلي ونهاري بكم ... كأنني منكم على موعد

علقتها ريّا الشوى[2] طفلة ... قريبة المولد من مولدي

جدي إذا ما نسبت جدها ... في الحسب الثاقب والمحتد

سوف أوافي حفرتي عاجلاً ... يا منيتي إن أنت لم تسعدي

والله لا أنساك في خلوة ... يا نور عيني ولا مشهد

وقال مشيراً إلى أنه لا يكاد يستطيع عنها صبراً، بينما لا يجد منها غير الهجر:

زينب مالي عنك من صبر ... وليس لي منك سوى الهجر

وجهك والله وإن شفني ... أحسن من شمس ومن بدر

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٦.

(٢) الشوى: اليدان والرجلان، يقال عبل الشوى (اللسان شوا).

لو أبصر العاذل منك الذي أبصرته أسرع بالعذر

ولما أراد محمد بن أبي العباس الخروج من البصرة، وقف لوداع زينب فقال[1]:

أيا وقفة البين ماذا شببت من النار في كبد المغرم
رميت جوانحه إذ رميت بقوس مشددة الأسهم
وقفنا لزينب يوم الوداع على مثل جمر الغضا المضرم
فمن صرف دمع جرى للفراق وممتزج بعده بالدم

ومن الغزل بالقريبات ما قاله أبو عيينة المهلبي[2] في ابنة عمه (فاطمة بنت عمر بن حفص المهلبي) وكانت إلف الطفولة والصبا، فشغفته حباً، إلا أنها لم تكن من نصيبه، فتزوجت بغيره فجن جنونه وطار صوابه وظل حياته ينظم فيها الشعر، إلا أنه كان يخشى زوجها (عيسى بن سليمان) وأهله، فاضطر إلى التكنية عنها بمولاة لها كانت تدعى (دنيا) فقال[3]:

وكتمت اسمها حذاراً من النا س ومن شرهم وفي الناس شر
يقولون: بح لنا باسم دنيا واسم دنيا سر على الناس ذخر

وكان أكثر شعره فيها في تصوير ذكرياته معها قبل زواجها، وكيف كانا يجتمعان في رياض قصريهما المتجاورين فيلعبان سوية دون خوف

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٩ ـ ١٠.

(٢) أبو عيينة المهلبي: من سلالة بني المهلب بن أبي صفرة، ولد وعاش في البصرة جعله ابن المعتز في طبقاته. (أحد المطبوعين الذين لم ير في الجاهلية والإسلام أطبع منهم وهم بشار وأبو العتاهية والسيد الحميري وأبو عيينة ترجم له ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٥٠، وابن المعتز في الطبقات ص٢٨٨.

(٣) الأغاني ٢٠/ ٣٥ والعصر العباسي الأول ص٣٦٤.

من أعين الوشاة أو رقابة البعل قال[1]:

وملعبنا في النهر والماء زاخر	قرينين كالغصنين فرعين في أصل
ومن حولنا الريحان غصنا وفوقنا	ظلال من الكرم المعرش والنخل
إذا شئت مالت بي إليها كأنني	إلى غصن بان بين دعصين من رمل[2]
فيا طيب طعم العيش إذ هي جارة	وإذ نفسها نفسي وإذ أهلها أهلي
وإذ هي لا تعتل عني برقبة	ولا خوف عين من وشاة ومن بعل
فقد عفت الآثار بيني وبينها	وقد أوحشت مني إلى دارها سبلي

وقال فيها، وقد بلغه أنها ستزف إلى زوجها[3]:

أرى عهدها كالورد ليس بدائم	ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
وعهدي لها كالآس حسناً وبهجة	له نضرة تبقى إذا ما انقضى الورد
فما وجد العذريّ إذ طال وجده	بعفراء حتى سلّ مهجته الوجد
كوجدي غداة البين عند لقائها	وقد شف عنها دون أترابها البرد
فقلت لأصحابي هي الشمس ضوؤها	قريب ولكن في تناولها بعد
وإني لمن تهدى إليه لحاسد	جرى طائري نحساً وطائره سعد

وذهب البعض[4] إلى أن (دنيا) التي تغزل بها أبو عيينة كانت أمة مغنية لبعض مغني البصرة إلاّ أن أبا الفرج يؤكد أنها ابنة عمه (فاطمة بنت عمر بن حفص هزار مرد بن عثمان بن قبيصة أخي المهلب) ويورد لأبي عيينة أبياتاً تصرح بالنسب الذي يجمعهما يقول فيها[5]:

---

(١) الأغاني ٢٠/٣٥.

(٢) الدعص: كثيب الرمل.

(٣) الأغاني ٢٠/٤٠.

(٤) الأغاني ٢٠/٤٠.

(٥) المصدر نفسه ٢٠/٤١.

ولأنـت إن مـت الـمـصـابـة بـي　　فـتـجـنـبـي قـتـلـي بـلا وتـر
فـلـئـن هـلـكـت لـتـلـطـمـن جزعـاً　　خـديـك قـائـمـة عـلـى قـبـري

ثم يورد قوله مكنياً عنها بدنيا ومخاطباً إياها حينما ولي عمه عمر البصرة[١]:

هـنـيـئـاً لـدنـيـا هـنـيـئـاً لـهـا　　قـدوم أبـيـهـا عـلـى الـبـصـره
عـلـى أنـهـا أظـهـرت نـخـوة　　وقـالـت لـي الـمـلـك والـقـدره
فـيـا نـور عـيـنـي كـذا عـاجـلاً　　عـلـي تـطـاولـت بـالأمـره

ويبدو أن الشاعر كان يصرح حينما يرى مناسبة للتصريح باسمها فقد قال[٢] مخاطباً ابنة عمه فاطمة هاجياً زوجها:

أفاطم قد زوجت عيسى فأبشري　　لـديـه بـذل عـاجـل غـيـر آجـل
فـإنـك قـد زوجـت عـن غـيـر خـبـرة　　فتى من بني العباس ليس بعاقل
فـإن قـلـت مـن رهـط الـنـبـي فـإنـه　　وإن كان حر الأصل عبد الشمائل
وقـد قـال فـيـه جـعـفـر ومـحـمـد　　أقاويل حتى قالها كل قائل
ومـا قـلـت مـا قـالا لأنـك أخـتـنـا　　وفي البيت منا والذرا والكواهل
لـعـمـري لـقـد أثـبـتـه فـي نـصـابـه　　بأن صرت منه في محل الحلائل
إذا ما بنو العباس يوماً تنازعوا　　عرا المجد واختاروا كرام الفضائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه　　إلى بيع بياحاته[٣] والعباقل

---

(١) المصدر نفسه ٢٠/٤٨.

(٢) المصدر نفسه ٢٠/٣٠.

(٣) البياح: ككتاب وكتّاب: ضرب من السمك صغار وكان عيسى بن سليمان مبخلاً قيل كانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه، وكانت له ضيعة تعرف بدالية عيسى يبيع فيها البقول والرياحين، وكان أول من جمع السجاد بالبصرة وباعه فقال فيه أبو الشمقمق:

إذا زرت الـعـبـاد فـإن عـيـسـى　　لـه رزق مـن اسـتـاه الـعـبـاد

الأغاني ٢٠/٢٩. وإلى هذا أشار أبو عيينة في هجائه.

ومن الغزل بالحرائر ما أورده صاحب الأغاني عن (تويت)[1] أنه كان يهوى امرأة من أهل اليمامة يقال لها سعدى بنت أزهر وقال فيها الشعر الكثير من الغزل العفيف.. لم تبادله الحب لدمامته، إلاّ أنها كانت ترق عليه أحياناً.. قيل إنه اجتاز يوماً بفنائها فلم تتوار عنه وأرته أنها لم تره.. فلما وقف ملياً سترت وجهها بخمارها فقال في ذلك[2]:

ألا أيها الساري الذي ليس نائماً   على ترة إن مت من حبها غدا
خذوا بدمي سعدي فسعدي منيتها   غداة النقا صادت فؤاداً مقصّدا
بآية ما ردت غداة لقيتها   على طرف عينيها الرداء المورّدا

وقال فيها وقد لقيها راحلة نحو مكة حاجة فأخذ بخطام بعيرها وقال:

قل للتي بكرت تريد رحيلا   للحج إذ وجدت إليه سبيلا
ما تصنعين بحجة أو عمرة   لا تقبلان وقد قتلت قتيلا
أحيي قتيلك ثم حجي وانسكي   فيكون حجك طاهراً مقبولا

ثم تزوجها أبو الجنوب يحيى بن أبي حفصة فحجبها وانقطع ما كان بينها وبين تويت فطفق يهجو يحيى فقال:

عناء سيق للقلب الطروب   فقد حجبت معذبة القلوب
أقول وقد عرفت لها محلّا   ففاضت عبرة العين السكوب
ألا يا دار سعدى كلمينا   وما في دار سعدى من مجيب
ولما ضمها وحوى عليها   تركت له بعاقبة نصيبي

---

(١) وهو أحد الشعراء اليماميين لم يفد إلى خليفة ولم يوجد له مدح في الأكابر والخلفاء، فأخمل ذلك ذكره.
واسمه عبد الملك بن عبد. الأغاني ٢٣/ ٣٩.

(٢) الأغاني ٢٣/ ٤٠.

وقلت زواج[1] مثلك مثل يحيى لعمرك ليس بالرأي المصيب
فما لك مثل لمنته تدرى ومالك مثل بخل أبي الجنوب
إذا فقد الرغيف بكى عليه وأتبع ذاك تشقيق الجيوب
يعذب أهله في القرص حتى يظلوا منه في يوم عصيب

ويلاحظ أنه هجا غريمه بالبخل والشح.. وقد سبق أن رأينا ابن أبي عيينة حينما هجا زوج ابنة عمه (فاطمة التي كنى عنها بـ (دنيا) هجاه بالبخل كذلك ويبد وأن هذه الصفة كانت من أمر ما يهجى بها المهجو.

وقال (تويت) واصفاً منعة حبيبته وعفتها ومبيناً أنها ليست ممن يمكنها أن تقضي سؤال عاشق أو تشفي سقم محب[2].

لقيت سُعَيد تمشي في جوار بجرعاء النقا فلقيت حينا[3]
سلبن القلب ثم مضين عني وقد ناديتهن فما لوينا
فقلت وقد بقيت بغير قلب بقلبي يا سعيدى أين أينا
فما تجزين يا سعدى محباً يهيم بكم ولا تقضين دينا
فقالت إذا شكوت المطل منها لعمرك من سمعت له قضينا
ومن هذا الذي إن جاء يشكو إلينا الحب من سقم شفينا
فهن فواعل بي غير شك ما قبلي فعلن بصاحبينا
بعروة والذي بسهام هند أصيب فما أقدن ولا ودينا

ولا بدّ لنا ونحن في ختام الحديث عن صورة المرأة في الأدب أن نقف وقفة قصيرة نقول فيها:

رغم أننا صورنا الكثير من أحوال المرأة في العصر من خلال ما

---

(١) أوردت في الأغاني ٢٣/ ٤١ زحام وربما كان الصحيح ما أثبتناه.
(٢) الأغاني ٢٣/ ٤٤.
(٣) الحين: حان الرجل يحين حيناً: هلك (اللسان/ حين).

كان بين أيدينا من أدب. . ورغم ما وقفنا عليه من النظرات الإيجابية عن المرأة في الأسرة فقد بقيت الصورة التي استقرت في نفوس بعض أهل العصر وهي صورة متأثرة إلى حد بعيد بالموروثات الشعبية. . إذ لم يكونوا بقادرين على تجاوز الموروث المستقر في نفوسهم الذي ربما يغطى بالمظاهر الثقافية والحضارية إلاّ أنه لا يلبث أن يظهر على حقيقته عند أول إثارة. فالأنوثة بحد ذاتها كانت مسبة عندهم ومنقصة وعيباً. . ألم نر إلى المتنبي يصرح بذلك في رثائه لخولة أخت سيف الدولة فيقول[1]:

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب

ويقول في رثائه لأم سيف الدولة:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال[2]

أليس معنى هذا أن المستقر في نفسه عن المرأة أنها عيب ولكنه لما أراد تجاوز هذا مع أم سيف الدولة أو أخته اضطر إلى مناقشة الأمر بعقله وإلى تأييده بواقع النساء الجليلات فقال:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

ثم ألم نر إلى أبي العتاهية حينما أراد أن يثأر لنفسه من عبدالله بن معن بن زائدة لأنه كان جلده مئة سوط، كنى عنه بالمرأة، فقال[3]:

جلدتني بكفها بنت معن بن زائده
جلدتني فأوجعت بأبي تلك جالده
وتراها مع الحظيّ على الباب قاعده

---

(١) شرح ديوان المتنبي ١/٢١٧.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٤.

(٣) الأغاني ٤/ ٢٧.

تـتـكـنـى كـنـى الـرجـا ل بـعـمـد مـكـايـده
جـلـدتـنـي وبـالـغـت مـائـة غـيـر واحـده

وقال:

ضـربـتـنـي بـكـفـهـا بـنـت مـعـن أوجـعـت كـفـهـا ومـا أوجـعـتـنـي
ولـعـمـري لـولا أذى كـفـهـا إذ ضـربـتـنـي بـالـسـوط مـا تـركـتـنـي

ولعل قصيدته اللامية التي قالها فيه كانت من أمرّ وأقذع ما هجي به عبدالله، إذ إنها سارت على السنة الخاصة والعامة حتى قيل إن الرشيد كان إذا رأى عبدالله ابتسم وتمثل قول أبي العتاهية فيه[1]:

أخـت بـنـي شـيـبـان مـرّت بـنـا مـمـشـوطـة كـوراً[2] عـلـى بـغـل

وقد جعل أبو العتاهية المهجو في هذه القصيدة جارية همها زينتها وفجورها فقال:

قـال ابـن مـعـن وجـلا نـفـسـه عـلـى مـن الـجـلـوة يـا أهـلـي
أنـا فـتـاة الـحـي مـن وائـل فـي الـشـرف الـشـامـخ والـنـبـل
ما في بني شيبان أهل الحجا جـاريـة واحـدة مـثـلـي
أخـت بـنـي شـيـبـان مـرت بـنـا مـمـشـوطـة كـوراً عـلـى بـغـل
تـكـنـى أبـا الـفـضـل ويـا مـن رأى جـاريـة تـكـنـى أبـا الـفـضـل
قـد نـقـطـت فـي وجـهـهـا نـقـطـة مـخـافـة الـعـيـن مـن الـكـحـل
إن زرتـمـوهـا قـال حـجـابـهـا نـحـن عـن الـزوار فـي شـغـل
مـولاتـنـا مـشـغـولـة عـنـدهـا بـعـل ولا إذن عـلـى الـبـعـل
يـا بـنـت مـعـن الـخـيـر لا تـجـهـلـي وأيـن إقـصـار عـن الـجـهـل

---

(١) الأغاني ٤/ ٢٤.
(٢) كور: مكوّر.

وكانوا إذا ما أرادوا ذم الدنيا شبهوها بالغانية التي لا تثبت على حال ولا تفي لصاحب، أو بالمرأة المزواج، فقد شبهها المتنبي بالغانيات بقوله[١]:

شيم الغانيات فيها فلا أدري   لذا أنث اسمها الناس أم لا

وشبهها الشريف الرضي بالمرأة كثيرة الأزواج فقال[٢]:

إني إذا حلب البخيل لبانها   أمسيت أحلبها دم الأوداج

خطبتني الدنيا فقلت لها ارجعي   إني أراك كثيرة الأزواج

أما ابن الرومي فقد جانس بين تسمية النساء بالنسوان وبين النسيان وقال على لسانهن في الرد على من يطالبهن بالذكر بأنهن لا يقدرن عليه لأن النسيان ـ على حد قوله ـ صفة غالبة فيهن، قال[٣]:

تغدو الفتاة لها خل وإن غدرت   راحت ينافس فيها الخل خلان

ما للحسان مسيئات بنا ولنا   إلى المسيئات طول الدهر تحنان

فإن تبعن بعهد قلن معذرة   إنا نسينا وفي النسوان نسيان

يكفي مطالبنا بالذكر ناهية   وأن اسمنا الغالب المشهور نسوان

لا نلزم الذكر إنا لم نسم به   ولا منحناه بل للذكر ذكران

فضل الرجال علينا إن سميتهم   جود وبأس وأحلام وأذهان

وأن فيهم وفاء لا نقوم به   ولن يكون مع النقصان رجحان

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٢٢٧.

(٢) ديوان الشريف ٢٣٩.

(٣) ديوان ابن الرومي ١/ ٢١.

الباب الثاني

الجواري في الأدب

الفصل الأول: الجواري والشعراء
الفصل الثاني: الجواري والخلفاء
الفصل الثالث: الجواري والقيان
الفصل الرابع: جمال المرأة وزينتها

الجواري في الأدب:

ولما راجت سوق الجواري وكثر إقبال الناس عليهن رأينا كيف أن النخاسين عنوا بإعدادهن لحياة العصر خير إعداد، فعلموهن الرواية والشعر والإجازة والمطارحة والغناء وغير ذلك من آداب المفاكهة والمجالسة... وكلما نبغت الجارية في هذه الضروب غالى صاحبها في الثمن واشتط في التقدير.. وراجت ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ تجارة الرقيق، فكان في بغداد شارع يسمى (شارع دار الرقيق) انتهب في الفتنة بين الأمين والمأمون وبكاه أحد الشعراء في قصيدة ختمها بقوله:

ومهما أنس من شيء تولى فإني ذاكر دار الرقيق

واشتهر في ذلك العصر كثير من النخاسين وسبب شهرتهم ما كان لديهم من جوار حسان، فكانت دورهم أو محلاتهم مواطن أنس وطرب يجتمع فيها طلاب اللهو واللذة.. من شعراء وأدباء وقواد وأعيان وغيرهم.. وكان منهم نخاس يكنى (أبا عمير) كان له جوار قيان لهن ظرف وأدب، وكان من جواريه جارية تسمى (عبادة) هويها (عبدالله محمد بن البواب) فقال فيها(١):

لو تشكى أبو عمير قليلاً لأتيناه من طريق العياده
فقضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مقلتي عباده

ومنهم أبو الخطاب النخاس، كان له جارية تعرف بذات الخال

---

(١) الأغاني ٢٢/٤٥٦.

كان يهواها إبراهيم الموصلي وقيل إن الخليفة الرشيد تعلق بها وأهداها هدايا ثمينة.

ومنهم (حرب بن عمرو الثقفي) كان نخاساً وكان له جارية مغنية وكان الشعراء والكتاب وغيرهم يختلفون إليها يسمعونها وينفقون في منزله النفقات الواسعة ويهدون إليه الهدايا وفيه يقول أشجع:

أشكو الذي لاقيت من حبها ... وبغض مولاها إلى الرب
من بغض مولاها ومن حبها ... سقمت بين البغض والحب
فاختلجا في الصدر حتى استوى ... أمرهما فاقتسما قلبي
تعجل الله شفائي بها ... وعجل السقم إلى حرب

ومنهم (إسماعيل القراطيسي) الذي كان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزله وفي ذلك قال أبو العتاهية[1]:

لقد أمسى القراطيسي ... رئيساً في الكشاخين

وكانت قصور الخلفاء تعج بالأعداد التي تفوق حدود الحصر ويليهم في ذلك الأمراء والقواد والحكام ثم عامة الناس.

ونتج عن ذلك شيوع عشق الجواري والولوع بهن ويدل على ذلك ما وصلنا من أشعار لعدد كبير من الشعراء الذين تغزلوا بهن، فبشار أحب (عبدة)[2] وأبو العتاهية اشتهر (بعتبة)[3] وأبو نواس يحب (جنان)[4] وحماد ومطيع بن إياس أحبا (جوهر) والعباس بن الأحنف

---

(١) الأغاني ٢٣/٧٣.

(٢) المصدر نفسه ٦/٢٣٣.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٣٠ وزهر الآداب ٢/٣٥ وتاريخ بغداد ٦/٢٥٤.

(٤) ديوان أبي نواس ٢٣٤.

عرف بحبه فوز[1] وغيرهم كثير ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك ودعبل وأبي الشيص.

الجواري والشعراء:

ومعلوم أن العصر العباسي كان عصراً تجلى فيه الحس المرهف بالجمال والإدراك الدقيق لنواحي الفن والإبداع، كما اتضحت فيه من جانب ثان القدرة على التعبير عن ذلك الحس وذلك الإدراك، ولهذا وجدنا العصر كله ينهض للتعبير عن المظاهر الحضارية والجمالية والفنية متخذاً نواحي شتى في ذلك التعبير نقف فيها عند الأدب.

وكان حب الجواري في العصر العباسي مظهراً من مظاهر تحسس الجمال ورد فعل مباشر له، ولهذا فقد خف التحرج في الإفصاح عنه والتصريح به، وصار الحديث عن العشق مظهراً من مظاهر العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة، حتى لقد كان يطرق في مجالس الخلفاء والوزراء والأعيان أو في حلقات الفلسفة وعلم الكلام.

يروى عن الأصمعي[2] أن الرشيد سأله عن العشق وطلب إليه أن يصفه وصفاً يجسده له بقوله: (صفه لي حتى أخاله جسماً مجسماً). فقال الأصمعي: إذا تقادحت الأخلاق المتشاكلة وتمازجت الأرواح المتشابهة ألهبت لمح نور ساطع يستضيء به العقل وتهتز لإشراقه طباع الحياة، ويتصور في ذلك النور خلق خاص متصل بجوهريتها يسمى (العشق).

وعن المأمون أنه سأل ثمامة: ما العشق؟

فقال له ثمامة: العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص٢٠٧ والأغاني ٨/٣٥٩.

(٢) ذم الهوى، ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها والعقول وآراءها، وأعطى عنان طاعتها وقود تصرفها توارى عن الأبصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه[1].

ومن ذلك ما أورده المسعودي[2] عن يحيى بن خالد، وكان ذا بحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: (قد أكثرتم في الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث، والإثبات والنفي، والحركة والسكون، والمماسة والمباينة، والوجود والعدم... إلخ فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه وخطر بباله.

فقال علي بن الهيثم[3]: أيها الوزير: العشق ثمرة المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين، وهو من بحر اللطافة ورقة الصنيعة وصفاء الجوهر، والزيادة فيه نقصان في الجسد.

وقال أبو مالك الحضرمي[4]: وهو خارجي المذهب: أيها الوزير: العشق[5] نفث السحر وهو أخفى وأحر من الجمر، ولا يكون إلاّ بازدواج الطبعين وامتزاج الشكلين، وله نفوذ في القلب كنفوذ صيّب المزن في خلل الرمل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء.

وقال أبو الهذيل[6]، وهو معتزلي: أيها الوزير: العشق يختم على

---

(١) ذم الهوى ص٢٩٠.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٨٦.

(٣) علي بن الهيثم: من متكلمي الشيعة المشهورين في عصر الرشيد.

(٤) أبو مالك الحضرمي: خارجي المذهب من الشراة.

(٥) مروج الذهب ٣/ ٢٨٧.

(٦) أبو الهذيل: (العلاف) من أئمة المعتزلة اشتهر بعلم الكلام (ت٢٣٥هـ) الأعلام ٧/ ٣٥٥.

النواظر ويطبع على الأفئدة، مرتقى في الأجساد ومسرعه في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ولا يسلم له موعود تسرع إليه النوائب، وهو جرعة من نقيع الموت وبقية من حياض الثكل غير أنه أريحية تكون في الطبع وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبه جواد لا يصفو إلى داعية المنع ولا يسنح به نازع العذل.

وقال النظام إبراهيم بن يسار المعتزلي[1]: العشق أرق من الشراب وأدبّ من الشباب وهو من طينة عطرة عجنت في إناء الحلي، حلو المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد أصلاً قاتلاً، وفساداً معضلاً، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة على القلوب، فتعجب شغفاً، وتثمر كلفاً، وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس، مشارف الزمن، طويل الفكر، إذا جنه الليل أرق، وإذا وضحه النهار قلق، صومه البلوى وأفكاره الشكوى. ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر، ومن يليهم حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب، وفيما مرّ دليل عليه...)[2].

وممن تحدث في العشق وأخضعه لأقوال الحكماء ونظريات الفلاسفة جماعة (إخوان الصفا)[3] فقد بحثوا في ماهيته وكمية أنواعه

---

(١) النظام: إبراهيم بن سيار بن هانىء البصري وأبو إسحق النظام، من أئمة المعتزلة قال الجاحظ: (الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن صحّ ذلك فأبو إسحق من أولئك) (ت٢٣١هـ) الأعلام ١/ ٣٧.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٨٧.

(٣) إخوان الصفا: جماعة سرية تألفت في القرن الرابع الهجري، كان موطنها البصرة ولها فرع في بغداد لم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك وكانوا قد تآلفوا بالعشرة وتصافحوا بالصداقة واجتمعوا على القدس والطهارة والتضحية، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة (رسائل إخوان الصفا ١/ ٥) والموسوعة الميسرة ص٦٦.

وكيفية نشوئه ومبدئه وعلله الموجبة لكونه، فنقلوا ما ذهب إليه بعض الحكماء في ذمه وذكر مساوئه، وما ذهب إليه بعضهم الآخر من أن العشق فضيلة نفسانية ومدحة[1]، ونقلوا مذهب غيرهم (ممن لم يقف على أسراره وعلله وأسبابه بحقائقها ودقة معانيها في أنه مرض نفساني أو جنون إلهي، وأنه همة النفوس الفارغة، وفعل البطالين الفارغي الهم الذين لا شغل لهم)[2].

وصاروا يحللون المبررات التي حدت بكل طائفة إلى اتخاذ ذلك الرأي دون سواه ولقد انتهى إخوان الصفا في رسائلهم إلى أن العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد واستشهدوا بقول ابن الرومي[3]:

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفى غليله ... سوى أن يرى الروحين تمتزجان

ورأوا أن هذا القول هو أرجح ما قيل في العشق وألطف ما أشير به إليه، وقالوا: (لما كان الاتحاد هوىً نفسانياً وتأثيراً روحياً احتجنا إلى أن نذكر أنواع النفوس وأنواع معشوقاتها وعلل تلك وأسبابها). ثم يستمرون في ذكر ذلك وتعليله وتحليله متخذين الفلسفة وسيلتهم إلى ذلك.

وبلغ من ترفهم في الحب والغزل أنهم تفننوا فيه وفي فنونه.. فهم مرة يعشقون البيض ومرة يعشقون السوداوات.. ومرة يعشقون

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٣/ ٢٧٠.

(٢) رسائل إخوان الصفا ٣/ ٢٧٠.

(٣) ديوان ابن الرومي ١/ ٢٧ ورسائل إخوان الصفا ٣/ ٢٧٠ .
الدكتور طه حسين في الأسس الفنية للنقد الأدبي، ص٩٨.

الغلمان.. وقد اختلف الكتّاب والأدباء في تبرير ذلك، فمنهم من رأى، أن هذا الغزل نوع من العبث والمجون أو نوع من التسلية والتسرية..

ولعل كثرة المبذول في المجتمع العباسي من الجواري والقيان ومن الجمال بأشكاله المتعددة المختلفة أدى إلى اعتياد النساء والجمال وإلى التخمة منهما فصاروا يبحثون عن شيء جديد فأحب بعضهم الغلمان.. وتغزل بعضهم بالسوداوات طلباً للتنويع.

إذن فقد اتسم العصر بكثرة الحديث عن العشق ووفرة أشعار الحب والغزل.. وأخبار ما كان يدور من ذلك في مجالس الخلفاء[1] والأمراء[2] والأعيان[3] كثيرة جداً منبثة في كتب السير والأخبار والتاريخ والأدب، وصار أغلب أبناء العصر لا يجدون حرجاً في الإفصاح عنه والتصريح به. فرأينا الخلفاء يتغزلون ويبدون تسليمهم لسلطان الحب ورضوخهم لحكمه، ورأينا سادات القوم وعلماءهم ومن عرف بالورع والتقوى منهم يفصحون به ولا يجدون في ذلك منقصة لهم..

ورغم أن الرجل كان السيد المطاع والحاكم المالك لأمر المرأة في الغالب، حرة كانت أم أمة.. فقد رأينا الكثير منهم يكشف عن أن سلطان المرأة هو الأقوى.. قال هارون الرشيد[4]:

---

(١) محاضرات الأدباء ٣/ ٤٢ وتزيين الأسواق، ص١١، والعقد الفريد ٦/ ٤٦ والديارات ص٢٢٥ والمستظرف من أخبار الجواري ص٥٥، ٥٧، ٦٠، ٧١، ٣٦، والبيان والتبيين ٣/ ٣٧٠ ونساء الخلفاء ص٩٢ وذم الهوى ص٣٤٣.

(٢) الديارات ص٧٧ وأعلام النساء ٢/ ٣٥٩، وأشعار أولاد الخلفاء ص٢٢٧، ٢٣٨، ٢٤١.

(٣) زهر الآداب ٣/ ٦٤٤، ومعجم الأدباء ٥/ ٧٩.

(٤) العقد الفريد ٦/ ٤٦، ومحاضرات الأدباء ٣/ ٤٢.

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهنّ في عصياني
ما ذاك إلاّ إن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

وقد ترددت تلك الفكرة على ألسنة الشعراء، فقال ابن الرومي[1]:

أقول إذ غصبتني كف جارية الله أكبر من ودّ ومن هبل
إن الغواني بما أمّلن من أمل فما يبالين ما لاقين من أجل
متى غلبن رجال الجد في زمن كما غلبن رجال اللهو والغزل
وإنّ أعجب شيء أنت مبصره في كل ما حملته الأرض من ثقل
كف خضيب من الحناء غاصبة كفا خضيباً من الأبطال والنصل
يا حسرتا لي ويا لهفا ويا عجبا إن هذه الحال لم تنكر ولم تزل

وصرح العباس بن الأحنف بأن سلطان الهوى قد جعل من الرجال عبيداً للنساء فقال[2]:

من يلمني على النساء ألمه أنا والله للنساء ودود

ثم قال:

ويح هذا الهوى لقد ملك النـ ـاس وصارت له عليهم بنود
فلئن قادني هواي لقد كا ن تصابى إلى الهوى داود

وقال:

نحن في محبس الهوى قد قررنا وعلينا سلاسل وقيود
لا يكاد الهوى يفارق صبًّا بل أراه في كل يوم يزيد

أما الإمام الشافعي وهو من عرف بالورع والتقوى فقد كشف عن

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٤٦٩.
(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص٧٨.

رأيه في حب النساء فقال[1]:

أكثر الناس في النساء وقالوا   إن حب النساء جهد البلاء
ليس حب النساء جهداً ولكن   قرب من لا تحب جهد البلاء

وسمع عند قوله[2]: اشتريت جارية مرة وكنت أحبها فقلت لها:

أليس شديداً أن تحب   فلا يحبك من تحبه

فقالت الجارية:

ويصد عنك بوجهه   وتلح أنت فلا تغبّه

ولم يتورع الناس في الاستشارة وأخذ الفتاوى في الحب.. فقد روى ياقوت الحموي[3]، فقال:

بلغني أن رجلاً جاء الشافعي برقعة فيها:

سل المفتي المكي من آل هاشم   إذا اشتد وجد بامرىءٍ كيف يصنع

قال: فكتب الشافعي تحته:

يداوي هواه ثم يكتم وجده   ويصبر في كل الأمور ويخضع

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه وقد كتب تحت الجواب:

فكيف يداوي والهوى قاتل الفتى   وفي كل يوم غصة يتجرع

فكتب الشافعي رحمه الله:

فإن هو لم يصبر على ما أصابه   فليس له شيء سوى الموت ينفع

ولسنا في مجال تحقيق صحة الخبر أو عدمه، إلاّ أن الذي يعنينا

---

(١) ديوان الشافعي ص٢٥.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٢٩٧.
(٣) ديوان الشافعي ص٥٨ ـ ٥٩.

منه أنه دليل على مدى الاهتمام بالعشق وعدم التحرج من التصريح به.

على أن هذا لا يعني عموم الخضوع لهذه الظاهرة والعمل بها.. فقد وجدنا في العصر العباسي من الشباب والشيوخ من يتصدى للإقبال على الحب والانسياق وراء اللهو والعبث..

قيل إن عبدالله بن المعتز كان (يعيب العشق كثيراً، وكان يقول إنه طرف من الحمق، فإذا ما رأى من أصحابه مطرقاً أو ساهماً قال له: وقعت يا فلان وقلَّ عقلك وسخفت»)[1].

ويذكر عن إسحق بن إبراهيم أنه كان يعمد إلى مغالبة نفسه وقهره لها ومنعها عمّا تحب من أنس ولذة ولهو رغم توفر أسبابها له.. ليفرض على نفسه سلطان العقل والإرادة لئلا تقوده إلى ما تريد[2].

وكان الشافعي الإمام يقول مبيناً أن سهره لتنقيح العلوم ألذّ له من وصل الغواني وأن صرير أقلامه على الصفحات أحلى عنده من أفانين الموسيقى والغناء، وأن نقره على أوراقه ليلقي عنها الرمل ألذّ لديه من نقر الفتاة على دفها، وأن تمايله لحل مسألة عويصة أشهى عنده من تمايله من مدامة ساق.. قال[3]:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحاتها ... أحلى من الدوكاء والعشاق
وألذّ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طرباً لحل عويصة ... في الدرس أشهى من مدامة ساق
وأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي

(١) الديارات ص٧٧.

(٢) الديارات ص٤٢ ـ ٤٤.

(٣) ديوان الشافعي ص٦٣ ـ ٦٤.

الفصل الأول

الجواري والشعراء

الجواري الحبيبات:

وتتراءى لنا صور مختلفة في الأدب للجواري، أكثرها وضوحاً واتساعاً صورة (الجارية الحبيبة).. وقد ظهرت هذه الجارية المعشوقة في أحوالها المتعددة.. فهي مرة شريفة عفيفة محصنة لا يطمع محبوها في وصالها لمنعتها وعزتها.. وهي مرة متقلبة لا تثبت على ود ولا تدوم على حال.. تمنح وصلها وودها لمن تشاء، لا تحفظ عهداً ولا تصون وداً إنما هو لهو الساعة وكسب الفرصة..

وقد أكثر شعراء العصر من التحدث عن أمثال هذه الجواري وتغزلوا بهن غزلاً حسياً ماجناً بل فاحشاً أحياناً.. تحدثوا عن طباعهن وصلاتهن ووصفوا أجسامهن وأسهبوا في عرض جوانب الفتنة والجمال فيهن.

العفيفات:

أما ما أورده الشعراء من مزايا وصفات نعتوا بها الجواري العفيفات فتكاد تكون تقليدية إلاّ في طريقة تناولها، وأكثر ما دار في هذا النوع من الغزل يكاد يتمثل بمعاناة الشاعر من اللوعة والهجر والفراق وانقطاع الرجاء من لقاء الحبيبة..

وقد يرى المحب حبيبته عن بعد بين رفيقاتها فما يكون إلاّ اضطراب النفس واختلاط اللب فيصرف نظره عنها إلى غيرها لئلا يعرف

الحب في عينيه، وقد يرسل إليها الكتب.. فيكثر حديثه عن الرسل.. إلى غير ذلك من المعاني التي دارت في الغزل العفيف.

فالعباس بن الأحنف[1] وهو إمام الغزل العفيف في العصر يحدثنا كيف يبدأ الحب وكيف يوقع صاحبه في لجج لا تطاق من الهوى، وكيف تنفد دموعه لكثرة بكائه فلا يكتفي بعينيه لعدم صلاحها للبكاء فيسأل عمن يعيره عينين دمعهما مدرار ليبكي بهما.. قال[2]:

الحب أول ما يكون لجاجة ... تأتي به وتسوقه الأقدار
حتى إذا سلك الفتى لجج الهوى ... جاءت أمور لا تطاق كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعر ... عيناً لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها ... أرأيت عيناً للبكاء تعار

وقال[3]:

عيون العائدات تراك دوني ... فيا حسدي لعيني من يراك
أريدك بالكلام فأتقيهم ... فأعمد بالكلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكي ليخفى ... فسنّي ضاحك والقلب باك

وقال واصفاً كيف أنه يغض طرفه إذا ما رأى حبيبته ليستر حبه لها عن الناس، وكيف أن الدموع تفضحه فتبيح ما أضر:

هبوني أغضّ الطرف إذا ما بدت ... وأملك فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع ... نطقن فبحن بما أضمر
فيا من سروري به شقوة ... ومن صفو عيشي به يكدر
لعلك جربتني بالصدو ... د عمداً لتنظر هل أقصر

---

(1) الأغاني ٨/ ٣٥٤.
(2) الأغاني ٨/ ٣٥٤.
(3) ديوان العباس بن الأحنف ص٢٠٧ والأغاني ٨/ ٣٥٩.

فلا تكذبنّ فإن السلو للقلب موعده الحشر

وأشهد أنك بي واثق وإن كنت تظهر ما تظهر
وأنك تعرفني بالوفاء وستر الحديث ولا تنكر[1]

وقال أبو نواس[2] إلاّ أنه سبق وأجاد:

زهدت جنان في الذي رغبت إليها فيه نفسي
فزهدت في الدنيا وصارت منيتي في زور رمس
وطويت عيني أن تراني عينها وأمتّ جرسي
كيلا يروّع ذلك الوجه المليح سماع حسي

وقال الشريف الرضي[3]، في المعنى نفسه:

أقل سلامي إن رأيتك خيفة وأعرض كيما لا يقال مريب
وأطرق والعينان يومض لحظها إليك وما بين الضلوع وجيب
يقولون مشغوف الفؤاد مروّع ومشغوفة تدعو به فيجيب
وما علموا أنا إلى غير ريبة بقاء الليالي نغتدي ونؤوب
عشقت وما لي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب
وما لي يا لمياء بالشعر طائل سوى أن أشعاري عليك نسيب

ورغم اشتهار العباس بن الأحنف في العصر العباسي بهذا النوع من الغزل ورغم كثرة الشهادات بذلك حيث قال أبو الفرج الأصفهاني[4]: (كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٢) ديوان أبي نواس ص٢٤٧.

(٣) ديوان الشريف الرضي ص١٧٥.

(٤) الأغاني ٨/ ٣٥٤ والعصر العباسي الأول ص٣٧٦.

الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني).
ووصفه أبو العباس المبرد في كتابه الروضة[1] فقال فيه: (كان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ورغم المادية التي عرف بها الشعراء الأعلام في العصر العباسي كبشار بن برد وأبي نواس فقد رأينا لهما شعراً يكاد يقرب من الشعر العفيف. ويمكننا أن نرجع الأمر مع بشار إلى أنه ربما عمد إلى القول في هذا الغرض للتدليل على قدرته على التفوق فيه أسوة بقدرته على التفوق في الغزل الحسي الذي شهر به.

أو ربما كان الذي استدعى منه هذا النوع من الغزل حصانة وعفة بعض الجواري اللائي تعرف بهن كعبدة وحمدة المكناة (بأم محمد).
فقد قال في عبدة شعراً يعتبر من الشعر العفيف منه قوله[2]:

يا عبد إني قد ظلمت وإنني مبد مقالة راغب أو راهب
وأتوب مما تكرهين لتقبلي والله يقبل حسن فعل التائب

ويحس القارىء في غزله بعبدة احتراماً وإجلالاً وحرصاً على إظهار التوبة مما عرف عنه قال[3]:

يا عبد حبي لك مستور وكل حب غيره زور
إن كان هجري سركم فاهجروا إني بما سرك مسرور

وقال[4]:

يا عبد بالله فرجي كربي فقد براني وشفني نصبي

---

(١) العصر العباسي الأول ص٣٧٦.
(٢) الأغاني ٦/ ٢٣٣.
(٣) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٦.
(٤) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٤.

وضقت ذرعاً بما كلفت به   من حبكم والمحب في تعب
ففرّجي كربة شجيت بها   وحرّ حزن في الصدر كاللهب
ولا تظني ما أشتكي لعباً   هيهات قد جل ذا عن اللعب

فهو يعترف صراحة أن حبه مع غيرها كان لعباً أما حبه لها فقد جلّ عن أن يكون كذلك.

وقال في (حمدة) المكناة بأم محمد وقد وصفها أيضاً بالمنعة والعفة:

سقياً (لأم محمد) سقياً لها   إذ نحن في لعب الشباب اللاعب
بيضاء صافية الأديم ترعرعت   في جلد لؤلؤة وعفة راهب

ولا أشك في أن لمكانة الجارية ولمستواها الخلقي أثره في موقف الشاعر منها.. وفرق كبير بين قول الشاعر في خطاب جارية مبتذلة تتناقلها الأيدي، وبين قوله في جارية محترمة لذاتها صائنة نفسها حافظة لشرفها.. وكذلك كان الحال في غزل أبي نواس بجنان الجارية المحصنة التي كانت تعيش في دار عبدالوهاب الثقفي.. فهو يختلف عن غزله بجواري الحانات أو القينات الرخيصات.

وقد اتّسم حبّه لجنان بالعمق والصدق، واتسمت معانيه في غزله بها بالرقة واللطف.. فكان نموذجاً للشعر العفيف الذي يعبر فيه صاحبه عن الألم والحرمان والصدق قال[١] مبيناً تحايله في رؤيتها:

اعتل بالماء فادعو به   لعلها تنزل بالماء
ويعلم الله على عرشه   ما طبي الماء ولا دائي
إلا لما ألقى بإنسانة   مختالة في نعل حسناء

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٣٤.

ولدت في حبك يا منيتي بطالع ليس بمعطاء
هذا وريحي منكم صرصر تجف دوني كل خضراء

ولعل من أروع ما قيل في كتمان الهوى خشية الناس قوله فيها[1]:

زهدت جنان في الذي رغبت إليها فيه نفسي
فزهدت في الدنيا وصارت مُنْيَتِي في زور رمسي
وطويت عيني أن تراني عينها وأمتُّ جرسي
كيلا يروع ذلك الوجه المليح سماع حسي

وعبر عن قناعته في حبه بمجرد الإيماء والتسليم فقال:

قلبي بخاتم حبكم مختوم ما في هواك له الغداة قسيم
أخذت مودتكم هواه بقدره قلباً به أبداً عليه مقيم
من كان أعطى منك قلبي حظه ممن أحب فإنني محروم
يا ليت حظي حين تجتهد المنى من نيلك الإيماء والتسليم

وقد اختلف الباحثون في الوقوف من هذا الشعر فمن قائل إنه شعر متكلف مصطنع وإن أبا نواس ما أحب حباً عفيفاً قط، ومن قائل إنه كان عفيفاً في حبه صادقاً مخلصاً فيه.

وواضح أن جنان كانت أول امرأة شغفته حباً وهو لا يزال فتى يختلف إلى المربد وحلقات العلماء. ويبدو أنه كان لا يزال نقي النفس إلى حد ما رغم قذارة منشئه ودناءة مرباه.. كان لما يزل غير مطلع على المفاسد والمباذل التي انغمس فيها فيما بعد.. وربما كان للمثل الشريفة لشعراء الغزل العذري في العصر الأموي أثرها في طبع غزله بجنان بهذا الطابع العفيف، ثم ما لبث أن لفه تيار المجتمع بالمجون والتحلل

(١) ديوان أبي نواس ص٢٤٧ .

والخلاعة فصار حديثه عن المرأة حديثاً حسياً فاحشاً بعد أن خالط المبتذل والمتحلل من الجواري والقيان.. فلا غرابة إذن في صدور مثل هذا الغزل العفيف منه في جنان.

ومما يؤكد هذا أنه حينما جذبته بغداد فيمن جذبت من الشعراء غيّر النغمة الشعرية التي كان يغني بها وحوّل موقفه من جنان فقال[1]:

أيا من كنت بالبصرة أصفي لهم الودا
ومن كانوا مواليَّ ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرعاه وإن مل وإن صدا
شربنا ماء بغداد فأنساناكم جدا
فلا ترعوا لنا عهدا فما نرعى لكم عهدا

وربما عمد بعض الشعراء كأبي العتاهية إلى الإعلان عن بعض الأسماء يكثرون التغزل بها قصد الشهرة في الأوساط الأدبية.. فقد شهر بحبه لعتبة جارية رائطة بنت السفاح زوجة المهدي، وكانت هي تزدريه فلما أكثر فيها القول شكته إلى سيدتها فحدثت المهدي بشأنه فغضب عليه لتعرضه لحرمه وجواري قصره وأمر بضربه مائة سوط وسجنه إلاّ أنه شفع له فأطلق سراحه.. ويقول بعض الرواة إنه لم يكن يحبها حباً صادقاً[2].

وكان شعره فيها غاية في الرقة حتى قال فيه ابن قتيبة[3]: (وغزله ضعيف مشاكل، لطبائع النساء، ومما يستخففن من الشعر) وذلك لفرط تذلله لعتبة ورقة كلامه معها قال[4]:

---

(١) العصر العباسي الأول ص٢٣٢.

(٢) انظر قصته مع عتبة في طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٣٠ وزهر الآداب ٢/ ٣٥ وتاريخ بغداد ٦/ ٢٥٤.

(٣) الشعر والشعراء ٢/ ٦٧٥.

(٤) الشعر والشعراء ٢/ ٦٧٥ ووفيات الأعيان ١/ ٢٢٣ وديوانه ص٦١٦.

يا إخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنني في شغل شاغل

وقال وقد تذلل حتى لكأنه يستعطي:

عيني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفي نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا له قولاً جميلاً بدل النائل
أو كنتم العام على عسرة منه فمنوه إلى القابل[١]

ومن لطيف شعره فيها:

ولقد صبوت إليك حتى صرتُ من فرط التصابي
يجد الجليس إذا دنا ريح التصابي في ثيابي

وممن اشتهر بغزله العفيف في العصر العباسي (عكاشة العمي)[٢] وكان قد هوي جارية لبعض الهاشميين يقال لها (نعيم) ويبدو أن مرامها كان مستصعباً عليه فكان يكتفي منها بالنظر من بعيد أو بالكلام اليسير، ثم قدم قادم من أهل بغداد فاشتراها من مولاتها ورحل بها إلى بغداد، فعظم أسفه وحزنه عليها، واستهيم بها طول حياته، فكان أكثر همه وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح عليها ويبكي[٣]، ومما قاله فيها[٤]:

نعيم هل بكيت كما بكيت وهل بعدي وفيت

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٢٣.

(٢) هو عكاشة بن عبد الصمد العمي من أهل البصرة، شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية ليس ممن شهر وشاع شعره في أيدي الناس ولا ممن خدم الخلفاء ومدحهم. الأغاني ٣/ ٢٥٢.

(٣) الأغاني ٣/ ٢٥٦.

(٤) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٧.

ألا ليت شعري كيف بعدي اصطبارك إذ نأيت وإذ نأيت

فكم من عبرة ذرفت فلما خشيت عيون أهلي واستحيت
نهضت بها مكاتمة فلما خلوت ذرفتها حتى اشتفيت
وقلت لصحبتي لما رماني هواك بدائه حتى انطويت
أراني من هموم النفس ميتاً ولم أر في نعيم ما نويت
فليت الموت عجل قبض روحي جهاراً فاسترحت وأين ليت

وبقي الشاعر يعيش على ذكراها ويردد حبها نغمات حزينة شجية تخفف عنه بعض لوعته فقال[1]:

أنعيم في قلبي عليك شرار وعلى الفؤاد من الصبابة نار
وعلى الجفون غشاوة وعلى الهوى داع دعته لحيني الأقدار
بمضلة لب الحليم إذا رنت بالمقلتين كأنها سحار
طالبتها حولين لا ليلي بها ليل ولا هذا النهار نهار
حتى إذا ظفرت يداي بكاعب كالشمس تقصر دونها الأبصار
وثلجت صدراً بالفتاة وصارتا كالنفس نفسانا وقرّ قرار
بلغ الشقاء أشاء ما يسطيعه فينا وفرق بيننا المقدار

المتقلبات:

ومن الصور التي رددها شعراء العصر مما يوضح لنا جانباً من جوانب صفات الجواري ويكشف لنا عن علاقتهن بالصورة التي رسموها لتقلب الجواري في الحب وعدم الثبات عليه أو في الإكثار من العشاق والإشراك في الحب.. ولعل بشاراً وأبا نواس من أكثر من رددوا هذه المعاني:

---

(١) الأغاني ٣/ ٢٥٨.

قال أبو نواس في وصف جارية[1]:

ومظهرة لخلق الله ودًا — وتلقى بالتحية والسلام
أتيت فؤادها أشكو إليه — فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل — ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى — فهم لا يصبرون على طعام

ومثله قول العباس بن الأحنف في حبيبته فوز في هجره إياها حينما وقف على خيانتها له وعلى تلونها وإشراكها غيره بحبها.. قال[2]:

كتبت تلوم وتستريث زيارتي — وتقول لست لنا كعهد العاهد
فأجبتها ودموع عيني جمة — تجري على الخدين غير جوامد
يا (فوز) لم أهجركم لملالة — مني ولا لمقال واش حاسد
لكنني جربتكم فوجدتكم — لا تصبرون على طعام واحد

وقال أبو نواس في الشركة في الحب[3]:

كفاك ما مر على راسي — من شادن هيج وسواسي
أفضل ما أبلغ من نعته — تحدثي عن قلبه القاسي
أغار أن أنعت منها الذي — ينعته الناس من الناس
كل أحاديثي سوى ذكرها — منكشف مني لجلاسي
لا حبذا الشركة في حبها — وحبذا الشركة في الكاس

أما بشار فيعاتب (حبى العامرية) في تقلبها في حبها وإشراكها غيره في قلبها فيقول[4]:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٠٦ والشعر والشعراء ٢/ ٦٩٨.
(٢) ديوان العباس ص١٠٦.
(٣) ديوان أبي نواس ص٢٨٤.
(٤) ديوان بشار ٢/ ١ ـ ٢.

إن تكوني غنيت عنا فإنا عنك أغنى فيممي حيث شيت
من يرجيك بعد بيع محب كان يهوى بجهده ما هويت
لم تكوني لتصلحي لوداد لكريم كحلة العنكبوت
قد شبعنا من ودك المر طعماً وروينا إن كنت منا رويت

ثم يقول بأنها ستندم عليه إذا ما عاشرت غيره:

يا ابنة العامري قد كان عهد بيننا في الهوى ولكن نسيت
فاذكري ودّنا وذوقي سوانا تذكرينا وتندمي ما بقيت
أو أفيقي من داء ما يصنع الحب بصب فطالما قد دهيت

إلى أن يقول وقد ندم على هجرها ورضي منها أن تصبر عمن صاحبت:

كيف صبري وأنت عندي كنفسي بمكان المباعد المقوت
فارجعي إن رجعت عن رأي سوء بهوى لين الحواشي ثبيت
وإذا ما أردت ودي هنيئاً فصليني بالصبر عمن لقيت
أنت ياقوتة قدرت عليها لا أحب الشريك في الياقوت

وقد أوردنا خلال حديثنا عن الجواري صوراً عديدة لتقلبهن وخداعهن لمحبيهن ووسائلهن في اقتناصهم وسلب أموالهم وذكرنا الكثير من أقوال الأدباء والشعراء فيهن.. ولهذا فسنكتفي بهذا القدر.

الجواري الساقيات:

وأكثر الشعراء من ذكر حانات الخمر فوصفوا مجالسها وتحدثوا عن الشاربين والساقيات ووصفوا الأباريق والزقاق والكؤوس.

وقد حظيت الساقيات بالجزء الأكبر من حديثهم.. لاكتمال

صفات الجمال فيهن غالباً . . إذ كن يخترن اختياراً . . ولا يكتفى في اختيارهن بتوفر صفات الرقة والنعومة والجمال . . وإنما كان يشترط فيهن الأدب وحسن الطاعة والظرف .

روى كاتب الرشيد إسماعيل بن صبيح[1]: (قال لي الرشيد: وأبلغني وصيفة مليحة مقدودة شكلة، حلوة متكلمة، ظريفة عالمة، تسقيني، فإن الشرب يطيب من يد مثلها) فقلت: (يا سيدي علي الجهد)، فقال: (اجعل أمامك قول هذا العيّار، يريد أبا نواس وامتثل فيها ما حد في مثلها لك) قلت: (يا سيدي فما قوله؟) فقال الرشيد[2]:

من كف ساقية ناهيك ساقية ... وفي حسن قدٍّ وفي ظرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذي مغالبة ... بالكشخ محترف بالكشخ مكتسب[3]
فقد رأت ووعت عنهن واختلفت ... ما بينهن ومن يهوين بالكتب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها ... وأفعمت في تمام الجسم والقصب
وجمشت بخفي اللحظ فانجمشت ... وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير إنسان لها شبهاً ... فيمن برا اللّه من عجم ومن عرب
تلك التي لو خلت من عين قيمها ... لم أقض منها ولا من حبها أربي

وبرعت جواري الحانات في إظهار مفاتنهن وإبراز ملاحتهن وكن يتفنن في ملابسهن ومناطقهن وفي تصفيف شعورهن ويعقربن أصداغهن ويزين سوالفهن، وقد يتحلين بالحلى المختلفة فيجعلن الخلاخيل في أرجلهن والأقراط في آذانهن والأسورة في معاصمهن، وكن إلى ذلك بارعات في الغناء والرقص، ملبيات لرغبات الشاربين وطلباتهم . .

(١) ألحان الحان ص٢٩٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص٧٢.

(٣) الكشخ: جمع النساء والرجال لريبة.

وربما كان الشاربون شعراء تبلغ بهم اللذة إلى أن يطلقوها أشعاراً في وصف الأنس والبهجة وحديثاً بديعاً عن المجالس والساقيات. . . وكانوا يرون أن أحسن الشعر ما قيل أثناء الشرب، فمن ذلك قول محمد بن عبدالله بن طاهر:

إن أحسن الشعر ما دام الإنسان يشرب، وما كان مكسواً لحناً حسناً تغني به منوسة[١] وأشباهها[٢]. . . وهكذا تتعاون قرائح الشعراء وحناجر القيان ودبيب الخمرة في خلق جوّ زاخر بالطرب والأدب والجمال وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط فيها ألحان المغنيات بعزف المزامير ودق الطنابير مع صخب السكارى وضجيجهم وتبقى ذكرى تلك الحانات والأنس فيها عالقة في أذهان الشعراء. . فنراهم يحنون إليها ويتمنون العودة إليها. . فمن ذلك قول أبي الشبل البرجمي[٣] في دير أشموني[٤]:

شهدت مواقع اللذات طرًّا	وجبت بقاعها بحراً وبرّا
فلم أر مثل أشموني محلًّا	ألذ لحاضريه ولا أسرّا
به جيشان من خيل وسفن	أناخا في ذراه واستقرا
كأنهما زحوف وغى ولكن	إلى اللذات ما كرّا وفرّا
سلاحهما القواقز والقناني	وأكواب تدور هلمّ جرّا
وضربهما المثالث والمثاني	إذا ما الضرب في الحر استحرّا

(١) منوسة: قينة.

(٢) الأغاني ٢٣/٦٢.

(٣) من شعراء الدولة العباسية عاش أيام المأمون وقد أدرك المتوكل ومدحه وعمر طويلاً. . . كان من الطياب وله شعر لطيف وكان معتكفاً على الشرب لا يفارقه ولا يوجد إلاّ سكران. الديارات ص١٧ ـ.

(٤) اشموني: امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه وهو بقطربل غربي دجلة، الديارات ص٤٦.

وأسرهما ظباء الدير طوعاً إذا أسد الحروب أسرن قسرا
لقد جرّت لنا الهيجاء خيراً إذا ما جرّت الهيجاء شرّا[1]

فقد شبّه الشاعر كثرة رواد هذا الدير بالجيش الزاحف الذي يكر على اللذات ويفر منها، وجعل سلاحه: القواقز والقناني والكؤوس، وضربه: المثاني والمثالث في الغناء والموسيقى، والأسر عنده هو أسر الظباء طوعاً لا قسراً..

إنها حرب في حركتها واشتداد ضجيجها وعجيجها وكثرة سلاحها وضربها وفي أسرها للظباء.. إلاّ أنها هجاء تجر الخير على المحاربين ـ على حد قول الشاعر ـ لا الشر.

وقال أبو نواس متشوقاً إلى أيام قصف وسرور وعزف قضاها مع ندمائه، وذاكراً أيامه بالسدير[2]:

عاد لي بالسدير شادن قصف وسرور مع الندامى وعزف
وعيون الظباء ترنو إلينا منعمات بكل بر ولطف
فطردنا الصدود أقبح طرد وعطفنا الوصال أحسن عطف
ورخيم الدلال كاد من الرقة يدمي أديمه وقع طرف
حلّ منه الصليب في موضع الجيد فقد خصّه على كل ألف
فأدرنا رحى السرور ثلاثاً ووصلنا الحضور كفّاً بكف

وقال متغزلاً بساقية[3]:

تأخذها من كف ذي غنة كأنما خط بتمثال

---

(١) الديارات ص٥٠.

(٢) السدير: اسم موضع.

(٣) ديوان أبي نواس ص٣٦٤ والديارات ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

يسقيك بالعينين خمراً إذا ... ناغاك بالكأس بإعجال
ليس بمحتاج إلى مكحل ... ولا دماليج وخلخال
خال به في خده واضح ... وا بأبي ذلك من خال

ولكشاجم في السماع والسكر وفي وصف العود وبراعة المسمعة في الضرب عليه، قوله(١):

ومسمعة تحنو على مترنم ... له زجل عال وليس له سحر(٢)
إذا ما تأملت الحشا منه خلته ... تضمن شبعاً وهو منخرق صفر
له نغم يفضين من كل سامع ... إلى حيث لا تفضي بشاربها الخمر
إذا طرقته بالأنامل والتقى ... على جسمه من جسمها النحر والصدر
بكى طرباً فاستضحك اللهو نحوه ... وفضّت عرى الأسباب واستلب الصبر
وتمنحه اليمنى حساباً مفصلاً ... فتحمل فيه الخمس والست والعشر
فمتّ صريع السكر أطيب ميتة ... وما الحل إلاّ أن يسفهك السكر

فصورة الجارية الساقية في هذا النوع من الشعر هي صورة الشابة الجميلة التي اكتملت محاسن جسمها ووجهها ولسانها وصوتها وبيانها. . إنها تغني عن النقل بل عن الخمر فوجهها متنزه للعيون وفي طرفها الخمر وتحت لسانها السحر. . قال مسلم بن الوليد في ذلك(٣):

وساقية كالريم هيفاء طفلة ... بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل
تنزه طرفي في محاسن وجهها ... إذا احتثت الطاسات يغني عن النقل

---

(١) ديوان كشاجم ص٩٨ والديارات ص٢٦١.

(٢) الزجل: رفع الصوت وخص بالتطريب (اللسان/ زجل)، السحر: الرئة (اللسان/ سحر) والشخر: سواد القلب ونواحيه.

(٣) ديوان صريع الغواني ص٤٢.

وقال[1]:

وهات اسقني من طرفها خمر طرفها فإني امرؤ آليت لا أشرب الخمرا

رثاء الجواري:

وكان للجواري نصيب من وفاء أصحابهن ومحبيهن فقد رأينا الكثير من الشعر في رثائهن وإبداء الحسرة على موتهن، فمن ذلك ما قيل إنه وجد على قبر جارية إلى جنب قبر أبي نواس ذكر أن أبا نواس قالها وهي[2]:

أقول لقبر زرته متلثمًا سقى الله برد العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى وشمس الضحى بين الصفائح والقفر
عجبت لعين بعدها ملت البكا وقلب عليها يرتجي راحة الصبر

وقال حبيب الطائي يرثي جارية أصيب بها[3]:

جفوف البلى أسرعت في الغصن الرطب
وخطب الردى والموت أبرحت من خطب
لقد شرقت في الشرق بالموت عادة تبدلت عنها غربة الدار في الغرب
وألبسني ثوباً من الحزن والأسى هلال عليه نسج ثوب من الترب
وكنت أرجي القرب وهي بعيدة فقد ثقلت بعدي عن البعد والقرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها لها منزل بين الجوانح والقلب

وقال يرثيها[4]:

(١) المصدر نفسه ص٤٦.
(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٨٠ (لم أجدها في ديوانه).
(٣) في الديوان (وقال يرثي امرأة محمد بن سهل) ولا أظنه قالها إلاّ في جاريته لأنه عبر في الأبيات عن عاطفة الحب وهذا ما لا يمكن أن يكون فيما لو رثى امرأة لغيره.
(٤) في الديوان: (يرثي جارية له) والعقد الفريد ٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

ألم ترني خليت نفسي وشأنها ... ولم أحفل الدنيا ولا حدثانها
لقد خوفتني النائبات صروفها ... ولو أمنتني ما قبلت أمانها
وكيف على نار الليالي معرّسي ... إذا كان شيب العارضين دخانها
عنان من اللذات قد كان في يدي ... فلما قضى الألف استردت عنانها
منحت المها هجري فلا محسناتها ... أود ولا يهوى فؤادي حسانها
يقولون هل يبكي الفتى لخريدة ... إذا ما أراد اعتاض عشراً مكانها
وهل يستعيض المرء من خمس كفه ... ولو صاغ من حر اللجين بنانها

ويلاحظ في هذه الأبيات مدى عمق العاطفة وحرارتها وصدق الشعور.

وكان لمعلى الطائي[1] جارية يقال لها وصف، وكانت أديبة شاعرة.. قيل إنه أعطي فيها أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلى؟ قال: نعم، قالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها، فرد الدنانير واستقال صاحبه فأصيب بها إلى ثمانية أيام فقال يرثيها[2]:

يا موت كيف سلبتني وصفا ... قدمتها وتركتني خلفا
هلا ذهبت بنا معاً فلقد ... ظفرت يداك فسمتني خسفا
وأخذت شق النفس من بدني ... فقبرته وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى
يا موت ما أبقيت لي أحدًا ... لما زففت إلى البلى وصفا

وهكذا رأينا نماذج مختلفة في مواقف الشعراء من الجواري، فمن محب عفيف لجارية عفيفة ومن محب عابث لجارية متقلبة، ومن وفيّ

---

(١) معلى الطائي: شاعر من مصر.
(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٧٩.

مخلص لا ينسى حبه للجارية حتى بعد وفاتها . .

وقد مرّت بنا صور عدة تمثل لنا جوانب مختلفة من ميول الشعراء ونزعاتهم ومن صفات الجواري وأحوالهن في حياتهن وعلائقهن بالشعراء وغيرهم.

ونكتفي بهذا القدر لأننا سنتناول القيان وهنّ صنف من أصناف الجواري المغنيات كما سنتناول الحديث عن جواري القصور فنكون بذلك قد أعطينا فكرة لا بأس بها عن صورة الجواري في الأدب.

الفصل الثاني

الجواري والخلفاء

جواري القصور:

وكان للجواري اللائي تميزن على سواهن في الجمال والأدب أن يكن من المختارات لأهل القصور.. ولهذا رأينا النخاسين أو مالكي الجواري يتسابقون ويتفننون في صقل أذهانهن وتطويع ألسنتهن ويتنافسون في إظهار براعتهن والإعلان عنها لتصل أخبارهن إلى أسماع الخلفاء أو الأمراء أو القواد أو الموسرين..

وكان لأصحاب هؤلاء الجواري المثقفات الجميلات أن يفخروا بهن كما يفخرون بثمين المتاع أو بما يتفردون به من النفائس والطرف وكثيراً ما يأذنون لهن بالظهور على الأصدقاء والاختلاط بهم لتجاذب الأحاديث وتناشد الشعر والتسامر بالقصص والأخبار، لتشيع براعتهن ويعرف تفوقهن فينالون بذلك الخير كل الخير.

وكان أصحاب الجواري يتفننون في الإعلان عن براعة جواريهم فقد يتغزل أحدهم إذا كان شاعراً بجاريته ليعلن عن جمالها وكمالها وأدبها.. كالذي فعله إبراهيم بن إسحاق الموصلي حينما أكثر من التغزل بجاريته ذات الخال حتى وصل خبرها إلى هرون الرشيد فاشتراها[1] بسبعين ألف درهم.

وكان البعض يدعون الشعراء[2] إلى بيوتهم ليطلعوا بأنفسهم على

---

(1) الأغاني ١٦/٢٢٦.

(2) المصدر نفسه ٢٢/٥٢٢.

براعة الجارية.. وكثيراً ما كانوا يلقون عليها البيت لتجيزه ببيت أو بأبيات فينتشر خبر ذلك حتى يصل إلى أسماع الخليفة أو أصحاب القصور.. كالذي كان يفعله الناطفي حينما كان يدعو مروان بن حفصة[1] أو العباس بن الأحنف[2] أو أبا نواس[3] أو غيرهم ليلقوا على عنان بعض الأبيات وليتحدثوا بعد ذلك بما كان منها معهم.

وقد تكتب الجواري رسائل شعرية أو نثرية إلى بعض الشخصيات المقربة من الخليفة لتسعى لديه بشرائها..، كالذي كان من عنان حينما كتبت إلى الفضل بن الربيع كتاباً تستحثه فيه أن يشفع لها لدى الرشيد لشرائها فقالت[4]:

كن لي هديت إلى الخليفة شافعاً بوركت يا ابن وزيره من معلم
حث الإمام على شرائي قل له ريحانة دخرت لأنفك فاشمم

كما أنها كتبت إلى يحيى بن خالد قصيدة تمدحه فيها وتطلب إليه أن يذكرها للرشيد ليشتريها فقالت[5]: ويبدو أنه كان قد شفع لجاريتين قبلها لدى الرشيد بشرائهما.

مننت على أختي بمنّك نعمة صنعت لهما منها عذاب الموارد
فمن[6] لي بما أنعمت منك عليهما وقاك إله الناس كيد المكايد

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأغاني ٢٢/ ٥٣٠.

(٣) المصدر نفسه ٢٢/ ٥٢٥ ونساء الخلفاء ص٤٨.

(٤) المحاسن والأضداد ص١٥٦.

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢١.

(٦) هكذا في الأصل ولا يستقيم الوزن إلاّ بتخفيف النون وقد تكون فمر لي أو: فمنْ بما أنعمت.

ومثل ذلك ما وقع لسكن جارية محمود الوراق[1] أنه لما أراد محمود بيعها كتبت إلى المعتصم قصة تسأله أن يشتريها فلما نظر في قصتها خرقها ورمى بها لأنه ـ كما قيل ـ أراد مرة ابتياعها فأبت، فقالت[2]:

ما للرسول أتاني منك باليأس أحدثت بعد وداد جفوة القاسي
فهبك ألزمتني ذنباً بظلمك لي ماذا دعاك إلى تخريق قرطاسي

أو قد تعرض الجارية على الخليفة فيجري لها امتحان أمامه في أمور مختلفة، فيرضى عنها ويشتريها أو يرفضها.. وفي ذلك أخبار كثيرة نذكر منها ما رواه علي بن الجهم إذ قال[3]: إني لعند المتوكل يوماً، والفتح بن خاقان[4] حاضر إذ قيل له: فلان النخاس، فأذن له فدخل ومعه وصيفة، فقال له المتوكل: ما صناعة هذه؟ قال: تقرأ بالألحان. فقال الفتح: اقرأي لنا خمس آيات فاندفعت تقول:

قد جاء نصرالله والفتح وشقّ عنا الظلمة الصبح
خدين ملك ورجا دولة وهمّه الإشفاق والنصح
وكل باب للندى مغلق فإنما مفتاحه الفتح

فأمره المتوكل بشرائها، وكانت أحظى جواري الفتح.

وقيل إن جارية شاعرة عرضت على المتوكل وكان أبو العيناء جالساً فقال يستجيزها[5]: أحمد الله كثيراً فقالت: حيث أنشاك

(١) محمود الوراق: طبقات ابن المعتز ٣٦٧ والبيان والتبيين ٣/ ١٩٧.
(٢) المستظرف من أخبار الجواري ص٣٢.
(٣) المستظرف من أخبار الجواري ص٧٣.
(٤) الفتح بن خاقان: أديب شاعر فصيح، ذكي فطن، تركي الأصل، اتخذه المتوكل العباسي صاحباً ووزيراً.. قتل معه عام ٢٤٧هـ (الأعلام٥/ ٣٣١).
(٥) المستظرف من أخبار الجواري ص٤١.

ضريراً.. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشتراها.

وقد تصل الجارية إلى القصور في هدية تقدم إلى الخليفة أو غيره.. فتكتب لها الحياة الوادعة والعيش الرضي.. وربما تستطيع بجمالها وذكائها وحسن أدبها أن تنال قلوب سادتها فتكون المحظية الأثيرة أو الزوجة أو أم الأولاد.

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الجواري بما اتصفن به من صفات الرقة والحسن والأدب استطعن أن يثرن في نفوس ساداتهن الحب والإعجاب.. مما بدا أثره شعراً أو نثراً على ألسنتهم.

التغزل بهن:

وتتداول كتب الأدب، الكثير من شعر الخلفاء والأمراء والقواد في جواريهم.. غزلاً أو وصفاً أو مدحاً أو رثاءً... واستطاعت الجواري الأثيرات أن يملأن المجالس أنساً وبهجة وفناً وشعراً.. فمن ذلك قول المهدي في جارية له تدعى (جوهر) ويبدو أنه كان معجباً بجمالها وحسن صوتها فقال[1]:

ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر
وقد أكملك الله بحسن الدلّ والمنظر
إذا ما هلْتِ يا أحسن خلق الله بالمزهر
وغنيت فقاح البيت من ريحك بالعنبر
فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنبر
فإن شئت ففي كفك خلع ابن أبي جعفر

وقيل إن المهدي دخل في بعض دوره يوماً، فإذا جارية نصرانية،

(١) البيان والتبيين ٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

وإذا جيبها واسع قد انكشف عمّا بين ثدييها وإذا صليب معلق فمدّ يده إليه فجذبه وأخذه، فولولت الجارية الحسناء على صليبها، وسر الخليفة من المنظر ولم يلبث أن قال فيه:

يوم نازعتها الصليب فقالت (ويح نفسي أما تخلي الصليبا)

فأرسل إلى بعض الشعراء فأجاز البيت وأمر بالشعر فغني فيه صوت ولم يزل معجباً بهذا الصوت[1].

ولعل من أكثر من رددت كتب الأدب أشعاراً لهم في الجواري الخليفة هرون الرشيد، ولا بدّ لنا قبل استعراضنا لهذه النماذج أن نقف وقفة قصيرة لعرض بعض الأمور:

لا نشك في أن الرشيد كان أكثر الخلفاء تأثيراً وأبعدهم ذكراً.. فقد طال حكمه ثلاثة وعشرين عاماً (١٧٠ - ١٩٣هـ)، وكان عصره أزهى العصور العباسية، وقد بلغت الحضارة والمدنية العربية والرفاه الاجتماعي أوجها على عهده، وكان الرشيد بالذات من بين الخلفاء محط الأنظار، وقد رأيناه بطلاً للكثير من القصص الخيالية في ألف ليلة وليلة وغيرها.. أفلا يمكن أن تكون هذه الأشعار كلها أو بعضها من ضمن ما نسج حول هذه الشخصية الفذة، أم أن الرشيد الخليفة الذي ذكر عنه أنه تزوج وتسرى العديد من الجواري، هو إنسان قبل كل شيء لا يمنعه سلطانه ولا تحول مشاغله دون أن يأخذ قسطه من مباهج العصر ولذائذه.. فكان شعاره وشعار المعتدلين من الخلفاء:

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والصبابة جانب

ثم إننا وقفنا على مدى تذوق الخاصة والعامة للشعر وشيوعه على الألسنة حتى لقد رأينا الرجل يعترض إحداهن ببيت شعر فتجيبه في

---

(١) ألحان الحان ص٢٩٦.

الحال ببيت ملائم من حفظها أو نظمها لما قال. . . .

أفلا يمكن أن يكون الرشيد رجلاً ذا قلب كبير ولسان شاعر يحب ويتغزل سيما وقد سبق أن رأينا أن العصر لم يكن ليجد حرجاً في التحدث عن العشق والغرام والحب والغزل. . . وإن الحديث في هذه الأمور كان مظهراً حضارياً عندهم وموضوعاً مهما دار في حلقات الفلاسفة والمتكلمين وفي مجالس الأدباء والعلماء. . وقد مرت بنا بعض النصوص الشعرية الغزلية حتى لمن عرف بالورع وانصرف عن الحياة الدنيا ومباهجها إلى العبادة والتقوى.

ألا يجوز أن يكون هذا الخليفة رغم سلطانه وجبروته كسائر أبناء عصره رقيقاً مرهف الحس في حياته الخاصة مع نسائه وجواريه يعجبه منهن ما يعجب غيره فيصدر عنه ما يصدر ويقول فيهن شعراً من رقيق الغزل. . .؟

ولقد ذكرت أسماء عديدة للجواري اللائي يروى أنهن شغفن الرشيد بحبهن، منهن: ماردة ودنانير وسحر وضياء وخنث وهيلانة. . وتواترت كتب الأخبار والأدب بذكر قوله في جواريه الثلاث سحر وضياء وخنث (ذات الخال):

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهنّ في عصياني
ما ذاك إلاّ أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني(١)

ويذكر صاحب الأغاني أن حب الرشيد لجواريه الثلاث أمر تناقله الركبان وتحدث به الناس في الحل والترحال حتى أن فتية العرب

---

(١) الأغاني ١٦/٢٦٩، وقيل إن العباس بن الأحنف قالها على لسانه، ومحاضرات الأدباء ٣/ ٤٢، والعقد الفريد ٦/٤٦، وتزيين الأسواق ص١١.

وفتياتهم كانوا يتناشدون حين حجّ الرشيد هذه الأبيات[1]:

ثلاث قد حللن حمى فؤادي ... ويعطين الرغائب في ودادي
نظمت قلوبهن بخيط قلبي ... فهن قرابتي حتى التنادي
فمن يك حلّ من قلبي محلاً ... فهن من النواظر والسواد

وقيل إن الرشيد بعث إلى جاريته (سحر) لتصير إليه فاعتلت عليه ذلك اليوم بعلة، ثم جاءته من الغد، فقال[2]:

أيا من ردّ ودي أمس لا أعطيكه اليوما
ولا والله لا أعطيك إلاّ الصد واللوما
وإن كان بقلبي منك حب يمنع النوما
أيا من سمته الوصل فأغلى المهر والسوما

وله في ماردة[3] قوله[4] يصف محاسنها وفعل تلك المحاسن بقلوب من يبصرها:

وإذا نظرت إلى محاسنها ... فلكل موضع نظرة نبل
وتنال منك بحد ناظرها ... ما لا ينال بحدّه النصل
شغلتك وهي لكل ذي بصر ... لاقى محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها ... عن ذي الهوى ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر ... ولعينها من عينها كحل

وقيل إن عتباً وقع بين الرشيد وماردة مرة فطال تهاجرهما، هذا يأبى التواصل بعزة الخلافة وشرف الملك، وتلك تتمنع بعزة دالّة

---

(١) الأغاني ١٦/ ٢٧٠.

(٢) الأغاني ١٦/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٣) وقيل (مارية) المستظرف من أخبار الجواري ص٥٩، وأكثر المصادر على أنها ماردة.

(٤) الديارات ص٢٢٥.

المعشوق، وثقل ذلك على الرشيد، فبعث يحيى بن خالد البرمكي في طلب العباس بن الأحنف وعرض عليه أن يقول شعراً ينشده أمام الرشيد فقال[1]:

العاشقان كلاهما متغضب وكلاهما مستوحد متجنب
صدّت مغاضبة وصدّ مغاضباً وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم إنّ المتيم قلّ ما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دبّ السلوّ له فعز المطلب

وحلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أياماً وكان يحبها فمضت الأيام ولم تسترضه، فقال[2]:

صدّ عني إذ رآني مفتتن وأطال الصبر لمّا أن فطن
كان مملوكي فأضحى مالكي إن هذا من أعاجيب الزمن

وقيل إنه طلب من أبي العتاهية أن يجيزهما فقال[3]:

عزة الحب ارته ذلتي في هواه وله وجه حسن
فلهذا صرت مملوكاً له ولهذا شاع ما بي وعلن

وكثر ترديد هذا المعنى في شعر الرشيد بالجواري... وهو المعنى الذي يبين أن سلطان الهوى قوي لا يقف أمامه سلطان...، فقال في بعض جواريه[4]:

تبدي صدوداً وتخفي تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص٦٠.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٢٩٢ - ٢٩٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٢٩٢ - ٢٩٣.
(٤) وألحان الحان ص٢٩٧.

يا من وضعت له خدي فذلّله   وليس فوق سوى الرحمن سلطان

ويطول الحديث إذا أردنا استتمام الحديث عن غزل الرشيد، ولسنا في مجال الدراسة والتفصيل وإنما نكتفي بهذا القدر منه على أنه نموذج لغزل الخلفاء بالجواري. . . وننتقل بعد ذلك إلى استعراض أمثلة أخرى.

وكان المأمون معجباً بعريب جاريته التي سميت باسمه فكانت تعرف بـ (عريب المأمونية)، قال متغزلاً بها(1):

أنا المأمون والملك الهمام   على أني بحبك مستهام
أترضي(2) أن أموت عليك وجداً   ويبقى الناس ليس لهم إمام

وقيل إنها قالت له حين سماعها البيتين منه: يا أمير المؤمنين أبوك الرشيد أعشق منك، حيث يقول:

ملك الثلاث الآنسات عناني   وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها   وأطيعهن وهنّ في عصياني
ما ذاك إلاّ أن سلطان الهوى   وبه قوين أعز من سلطاني

فقدم ذكرهن على ذكر نفسه، وأنت قدمت نفسك على من تزعم أنك تهواها. قال لها المأمون: غير أني منفرد لك، والرشيد مقسم بين ثلاث. قالت: أعرفهن الواحدة المقصودة وهي فلانة، والثنتان محبوبتان لها فأحبهما لحبها إذ ذاك مما يسرها كما قال خالد بن يزيد بن معاوية في رملة:

أحب بني العوام طرًّا لأجلها   ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

---

(1) محاضرة الأبرار ١/١٢٦.

(2) الصواب: أترضين.

وقال الآخر:

أحب لأجلها السودان حتى أحب لأجلها سود الكلاب

فهؤلاء أحبوا القبيلة من أجلها، هذا هو المخرج لأمير المؤمنين الرشيد، فأين المخرج لأمير المؤمنين.. فسكت وعظم وجده... ويعبر المأمون عمّا في نفسه لجارية أخرى فيقول[1]:

لها في لحظها لحظات حتف تميت بها وتحيي من تريد
فإن غضبت رأيت الناس قتلى وإن ضحكت فأرواح تعيد
وتسبي العالمين بمقلتيها كأن العالمين لها عبيد

وقال المأمون في يوم السعانين من أعياد النصارى وقد خرجت بين يديه عشرون وصيفة جلب روميات، وقد تزين بالديباج الرومي مزنرات الأوساط وقد علقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن جميعاً سعفات الخوص وأغصان الزيتون فأعجبه منظرهن[2]:

ظباء كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهن السعانين علينا في الزنانير
وقد زرفن أصداغا كأذناب الزرازير
وأقبلن بأوساط كأوساط الزنابير

ويقول المتوكل في جارية له[3]:

أمازحها فتغضب ثم ترضى فكل مقالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسن ذي دلال وإن رضيت فليس لها بديل

---

(١) المرأة في حضارة العرب ص٢١٧.

(٢) ألحان الحان ص٢٩٨.

(٣) الموشى ص٦٧.

وللمعتصم في بعض جواريه قوله[1]:

أيا منقذ الغرقى أجرني من التي بها نهلت روحي شعاعاً وعلت
لقد بخلت حتى لو اني سألتها قذى العين من سافي التراب لضنت

رثاؤهن:

ولم يقف ذكر الخلفاء جواريهم عند الغزل وإنما وصلتنا قصائد ومقطوعات في رثائهن.. يذكرون فيها لوعتهم على فقدانهن فقد كنّ يملأن عليهم حياتهم أُنساً وبهجة وسعادة فالرشيد أقسم بأنه سوف لا يسر بشيء بعد (هيلانة) فكأنه قد فارق العيش بفراقها لأنها كانت دنياه التي يحياها.. قال[2]:

قد قلت لما ضمنوك الثرى وجالت الحسرة في صدري
اذهب فلا والله ما سرني بعدك شيء آخر الدهر

وأورد له الصولي في رثائها[3]:

قاسيت أوجاعاً وأحزانا لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيف ما كانا
كانت هي الدنيا فلما ثوت في قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بعدك إنسانا
والله لا أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد أغصانا

وقال العباس بن الأحنف في رثائها على لسان الرشيد[4]:

---

(١) الموشى ص٦٧. المصدر السابق.

(٢) نساء الخلفاء ص٥٤ ـ ٥٥ والمستظرف في أخبار الجواري ص٧٢ وتاريخ بغداد ١/٩٨.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٢٩٥.

(٤) ديوان العباس ص٢٠٨، وتاريخ بغداد ١/٩٨ والمستظرف من أخبار الجواري ص٧٢.

يا من تباشرت القبور بموتها   قصد الزمان مساءتي فرماك
أبغي الأنيس فلا أرى لي مؤنساً   إلا التردد حيث كنت أراك
ملك بكاك وطال بعدك حزنه   لو يستطيع بملكه لفداك
يحمي الفؤاد عن النساء حفيظة   كيلا يحل حمى الفؤاد سواك

وللعباس في رثاء ضياء جارية الرشيد على لسانه[1]:

ألا إن صفو العيش بعدك أكدر   وكل نعيم سوف يُقْلى ويهجر
لعمري لنعم المستغاث به البكا   إذا فني الصبر الذي كان يذخر
سأبكي ضياء مستقلاً لها البكا   ويسعدني يحيى وفضل وجعفر

وللمأمون في رثاء جارية له كانت من أحظى جواريه لديه قوله[2]:

اختلست ريحانتي من يدي   أبكي عليها لآخر الأبد
كانت هي الأنس إذا استوحشت   نفسي من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي   ومنهلاً كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي   فاختلس الدهر يدي من يدي

وممن رثى جاريته الخليفة المعتضد وكان قد جزع جزعاً شديداً على وفاة (دريرة) فقال[3]:

يا حبيبا لم يكن   يعدله عندي حبيب
أنت عن عيني بعيد   ومن القلب قريب
وخيالي منك مذ غبت خيال ما يغيب
ليس لي بعدك في شيء   من اللهو نصيب

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص١٥٢.

(٢) المرأة في حضارة العرب ص٢١٧.

(٣) المنتظم ١٣٧/٥ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٧٢.

لـي دمـع لـيـس يـعـصـيـنـي وصـبـر مـا يـجـيـب
لـك مـن قـلـبـي عـلـى قـلـبـي وإن بـنـت رقـيـب
لـو تـرانـي كـيـف لـي بـعـدك عـول ونـحـيـب
وفـؤادي حـشـوه مـن حـرق الـحـزن لـهـيـب
لـتـيـقـنـت بـأنـي بـك مـحـزون كـئـيـب
مـا أرى نـفـسـي وإن وطـأتـهـا[1] عـنـك تـطـيـب

وقال عبدالله بن المعتز يعزي المعتضد بهذه الجارية:

يـا إمـام الـهـدى بـنـا لا بـك الـغـم أفـنـيـتـنـا وعـشـت سـلـيـمـا
أنـت عـلـمـتـنـا عـلـى الـنـعـم الـشـكـر وعـنـد الـمـصـائـب الـتـسـلـيـمـا
فـاسـل عـمـا مـضـى فـإن الـتـي كـانـت سـروراً صـارت ثـوابـاً عـظـيـمـا
قـد رضـيـنـا بـأن تـمـوت وتـحـيـا إن عـنـدي فـي ذاك حـظـاً جـسـيـمـا
مـن يـمـت طـائـعـاً لـديـك فـقـد أعـطـي نـوراً ومـات مـوتـاً كـريـمـا

والملاحظ في ما مرّ من نماذج أن رثاء الجواري لم يكن ليدور إلاّ على أنهن كن الأنس والسرور والنعيم لأوليائهن وإنهم قد فقدوا بفقدهن رونق الحياة وبهجتها.. ولم تتجاوز المراثي الواردة تلك المراثي وهذا ما يصور لنا الصلة التي كانت تجمع بين الجواري وأوليائهن لا تتعدى أداء دورهن في الترفيه.

وقد شذّ عن ذلك المراثي التي رثى بها تميم بن المعز لدين الله الفاطمي جارية له توفيت فجاء بجيد الشعر وصادقه[2]:

(١) في تاريخ الخلفاء: (وإن سليتها) ويضيف بيتاً آخر:
(لـي دمـع لـيـس يـعـصـيـنـي وصـبـر مـا يـجـيـب)
(٢) ديوان تميم ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

للـه مـا بـان بـه يـومـهـا   من رقة الظرف وحسن الوسام
كانت رضا النفس ونيل المنى   ولذة العيش وطيب المدام
ريحان سمعي وسنا مقلتي   وسؤل قلبي من جميع الأنام
لهفي على ما فات من قربها   لهفاً له في كل عضو سقام
لهفي على تلك الطباع التي   قد خلصت من كل عيب وذام

فهو يفصل في وصف مكانتها في نفسه فهي رضا نفسه ونيل مناه، ولذة عيشه وهي ريحان سمعه وسنا عينيه وسؤل قلبه. ثم يصور خلقها غاية في النبل واللطف وحسن العشرة فيقول(١):

وما تجنت قط مذ أيقنت   أني بها ذو كلف مستهام
ولا دعاها التيه يوماً إلى   أن تظهر الدل وتبدي الملام
خلائق كالشهد معسولة   وعشرة كالروض غب الغمام
أنعى إلى الاطراب أخلاقها   ولذة الإيناس يوم الندام
أنعى إلى العود أوتاره   ذاك الغنا الجائز حد التمام
أنعى إلى الإحسان إحسانها   وشدوها العذب كسجع الحمام
يا حبذا وصلك لو لم تبن   وحبذا قربك لو كان دام
ما كنت إلا كبدي قطعت   ومقلتي بانت وقلبي استهام
وكنت قد دافعت عنها العدا   فكيف لي عنك بدفع الحمام
لو كان غير الموت لم يستطع   رميك دوني بجليل العظام

ولعلّ من أصدق الرثاء وأجمله وأعمقه تصويراً لعاطفة الحزن والألم قوله وقد ذكرها حينما رأى جمعاً من المغنيات والزامرين فتتبعت عيناه شخصها فيهم فلما خابت ظلت دموعه تترقرق.. وصار يشكو إلى الله فقدها شكوى العطشان الحبيس الذي لا حول له ولا قدرة على

---

(١) ديوان تميم ص٣٠٢.

احتمال ما به فكأن قلبه بعد فقدها جناح وهت أجزاؤه فظلّ خافقاً لا يهدأ، قال:

ذكرتك بالريحان والراح ذكرة ... مرددة كادت لها النفس تزهق
فلما تناولن الغناء شوادياً ... واتبع مزموماً من الضرب مطلق
تتبعت العينان شخصك فيهم ... فلما نأى ظلت دموعي ترقرق
إلى الله أشكو فقدها مثل ما ... شكا إلى الله فقد الماء عطشان موثق
كأن فؤادي منذ بان بها الردى ... جناح وهت أجزاؤه فهو يخفق

وهكذا رأينا الصورة التي رسمها الخلفاء لجواريهن في القصور، صورة توضح علاقتهن بهن ودورهن في الإمتاع والمؤانسة التي رددوها في أشعارهم سواء شعر الغزل أو الرثاء.

وكان للأمراء والقواد وسائر الأعيان أدب في جواريهن كثير لم نرد أن نفصل في استعراضه لكوننا قد ثبتناه في مواضع كثيرة من البحث حسب المناسبات التي استدعت ذكره ولأن نشاط الأدب في قصور الخلفاء كان أكثر تجلياً وأبعد أثراً.

الفصل الثالث

الجواري القيان

وقد شغف العرب بالغناء شغفاً كبيراً، ولم يعدوه ضرباً من اللهو والتسلية فحسب، وإنما جعلوه جزءاً من حياتهم المعنوية والمادية، وجعلوا له أصولاً وقواعد لا تنقص في أهميتها عن أصول الشعر وقواعده، وكان للمغنين أبحاث في أصول هذا الفن توضح الخصائص الأساسية للغناء العربي.

وقد أسهبوا في الصوت الحسن، وأثره في النفوس، (فزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب، وتهش له النفس وتهتز الجوارح وتخف الحركات)[1].

(وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنّت إليه الروح)[2].

ورأوا أن الألحان الحسان قد يتوصل بها إلى خير الدنيا والآخرة، فهي تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذبّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب)[3].

وكره البعض الغناء لزهدهم في الدنيا ولذاتها، فقالوا إنه (ينفر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم، ويبعث على اللهو ويحض

---

(١) العقد الفريد ٦/ ٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) العقد الفريد ٦/ ٥.

على الطرب وهو باطل في أصله)[1].

وردّهم من شغف بالغناء، فقالوا: (إن هناك فرقاً بين الغناء على أنه لحن جميل وصوت مؤثر وبين الشعر والكلام الذي يتغنى به، فالأثر الذي يتركه اللحن والصوت لا يكاد يبتعد عمّا رآه أهل الطب والفلاسفة من أنه يدعو إلى الخير، وقالوا: أليس القرآن يرتل ويلحن حرصاً على زيادة التأثير.. فالغناء إذن كلام ولحن، ولا يخفى أثر الكلام في النفوس خيره وشره، فالأثر والحالة هذه للكلام، لا للحن.. والأثر إذن للمعنى الذي يصبّ في اللحن فإن كان صلاحاً وخيراً كان باعثاً على الخير، وإن كان تهتكاً وفسقاً كان باعثاً على الشر.

ويوضح هذا ما جاء عن أبي يوسف القاضي[2]: أنه قال لإبراهيم بن سعد الزهري: (ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني! أما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها؟ قال: فغضبت وقلت: قاتلكم الله يا أهل العراق! ما أوضح جهلكم وأبعد عن السداد رأيكم! متى رأيت أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدهم صلاته ويطلّق امرأته، ويقذف المحصنة من جاراته ويكفر بربه، فأين هذا من هذا، من اختار شعراً جيداً ثم اختار له جرماً حسناً فردده عليه فأطربه وأبهجه فعفا عن الجرائم وأعطى الرغائب. فقال أبو يوسف: قطعتني، ولم يحر جواباً)[3].

وكان يهمهم الصوت الحسن والآداء الجيّد والبراعة في الغناء قبل كل شيء.. وكانوا يستمعون إلى المغني شاباً أو شيخاً، جميلاً أو

---

(١) العقد الفريد ٦/٨.

(٢) أبو يوسف القاضي رجل من الأنصار ولي القضاء سنة ١٦٦هـ أيام الهادي وأقام على القضاء إلى أن مات سنة ١٨٢هـ.

(٣) العقد الفريد: الجزء السادس.

قبيحاً، وإلى المغنية سوداء أو بيضاء، جميلة أو قبيحة. . إلاّ أننا لاحظنا في العصر العباسي عصر الترف والنعومة والجمال أنهم صاروا يحرصون على أن يكون الغناء من وجه حسن. . ويحبذون في كثير من الأحيان أن يسمعوه من جارية مكتملة الحسن والأدب. .

قال ثمامة بن أشرس[1]: كنت عند المأمون يوماً فاستأذن الغلام لعمير المأموني فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية في وجهي، فقال: يا ثمامة ما بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إذا غنانا عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملي وقوي جذلي وانشرح صدري وذكرت الجنان والولدان. . . كم بين أن تغنيك جارية غادة كأنها غصن بأن ترنو بمقلة وسنان، كأنما خلقت من ياقوتة أو خرطت من فضة بشعر عكاشة العمي حيث يقول:

من كف جارية كأن بنانها من فضة قد طرّفت عنابا
وكأن يمناها إذا ضربت بها تلقي على الكف الشمال حسابا

وبين أن يغنيك رجل كث اللحية غليظ الأصابع خشن الكف بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول:

رأيت زهيراً تحت كلكل خالد فأقبلت أسعى كالعجول أبادره

وكم بين أن يحضرك من تشتهي النظر إليه وبين من لا يقف الطرف عليه. . فتبسم المأمون وقال: الفرق بينهما واضح والمنهج فسيح. يا غلام لا تأذن له وأحضر أطيب قيناته، فظللنا في أمتع يوم)[2].

ورغم كثرة وجود المغنين في العصر العباسي وإتقانهم فن الغناء

(١) ثمامة بن أشرس: من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء والبلغاء، كان له اتصال بالرشيد ثم بالمأمون، وكان ذا نوادر وملح، توفي ٢١٣هـ.

(٢) زهر الآداب ٣/٦٢٦ ـ ٦٢٧.

واشتهارهم به، إلاّ أن هناك أقوالاً كثيرة تؤكد إيثارهم سماع الغناء من النساء واستطابته منهن.

سئل حكيم عن فرق ما بين غناء النساء والرجال فقال: ما خلقت الأغاني إلاّ للغواني[(١)].

وقال الجاحظ: كم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف بصرك عنه، وأيهما أملح أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ منخلع الأسنان متغضن الوجه أو تغنيك جارية كطاقة نرجس أو آس[(٢)].

وقال ابن بطلان[(٣)]: إذا اجتمع للغناء أن يكون مطبوعاً سليماً في الخروج والنفور وكانت الجارية شحرورية الصوت جيدة الصنعة والضرب صحيحة التأدية للشعر قد أخذت عن الحذاق وتزيدت في نفسها بجودة الطباع، فهي الغاية القصوى في هذا الشأن.

أما ابن عبد ربه فلا يرى من خلق الله شيئاً أوقع في القلوب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن (لا سيما إذا كان من وجه حسن)[(٤)].

وكانت القيان تتمتع بثقافة أدبية واجتماعية واسعة، فكانت تحفظ الكثير من الشعر وتحسن وضع المعنى في مكانه والغناء به عند الحاجة، وربما كانت قادرة على نظم بعض المعاني تبعاً للمناسبات والمواقف.

قيل إن مغنية تدعى سُنين غنت أمام دعبل الخزاعي فقالت[(٥)]:

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/٧١٨.

(٢) المصدر نفسه ٢/٧١٨.

(٣) رسالة جامعة لفنون نافعة ص٣٨٥.

(٤) العقد الفريد ٦/٥.

(٥) الأغاني ٢٠/١٠٩.

لا تعجبي يا سلم من رجل   ضحك المشيب برأسه فبكى

ثم غنت بعده:

لقد عجبت سلمى وذاك عجيب   رأت بي شيباً عجلته خطوب

فقال لها دعبل: ما أكثر تعجب سلمى هذه، فعلمت أنه يعبث بها ليسمع جوابها فقالت متمثلة غير متوقفة:

فهلك الفتى ألا يراح إلى ندى   وألاّ يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

قيل: فتعجب من جوابها وحدته وسرعته، وقال لمن حضر: والله لو أجاب الجاحظ هذا الجواب لكان كثيراً مستظرفاً.

وقيل إن الخليفة هارون الرشيد اعترض قينة فغنت:

ما نقموا من بني أميّة إلا أنهم   يحلمون إن غضبوا

فلما ابتدأت به تغير وجه الرشيد وعلمت أنها قد غلطت وأنها إن مرت فيه قتلت، فغنت:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم   يجهلون إن غضبوا
وأنهم معدن النفاق فما   تفسد إلاّ عليهم العرب

فقال الرشيد ليحيى بن خالد: أسمعت يا أبا علي؟ فقال: يا أمير المؤمنين تبتاع وتسنى لها الجائزة ويعجّل لها الإذن ليسكن قلبها.. قال: ذلك جزاؤها[1].

وتكثر الإشارات في كتب الأدب إلى سعة اطلاع القيان في الشعر والغناء نذكر منها قول الجاحظ[2]: (وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف

---

(١) الأغاني ٥/ ٧٦.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٨٣ .

صوت فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت).

وقد حفل العصر العباسي بعدد كبير من القيان، كان لهن الأثر الكبير في توجيه حياة المجتمع عامة والشعراء خاصة وجهة ناعمة لاهية، وجهة ترهف الحس بالفن والجمال.

قال أبو حيان التوحيدي[١]: مدللاً على كثرة المغنيات من الجواري والحرائر. (وقد أحصينا ـ ونحن جماعة في الكرخ ـ أربعمائة وستين جارية في الجانبين، ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنّا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه وسوى ما كنّا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلاّ إذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه وترنم وأوقع، وهزّ رأسه وصعّد أنفاسه وأطرب جلاسه واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجابه وادعى الثقة بهم والاستنامة إلى حفاظهم).

فقد تأثر الشعراء بها وبجمال صوتها، فأسهبوا في وصفها ووصف آلات الغناء التي تستعملها، وفي وصف غنائها بترديداته وتوقيعاته وعمقه وصفائه وحلاوته وأثر فعله في النفوس. وأثرت القيان في عامة المجتمع... وكثيراً ما كان يحصل منافسة بين قينتين ويكون لكل منهما جماعة وأنصار كالذي وقع بين شارية وعريب، جاء في الأغاني[٢]: (وكان أهل سر من رأى متحازبين، فقوم مع شارية وقوم مع عريب.. لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب تلك).

---

(١) رسالة القيان ص٧٣.

(٢) الأغاني ١٥/ ٣٢٠.

ويتمثل أثر القيان في الشعر بوجهات مختلفة متعددة[1] نقف منها عند الشعر الذي نظم في وصف القيان والتغزل بهن وذكر مجالسهن وآلات الطرب.. وقد يكون الوصف استقصاء لبراعة القينة وجودة أدائها، وتغزلاً بجمالها ومحاسنها.. وقد يكون العكس فيعرض الشاعر إلى هجائها ووصف قبح صوتها وشكلها..

ولا بدّ لنا من استعراض بعض النماذج الشعرية للتدليل على أثرهن في أدب العصر العباسي... وربما كان ابن الرومي أكثر شعراء العصر العباسي تأثراً بهنّ وقولاً فيهن واستقصاءً لوصف محاسنهن وأصواتهن جمالاً وقبحاً، ويرجع ذلك بلا شك إلى رهافة حسه وقدرته الفائقة على الوصف.. فمن ذلك قوله[2] يصف المغنية (بدعة):

غنت فلم تحوج إلى زامر ... هل تحوج الشمس إلى شمعه
كأنما غنت لشمس الضحى ... فألبستها حسنها خلعه
كأنما رنّة مسموعها ... رقة شكوى سبقت دمعه
تهدي إلى قلبك ما يشتهي ... كأنها قد أطلعت طلعه
يجتمع الظرف لجلاسها ... والحسن والإحسان في بقعه
طفّل على من حصلت عنده ... فبعض تطفيل الفتى رفعه
ربيع غيث فانتجع روضه ... فلن يعاب الحرّ بالنجعه[3]

والشاعر في هذه الأبيات يشير إلى عادة اجتماعية وهي عادة جلب المغنيات في الأفراح، فهو يريد أن يتطفل على من يأتي بهذه المغنية إلى بيته، وقد صرح بذلك في قصيدة قال فيها[4]:

---

(١) اتجاهات الغزل ص١١٤.

(٢) زهر الآداب ١/ ٢٦٩ وديوانه.

(٣) النجعة: المذهب في طلب الكلأ في موضعه/ اللسان: نجع.

(٤) ديوان ابن الرومي ٢/ ٢٤٩.

وزخرف البيت كما زخرفت روضة حزن جادها هاضب
واجلب لهم حسناء في شدوها لكل ما سرّهم جالب

ومن أحسن ما قيل في صفة القيان وغنائهن قول ابن الرومي، وقد تخيل القيان أمهات حنون على أطفالهن وألقمنهم ثديهن وصرن يترجمن عنهم بالضرب والغناء.. فقال[1]:

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حواني
مطفلات وما حملن جنيناً مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديًا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

ولعل من أروع ما قيل في وصف القيان وغنائهن قوله في وصف المغنية وحيد، فهو يبدأ بإعلان حبه لها.. ثم يسرد محاسنها: جمال قدها وعينيها وخديها وجيدها وشعرها فيقول[2]:

يا خليلي تيمتني وحيد ففؤادي بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
فهي برد بخدها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
ما لما تصطليه من وجنتيها غير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجد لولا الإباء والتصريد

إلى أن يقول:

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٨٤.
(٢) ديوان ابن الرومي ٣/ ٩٨.

وغرير بحسنها قال صفها ... قلت أمران بيّن وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأ ... شياء طرا ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها ... فشقيٌّ بحسنها وسعيد

ثم يصف صوتها وجماله وبراعة المغنية في الغناء، ويغوص في عرض مالم يقف عنده غيره من وصف الصوت.. فهو يصور لنا كيف أنها تمده حيناً مدّاً طويلاً كأنفاس عاشقيها الدافئة المديدة.. وكيف أنها ترققه حيناً آخر بالدلال والغنج وتخفته حتى ليكاد يبيد فيراه السامع وكأنه يموت طوراً ويحيا طوراً آخر.. قال[1]:

تتغنى كأنها لا تغني ... من سكون الأوصال وهي تميد
لا تراها هناك تجحظ عين ... لك منها ولا يدر وريد
من هدوّ وليس فيه انقطاع ... وسجوّ وما به تبليد
مدّ في شأو صوتها نفس كـ ... ـاف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرقّ الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا ... مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشي وفيه حلي من النغـ ... ـم مصوغ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجّع فيه ... كل شيء لها بذاك شهيد

وكان بشار ممن أجاد في وصف غناء القيان، إلاّ أنه لم يبلغ ـ عندي ـ مبلغ ابن الرومي في الغوص إلى عرض دقائق جمال الصوت.

قال في وصف قينة[2]:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة ... أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا

---

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٩٨.
(٢) الأغاني ٣/ ١٥٩ وديوان بشار ٤/ ١٩٤ ـ ١٩٧.

فاسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً   يزيد صبًّا محبّاً فيك أشجانا
يا ليتني كنت تفاحاً مفلجة[1]   أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها   ونحن في خلوة مثلت إنسانا
فحركت عودها ثم انثنت طرباً   تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا   فهات إنك بالإحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلني   أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا
فغنَّت الشرب صوتاً مؤنقاً رملاً   يذكي السرور ويبكي العين أحيانا
لا يقتل الله من دامت مودته   والله يقتل أهل الغدر أحيانا

أما أبو نواس شاعر المجون والغزل فلم يبلغ في وصفه القينة مبلغ ابن الرومي رغم إجادته في قوله[2]:

طفلة خسود رداح   هام قلبي بهواها
قدّها أحسن قدّ   فاسألوا من قد رآها
ما براها الله إلاّ   فتنة حين براها
تنشر الدر إذا غنّـ   ـت علينا شفتاها
وأرى للعود زهوا   حين تحويه يداها
ربما أغضيت عنها   بصري خوف سناها
هي همي ومنايا   ليتني كنت مناها

وقال إسحاق الموصلي في مغنية[3] تدعى ملاحظ:

سأشرب ما دامت تغني ملاحظ   وإن كان لي في الشيب عن ذاك واعظ
ملاحظ غنينا بعيشك وليكن   عليك لما استحسنته منك حافظ

---

(١) مفلجة: مقسومة نصفين/اللسان/فلج.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٦٨.
(٣) ديوان إسحاق ص١٤٧.

فأقسم ما غنّى غناءك حاذق مجيد ولم يلفظ كلفظك لافظ
وفي بعض هذا القول مني مساءة وغيظ شديد للمغنين غائظ

وكما برع ابن الرومي في وصف القيان والتغزل بهن، فقد برع في هجائهن وشخص مواطن القبح فيهن ورسم لهن ولأصواتهن صورة بارعة في التنفير وإثارة الاشمئزاز، قال في وصف غناء قينة[1]:

غنّت فمس القلب كل كرب واستوجبت منّا أليم الضرب
لها فم مثل اتساع الدرب بقباقة كبقبقات الحب[2]
هدارة مثل هدير النجب[3] وهي على ما أظهرت من عجب
وتدّعيه من شجا وحب وتشتكيه من رياح الجنب
نافرة الصوت خروج الضرب حسبي منها يا نديمي حسبي
قد أصدأت سمعي وغمّت قلبي

ووصف صوتاً قبيحاً لقينة فقال: إن صوتها لا يتاح له أن يخرج ندياً مرسلاً غصة تعترضه في حلقها فتضغطه، فإذا ما غنت وكابدت من ذلك الضغط بدت عروق جيدها ممتدة بارزة في عنقها حتى لكأنها بيوت الأرضة. وهو استقصاء بديع لوصف صورة قبيحة للغناء والمغنية قال[4]:

قينة ملعونة من أجلها رفض اللهو معاً من رفضه
تضغط الصوت الذي تشدو به غصة في حلقها معترضه
فإذا غنت بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الأرضه

(١) ديوان ابن الرومي ص١٤٧.
(٢) الحب: الزير.
(٣) النجب: الإبل.
(٤) ديوان ابن الرومي ١/ ٧١.

وهذه صورة أخرى لمغنية قبيحة الصوت يصف فيها ثقل اليوم الذي سمع فيه غناءها، وثقل ذلك الغناء حتى لكأنه اللوم الثقيل تأباه الأسماع.. ويقول فيها: إن الله يثيب سامعها ضعفي ثواب من يصوم ويصلي الليل ثم يقول: إنه قضى يومه يشرب الخمرة أرطالاً لا طرباً على صوتها، وإنما طلباً للسكر والنوم هروباً من سماع صوتها... فقال[1]:

شاهدت في بعض ما شاهدت مسمعة … كأنما يومها يومان في يوم
تظل تلقي على من ضم مجلسها … قولاً ثقيلاً على الأسماع كاللوم
لها غناء يثيب الله سامعه … ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم
ظللت أشرب بالأرطال لا طربًا … عليه بل طلباً للسكر والنوم

وله في شنطف المغنية وصف من أبرع الوصف، فقد نعتها بالقذارة والقبح وسوء الغناء فقال[2]:

إذا ما شنطف نكهت أماتت … فمن ندمائها قتلى وصرعى
يلاقي الأنف من فمها عذاباً … وترعى العين منها شرّ مرعى
وإن سكوتها عندي لبشرى … وإن غناءها عندي لمنعى[3]
فقرّطها بعقرب شهرزور[4] … إذا غنّت وطوّقها بأفعى
فإن جاءت فلا أهلاً وسهلاً … وإن رجعت فلا حفظاً ورجعى

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٤٢٧.

(٢) ديوان ابن الرومي ١/ ١٠٥ ومحاضرات الأدباء ٢/ ٧٢٠.

(٣) وردت في محاضرات الأدباء ٢/ ٧٢٠ (لمقعى) والصواب ما جاء في الديوان (لمنعى).

(٤) يشير الشاعر إلى منطقة شهزور في شمال العراق، ولا تزال تدعى بنفس التسمية وهي منطقة ينفر منها الأهلون ولا يرغبون في الإقامة فيها لاشتهارها بعقاربها الصفر، وفيها ناحية تدعى (عربد) تشتهر بكثرة الأفاعي.

وقال[1]:

شنطف يا عوذة السموات والأر ... ض وشمس النهار والقمر
إن كان إبليس خالقاً بشراً ... فأنت عندي من ذلك البشر
صوّرك المارد اللعين فأعطـ ... ـتك يداه مقابح الصور
ولم تعافي من البغاء ولا الـ ... ـبر وخبث النسيم والذفر[2]
بل أنت فوق المنى إذا ذكـ ... ـر القبح وفحش العيوب والقذر
لم تقطعي قط ذا مكايدة ... بل تقطعين الوتين[3] بالبخر
ترمين آنافنا بأسهمه ... عن شر قوس وشر ما وتر
والطير عند الغناء مختلج ... تضحك أشداقه إلى الكمر
شنطف يا سوء ما منيت به ... ما كنت إلا فريسة القدر

ونخلص من هذا إلى أن نقول إن إبن الرومي كان أكثر شعراء العصر العباسي قولاً في القيان[4].

ولابن المعتز في غناء المغنيات وهجائهن بأشكالهن وأصواتهن قوله في هجاء بدعة جارية ابن حمدون[5]:

حدثونا عن بدعة فأتينا ... فتغنت فظنّ في البيت بوق
وإذا شوكة تقضّف يبساً ... فوقها وجه فأرة محلوق

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٧٠.

(٢) الذفر: بالتحريك: شدة ذكاء الريح من طيب أو نتن، وخص اللحياني بهما رائحة الإبطين المتنين. اللسان/ ذفر.

(٣) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه (اللسان: وتن).

(٤) ينظر ديوان ابن الرومي ج١ ص٧١، ٧٤، ٧٥، ٩٩، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ج٢ ص٢٣٢، ٢٦٦، ٢٤٩. ج٣ ص٤٣٣ ر٤٦٥، ٤٢٧، ٣٧٠.

(٥) أشعار أولاد الخلفاء ص١٤٠.

وقال[1]:

ودبسيّة في اللفظ لكنّ حلقها كحلق حمار قطّع النهق ملجما
يلامس منها الكفّ عيدان مشجب كنبّاش ناووس[2] يقلّب أعظما

وله في هجاء القيان غير ذلك[3] نكتفي منه بهذا القدر.

وقد يهجو الشاعر القينة أحياناً فتشيع أبياته فيها فتكسد القينة ويكون بذلك القضاء عليها.. منه هجاء الصمد بن المعذل لقينة في البصرة قيل إنها كسدت على أثره فلم تدع ولم تستتبع حتى أخرجت من البصرة[4].. قال[5] فيها وقد أفحش:

تفترّ عن مضحك السدريّ إن ضحكت ....
يفوح ريح كنيف من ترائبها سوداء حالكة دهماء كالقار

أو هجاء الحسين بن الضحاك لمغنية بعد أن عبث بها فصاحت عليه واستخفت به، فقال[6] فيها:

لها في وجهها عكن وثلثا وجهها ذقن
وأسنان كريش البـ ـطّ بين أصولها عفن

وقيل إن المغنية قد بكت حين سماعها الأبيات بكاءً مرّاً حتى ظن أنها عميت.. وشاع هذان البيتان فكسدت من أجلهما، وكانت إذا حضرت في موضع أنشدوا البيتين فتجنّ.. ثم هربت من سر من رأى

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص١٤٢.
(٢) الناووس: مقابر النصارى (اللسان: نوس).
(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص١٣٢، ١٣٣.
(٤) الأغاني ١٣/ ٢٣٥.
(٥) الأغاني ١٣/ ٢٣٥.
(٦) الأغاني ٧/ ٢١٨.

حتى لم يعرف لها بعد ذلك خبر[1].

وكان للقيان نصيب في رثاء الشعراء، فقد رثى ابن الرومي مغنية تدعى (بستان) بقصيدة ننقل منها قوله[2]:

بستان يا حسرتا على زهر ... فيك من اللهو بل على ثمر
بستان لهفي لحسن وجهك ... والإحسان صارا معاً إلى الحفر
بستان أضحى الفؤاد في وله ... يا نزهة السمع منه والبصر
بستان ما منك لامرىء عوض ... من البساتين لا ولا البشر

ذم القيان بفعالهن:

لقد أكثر الكتاب والشعراء في القول في القيان، وصوروا هذا الصنف من النساء الذي يبتز من الرجال أموالهم ويستلب منهم قلوبهم وعقولهم ويجعلن منهم ألعوبة في أياد لا ترحم.

فقد كن يتفننّ في إلقاء حبائلهن للصيد حتى إذا ما وثقن من وجدهم بهن وعدم الصبر عليهن أظهرن براعتهن في طلب الهدايا المتواترة.. وتدوم العلاقة ويستمر الوصل ما دامت العطايا والهبات كثيرة ثمينة.. حتى إذا ما نفد اليسار وأحسسن بإفلاسهم أظهرن الملل وصرن يتبرَّمن بكلامهم ويتتبعن الهفوات والسقطات.. ثم لا يلبثن أن ينصرفن عن هواهم ويملن إلى صيد جديد سواهم[3].

وقد كثر الحديث عن أمثال هذه الأعمال في كتب الأدب، ونظم الكثير من الشعراء في فضح حيلهن في الصيد وفي تصوير تفننهن في الكسب والابتزاز فأفاض الجاحظ فخص لذلك رسالته الموسومة

---

(١) الأغاني ٧/ ٢١٨.

(٢) ديوان ابن الرومي ١/ ٧٤.

(٣) الموشى ص١١٩ ورسالة القيان ص٧٢.

بـ (رسالة القيان) عرض فيها لصفاتهن وطباعهن وبين وسائلهن في إيقاع صيدهن في شرك العشق فقال[1]: (إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تنتصح في ودها لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتها[2]، فإذا ما شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء...) ثم يستمر في تعداد وسائلها في اصطياد المعجبين بها وإيهامهم بحبها وإخلاصها ثم يقول[3]: (وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه) ويبرر سلوكها هذا ويعطيها العذر فيه فيقول[4]: (وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة).

وكان أبو الطيب الوشاء متفقاً مع الجاحظ في نظرته إلى القيان ووصفه لهن.. وزاد عليه بإيراده الكثير من القول المنظوم والمنثور في ذمهن وبيان وسائلهن في المكر والخداع والخيانة.. قال[5]:

(اعلم أنه لم يبتل أحد من أهل المروءات والأدب وأهل الظرف والأرب، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي أعظم من هوى القيان، لأن حبهن حب كذوب وعشقهن عشق مشوب، وهواهن منسوب إلى الملل

---

(١) رسالة القيان ص٧٠.

(٢) أنشطوتها: شراكها.

(٣) رسالة القيان ص٧٣.

(٤) رسالة القيان ص٧٤.

(٥) الموشى ٢/١١٦ ـ ١١٧.

ليس بثابت ولا متصل وإنما هو لطمع وعرض، وهن سريعات الغرض يستدل على ذلك بأفعالهن الردية وأخلاقهن السيئة، وأنهن لن يقصدن إلا أهل النشب[١] ويصدفن عن ذوي الحسب وأن محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار، وتنتقل عند الإفلاس والإقلال، وليس إظهارهن للمحبة مما ينعقد عليه منهن ذوو الآداب، ولا بما ينخدع به لهن ذوو الألباب، وكل ذلك منهن غرور وخداع وزور).

ولعل من المفيد أن ننقل بعض ما قاله الشعراء في ذم فعالهن وبيان حيلهن. قال بعض المحدثين[٢]:

صحوت فأبصرت الغواية من رشدي   وأيقنت أني كنت جرت عن القصد
فلا يعشقن من كان يعشق قينة   فما هو منها في سعيد ولا سعد
تودّك ما دامت هداياك جمّة   ورفدك عشق ما بقيت أخا رفد
إذا ما رأت في مجلس من تخاله   غنيّا حبته بالتحية والود
وغنت على أقداحه كلّ ما اشتهى   وقالت له ماذا تريد أنا أفدي
وتومي إليه اشرب الرطل واسقني   فقد حزت قلبي واشتملت على ودي
فيمتلىء المغرور عند مقالها   سروراً يرى أن المقال على جدّ
فإن جاء وقت الانصراف تحازنت   لفرقته حتى يقوم على وعد
ويغدو إليه في الفراش رسولها   تسائله ما كان حالك من بعدي
ويا ليت شعري كيف بتّ فإنني   رعيت نجوم الليل كفي على خدي

ثم يواصل الشاعر حديثه عن هذه القينة وعن حيلها وألاعيبها في اقتناص الهدايا الثمينة حتى إذا ما أحست بإفلاسه تجنت له وأبدت جانب الهجر والصد وانقلبت عنه إلى فريسة جديدة غيره.

(١) النشب: العقار والمال.

(٢) قال الوشاء ص١١٩: (وقد أنشدني بعض الأدباء لبعض المحدثين).

كما يورد لنا شاعر آخر من شعراء العصر العباسي[1] قصة (ابن أحمر) الذي زار قينة يوماً في مجلس سادتها.. لما غنتهم وسقتهم التفتت إلى أول الجلاّس فسألته: (أما لك ضيعة، فلما أجابها بأنه سمسار طلبت منه أن يهدي إزاراً لأبي فلان لأنه محتاج إليه، ثم التفتت إلى ثان وسألته فأجابها بأنه عطار، فطلبت منه أن يزودها بالأدهان والقسط[2] والأظفار[3]، وإذا (بابن أحمر) ينبري لها بقوله: إنه حفار مستعد لحفر قبرها، فإذا احتاجته إلى ذلك فلتبعث إليه بمقدار ليعرف سعة قبرها..

فخجلت وطأطأت رأسها. قال[4]:

زار ابن أحمر ذات يوم قينة ... في فتية لهم ندى ووقار
حتى إذا غنتهم وسقتهم ... وتجاوبت في كفها الأوتار
قالت لأولهم أما لك ضيعة ... فأجابها إني فتى سمسار
قالت فاهد لنا إزاراً معلماً ... فأبو فلان ما عليه إزار
ثم انثنت لسؤال آخر منهم ... أصدق فقال مجيبها: عطار
قالت فليس يهمّنا ما زرتنا ... أدهاننا والقسط والأظفار
وإذا ابن أحمر قد أعدّ جوابها ... جدر السؤال كأنه قسطار
ثم انثنت لسؤاله فأجابها ... لا شوق لي لكنني حفّار
فإذا هممت بحفر قبرك فابعثي ... بقضيّب كي أعرف المقدار
فتلجلجت خجلاً وطأطأ رأسُها ... وأصابها عند الجواب حصار
وكذا القيان ولا أقول جماعة ... فالناس في أخلاقهم أطوار

---

(١) الموشى ص١٢٤.
(٢) القسط: عود يتداوى به.
(٣) الأظفار: أقطاع تشبه الأظفار عطرة الرائحة.
(٤) الموشى ص١٢٤ ـ ١٢٥.

وواضح أن الحديث في هاتين القصيدتين عن القيان جاء مفعماً بالتهكم والاستهزاء وبفضحهن بفعالهن بأسلوب سردي يبين علاقة القيان في الاستحواذ على أموالهم وثرواتهم.

وبعد فهذه لمحة سريعة تكشف لنا عن صورة الجواري في الأدب العباسي. نعرف منها أن الجواري كان لهن الفضل الأكبر في نهضة الأدب عامة والشعر بصورة خاصة.. ففيهن قال الشعراء، فوصفوا وأبدعوا وتغزلوا ومجنوا فأرونا ألواناً جديدة من فنون الشعر وعرضوا لنا أبرع المشاهد في انفعالات النفوس ويقظة الوجدان.

وكان للجواري والقيان أثرهن العظيم في تهذيب الأذواق وإرشاد النفوس إلى مواطن الجمال وأسراره وإرهاف الحس في إدراك معالم الترف والأناقة في كل ما يحيط بهم..

وهكذا عاش العباسيون يغترفون من الجمال ما ملأ عصرهم فناً وأدباً وظرفاً حتى كان أزهى العصور الأدبية العربية على الإطلاق.

الفصل الرابع

جمال المرأة وزينتها

جمال المرأة:

تختلف معايير الجمال في المجتمعات من عصر إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى.. ولذلك عوامله ودوافعه الحضارية والاجتماعية والنفسية.

فالمعايير العامة لجمال المرأة في العصرين الجاهلي والإسلامي، كانت عبارة عن مجموعة القيم المتوارثة عن الأسلاف على أنها عناصر للجمال مضافاً إليها ما انتزعوه من محيطهم وما أثرته مجتمعاتهم فيها.

فكان بقر الوحش[(١)] والظباء[(٢)] والعاج[(٣)] والفضة[(٤)] والماء البارد الصافي[(٥)] والشمس[(٦)] والقمر.. وغيرها موارد يقتبسون منها عناصر الجمال[(٧)]، وكانت الكثبان الرملية التي تترجرج للوطء الخفيف، ولهبات الريح الخفيفة مظهراً من مظاهر الجمال يشبهون به أوراك حبيباتهم[(٨)].

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٦٢.

(٢) شرح القصائد العشر، ص٨٤، ١٦٦.

(٣) شرح القصائد العشر (معلقة عمرو بن كلثوم) ص١٣٩.

(٤) ديوان الأعشى، القصيدة ٧٧.

(٥) ديوان الحماسة ج٢ ق٣، وديوان عمر بن أبي ربيعة ص٤٣٥، والجمان في تشبيهات القرآن ص١٢٦.

(٦) المفضليات ج١ ص٣٣.

(٧) المرأة في الشعر الجاهلي (الهاشمي) ص٩١.

(٨) جمال المرأة عند العرب ص٢٦ وديوان امرىء القيس ص٣٦.

وكانت الصفات المستملحة المستحبة في الغالب واضحة تتمثل بالبياض[1] والطول[2] والسمنة[3] غير المفرطة، وسواد الشعر[4] وسعة العينين وغيرها.

أما في العصر العباسي فقد ازدهرت الحضارة، وعمت المدنية أرجاء المجتمع الحضري بصورة خاصة، فتغير الكثير من معايير جمال المرأة في نظر الرجل، فصار أغلب الناس يزدرون المعايير السابقة، ولا يقتصرون على تشبيه المرأة بالمهاة والظبية والشمس والقمر والمصباح، ومنهم من لا يرى وجهاً لذلك، إذ لا يرونها قادرة على التعبير عن جمال المرأة، لأن الجمال في نظرهم أبعد غوراً وأوسع أفقاً، وأروع من ذلك كله.. قال الجاحظ[5]:

وقد تعلم أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من البقرة، وأحسن من الظبية، وأحسن من كل شيء شبهت به، كذلك قولهم: كأنها القمر، كأنها الشمس، فالشمس وإن كانت حسنة، فهي شيء واحد، وفي وجه الإنسان الجميل وفي خلقه ضروب من الحسن الغريب، والتركيب العجيب، ومن يشك أن عين الإنسان أحسن من عين الظبي والبقرة وأن الأمر بينهما متفاوت؟

وهكذا رأينا الشعراء يجدون في وجه المرأة الجميلة ضروباً من الحسن، فتهافتوا على محاسنها يصفونها بما أوتوا من إبداع، ويجسدون ألوان الجمال فيها، ويضفون عليها من السحر ألواناً يستنفدون في

---

(١) معلقة امرىء القيس ديوانه ص١٣٠ .

(٢) ديوان النابغة ص٦٣.

(٣) جمال المرأة عند العرب ص٢٦، ٣٤.

(٤) شرح القصائد العشر ص٨٤ وديوان امرىء القيس ص١٣٠، ١٠٤.

(٥) الجاحظ: مفاخرة الجواري والغلمان، ص٤٤ وجمال المرأة عند العرب، ص٣٦.

وجهها وقدها، وضحكتها، وحركتها آيات الفن والجمال.. وكلما أوغلوا في وصفها تجلت لهم عن ألوان جديدة.. فكأن الجمال لا ينتهي.. ذلك أن عيونهم النفاذة وحسهم المرهف، وذوقهم الفني.. لا تفتأ تطمح أبداً إلى الاستزادة لاستجلاء المفاتن، وإبداء المحاسن. قال أبو نواس في مثل ذلك:

وذات خـــد مـــــورد فـــتّـــانـــة الـــمـــتـــجـــرد
تـــأمّـــل الـــعـــيـــن فـــيـــهـــا مـــحـــاســـنـــاً لـــيـــس تـــنـــفـــد
الـــحـــســـن فـــي كـــل جـــزء مـــنـــهـــا مـــعـــاد مـــردد
فـــبـــعـــضـــه فـــي انـــتـــهـــاء وبـــعـــضـــه يـــتـــولّـــد
وكـــلـــمـــا عـــدت فـــيـــه يـــكـــون بـــالـــعـــود أحـــمـــد[1]

وقال الوأواء الدمشقي مشيراً إلى تنزهه في وجه الحبيبة:

فـتـأمـلـت وجـهـه فـتـنـزهـ ـت بـه فـي حـدائـق الأزهـار
وتـعـجّـلـت جـنـة الـخـلـد لـمـا صحّ عـزمـي عـلى دخـول الـنـار[2]

وقال ابن الرومي[3]:

لا شـيء إلا وفـيـه أحـسـنـه فـالـعـيـن مـنـه إلـيـه تـنـتـقـل
فـوائـد الـعـيـن مـنـه طـارفـة كـأنـمـا أخـريـاتـهـا الأول

وقال أيضاً مبدياً إيمانه بتجدد الجمال وخلوده[4]:

لـيـت شـعـري إذا أدام إلـيـهـا كـرة الـطـرف مـبـدىء ومـعـيـد

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٣٢، وأخبار أبي نواس ص٨٩، مع اختلاف.

(٢) ديوان الوأواء الدمشقي ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) ديوان ابن الرومي ١/١٨.

(٤) نفسه ص١٠٠.

أهي شيء لا تسأم العين منه | أم لها كل ساعة تجديد
بل هي العيش لا يزال متى | استعرض يملي غرائباً ويفيد
منظر مسمع معان من اللهو | عتاد لما يحب عتيد

ورغم ذلك فقد جعلوا للمرأة في العصر العباسي معايير معينة للجمال المادي، . . فقد صدفوا عن النساء السمينات، وفضلوا عليهن المتناسقات الأعضاء الكاسيات العظام.

وقال أبو الفرج بن الجوزي[١] في حديثه عما يفضله البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد، أنهم كانوا يقدمون المجدولة التي بين السمينة والممشوقة، ولا بد أن تكون كاسية العظام، ولذلك قالوا: (خمصانة) و (سيفانة) و (كأنها جان) و (كأنها جدل عنان) و (كأنها قضيب خيزران)[٢].

ومعنى هذا أن الذوق العام قد تحول عن شبيهات عائشة بنت طلحة والثريا وعبدة، ومال إلى المتناسقات الأعضاء الكاسيات العظام اللواتي لا سمنة في أجسامهن ولا ترهل.

ويوضح الدكتور صلاح الدين المنجد[٣] الفروق التي طرأت على الأنموذج الإسلامي بما يلي:

١ ـ صدفوا عن النساء السمينات وفضلوا المجدولات، وقولهم مجدولة: يريدون جودة العصب وقلة الاسترخاء[٤]، قال بشار مشبهاً عظام من يصفها بالخيزران:

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي: كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. مات سنة سبع وتسعين وخمسمائة هـ.

(٢) مفاخرة الجواري والغلمان، ص٥٠.

(٣) جمال المرأة عند العرب ص٣٦.

(٤) مفاخرة الجواري والغلمان ص٥٠.

ودعجاء المحاجر من معدّ كأن حديثها ثمرة الجنان
إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران[(١)]

وقال الصنوبري[(٢)] واصفاً جمال القوام ورشاقة القد وجمال المشي:

فهو يخفي تحت الغلائل غصناً وهو يبدي فوق الغلائل بدرا
لبق في الرداء يرفع شطراً حين يمشي به ويسحب شطرا

٢ ـ أعرضوا عن البطون ذات العكن[(٣)] وهي من مستلزمات السمنة وفضلوا الضامرات البطون. قال أبو نواس[(٤)]:

ذات حسن تسجي بأردافها الإز ر وتطوي في قمصها الأحشاء
قد طوى بطنها على سعة العيش ضمور في حقوها[(٥)] وانطواء

٣ ـ صدفوا عن النهود الضخمة الكبيرة[(٦)] وفضلوا النهود الكواعب. وقد أبان عليّ بن الجهم عن القدر الذي ينبغي أن يكون عليه الثدي، فقال:

يملأ الكف ولا يفضله وإذا أثنيته لا ينثني[(٧)]

---

(١) ديوان بشار، ٤/١٩٨.

(٢) ديوان الصنوبري، ص٢٤.

(٣) العكن: العكن والأعطان: الإطواء في البطن من السمن (اللسان/ عكن).

(٤) ديوان أبي نواس، ص٢٨٦.

(٥) الحقو: الخصر.

(٦) كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب: (اخطب على عبدالملك بن الحجاج امرأة جميلة من بعيد مليحة من قريب، شريفة في قومها ذليلة في نفسها، أمّاً لبعلها). فكتب إليه يقول: (قد أصبتها لولا عظم ثدييها) فكتب إليه الحجاج: (لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها) العقد الفريد ح٦ ص١٠٧، البيان والتبيين ج٤ ص٨، عيون الأخبار ج٤ ص٣ .

(٧) ديوان علي بن الجهم، ص١٨٨ وديوان المعاني حـ١ ص٢٥٣.

وقال علي بن جبلة المعروف بالعكوك في وصف محاسن المرأة في وصف شعرها ذي الغدائر الفاحمة الجعدة، ووجهها الأبيض بياض الصبح الذي تجلى جماله حينما قرن إلى سواد شعرها، وفي وصف جبينها الوضاح الأبيض، وحاجبها الدقيق الأزج الممتد وزندها البض وبنانها الرخص. . والحقين اللذين في صدرها وبطنها المطوي كما تطوى ملس الرياط، وخصرها الأهيف الرقيق، وساقها المنعمة التي يسدها طوق الحجل، وكعبها الأدرم الذي لا يبين له حجم وقدميها الصغيرتين اللينتين[(١)]:

ويـزيـن فـوديـهـا إذا حـسـرت ... صـافـي الـغـدائـر فـاحـم جـعـد
فـالـوجـه مـثـل الـصـبـح مـبـيـض ... والـشـعـر مـثـل الـلـيـل مـسـودّ
وجـبـيـنـهـا صـلـت[(٢)] وحـاجـبـهـا ... شـحـت[(٣)] الـمـحـط أزجّ مـمـتـد
والـمـعـصـمـان فـمـا يـرى لـهـمـا ... مـن نـعـمـة وبـضـاضـة زنـد
ولـهـا بـنـان لـو أردت لـه ... عـقـداً بـكـفـك أمـكـن الـعـقـد
وبـصـدرهـا حـقـان خـلـتـهـمـا ... كـافـورتـيـن عـلاهـمـا نـد
والـبـطـن مـطـويٌّ كـمـا طـويـت ... مـلـس الـريـاط تـزيـنـهـا الـمـلـد
وبـخـصـرهـا هـيـف يـحـسّـنـهـا ... فـإذا تـنـوء يـكـاد يـنـقـد
والـسـاق خـرعـبـة[(٤)] مـنـعـمـة ... عـبـلـت فـطـوق الـحـجـل مـنـسـد
والـكـعـب أدرم[(٥)] لا يـبـيـن لـه ... حـجـم ولـيـس لـرأسـه حـد

---

(١) شعر علي بن جبلة العكوك، ص١٠٩.

(٢) الصلت: الأملس الأبيض الواضح، يقال: صلت الجبين (اللسان/ صلت).

(٣) الشحت: قد يكون صوابه الشخت، والشخت: الدقيق (اللسان: شخت).

(٤) خرعبة: امرأة خرعبة، وخرعوبة: رقيقة العظم كثيرة اللحم ناعمة، الأصمعي الخرعبة: الجارية اللينة القصب، الطويلة (اللسان/ خرعب).

(٥) الدرم في الكعب: أن يوازيه اللحم حتى لا يكون له حجم (اللسان/ درم).

ومشت على قدمين خصرتا وأليـنتا فتكامل القد

وقد كثر القول في الصفات الجسمية المراد توفرها في الجارية ليتم لها الجمال. ووضعت لها رسائل توضح ما يجب أن يلحظه مشتري الجارية لئلا تجوز عليه الحيل في تغطية عيوبها وإظهار صفاتها بالشكل الذي يتفق بلا شك مع المعايير العامة للجمال في ذلك العصر. قال ابن بطلان في رسالته[1]:

(كن على حذر من شرى الرقيق في المواسم، ففي مثل تلك الأسواق يتم للنخاسين الحيل، فكم من قطيفة بيعت بخصبة وسمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وممسوح العجز بثقل الروادف، وبطين بمجدول الحشا، وأبخر الفم بطيب النكهة، وكم صفروا البياض الحادث عن القروح في العين والبرص والبهق في الجلد، وجعلوا العين الزرقاء كحلاء، وكم من مرة حمروا الخدود المصفرة، وسمنوا الوجوه المقعقعة، وكبروا الفقاح الهزيلة، وأعدموا الخدود شعر اللحى وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة، وبيضوا الوجوه المسمرة، ودملجوا السيقان المعرقة ورطلوا الشعور المموهة، وأذهبوا آثار الجدري والوشم والنمش والحكة).

نستخلص مما سبق أنهم كانوا يستملحون البياض أو الصفرة وسواد الشعر وتجعيده وسواد العينين ورشاقة القوام وجدل الحشا وضمور الخصر وثقل الروادف.

ونتبين من رسالة ابن بطلان أنهم كانوا يحتالون على تغيير الصفات وتمويهها فهم كما يبدو لا يحبون العيون الزرقاء ويخفون زرقتها فيجعلونها كحلاء، وكانوا يتطيرون من رزقة العيون وينسبون إليها الشر

(١) رسالة جامعة ص٣٥٦.

والخبث، وفي كتب الأدب أقوال تشير إلى هذا. ولعل سبب هذا أن العرب كانوا في صراع مستمر وحروب مستعرة ضد الروم والترك وغيرهم من الشعوب الشقر.

ويؤيد هذا قول السري الرفاء[1] مشيراً إلى اعتبار زرقة العينين شيناً:

وقالوا بمقلته زرقة تشين فظل لها مطرقا
وهل يقطع السيف يوم الوغى إذا لم يكن متنه أزرقا

وقال آخر[2] في المعنى ذاته:

يقولون نصرانية أم خالد فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تك نصرانية أم خالد فقد صورت في صورة لا تشينها
أحبك إن قالوا بعينيك زرقة كذاك عتاق الطير زرق عيونها

كما أنهم لا يحبون من الشعور إلا الفاحم الجعد. (وسنفصل هذا في الحديث عن الشعر) وذلك ما أشارت إليه رسالة ابن بطلان حيث قال: (وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة).

أما نظرة الأعراب إلى الجمال فكانت شبيهة إلى حد بعيد بالأنموذج الجاهلي أو الإسلامي.. قيل إن خالد بن صفوان قال يوماً: خير النساء التي خمص بطنها وعظُمت عجيزتها وملأت حضن معانقها، فسمعه أعرابي كان بحضرته فأنشد:

عليك أبا صفوان إن كنت ناكحاً فتاة أناس ذات ثوب ومئزر
لها كفل واف وبطن معكن وأخشم ثل الصعب غير منوّر

(١) يتيمة الدهر حـ١ ص٢٩٧، ونسب البيتان إلى الوأواء الدمشقي في ديوانه ص١٧٠. وديوان السري الرفاء/ ١٩٣.

(٢) عيون الأخبار م٤ ص٥٨.

ولم تقتصر العناصر الجمالية ومعاييرها في العصر العباسي على المظاهر الجسمية فقط، وإنما أضافوا إليها مقاييس أخرى، وزاد الاهتمام بمحاسن المرأة الروحية كخفة الروح ودقة الفطنة وسحر الحديث ورهافة الحس وحلاوة النكتة وبراعة الجواب وحسن النادرة وظرف اللسان وقوة البيان والبراعة في الشعر.

فهذا ابن سلام يذكر في طبقات الشعراء الأوصاف المستحبة في الرقيق، فيقول[1]: (وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشعر فتكون هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار، وترى أخرى بألف دينار وأكثر لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة).

قال ابن الرومي يصف حديث امرأة[2]:

وحديثها السحر الحلال لو انه ... لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ... ودّ المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونزهة ما مثلها ... للمطمئن وعقلة المستوفز

وعن الأصفهاني قال[3]:

(كتب رجل إلى محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وكان كريماً سخياً يلقب فتى العسكر يستهديه جارية رقعة فيها:

(حفظك الله وحفظ النعمة عليك، إن بين كل أمر يطالبه الرجل وبين المطلوب إليه ذريعة يتوسل بها إلى معروفه، ولي بارتجائك درجة توجب قضى الحقوق، وحاجتي أبقاك الله ـ ظريفة من الجواري، لم

---

(١) طبقات الشعراء، المقدمة.

(٢) ديوان ابن الرومي حـ٣ ص٤٠٩.

(٣) ينظر التحف والهدايا للخالديين ص١٠١.

تتداولها أيدي التجار، ولم تمتهنها خدمة الموالي ولي فيها شريطة أعرضها عليك وأذكرها لك لترى رأيك فيها.

وهي أنه كان يقال: إذا اتخذت جارية فاستجد شعرها فإن الشعر أحد الوجهين، وتكون رائعة البياض تامة القوام، فإنه أول ما تستجلب به المرأة المودة وتعتقد الحظوة، وتكون جيداء العنق، غيداء الليت[١]، كحلاء العين، لها طرف أدعج وحاجب أزج، موردة الخدين سهلتهما، واضحة الجبين، قنواء الأنف، حماء الشفتين، مفلجة[٢] الثنايا، مشرقة النحر، ولست أكره الانكسار في الثديين لأنه ليس للنهود عندي إلا لذة المنظر، وهي أيضاً تحول بين المعانق وبين إرادته، وليست من قول الشاعر[٣]:

مال الوشاح على قضيب زانه   رمان صدر ليس يقطف ناهد

وأكره العجيزة الضخمة، ولا أحب الرسحاء[٤]، بل أريدها وسطاً لأن خير الأمور أوساطها).

ثم يقول: (وأريدها رخيمة الصوت، شهية النغمة عذبة الألفاظ بها غنة الحداثة وبحة الاحتلام، أشجى حلقاً من الغريض[٥] وأنغم كلاماً في الأذان من نغم مخارق[٦]، وأثبت حجة من (أبي الهذيل العلاف) وأبين معنى من النظام[٧]. ظريفة المجون، حسنة الوقار، إن أردتها دنت

---

(١) الليت: بالكسر: صفحة العنق (اللسان: ليت).

(٢) مفلجة: متباعدة الأسنان وكانت صفة مستحبة عندهم. (اللسان: فلج).

(٣) الشاعر هو العباس بن الأحنف (ديوانه ص٨٢).

(٤) الرسحاء: الرسح: خفة الإليتين ولصوقهما أو قلة لحم العجز. (اللسان: رسح).

(٥) الغريض: المغني الحجازي المشهور في القرن الأول.

(٦) مخارق: من كبار المغنين في عصر الرشيد والمأمون.

(٧) النظام: من رجال علم الكلام.

وإن كرهتها نأت، أطوع من الرداء، وأذل من الحذاء.

وقدرك ـ أيدك الله ـ يحتمل اقتراحي عليك، وشكري لك يستوجب ما سألته منك، وأنا بالإسعاف جدير، وأنت بالأفضال ممتن والسلام).

فأجابه محمد بن منصور: (سألت ـ أعزك الله ـ عن هذه الصفة، وطلبت هذا النعت فأعيتني في الدنيا وما أراني أجدها في الآخرة، وقد بعثت إليك ألف دينار، لتلتمسها أنت، وتسأل إخوانك معاونتك على ذلك فمتى وجدتها أو وجدها لك أحد دفعت الدنانير إليه عربون الدلالة وعرفتني مقدار الثمن حتى أنفذه إليك)[1].

زينة المرأة في العصر العباسي:

التجمل:

ولم تقف المرأة على امتداد العصور عند سمات الجمال التي وسمت بها، وإنما سعت إلى الوسائل المختلفة للتجمل والتبرج، وهي طبيعة قد نجد مبررها عند المرأة في كثير من المجتمعات أكثر منها عند الرجل..

وكانت المرأة تسعى إلى التجمل في الجاهلية والإسلام، وهناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم[2] والشعر الجاهلي[3] والإسلامي[4]، تدل على أن المرأة كانت تمارس وسائل مختلفة لإظهار مفاتنها وزيادة

---

(١) التحف والهدايا ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

وسورة النور، الآية: ٣١.

(٣) شرح المعلقات العشر معلقة زهير ص١١٢، وشرح ديوان امرىء القيس، ص١١٥، وص٤٣ ومعلقة طرفة ص١٠٤.

(٤) الأغاني حـ٧ ص٥٩ وحـ١٦ ص٩٤، وأخبار النساء لابن قيم، ص١٠٤.

محاسنها كالوشم والخضاب والتكحل والتزجيج والتعطر، وكالتفنن في تصفيف الشعور وزركشة الملابس ولبس الحلي.

ومما لا شك فيه أن العصر العباسي كان عصر الترف والثروة والحضارة والذوق والفن والأدب والتأنق والجمال.. وقد بدت آثار هذه السمات في جميع الظواهر الاجتماعية، كالمسكن والمأكل والمشرب والملبس..

والمرأة جزء من ذلك المجتمع، بل هي الجزء الذي كانت تصبو إليه القلوب وتهفو له النفوس وتريده رقيقاً حلواً عبقاً يثير السحر واللطف حيثما حل.

ومصداق ذلك قوله الجاحظ: (والفلك وما تحويه أقطار الأرض وكل ما تقله أكنافها للإنسان خول ومتاع إلى حين، إلا أن أقرب ما سخر له من روحه، وألطفه عند نفسه، الأنثى، فإنها خلقت له ليسكن إليها وجعلت بينه وبينها مودة ورحمة)[1].

ورأينا المرأة في العصر العباسي تبالغ في الأناقة وتتفنن في التزين، وتأتي من ذلك بضروب ربما لم تكن قد خطرت للمرأة في المجتمعات السابقة على بال.

وقد صور الأدب العباسي شعره ونثره «تجمل المرأة وزينتها» وسنعرض لأهم ما جاء في هذا المجال.

الشعر:

وقد استجادوا الشعر الأسود الغزير شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من جاهليين وإسلاميين، ويبدو أنهم لم يتذوقوا الجمال في

---

(١) رسالة القيان للجاحظ ص٥٦.

الشعور الذهبية. ولهذا رأينا النخاسين في رسالة ابن بطلان (يكسبون الشعور الشقر حالك السواد ويجعدون الشعور السبطة)[1].

قال ابن الرومي في وصف فتاة:

غيداء من ماء الشباب الأغيد كأنما ترنو بعيني فرقد[2]
تضرب متنيها بوحف أسود دافعتها فما اتقتني باليد

ويبدو أن النساء كن يتفنن في تصفيف شعورهن وتسريحها وتزيينها وتعطيرها.

فقد يجعلن غدائر جعدة كالذي وصفه الشاعر علي بن جبلة العكوك حيث قال[3]:

ويزين فوديها إذا حسرت صافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيضّ والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

أو كقول الصنوبري في وصف الشعر الطويل الفاحم السواد:

جارية شعرها ملاحفها تعجز عن حمله وصائفها
تنال أطرافه إذا سقطت في المشي ما لم تنل مطارفها
مفترق الشمل ها هنا وهنا قد فرّقت شمله روادفها
لليل فجر يسرّ منظره وليلها فجره سوالفها[4]

وقد يترك الشعر مسدولاً من الخلف وترصف الأصداغ بعناية ودقة

---

(١) رسالة ابن بطلان ص٣٥٦.

(٢) ديوان ابن الرومي: ٤٠٨/٢.

(٣) شعر علي بن جبلة العكوك ص١٠٩.

(٤) ديوان الصنوبري ص٣٨٦.

كقول أبي نواس[1]:

بنفسي من يعذبني هواه كذاك وليس لي أمل سواه
يتيه على العباد بحسن وجه وشعر قد أطيل على قفاه
وأصداغ يرصفها أميري على خد تلالأ وجنتاه
براه الله من ذهب ودر فأحسن خلقه لما براه

وقد كثر القول في الأصداغ وهيئة تصفيفها وربما كانت ظاهرة جديدة في تصفيف الشعر، فمن ذلك قول الصنوبري[2]:

بتعصفر الخدّ المعصفر بتكسّر الصّدغ المكسّر

أو كقول الشاعر[3]:

صدغ على خده أبكاني وردّ لي همّي وأحزاني
كأنما قوّمه صائغ وخطّه كاتب ديوان

كما تفنن الشعراء في تشبيهها فهي مرة تشبه العقارب كقول ابن المعتز[4]:

مكحولة ألحاظه بسحر في خده عقارب لا تسري

أو كقول أبي نواس في وصف شعر جارية:

يدور بها ساق أغن ترى له على مستدار الأذن صدغاً معقربا[5]

أو قوله:

---

(١) ديوان أبي نواس ص٣٤٩.

(٢) ديوان الصنوبري ص٢١.

(٣) أدب الكتاب ص٦٠.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء ص١٩٢ وأدب الكتاب ص٦٠.

(٥) ديوان أبي نواس ص٨٧.

معقرب الرأس كالمسراج صنعته   سحر وما مسّه تعقيد سحّار[1]

وقال علي بن الجهم واصفاً سواد الشعر وعقربة الصدغين[2]:

في الرأس منها نبت جثل فاحم   وأنامل في اللين منها تعقد
ومعقرب الصدغين يشكو طرفه   مرض الذي حنّت عليه العوّد

وقد يشبهون الأصداغ بالنون المعجمة بالخال، كقول ابن المعتز[3]:

غلالة خده ورد جني   ونون الصدغ معجمة بخال

أو كقوله الصنوبري[4]:

لها من الصدغين نونان قد   أجاد من خطهما خطه
إحداهما بالخال منقوطة   تقرأ والأخرى بلا نقطه

أو يشبهونها بالقاف كقول ابن المعتز[5]:

بكف غزال ذي عذار وطرة   وصدغين كالقافين في طرفي سطر

وقوله وقد شبهها بالحلق السود التي نظمت فوق صفحة العاج:

وطاف بالدن ساق وجهه قمر   فشكّه بسريع الحدّ مسنون
ذو طرة نظمت في عاج جبهته   من شعره حلقاً سود الزرافين[6]

ويعرض ابن المعتز للون آخر من تصفيف الشعر فيصف لنا

---

(١) ديوان أبي نواس ص٨٧.

(٢) ديوان علي بن الجهم ص٨٦.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص١٩٢، وأدب الكتاب ص٦٠.

(٤) ديوان الصنوبري ص٢١.

(٥) التزين والحلي ص٤٩.

(٦) أشعار أولاد الخلفاء ص٢٠٥.

الخصال المنسدلة المستدقة ويشبهها بأذناب الأفاعي أو إبر القرون، فيقول:

قد أطلعت إبر القرون كأنها   أخذ المراود من سحيق الإثمد[1]

وبلغ من تفنن المرأة بشعرها وعنايتها به أنها كانت تزينه بالسلاسل والحلي المختلفة:

تغمّس في العبير قمصها   حتى شكا الغرقا
وسالت من عقيصتها   سلاسل كسّرت حلقا[2]

أو كقول بشار بن برد[3]:

وعلى الترائب درّة   فيها الزبرجد والفريد
ونقارس قد زانها   حلق غدائرها تصيد

وظهر في العصر العباسي نوع آخر من تصفيف الشعر، يبدو أن الرقيق هم الذين ابتدعوه وهو قص الشعر أو (طمه)، وقد شاع هذا النوع بين الجواري بصورة خاصة.

قال أبو نواس[4]:

ومطمومة لم تتصل بذؤابة   ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق

وقال[5]:

وناهدة الثديين من خدم القصر   مزرفنة الأصداغ مطمومة الشعر

---

(١) ديوان ابن المعتز ص١٥٩.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٧٨ وديوان المعاني حـ١ ص٢٤٥.
(٣) ديوان بشار حـ٢ ص٢١٥.
(٤) ديوان أبي نواس ص٢٥٨.
(٥) أخبار أبي نواس ص٣٠ ـ ٣١ وألحان الحان ص٣٠٤.

غـلامـيـة فـي زيـهـا بـرمـكـيـة   مناطقها قد غبن في رقة الخصر

وربما كانت هذه التسريحة خاصة (بالغلاميات) من الجواري تشبهاً بهم في قص الشعور. . وسنرى في مجال الحديث عن الملابس أن الجواري الغلاميات تشبهن بالغلمان في لباسهم أيضاً، ومما يؤكد أن قص الشعر كان (للغلاميات)، قول عكاشة يصف شعر إحداهن:

مطمومة الشعر في قمص مزررة   في زي ذي ذكر سيماه سيماها[1]

ولهذا وجدنا ريطة بنت العباس بن علي زوجة المتوكل ترفض أن تطم شعرها وتأبى على المتوكل طلبه إليها، رغم أنه كان قد هددها إنْ لم تفعل بالفراق. . . فاختارت الفرقة على أن تطم شعرها. . وطلقها[2]!. .

وقد تعقص المرأة شعرها كما قال علي بن الجهم:

فـمـنـهـن عـاقـصـة شـعـرهـا   ومـصـلـحـة عـقـد زنـارهـا[3]

أو تجمع ذوائبها بوقاية، ربما طرزتها بالذهب والدر أو زينتها ببعض الأبيات الشعرية المنقوشة بالحرير أو غيره. ويذكر لنا الوشاء[4] أن شادن جارية خنث قيمة جواري المأمون كتبت على وقاية تجمع بها ذوائبها:

بيضاء تسحب من قيام فرعها   وتغيب فيه وهو جثل أسحم
فكأنها فيه نهار مشرق   وكأنه ليل عليها مظلم

وكانت الموسرات من الحرائر والجواري يطيبن شعورهن بأنواع

(١) مفاخرة الجواري والغلمان ص١٦.

(٢) المحاسن والأضداد ص١٨٦.

(٣) ديوان علي بن الجهم ص٣٠ وعيون الأخبار حـ١ ص٣١٤ مع اختلاف.

(٤) الموشى حـ٢ ص٢٢٣.

الطيب، أو قد يغسلنه بالمسك والعنبر أو البان.

جاء في كتاب الأغاني[1] أن ابن المعتز قال: (وحدثني أبو العباس بن الفرات قال: قالت لي تحفة جارية عريب: كانت عريب تجد في رأسها برداً فكانت تغلف شعرها مكان العلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً، وتغسله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته أعادته، وتقتسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير، وما تسرحه منه بالميزان..).

وأشار أبو نواس إلى أن الجارية نبت كانت تغسل شعرها بالبان في قوله[2]:

أما نبات فقد أضحت مخضبة والشعر مفترق بالبان مغسول

وهكذا رأينا المرأة في العصر العباسي تتفنن في تصفيف شعرها وتطييبه وصبغه وعقصه بمختلف أنواع الوقايات المزركشة المنقوشة بالحرير أو الذهب أو الجوهر، وربما زينته بالأمشاط أو التيجان الذهبية المرصعة بالدر والأحجار المختلفة.

ولا أظن أن المرأة في العصر العباسي قد تخلفت عنها في عصرنا في أفانين التسريحات الرائعة التي تدل على الأناقة والذوق والبراعة في إسباغ الجمال وتجسيده..

الملابس:

ولما كان العصر العباسي عصر حضارة وترف، فمما لا شك فيه أن يلحق الملابس الشيء الكثير من التفنن والتجديد، وأن تتسم بالذوق والأناقة والبذخ.. وقد بولغ في اختيار أنواعها وألوانها، وفي تزيينها وتطريزها بالدر والذهب واللؤلؤ وغيرها، وصاروا يأتون بالأقمشة

---

(١) الأغاني ج ٢١ ص٨٨.

(٢) ديوان أبي نواس ص٣٠٩.

الثمينة النادرة والأردية الرشيدية والطبرية والنيسابورية والخراسانية[1]، ويلبسون الألوان المختلفة الزاهية..

وجعلوا اللباس مظهراً لتمييز طبقة عن طبقة وصنف عن صنف وجنس عن جنس، فجعلوا للرجال ألواناً معينة وللنساء غيرها مما تعارفوا عليه، فقالوا: (إن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللائي يتزين للرجال ثم العبيد والخول[2] وإن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه)[3].

ويؤيد هذا ما ذكره الوشاء[4] (وليس يستحسن لبس الثياب الشمعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران مثل الملحم[5] الأصفر والدبيقي[6] المعنبر، لأن ذلك من لبس النساء ولبس القينات)...

واختلفت ألوان ملابس النساء تبعاً للمناسبات وللمركز الاجتماعي لكل منهن فالمتظرفات ـ الطبقة الراقية ـ لا يلبسن من الثياب ما كان مصبوغاً فلا يلبسن الأصفر والأسود والمورد والأخضر والأحمر إلا ما كان جنسه التزريق والخضرة والتوريد والحمرة يتخذنه من اللاذ والحرير والديباج والقز والخز والوشي، فما كان اللون من أصله غير مكتسب، وكان اللون الأسود دليل الترمل والحداد، وكذلك اللون الأزرق، فقد كانت الأرامل يلبسن الأسود والأزرق في حين كان اللون الأحمر آية الفرح والطرب والسرور، وكن يخترن منه ما راقهن لأن الشديد الحمرة

---

(١) الموشى للوشاء ص١٦٣.

(٢) الخول: العبيد والإماء وغيرهم (اللسان: خول).

(٣) البيان والتبيين حـ٣ ص٩٦، وتهذيب الأخلاق ص٤٩.

(٤) الموشى: ٢/ ١٦١.

(٥) الملحم: نوع من الثياب.

(٦) الدبيقي: نوع من الثياب.

والتوريد من لبس النساء النبطيات والإماء.

أما البياض فكان لبس المهجورات، وربما لبسنه للتسلب والحزن. فقد ذكروا أن[1] وصيفاً لما أمر بإحضار جواري المتوكل بعد قتله حضرن وعليهن الثياب الملونة والمذهبة والحلي وقد تزين وتعطرن إلا محبوبة فقد جاءت متسلبة عليها ثياب بيض غير فاخرة حزناً على المتوكل، إلا أنه ربما كانت الساقيات في الأديرة يلبسن البياض ولا يرين فيه مظهراً من مظاهر التسلب والحزن، فقد وصف ابن المعتز فتاة ساقية في دير تمشي ساحبة وراءها ذيول ثيابها البيض فقال[2]:

جرّت ذيول الثياب البيض حين مشت   كالشمس مسبلة أذيال لألاء

وقد وردت في الشعر إشارات كثيرة إلى تلوين ملابس النساء وتصبيغها وجاء في الشعر العباسي الكثير من الشواهد التي تدل على ولع النساء بالملابس الملونة، وهم يعتبرون ذلك من أهم وسائل الزينة وخاصة في المناسبات التي تحسن بها الزينة، حتى لقد ذكر أن الرجال أيضاً كانوا يلبسون الملابس الملونة في ساعات الأنس والتبذل، (فيذكر عن أبي علي بن الرشيد أنه كان يتبذل في دير (مديان) في ثياب مصبغة وهو مضمخ بالخلوق)[3].

وهو من وسائل الإغراء عند النساء تلبسه القيان وغيرهن.

قال ابن المعتز في مغنية[4]:

وقمرية الأصوات حمر ثيابها   تهين ثياب الوشي جراً وتسحابا

وقال في وصف جارية وأشار إلى تعدد الألوان التي تلبسها وإلى

---

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص٦٦ ـ ٦٧، وأخبار الخلفاء ص١٤٠.

(٢) ديوان ابن المعتز ص١٣.

(٣) الديارات حـ٣ ص٥٩.

(٤) ديوان ابن المعتز ص٣٨.

صفتها في كل لون[1]:

بيضاء إن لبست بياضاً خلتها   كالياسمين منضّداً في مجلس
وإذا بدت في حمرة فكأنها   ورد من الرازيّ حسناً مكتسي
وإذا بدت في صفرة فكأنها   نسرين بستان كريم المغرس
وإذا بدت في خضرة في صفرة   فكأنها للحسن طاقة نرجس

وقال أعرابي[2] في هجاء مغنية عابته:

يا جعفر يا جعفر يا جعفر   إن أك ربعة فأنت أقصر
أو أك ذا شيب فأنت أكبر   غرّك سربال عليك أحمر
ومقنع من الحرير أصفر   وتحت ذاك سوأة لو تذكر

وقال آخر في امرأة غره منها الخضاب بكفها والكحل في عينيها وغرّته الصفر من ثيابها:

أتوني بها قبل المحاق بليلة   فكان محاقاً كله ذلك الشهر
وما غرني إلاّ خضاب بكفها   وكحل بعينيها وأثوابها الصفر[3]

وكانوا يتفننون في خياطة الملابس وتفصيلها.. فمنها الطويلة التي تسحب على الأرض والتي ذكرها أبو نواس بقوله[4]:

مقرطقة لم يحنها سحب ذيلها   ولا نازعتها الريح فضل البنائق[5]

---

(١) شعر ابن المعتز ٢/٦٠٤.

(٢) رغبة الأمل من كتاب الكامل حـ٢ ص٣١.

(٣) عيون الأخبار م٤ ص٣٢.

(٤) ديوان أبي نواس ص٢٥٨.

(٥) البنائق: قيل إنها رقعة تكون في الثوب كاللبنة وقيل إنها العرى التي تدخل فيها الأزرار، وربما كان القول الثاني أقرب إلى المعنى.

وقوله يذكر السداسي[1] الطويل:

فطب بحديث عن نديم مساعد وساقية سنّ المراهق للحلم
إذا هي قامت والسداسي طالها وبين النحيف الجسم والحسن الجسم[2]

ومنها القصيرة التي تنصف الساق كالإتب[3]، وقد ذكره بشار بقوله[4]:

يوم قامت تتهادى بين إتب وسخاب

أو قوله[5]:

ما على النوم لو تعرّضت فيه فبلوناك في سخاب وإتب

وقوله[6]:

قامت تراءى لي لتقتلني في القرط والخلخال والإتب

وربما كانت الإتب نوعاً من الملابس الداخلية التي تلبسها المرأة في نومها أو في خلوتها.. ومثله الصدار والقرقر والقلقل والمجول والشوذر، وهي كلها عبارة عن قمص متقاربة في الشكل من حيث الطول والعرض وعدم وجود الأكمام فيها[7].

ولقد رغبن في الوشي رغبة شديدة فانتشر بينهن، وكانت زبيدة

---

(١) السداسي: السدوسي: الطيلسان، يقال لك ثوب أخضر سدوسي. (اللسان: سدس).

(٢) ديوان أبي نواس ص٨٧ ومفاخرة الجواري والغلمان ص١٥ وفيه اختلاف.

(٣) الأتب: برد يؤخذ فيشق في وسطه ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير جيب ولا كمين، قال أحمد بن يحيى: هو الأتب والعلقة والصدار والشوذر والجمع الأتوب. (اللسان: أتب).

(٤) ديوان بشار حـ١ ص٢٧٣.

(٥) نفسه ص٢٦٧.

(٦) نفسه ص٢١٤.

(٧) العامة ص١٦٢ عن المخصص لابن سيده (اللباس).

تلبسه دائماً حتى صنع لها من الوشي الرفيع ما بلغ ثمن الثوب منه خمسين ألف دينار[1]، كما استعملته الموسرات من النساء حرائر وإماء.
قال ابن المعتز يصف قينة:

وقمرية الأصوات حمر ثيابها تهين ثياب الوشي جرّاً وتسحابا[2]

وقال:

غصن يهتز في قمر راكضاً للوشي سحّابا

ويمكننا أن نخلص إلى أن ملابس المرأة في العصر العباسي كانت تتمثل بما تلبسه في الرأس من عصائب ومقانع[3] ومعاجر[4] وقلانس[5] وكرزان[6] وبراقع وأزر. أما ملابسها فهي الأردية والغلائل والمجاسد والقراطق والمناطق والبنائق والقمص والأقبية والدراريع والسراويل، وكانت تلبس الخفاف والنعال[7] والجوارب[8] الخز.

ولعل من المفيد أن نورد بعض الأبيات الشعرية التي نصت على هذه الملابس وأوصافها. فمن ذلك قول ابن المعتز في المقانع والأزر:

سقى الله شمساً بالمخرم دارها يهون عليها منّي العتب والهجر
جلتها علينا الريح بين كواعب وقد كتمتهن المقانع والأزر[9]

---

(١) المسعودي حـ٢ ص٣٦٦.
(٢) ديوان ابن المعتز ص٣٨.
(٣) المقانع: المقنعة: التي تغطي بها المرأة رأسها (المخصص ص٣٨).
(٤) المعاجر: أثواب تشدها المرأة على رأسها.
(٥) القلانس: القلنسوة: نوع من ملابس الرأس.
(٦) الكرزان: الكرزان: تاج ملوك فارس وهو مرصع بالذهب والجواهر.
(٧) الموشى للوشاء حـ٢ ص١١٨.
(٨) الموشى للوشاء حـ٢ ص١٦١، وينظر الحضارة الإسلامية حـ٢ ص٢٢٤.
(٩) ديوان ابن المعتز ص٢٢٠.

أو قوله في البراقع:

تأبى العيون النجل إلا نميمة ... بما كتمت من خدهن البراقع[1]

وقال أبو نواس يصف فتاة بالرشاقة:

يا صاح أشكو حلوة العينين جائلة الوشاح[2]

وقال صريع الغواني[3]:

قد أقصدت فؤادي ... خمصانة خريد
بهنانة لعوب ... غرثى الوشاح رود

وقال الصنوبري ذاكراً الغلائل وواصفاً جمال فتاته ورشاقتها وحسن مشيتها:

فهو يخفي تحت الغلائل غصنًا ... وهو يبدي فوق الغلائل بدرا
لبق في الرداء يرفع شطراً ... حين يمشي به ويسحب شطرا[4]

وقال العباس بن الأحنف[5] يصف حسن القوام والرشاقة مشيراً إلى أن وشاحي فتاته أبكاهما الجوع، كناية عن رقة خصرها ورشاقة جسمها:

حتى إذا ما حاولت خطوة ... والصدر بالأرداف مدفوع
بكى وشاحاها ولم يشكيا ... وإنما أبكاهما الجوع

وقال:

---

(١) ديوان ابن المعتز ص٣٠٧.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٣١.
(٣) شرح ديوان صريع الغواني ١٩٤.
(٤) ديوان الصنوبري ص٢٤.
(٥) ديوان العباس بن الأحنف ص١٧٣.

جال الوشاح على قضيب زانه   رمان صدر ليس يقط ناهد[1]

ويذكر ابن المعتز في شعره القراطق والمناطق الذهبية، فيقول[2]:

جاءت إليّ تهادي   عشية شاطرية
في قرطق خصرته   مناطق ذهبية

ويقول في فتاته التي زارته في يوم عيد بقبائها الفاختي اللون[3]:

ما رأت عيني كظبي   زارني في يوم عيد
في قباء فاختي اللو   ن في لبس جديد

على أن من المفيد أن لا نغفل طرازاً من اللباس شاع في العصر العباسي عند طبقة معينة من الجواري هنّ (الغلاميات)، مما بدت صوره في الأدب العباسي، فقد قال ابن الرومي[4] واصفاً فتاة في زي غلام:

رب فتاة حرة المقلد   تختال في زي غلام أمرد
حين بدا للحُلم أو كأنْ قَدِ   ان لا تَمِسْ في مشية التأود
غيداء من ماء الشباب الأغيد   كأنما ترنو بعيني فرقد

وقال الصنوبري[5] في وصف زي فتاة:

غلامية مسبل صدغها   لها وجنة مشبع صبغها
وثغر به مضغت مهجتي   فيا ليتني دام لي مضغها

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص٨٢.
(٢) ديوان ابن المعتز ص٤٦٦.
(٣) نفسه ص١٧٣.
(٤) ديوان ابن الرومي ج ٣ ص٤٠٨.
(٥) ديوان الصنوبري ص٣٦١.

تعاف الطرار وتصميغها وكم طرّة عيبها صمغها

وربما ظهرت الجارية في زي فارس فتقلدت السيف واعتقلت الرمح واتخذت المنطقة على خصرها والقلنسوة فوق رأسها[1].

ومما كتبته إحداهن على قلنسوتها:

تأمل حسن جارية يحار بوصفها القمر
مذكرة مؤنثة فهي أنثى وهي ذكر

وعلى حمائل سيفها:

لم يكفه سيف بعينيه يقتل من شاء بحديه
حتى تردى مرهفاً صارماً فكيف أبقى بين سيفيه
فلو تراه لابساً درعه يخطر فيها بين صفيه
علمت أن السيف من طرفه أقتل من سيف بكفيه

وربما كان هذا الأمر مقبولاً من الجواري (الغلاميات).

إلا أن الغريب أن يروى عن البانوقة بنت المهدي أنها كانت تتزيا بزي الغلمان وتسير إلى جانب أبيها المهدي.

فذكر علي بن محمد عن أبيه، قال[2]:

(رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش، فرأيته يسير والبانوقة بين يديه بينه وبين صاحب الشرطة عليها قباء أسود، متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان).

وازدهر فن التزين في العصر العباسي أي ازدهار، حتى لقد كان في النساء من اختصت به، فكان عند جعفر بن يحيى جارية خاصة تمشط

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ص١٤.

(٢) الطبري ج ٨ ص١٧٦.

شعور جواريه وتزينهن له كل ليلة[1]، ولا نشك في وجود الكثيرات ممن احترفن حرفة التجميل والتزيين، وهي حرفة تروّجها حاجة العصر. وشدة النهم إلى الجمال بكل معانيه وألوانه وبكل فنونه وإبداعاته وقد سبق أن رأينا في رسالة ابن بطلان مهارة وبراعة النخاسين في تغطية العيوب وإبداء المحاسن.

ومن وسائل التزين المعروفة:

الخضاب:

وهو التلوين بحمرة أو صفرة أو غيرهما[2]. وكان الخضاب معروفاً لدى العرب منذ العصر الجاهلي، وقد وردت إشارات كثيرة في الشعر الجاهلي والإسلامي تدل على ذلك[3].

أما في العصر العباسي فقد زادت الحاجة إليه لزيادة الحرص على التجميل، وكان النخاسون يقولون: (ربع درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة)[4].

وقد تردد ذكر الخضاب كثيراً في الشعر العباسي. فمن ذلك قول عمار[5] ذي كبار يصف كفاً مخضوبة وأنامل مصبوغة:

تومي بكف رطبة خضبت وأنامل ينطفن كالعنم[6]

(١) أعلام الناس للإقليدي ص٨١.

(٢) اللسان/ خضب.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٣٤٠، وديوان علقمة ص٤٠ وديوان عمر بن أبي ربيعة ص٥١.

(٤) رسالة جامعة لابن بطلان ص٣٥٦.

(٥) عمار ذو كبار: شاعر نشأ في دولة بني أمية وعاش في دولة بني العباس، وكان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على شأنهم كلهم متهم بالزندقة. عرف بالشعر الظريف المضحك. الأغاني م٢٣ ص٣٦٧ وهو عمار بن عمر بن عبدالأكبر يلقب ذا كبار.

(٦) الأغاني م٢٣ ص٣٨٣.

وقول دعبل[1]:

يا سلم يا ذات الوضح العذاب   وربة المعصم ذي الخضاب

أو قوله:

كأنما كفها إذا اختضبت   مخالب الباز ضرجت بدم[2]

وورد ذكر الحناء على لسان أبي نواس إذ قال:

مقرطق وافر الأرداف ذي خنث   إن ماس في راحتيه وسم حناء

وقال في وصف بنات الجارية:

أما بنات فقد أضحت مخضبة   والشعر مفترق بالبان مغسول
قالت تعللت بالحناء قلت لها   ما بالتطاريف بالحناء تعليل[3]

وتفننت النساء في نقش الحناء في الأكف وفي تشكيل الزخارف والنقوش التي تدل على الفن والذوق.. وقد شبه حمزة بن أبي سلامة الكوفي خط جارية بنقش الحناء في كف عذراء فقال[4]:

جاء خط كأنه عشرات   وسط خط ولم يصله عذار
أو كنقش الحناء في كف عذراء   أباحتك لمحه الأستار

وبلغ من براعة النساء في نقش الحناء أنهن كن يكتبن بمهارة ودقة على راحات الأيادي أو على الأقدام أشعار الحب والغزل فتختار الجواري ما يلائم هواها ويعبر عن عواطفها وما يكون وسيلة لاستمالة القلوب ولفت الأنظار واصطياد المحبين.

---

(١) ديوان دعبل ق١ ص٥٨.
(٢) المصدر نفسه ق١ ص١٨٨.
(٣) ديوان أبي نواس ص٣٠٩.
(٤) أدب الكتاب ص٤٨.

قال الماوردي: رأيت على راحة (قائد) جارية لبعض جواري المأمون اليمنى بالحناء[1]:

فديتك قد جبلت على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا

وعلى اليسرى:

أحبك لا ببعضي بل بكلي وإن لم يبق حبك من حراكا

وكتبت الماهانية على كف جاريتها (شماريخ) بالحناء[2]:

أبى الحب ألا أن يكون معذبا ونيرانه في الصدر ألا تلهبا
فواكبدا حتى متى أنا واقف بباب الهوى ألقى الهوان وأنصبا

وكتبت (ذويت) جارية حمدونه على قدمها اليمنى[3]:

إعلمي يا أحب مني إليا أن شوقي إليك يقضي عليا

وعلى اليسرى:

إن قضى الله لي رجوعاً إليكم لم أعد للفراق ما دمت حيا

وبلغ من ترفهم أنهم استعملوا البسك والعنبر والمسك والغالية للكتابة على الجبين والخد.

وقال الجاحظ[4]: وقرأت على جبين قينة بالعسكر مكتوباً بالغالية والعنبر:

يا قمراً لاح في الظلام عليك من مقلتي السلام

وسيأتي الحديث عن الكتابة على الخد في مجال الحديث عن

---

(١) الموشى للوشاء ص٢٣٨ ج ٢.
(٢) المصدر نفسه ص٢٣٩ ج ٢.
(٣) المصدر نفسه ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٤) المصدر نفسه ٢٤٠.

الخال والتنقيط والكتابة.

ومن وسائل الخضاب الأخرى التي شاع استعمالها في العصر العباسي صبغ الأظافر[1] بمواد مختلفة حمراء اللون كالعلم والشناذر، والعناب وغيرها. ويؤيدنا في ذلك ابن الجوزي إذ يقول:

(إن رجلاً رأى امرأة قد خضبت رؤوس أصابعها وشنذرتها)[2].

وقال الناشيء[3] واصفاً كف جارية ومشبهاً بنانها بالفضة قد طرفت بالعناب:

من كف جارية كأن بنانها ... من فضة قد طرفت عنابا

وقال أيضاً[4]:

لنا قينة ترنو بناظرتين ... بما في قلوب الناس عالمتين
تخال تطاريف الخضاب بكفها ... فصوص عقيق فوق قضب لجين

وكانت النساء يخضبن خدودهن وشفاههن[5] بالحمرة ويطلين وجوههن بالبياض[6]. قال الصنوبري[7] ذاكراً صبغ الخدود المشبع:

غلامية مسبل صدغها ... لها وجنة مشبع صبغها

---

(١) التزين والحلي ص٥٦ الشكل (٢٥) وتبدو في الشكل أظافر يد المرأة وهي طويلة ومدببة ومشبعة بالخضاب وكما تبدو أظافر رجليها مصبوغة أيضاً.

(٢) أخبار الظرف والمتماجنين ص١٠٠.

(٣) ديوان المعاني ج ١ ص٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ومختصر تاريخ العرب، ص٣٨٠.

(٦) التزين والحلي ص٦٣.

(٧) ديوان الصنوبري ص٣٦١.

الخال:

وكان الخال ينبت على خد الحسناء طبيعة أو يوضع اصطناعياً مصدراً مهماً لوحي الكثير من شعر الشعراء. وقد يكون نقطة واحدة أو نقاطاً[(١)] توضع على الخد أو في أي جزء من أجزاء الوجه بمواد ذوات ألوان مختلفة وتزال بعد انتفاء الغاية منها.

وكان اصطناع التنقيط معروفاً قبل العصر العباسي. ويؤيد ذلك قول الشاعر:

ومجامر ومكاحل جعلت ومعازف وبخدها نقط[(٢)]

واستمر كما يبدو في العصر العباسي، وكان يعمل أحياناً بالمسك، قال الشاعر مجد الدين[(٣)]:

آه من ورد على خديك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطان ضعفي مسلط

وقال عبدالله بن المعتز[(٤)]:

نقطت صدغك ذالاً فالويل من شكل ذالك
لو أن ذالك ذالي سجدت من أجل ذلك

وربما توسعوا في التنقيط حتى جعلوه كتابة حروف أو كلمات قيل إن المتوكل حينما دخل مرة على قبيحة ورآها وقد كتبت اسمه (جعفر) على خدها بالغالية فأعجبه سواد الغالية على بياض خدها فطلب إلى

---

(١) التزين والحلي عند المرأة وتلاحظ الأشكال رقم ١، ٢، ٣ ص٢٦، ٢٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ج ٨ ص١٦٦ حوادث سنة ١٠٢.

(٣) هو أبو سعيد تاج الملوك بدري بن أيوب أخو صلاح الدين الأيوبي.

(٤) ديوان ابن المعتز ص٣٥٤ وشعر ابن المعتز ٢/ ٦٢٧.

علي بن الجهم أن يقول شعراً في ذلك وكان جالساً في مجلسه حينذاك وكانت محبوبة الجارية الشاعرة جالسة من وراء الستار تسمع الكلام، فإلى أن دعي لعلي بالدواة والدرج.. وإلى أن فكر بشعر قالت محبوبة على البديهة(١):

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا   بنفس مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطراً بكفها   لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا

قيل.. فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف وأمر المتوكل (عريب) فغنت في هذا الشعر.

أما الخال، فكان زينة مستحبة لدى الرجال أكثروا من ذكرها والتغزل بها فمن ذلك قول ابن المعتز:

آيات حسن بخديه مسطرة   لها من الخال أخماس وأعشار(٢)

وقال(٣):

ونون آذ ريونه   يلوح في ميمنته
وخال حسن حبشي اللون   في ميسرته

وله صور حلوة صوّر الخال بها من ذلك قوله(٤):

له طرة كجناح الغداف   تلوح على غمرة مقمره
وفي عطفة الصدغ خال له   كما استلب الصولجان الكره

وقال(٥):

(١) الأغاني ج ٢٢ ص٢٠٢ والمستظرف من أخبار الجواري ص٦٤ ونساء الخلفاء ص٩٤.
(٢) ديوان ابن المعتز.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ديوان المعاني ج١ ص٢٤٧.
(٥) شعر ابن المعتز ٢/ ٦٢٤.

وكأن خالاً فوق صفحة خده   من تحت صدغ كالظلام الغاسق
أثر الشرارة في قميص أحمر   أو نقطة بالمسك فوق شقائق

وقال:

كأن أرواح أهل العشق سائرة   إلى جمالك بالتقريب والعنق
تؤم كعبة حسن خالها حجر   في الخد أسوده في أبيض يقق

أما الجاحظ فقد روى[1] له قوله في فتاة سوداء وهو صورة طريفة غريبة للخال:

يكون الخال في وجه مليح   فيكسوه الملاحة والجمالا
ولست تمل من نظر إليه   فكيف إذا رأيت الوجه خالا

وهناك من الجواري الحسان من سميت بذات الخال لوجود خال لها فوق شفتها العليا واسمها (خنث).. ذكرها العباس بن الأحنف وتغزل بها كثيراً ومن ذلك قوله[2]:

أتحسب ذات الخال راجية ربا   وقد قتلت صباً يجن بها حبا

وربما كان بعض الفتيان يستعملونه، فقد أشار إلى ذلك ابن قتيبة[3] في بيت أورده لبعض المحدثين قال فيه:

الخال يقبح بالفتى في خده   والخال في خد الفتاة مليح
والشيب يحسن بالفتى في رأسه   والشيب في رأس الفتاة قبيح

---

(١) ديوان المعاني ج١ ص٢٤٧.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص٤٧، وقد روي البيت لإبراهيم الموصلي على الشكل الآتي:

أتحسب ذات الخال راجية ربا   وقد سلبت قلباً يهيم بها حبا
وما عذرها نفسي فداها ولم تدع   على أعظمي لحماً ولم تبق لي لبا

الأغاني ج١٦ ص٢٢٦.

(٣) عيون الأخبار م٤ ص٢٢.

التكحل والتزجيج:

ونالت العينان والحاجبان من المرأة عناية خاصة في مختلف العصور، واعتبر التكحل بصورة خاصة أزين الزينة[1] حتى لقد كان الآباء والأمهات حينما يوصون بناتهم قبل الزفاف يؤكدون على استعماله لأنه أزين الزينة ـ على حد قولهم ـ.

وقد ورد ذكر التكحل والعيون الكحيلة كثيراً في الشعر العباسي وقبله[2]، فمما ورد على لسان المعتز قوله[3]:

ومقلتها سائل كحلها وقد جليت سبجاً من ذهب

وقوله[4]:

كحولة ألحاظه بسحر في خده عقارب لا تسري

أو قول أبي نواس في بنات الجارية متغزلاً[5] بها:

هذي التطاريف من غنج ومن عبث كما زعمت فما للطرف مكحول
قالت كحلت بعذر العين من رمد فقلت عذراً فما للشعر مبلول

وقد دارت تشبيهات كثيرة لابن المعتز ولغيره من الشعراء حول الكحل فقال في وصف ليلة ممطرة:

جاءت بجفن أكحل وانصرفت مرهاء من أسباب دمع منسكب[6]

---

(١) عيون الأخبار م٤ ص٧٤.

(٢) ينظر ديوان زهير بن أبي سلمى ص٢٢٦ وديوان عمر بن أبي ربيعة ص٥٧٣.

(٣) ديوان ابن المعتز ص٦٥.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء ص١٩٢.

(٥) ديوان أبي نواس ص٣٠٩.

(٦) ديوان ابن المعتز ص٤٤.

ومثله قول الشاعر الأخيطل في وصف شقائق النعمان:

هذي الشقائق قد أبصرت حمرتها مستشرفات على قضبانها الذلل
كأنها دمعة قد مسحت كحلاً جالت به وقفة في وجنتي خجل[١]

أو قول أبي هلال العسكري[٢]:

وشقائق نقش الربيع ثيابها فبرزن بين مكحل ومجسد
كالخد يصبغه الحياء بحمرة وجرى عليه الدمع خلط الأثمد

وقد وصف أحد الشعراء جارية سوداء مكتحلة فقال[٣]:

كأنها والكحل في مرودها تكحل عينيها ببعض جلدها

أما الحاجبان فقد حظيا كذلك بالكثير من العناية والاهتمام فاستعملت طريقة تدقيق الحاجبين وإطالتهما أو تزجيجهما بالإثمد ويبدو أن الحف أو (التنميص) كان معروفاً منذ صدر الإسلام[٤].

وجاء في شعر عمر بن أبي ربيعة قوله:

وجبين وحاجب لم يصبه نتف خيط كأنه خط نون[٥]

واستمر النتف والحلق والتخطيط والتزجيج (الصبغ) وسيلة المرأة لتجميل حاجبيها في العصر العباسي. قال دعبل في جاريته غزال:

تخطط حاجبها بالمداد وتربط في عجزها مرفقه[٦]

---

(١) ديوان المعاني ج٢ ص٢٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عيون الأخبار م٤ ص٤١ وم٢ ص١٨٩.

(٤) الطبقات لابن سعد ج٨ ص٨٧.

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٥٧٣.

(٦) ديوان دعبل ق١ ص١٥٨.

وقال الشاعر علي بن جبلة المعروف بالعكوّك مشيراً إلى تطويل الحاجبين وتزجيجهما:

وجبينها صلت وحاجبها شحت المحط أزج ممتد[1]

ويشير المتنبي إلى صبغ الحواجب بقوله:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب[2]

ويبدو أن المرأة كانت تزيل حاجبيها بأكملهما لترسم بدلهما بالإثمد الحاجبين بالشكل الذي تريده ولا تزال هذه الطريقة في تجميل الحاجبين موجودة لدى البعض من النساء اللائي يبالغن في التزين، قال أعرابي[3] في ذم امرأة له:

ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها فإن عالجته صار فوق المحاجر
وفي حاجبيها حزّة لغرارة فإن حلقا كانا ثلاث غرائر

وقد ظهر في العصر العباسي ضرب جديد من التزين وهو نقش الشوارب وربما كان هذا الضرب من الزينة مقصوراً على الجواري الغلاميات. وقد سبق أن رأينا كيف أنهن كن يلبسن ملابس الغلمان ويتزين بأزيائهم ويطممن شعورهن. فلا غرابة إذن إذا ما رأيناهن يرسمن الشوارب أو اللحى بطريقة مثيرة للإعجاب بهن. ويبدو أنهن كن يتفنن في اختيار اللون والمادة التي ينقشن بها الشوارب فقد تصبغ بالمسك أو العبير أو غيرها ويؤيد ما ذهبنا إليه قول أبي نواس[4]:

أصداغهن معقربات والشوارب من عبير

---

(١) شعر علي بن جبلة ص١٠٩.

(٢) ديوان المتنبي ص٢٩٢.

(٣) عيون الأخبار م٤ ص٣٦.

(٤) الديوان ص٨٣ والأغاني جـ١٣ ص١٢٨.

وقال بعض المدنيين: أتيت منزل ابن رامين فوجدت عنده جارية قد رفع ثديها قميصها لها شارب أخضر ممتد على شفتيها امتداد الطراز وكأنما خطت طرتها وحاجباها بقلم، لا يلحقها ضرب من ضروب حسنها وصف واصف، فسألت عن اسمها فقيل: الزرقاء.

وقول التنوخي[1] في وصف شقائق النعمان:

شقائق مثل خدود نقشت شوارب بالمسك فيها ولحى

التطيب:

واستدعت الأناقة في الحياة والترف فيها والتفنن في التمتع بكل ما يلذ للحواس.. الاهتمام بالطيب بأنواعه المتعددة فاستعملوا منه المسك وهو أغلى أنواع الطيب حتى لقد انحصر استعماله في الطبقة العليا[2]، وكانت له أسماء كثيرة منها المسك التبتي[3] نسبة إلى التبت التي يستورد منها.. ونوع آخر عرف بالمسك الذبيح ذكره أبو نواس بقوله:

فكان القوم نهبى بينهم مسك ذبيح[4]

ونوع ثالث عرف بفأر المسك قال فيه ابن المعتز:

فكأنما سطعت مجامر عنبر أوفت فأر المسك فوق ثراك[5]

وتطيبوا بالعنبر والعبير والند والكافور والبان والزعفران وغيرها..

ويذكر لنا الوشاء أنواع الطيب في حديثه عن القيان وعن الهدايا التي تبعث إليهن في المناسبات (من اللخالخ المعجونة ومخانق الكافور

---

(١) ديوان المعاني ج٢ ص٢٥.

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي (الهاشمي) ص٨٥.

(٣) التزين ص٧٨ عن الجاحظ: التبصر بالتجارة ص١٢.

(٤) ديوان أبي نواس ص٦٩.

(٥) ديوان ابن المعتز ص٣٥٤.

المنظومة، ومراسل القرنفل المجمرة، والمسك الأذفر، والعنبر الأشهب، والعود الهندي، والند الخزائني والماورد الجوي) (من القمص المعنبرة، والغلائل الممسكة، والأردية المرشوشة)[1].

ويبين لنا زي المتظرفات من النساء في الطيب فيقول: (ومن زيهن أيضاً في الطيب الذي ليس للرجال فيه نصيب، استعمال اللخالخ والصندل، والصياح والقرنفل، والساهرية والأدقال، والمعجونات والزعفران، والخلوق وماء الخلوق والكافور وماء الكافور، والمثلثة الخزائنية، والبرمكية السلطانية، وسائر صنوف الأدهان من البنفسج والزئبق والبان).

وقد ورد ذكر الطيب بأنواعه المختلفة في الشعر العباسي، نورد منه قول أبي نواس[2]:

لها من ذكي المسك ريح زكية ومن طيب ريح الزعفران نسيم

وقوله في تعطير القميص بالعبير:

تغمس في العبير قميصها حتى شكا الغرقا[3]

وقول ابن المعتز وقد يحدد أنواعاً من الطيب:

يقطر مسكاً على غلائله شعر نقا بالعبير قد وكفا
أفرغ من دره وعنبره حسناً وطيباً في خلقه ائتلفا
يطيب الريح حين يمسحه فما بريح هبت عليه خفا[4]

وقوله مشيراً إلى تطييب الشعر بالمسك:

---

(١) الموشى للوشاء ج٢ ص١٩٢.
(٢) ديوان أبي نواس ص١٣١.
(٣) المصدر نفسه ص٢٧٨.
(٤) ديوان ابن المعتز ص٣٢١.

حشيت عقارب صدغه   بالمسك في خديه حشوا[1]

وقول أبي الشبل متغزلاً بجارية سوداء اسمها تبر:

لم تنصفي يا سميّة الذهب   تتلف نفسي وأنت في لعب
يا بنت عم المسك الذكي ومن   لولاك لم يجنب ولم يطب
ناسبك المسك في السواد   وفي الطيب فأكرم بذاك من نسب[2]

وقول مطيع بن إياس في جوهر وهي جارية من جواري امرأة تدعى (بربر) كانت تقتني الجواري:

خافي الله يا بربر   لقد أفسدت ذا العسكر
إذا ما أقبلت جوهر   يفوح المسك والعنبر[3]

وقد جمع الشاعر ذكر أنواع من الطيب في قوله[4]:

فما ريح ريحان بمسك وعنبر   بندّ وكافور بدهنة بان
بأطيب ريا من حبيبي لو انني   وجدت حبيبي خالياً بمكان

الحلي:

وهي كل ما يتزين به من مصوغات معدنية وحجارة[5] وضرب من ضروب الزينة عرفته المرأة واهتمت به منذ أقدم العصور[6]، وكان من المهمات في مناسبات الأفراح والأعياد والزواج خاصة.

وتشير كتب التاريخ والأخبار والأدب إلى كثرة استعمال الحلي في

---

(١) المصدر نفسه ص٤٥٤.
(٢) الديارات ص٥٢ ـ ٥٣.
(٣) الأغاني ج١٦ ص٣٢٥.
(٤) الموشى ج٢ ص٢٤٢.
(٥) المخصص ٤/٤٠.
(٦) ينظر التزين والحلي عند المرأة ص٩٣ ـ ٢٠١.

العصر العباسي، العصر الذي ارتبطت حضارته بمظاهر الترف والجمال إلى أبعد الحدود فعكس ذلك مبلغ العناية بمستلزماتها، فقد ذكر لنا الشابشتي ما أعده الخليفة الرشيد عند زواجه من السيدة زبيدة ما لم يعد لامرأة من قبل من الجوهر والحلي والتيجان وقباب الفضة والذهب[١] وذكر عن عتابة أم جعفر البرمكي أنه كان لها مائة جارية تلبس كل جارية منهن من الحلي والجواهر ما يختلف عن الأخرى[٢].

وأخبار كثرة اقتناء السيدات العباسيات للحلي كثيرة[٣] جداً تدل على اهتمامهن بها وحرصهن على حيازتها، فإن لم تكن المرأة قادرة على التحلي بالحلي في المناسبات لعدم توفرها لديها لجأت إلى استعارتها أو تأجيرها.

ومن طريف ما ذكره الأصفهاني في هذا الصدد عن ابن هرمة قوله: (مرت بي صفراء مليحة كنت أستحسنها أبداً وأكلمها إذا مرت بي، فمرت اليوم فرأيتها وقد ورم وجهها وتغير خلقها فسألتها عن خبرها فقالت: استعار لي أهلي حلياً وثقبوا أذني لألبسه فورم وجهي وأذناي كما ترى فردوه ولم أشهد العرس فقال ابن هرمة في ذلك[٤]:

كنقابة لحلي مستعار ... بأذنيها فشانهما الثقوب
فردت حلي جارتها إليها ... وقد بقيت بأذنيها ندوب

وذكر الأصفهاني أيضاً أن حمويه استأجر لجاريته ذات الخال من بعض الجوهريين بدنة[٥] وعقود ثمنها اثنا عشر ألف ألف دينار فلما رآها

---

(١) الديارات ص١٠٠.
(٢) الوزراء والكتاب ص١٩٢.
(٣) الذخائر والتحف ص ١٨٤، ٢٣٥ والفخري ص١٩٢.
(٤) الأغاني ٥/٣٨ط الخديوية ١٢٢٣هـ.
(٥) البدنة: الدرع القصير على قدر الجسد (اللسان/بدن)..

الرشيد أعجبته وسأل عن حقيقتها فأخبر بأنها حلى مستأجرة فأمر بشرائها ووهبها للجارية[1].

وقد سجل الأدب العباسي أنواعاً مختلفة من الحلي التي استعملت في حينها. وسنذكر منها ما اتخذته النساء من مجوهرات بين خلاخل ومناطق ذهبية وأقراط أو شنوف أو دمالج ومخانق وعقود وأسورة وتيجان مما ورد ذكره في الأدب.

ولقد أسهب الوشاء في كتابه الموشى في ذكر أنواع كثيرة من الحلي التي كانت تهدى للنساء، وأوردها في ذم القيان باصطناعهن العلة أو الفصد للحصول على الهدايا المختلفة من عشاقهن من حلي وملابس وعطور فقال[2]:

فتفصد لا من حاجة لفصادها ... ولكن لتكليف الهدية في الفصد
فمن بين خلخال يصاغ وخاتم ... ومن دملج يهدى على أثر العقد

وقد تناول الشعراء خلال إشاراتهم إلى أنواع الحلي ذكر سمات الجمال ومعاييرها في نظرهم، فكانوا يرون في الساق أن تكون ممتلئة تخرس الخلاخل فتمنعها من أن تجول وتصوت فيها، وقد أكثروا من الإشارة إلى ذلك قال العباس بن الأحنف مشيراً إلى امتلاء ساقي حبيبته[3]:

ما بال خلخالك ذا خرسة ... لسان خلخالك مقطوع

وقال الصنوبري[4]:

---

(١) الأغاني ١٦/٢٢٦.

(٢) الموشى ٢/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) ديوان العباس ص١٧٣.

(٤) ديوان الصنوبري ص٨٠.

شمس دجن على قضيب لجين فوق دعص أنشي من الكافور
تتثنى في ربرب يتهادين ثقـ ـال الأرداف هيف الخصور
واضحات الخدود خرس الخلاخيـ ـل مراض الجفون بيض النحور

وقال ابن الرومي[(١)] في خلاخل حبيبته أنها قد كذبت أسماء الخلاخل لأنها لا تخلخل في ساقيها لامتلائها.

وقال كشاجم وقد رأى امرأة كشفت سربالها عن ساقها فبصر منها خلخالها[(٢)]:

قلت وقد أبصرتها حاسراً عن ساقها فاضل سربالها
لو لم يكن من برد ساقها لاحترقت من نار خلخالها

ويبدو أنهم كانوا يتفننون في صياغة هذه الخلاخيل فقد أشار أبو نواس في شعره إلى وجود أنواع مفتولة منها إذ قال[(٣)]:

فسال عرق على ترائبها كأن مجراه فتل خلخال

وربما رصعت الخلاخيل بالأحجار أو جعلت مجوفة ثم تحشى بقطع معدنية صغيرة تصوّت عند المشي. وقد أشار الجاحظ إلى هذا النوع عندما وصف جارية بقوله (قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها)[(٤)].

وربما كانت خلاخل صاحبة ابن المعتز من هذا النوع، فقد ذكر بأنها قد جاءت ذوائبها من رأسها إلى القدم وكنى بذلك عن تصويت الخلاخل وطول الشعر قال[(٥)]:

---

(١) ديوان المعاني ١/ ٢٢٧.
(٢) ديوان المعاني ١/ ٢٥٠.
(٣) ديوان أبي نواس ٣٢٠.
(٤) المحاسن والأضداد ص٢٠٥.
(٥) أشعار أولاد الخلفاء ص٢٣٠.

دعت خلاخيلها ذوائبها فجئن من رأسها إلى القدم

وتناول ابن المعتز وغيره ذكر المناطق ووصف جمالها على الخصور الدقيقة فقال:

نطقت مناطق خصره بصفاته واهتز غصن البان من حركاته

وقال:

جاءت إليَّ تهادى عشية شاطرية
في قرطق خصرته مناطق ذهبية

ومن الحلي التي تشدُّ المرأة به وسطها الحقاب. قيل إنها منطقة محلاة بالذهب. أو شيء تشده المرأة في وسطها تعلق فيه الحلي فيسمع لها صوت.. قال بشار في ذلك[١]:

يوم قامت مختالة في حقاب ليتني كنت بعض تلك الحقاب

واستمرت النساء في هذا العصر على لبس الشنوف[٢] والأقراط فقال السري الرفاء فيها[٣]:

بين الشنوف الحمر والأقراط أجياد فاترة الجفون عواط

وأشار أبو العلاء المعري إلى أنها كانت تصنع من الذهب بقوله[٤]:

كلمع الشنوف العسجديات أو كما أشارت بأقفى سورهن العرائس

---

(١) ديوان بشار ١/٣٥٣.

(٢) الشنوف: حلي للأذن تعلق في أعلاها. تعلق الأقراط في أسفلها.

(٣) ديوان السري الرفاء ص١٥٨.

(٤) سقط الزند ص٣١٩.

أما بشار فقد وصف زينة حبيبته فقال[1]:

قامت تراءى لي لتقتلني ... في القرط والخلخال والإتب

وقال واصفاً جمال الرقبة وبعد مهوى القرط:

والقرط في مهلوكة ... مجراه من جبل بعيد

ومما يلبس في العنق من حلى القلائد والعقود وقد تكون ضيقة، تحيط بالرقبة وتسمى (بالمخانق) ويذكر الوشاء أن بعضها كانت تتخذ من الكافور المنظوم والقرنفل وغيرهما فتسمى[2] (بالسخاب) وقد تنسج أو تنظم من اللآلىء والدر[3] وغيرها من الأحجار الكريمة.

وممن تردد ذكر (السخاب) ذي الرائحة الطيبة في شعره بشار، ولعله كان يختار ذكر هذا النوع من القلائد لاستمتاعه برائحتها الطيبة.. فقد قال[4]:

ما على النوم لو تعرضت فيه ... فبلوناك في سخاب وإتب

وقال:

يوم قامت تتهادى ... بين إتب وسخاب

وقال مطيع بن إياس في ذلك[5]:

قد دهاه شادن ... يلبس في الجيد السخابا

وقال الواواء الدمشقي وأشار إلى المخنقة المنظومة بالجوهر[6]:

---

(١) ديوان بشار ١/٢١٤.

(٢) الموشى ٢/١٢٧.

(٣) سيدات البلاط العباسي ص١٢٦.

(٤) ديوان بشار ١/٢٦٧.

(٥) الأغاني ١٢/٨٣.

(٦) المصدر نفسه ١/١٢٩.

وكأن مخنقة عليها جوهر ما بين نار ركبت وهواء

واستعملت النساء المسيحيات صلباناً تعلق في سلاسل تتدلى من أعناقهن وفي ذلك قال الفضل بن الربيع متغزلاً بإحداهن[1]:

كم لثمت الصليب في الجيد منها كهلال مكلل بشموس

ولبست النساء الأسورة والدمالج في معاصمهن والخواتم في أصابعهن وقد تجلى ذلك في وصف الشعراء لهن وفي ذكرهم لهذا النوع من الحلي.

قال الصنوبري[2] في وصف زي فتاة غلامية عافت الكثير من وسائل تجميل الفتيات فذكر المخانق ونوعاً من الأساور:

تعاف الطرار وتصميغها وكم طرة عيبها صمغها
وما مس مخنقة جيدها ولامس دستيجا رسغها

وقال ابن المعتز في وصف فتاة[3]:

رشأ لم حته شرب الكرى فسكر
شغلته أقرطه ودمالج وطرر

وقال أبو الشيص في وصف حبيبته وأورد في شعره أنواعاً من الحلي[4]:

قل للطويلة موضع العقد ولطيفة الأحشاء والكبد
ألا وقفت على مدامعه فنظرت ما يعملن في الخد

(١) ديوان الوأواء ص٤.

(٢) ديوان الصنوبري ص٣٦١.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص٢٣٠.

(٤) الشعر والشعراء ٢/ ٧٢٢.

لولا التنطق والسوار معاً والحجل والدملوج في العضد
لتزايلت من كل ناحية لكن جعلن لها على عمد

ومن ضروب حلى الرأي والشعر التي ورد ذكرها في أدب العصر الأمشاط الذهبية. وإليها أشار ابن المعتز بقوله[1]:

يقطع في رأسها رؤوس مذاري ذهب

ومن الأمشاط ما كان يرصع بالأحجار الكريمة كالياقوت.. قال كشاجم[2]:

ترى الخرم السمائي فيها كاليواقيت نظمت في المداري

وربما زينت المرأة شعرها بالتيجان وقد أشار أبو نواس[3] إلى ذلك في وصف فتاة غلامية مطمومة الشعر لم تتحل بالتاج:

ومطمومة لم تتصل بذؤابة ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق

ونختم الحديث عن تجمل المرأة وزينتها فنقول:

لقد صور لنا العصر العباسي كثيراً من مظاهر زينة المرأة في ملابسها وشعرها وتجملها بمختلف الوسائل من خضاب وتكحل وتطيب وحلي وغير ذلك مما عرف عند النساء وما زيد عليه وابتكر منه بفعل الثراء ورقة الذوق وبفضل الحضارة الناتجة عن تطور المجتمع.

---

(١) ديوان ابن المعتز ص٢١١ والمذاري: الأمشاط.

(٢) الديارات ص١٦٧.

(٣) ديوان أبي نواس ص٢٥٨.

الباب الثالث

أدب المرأة

الفصل الأول: أدب المجالس والمناظرات

الفصل الثاني: أدب المراسلات

الفصل الثالث: فنون شعرية مختلفة

الفصل الرابع: أدب الأعرابيات

الفصل الخامس: نظرة عامة في أدب المرأة وملامحه الفنية

تمهيد

ولعل أهم ما يطالعنا في دراسة أدب المرأة هو قلة ما وردنا منه بصورة عامة، وهناك أمور عديدة يمكن أن يرد إليها ذلك وهي:

الموقف السلبي لبعض أهل العصر متجلياً في صورتين متباينتين الأولى منهما: النظر إلى أدب المرأة على أنه أدب ضعيف لا يسامي أدب الرجال ولا يمكن أن يوضع في صف ما عرف لهم وأنه في الغالب ومضات تدل في أكثرها على السذاجة والقصور والضعف..

وقد وردت إشارات كثيرة عرضاً خلال الحديث عن شعر بعض النساء من الحرائر والجواري تدل على ذلك.

فالتنوخي يقول في تعليقه على أبيات رواها للشاعرة (عابدة بنت محمد الجهنية) في هجاء أحدهم (فهجته هذه المرأة بما تحقق عندي أنها صادقة فيه لأنه يليق بكلام النساء وقد كانت تنشدني أفحل من هذا الكلام..)[١].

وقال أبو الفرج الأصفهاني في (بدعة) الجارية: (وكانت تقول شعراً ليناً يستحسن من مثلها)[٢] وفي (فضل) (وكانت أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية وأفضل من عرف من طبقتها)[٣].

أما الصورة الثانية تجاه المرأة فهي صورة الآمر الذي لم يكن ليرضى أن يرفع المرأة عن منزلة التابعة المملوكة التي يجب أن لا ينسب

(١) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤.

(٢) المستظرف من أخبار الجواري ص١٣.

(٣) المصدر نفسه ص٣٨.

إليها أي تفوق أو تقدم في شيء. . فالشاعرية عندهم تفوق ولا يمكن أن تكون لغير الرجال. . قيل إن الفرزدق (العصر الأموي) سمع امرأة تقول شعراً فقال: (إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتذبح)[1] ومعنى هذا أنهم كانوا يرون الشاعرية من صفات الرجولة التي يجب أن تحظر على النساء.

وعامل ثان ربما كان له أثره في قلة ما وصلنا للمرأة من شعر وهو (الجواري والقيان) فقد رأينا كيف أن النخاسين وغيرهم كانوا يحرصون على تعليم الجواري الشعر وروايته ونقده لتعلو أثمانهن ويسمو قدرهن. . ومن المحتمل أن هذه البضاعة التي تروج الجواري قد لا يرتضيها الكثير من المحافظين في المجتمع لبناتهم. . فرواية الشعر أو نظمه يعنيان الاطلاع على شعر الشعراء والاتصال بهم والاتصاف بما اتصفت به الجواري، وربما كان الكثير من الآباء والأولياء لا يريدون لبناتهم أو لنسائهم مثل ذلك.

وعامل آخر هو عدم الاهتمام برواية شعر النساء اللهم إلا ما يعلق بالذهن من أبيات خفيفة وقد يكون لهذا أثره في كون أكثر ما وصلنا منه عبارة عن مقطعات شعرية خفيفة لسهولة حفظها وتناقلها في المجالس والتحدث عنها.

وكان جل الاعتماد على السهل الخفيف الذي يعلق بالأذهان. . أما ما جاء للنساء من قصائد طويلة ومعان رصينة فقليل جداً.

على أن أكثر ما وصلنا منه كان مما يتصل بالخلفاء ومجالسهم وربما جاءت العناية به بسبب العناية بأخبار الخلفاء والأمراء وذوي الشأن في العصر وما يجري في مجالسهم وما يعرف من علاقاتهم. . .

---

(١) مجمع الأمثال ١/ ٢٤.

يضاف إلى ذلك كله أن المرأة وهي التابعة للرجل في ذلك العصر حرة كانت أو أمة، لا يمكن لها أن تقوم بما يقوم به الرجل في احتراف الشعر عملاً يختص به ولا يتعداه إلى غيره.

فقد تحكمت في المرأة الحرة الشاعرة واجبات الأمومة والزوجية ومسؤوليات الأسرة وتبعاتها، كما تحكمت في الجارية الشاعرة رغبات الأسياد ومسؤوليات التبعية في الخدمة والتسلية والترفيه ولهذا لم تجد المرأة الحرية في التصرف بوقتها أو بموهبتها واستعداداتها في حدود ما سمح لها به من الثقافة والاطلاع.

على أني لا أود أن أذكر هذه العوامل على أنها حقائق ثابتة وإنما أعرضها كاحتمالات ربما كانت مما أدى إلى قلة ما وردنا من شعر النساء.

ورغم ذلك فقد عرض علينا ابن النديم في (الفهرست) وياقوت الحموي في (معجم الأدباء) عدداً لا يستهان به من الكتب التي ألفت عن النساء في العصر العباسي، جاء أكثرها في أخبارهن وأشعارهن وأحوالهن في الزواج والطلاق والمعاشرة، وفي محاسنهن في التزين والتحلي والتطيب، ولم يصلنا منها إلا القليل المطبوع أو المخطوط..

على أننا لاحظنا أن الصفة الغالبة على ما وصلنا منها لا يتعدى كونها عبارة عن أخبار ونوادر وطرائف كانت تقع في المجالس أو في بعض المواقف فتذكر أو تدون على سبيل التندر..، وإن ما ورد فيها من شعر لا يكاد يختلف عن المقطعات الشعرية التي سبق أن أشرنا إلى ذكرها[1]..

---

(١) ينظر مقال (ما ألف عن النساء) للدكتور صلاح الدين المنجد، مجلة المجمع العلمي العربي، العدد ١٦ سنة ١٩٤١ ص٢١٢.

ومع كل ذلك، فقد استطعت بعد كثير من البحث والتنقيب أن أعرض في الباب الثالث فصولاً متنوعة عن أدب المرأة كان من أهمها وأوسعها (أدب المجالس والمناظرات) ثم أدب (المراسلات والتوقيعات) ثم جمعت الفنون الشعرية المختلفة في فصل واحد.. تناولت بعده (أدب الأعرابيات) وألحقت بهذه الفصول فصلاً لتحليل الملامح الفنية العامة لأدب المرأة.

الفصل الأول

أدب المجالس والمناظرات

وكان الشعر من أشهى ضروب اللهو وأرقى فنون الثقافة في حياة الخاصة وفي الأوساط الثقافية، فقد أصبح ضرورة من الضرورات، ومظهراً من مظاهر الفن والجمال عندهم.. ولم يكتفوا بتناشده في كافة المناسبات والأحوال، وإنما جعلوه أجمل ما يتزين به، فصاروا لا يجدون اللذة مكتملة ولا الجمال بديعاً إلا إذا أضفي عليهما من مستظرفات الأشعار ومنتحل الأبيات ومنتخب المقطعات ونوادر الأمثال وملح الكلام[١].

وعبروا بالشعر وهو أحلى ما يدور في مجالسهم عن نزعاتهم وأهوائهم، فكتبوه على خواتمهم وذيول أقمصتهم وأطراف أكمامهم، وعلى مناديلهم وستورهم ووسائدهم وبسطهم ومرافقهم ومقاعدهم وسررهم وكللهم وأبوابهم.. أو على الكؤوس والأقداح والأواني والمراوح والعيدان والطبول والمعازف وعلى الأقلام[٢].

أما النساء فكن يكتبن على الخواتم والقمصان والأردية والأكمام والكرزان والقصائب ومشاد الطرر والذوائب والقلانس وعلى الزنانير والتكاك والمناديل[٣] وكن يكتبن أحياناً بالحناء في الوطأة والأقدام والراح، أو يكتبن بالغالية والعنبر على الخد والجباه وعلى النعال بالذهب والفضة.

---

(١) الموشى ٢/٢٥١.

(٢) الموشى ٢/٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) الموشى ٢/٢١٢ ـ ٢١٣ وقد نوه بذلك بإيجاز.

ولعل من المفيد أن نورد بعض النماذج لما كان يكتبه رواد المجالس من أقوال وأشعار كانت في الغالب تعبر عن نزعة صاحبها وميوله فمما نقشه أهل الحزم على خواتيمهم: (القناعة خير من الضراعة) و (السلامة خير من الندامة)[1] ومما نقشه أهل الهوى: (من قدّم هواه دام أساه) و (آفة الحبيب نظر الرقيب) و (آفة الغزل سرعة الملل)[2].

وقد يعارض أحدهم من يريد معارضته بالكتابة على فصوص الخواتم فمن ذلك ما وقع بين عبد الملك بن الزيات وجارية من جواري القيان كان يحبها ثم تنكر لها فكتبت على خاتم لفظاً تعرّض له بالعتاب فبلغه ذلك فكتب على خاتمه ضد ما كتبت، فبلغها فمحت ما كان على خاتمها وكتبت ضد ما كتب فكتب ذلك في أبيات قال فيها[3]:

كتبت على فص لخاتمها	من ملّ أحبابه رقدا
فكتبت في فصي ليبلغها	من نام لم يشعر بمن سهدا
فمحته واكتتبت ليبلغني	ما نام من يهوى ولا هجدا
فمحوته ثم اكتتبت أنا	والله أول ميت كمدا
قالت: يعارضني بخاتمه	والله لا كلّمته أبدا

وقد تفننت الجواري في إرسال الرسائل الخفيفة في المجالس عن طريق كتابتها على صدورهن أو عصائبهن أو على ما يلفت الأنظار إليهن، فتكون دعوة صريحة للراغبين فيهن قال علي بن الجهم[4]: حضرت مجلس بعض الظرفاء، وخرجت علينا جارية كأنها تمثال وعليها

---

(١) الموشى ٢/ ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢١٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢١٧.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٢٤.

عصابة قد أرسلت لها طرفين على صدرها مكتوب عليها:

من يكن صبا وفيًّا فزمامي في يديه
خذ مليكي بعناني لا أنازعك عليه

قال: فوثبت فأخذت بطرفي العصابة وقلت: أنا والله صب وأوفى خلق الله لمحب. قالت: إنه لا بد للفرس من سوط، قلت: يا غلام، هات السوط، قالت: هيهات: ذاك سوط الدواب، وسوط مثلي سيبه[1] فضة وعلاقته ذهب.

أو قد يضمن الأبيات التي يكتبنها معاني في إبداء محاسنهن كالذي كتبته شادن جارية (خنث) على وقاية تجمع بها ذوائبها[2]:

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جثل أسحم[3]
فكأنها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليه مظلم

أو كالذي كتبته بعض المغنيات على قلنسوة لها:

أدميت باللحظات وجنتها فاقتص ناظرها من القلب

وعلى عصابتها:

فإذا نظرت إلى محاسنها أخرجتها عطلاً من الذنب

وكتبت جارية على كرزنها مضمنة معنى لطيفاً وهي أنها تريد أن يحرم النقاب على القباح، وأن يجعل خطيئة لا تغتفر على الملاح[4]:

---

(١) السيب: سير السوط (لسان العرب).
(٢) الموشى: ٢/ ٢٢٣.
(٣) فرع المرأة: شعرها. جثل الشعر. الجثل: الكثيف، أسحم: أسود.
(٤) الموشى ٢/ ٢٢٥.

ليت النقاب على القباح محرّم　وعلى الملاح خطيئة لا تغتفر

وضمنت جارية أخرى تدعى (عارم) هواها وحبها ولهفتها على حبيبها أبياتاً كتبتها[1]:

وإني لأخلو مذ فقدتك دائبًا　فأنقش تمثالاً لوجهك في الترب
فأسقيه من دمعي وأبكي تضرعًا　إليه كما يبكي العبيد إلى الرب

وقال علي بن الجهم[2]: رأيت جارية في بيعة مريم في دار الروميين بمدينة السلام كأنها فلقة قمر خارجة من الهيكل وفي وسطها زنار عليه بيتان:

زنارها في خصرها يطرب　وريحها من طيبها أطيب
ووجهها أحسن من حليها　ولونها من لونها أعجب

وعن عريب جارية المأمون[3]: كنت مع الواثق وهو يطوف على حجر جواريه عند خروجه إلى الأنبار متنزهاً، فدخل إلى فريدة (جارية كان يحبها جداً) وكان يهوى أيضاً وصيفة لها. لم يكن يعلم بذلك غيري فلما رأته عند مولاتها دخلت خزانتها وخرجت وقامت على رأس فريدة وعلى رأسها عصابة مكتوب عليها بالذهب:

عيني تبكي حذر البين　ما أسخن الفرقة للعين
لم أر في الحب ولوعاته　أوجع من فرقة إلفين

فقال لي الواثق: فهمت يا عريب؟ قلت: نعم يا سيدي، فكتب على الأرض بقضيب كان في يده:

---

(١) الموشى ٢/٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٢٧.

(٣) نساء الخلفاء ص٦١ ـ ٦٢.

ظهر الهوى وهتكت أستاره والحب خير سبيله إظهاره
فاعص العواذل في هواك مجاهرًا فألذ عيش المستهام جهاره

قالت عريب: فحفظت الأبيات وتضاحكنا، ففطنت فريدة، فقال: يا سيدي علمت ما أنتما فيه، فامنن على أمتك بقبولها، فقال الواثق: قد فعلت..

وهكذا كانت المجالس روضاً تجتني فيه أزاهير من معاني الشعر وفنونه، التي أبدعوا عرضها وبرعوا في تنسيقها بين منقوش بماء الذهب أو خيوطه ومكتوب بالغالية والعنبر ومرسوم بأنواع الألوان والأصباغ.. وبين مقول يتطارحه الشعراء وتتبادله الجواري مشافهة أو مكاتبة مع رواد المجالس وأصحابها..

وكان جل من يرتاد تلك المجالس من رجال ونساء شاعراً، أو قد ثقف ثقافة أدبية في الأقل.. فالخليفة محب للشعر أو شاعر، والأمير والقائد والكاتب والقاضي والطبيب أكثرهم كذلك.. والمرأة حرة كانت أو أمة قد تكون شاعرة يجري الشعر على لسانها في التو والمناسبة، فإن لم يكن من نظمها فمن حفظها.. وما أكثر الحفظ وما أوسع الاطلاع..

وكثيراً ما رأينا الخلفاء يجلسون في مجالسهم فإذا ما عرضت عليهم جارية أمروا بعض الحاضرين من الشعراء بأن يلقوا عليها بيتاً لتجيزه لتعرف شاعريتها وبراعتها.. وقد يطلب إليها أن تقول شعراً في معنى يطلبونه ذلك أن رجلاً من أهل اليمامة قدم بجاريتين شاعرتين من مولدات اليمامة على المتوكل فعرضهما عليه من جهة الفتح[1] فنظر إلى أجملهما فقال لها: فقولي في مجلسنا هذا شعراً ترتجلينه وتذكرينني فيه

---

(١) أبو محمد الفتح بن خاقان بن أحمد بن طرغوج أديب شاعر فصيح ذكي تركي الأصل اتخذه المتوكل العباسي صاحباً ووزيراً، قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧هـ، وأخباره معروفة في كتب التراجم والتاريخ فلا موجب لتعدادها في هذا الهامش.

وتذكرينني فيه وتذكرين الفتح فتوقفت هنيهة ثم أنشدت:

أقول وقد أبصرت صورة جعفر | إمام الهدى والفتح ذي العز والفخر
أشمس الضحى أم شبهها وجه جعـ | ـفر وبدر السماء الفتح أم مشبه البدر

فقال للأخرى: أنشدي أنت، فقالت:

أقول وقد أبصرت صورة جعفر | تعالى الذي أعلاك يا سيد البشر
وأكمل نعماه بفتح ونصحه | فأنت لنا شمس وفتح لنا قمر

فأمر بشراء الأولى ورد الأخرى، فقالت الأخرى: لم رددتني، قال: لأن في وجهك نمشاً فقالت:

لم يسلم الظبي على حسنه | يوماً ولا البدر الذي يوصف
الظبي فيه خنس بين | والبدر فيه كلف يعرف

وقيل إنه لما دخلت فضل الشاعرة على المتوكل يوم أهديت إليه[1] قال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: كذا يزعم من باعني واشتراني[2] فضحك وقال: أنشدينا شيئاً من شعرك فأنشدته قولها:

استقبل الملك إمام الهدى | عام ثلاث وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر | وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى | أن تملك الدنيا ثمانينا
لا قدّس الله أمرأً لم يقل | عند دعاء لك آمينا

وكانت فضل هذه تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض

---

(١) ذكر أبو الفرج أن (فضل الشاعرة جلبت من البصرة فاشتراها رجل من النخاسين بعشرة آلاف درهم فابتاعها محمد بن الفرج الرخجي فأهداها إلى المتوكل.

(٢) ويعلق الدكتور مصطفى جواد على ذلك بقوله: (وفي المنتظم (كذا من باعني ومن اشترى) وهو الصحيح) ـ نساء الخلفاء ص٨٦.

الشعراء بحضرته[1]. قيل إنه طلب يوماً إلى علي بن الجهم أن يقول بيتاً لتجيزه فضل، فقال علي[2]:

لاذ بـهـا يـشـتـكـي إلـيـهـا فـلـم يـجـد عـنـدهـا مـلاذا

فأطرقت ثم قالت:

ولـم يـزل ضـارعـاً إلـيـهـا تـهـطـل أجـفـنـانـه رذاذا
فـعـاتـبـوه فـزاد عـشـقـاً فـمـات وجـداً فـكـان مـاذا

وعن سعيد بن حميد[3] قال: قلت لفضل الشاعرة أجيزي:

من لمحب أحب في صغره

فقالت: فصار أحدوثة على كبره

فقلت: من نظر شفه وأرقه

فقالت: فكان مبدأ هواه من نظره

لـولا الأمـانـي لـمـات مـن كـمـد مـر الـلـيـالـي يـزيـد فـي فـكـره
لـيـس لـه مـسـعـد يـسـاعـده بـالـلـيـل في طـولـه وفـي قـصـره[4]

واتكأ المتوكل على يدي بنان وفضل الشاعرتين، وجعل يمشي بينهما ثم قال: أجيزا لي قول الشاعر[5]:

---

(1) نساء الخلفاء ص٨٥.

(2) بدائع البدائه ص١١ والأغاني ١٩/ ٢٧١ ونساء الخلفاء ص٨٧ وطبقات الشافعية ١/ ٢٦٣ والمستظرف من أخبار الجواري ص٥٢.

(3) ترددت أخباره في الأغاني ١٨/ ٩٠.. قيل إنه كان يهوى عدداً من الجواري ذكر منهن (كعب جارية أبي عكل المقين) الأغاني ١٨/ ٩٣ وقال فيها شعراً و (فضل) ١٨/ ٩٤ وقال فيها شعراً و (مظلومة جارية الدقيقي) ١٨/ ٩٧ وهبة المغنية...

(4) المستظرف من أخبار الجواري ص٥٢ ونساء الخلفاء ص٨٨.

(5) الأغاني ١٩/ ٢٦١ وبدائع البدائه ص١٥٠ ونساء الخلفاء ص٩١.

تعلمت أسباب الرضا خوف عتبها   وعلمها حبي لها كيف تغضب

فقالت فضل:

تصد وأدنو بالمودة جاهدًا   وتبعد عني بالوصال وأقرب

وقالت بنان:

وعندي لها العتبى على كل حالة   فما منه لي بُدٌّ ولا عنه مذهب

وألقى بعضهم على فضل[1]:

ومستفتح باب البلاء بنظرة   تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقالت:

فواللّه ما يدري أتدري بما جنت   على قلبه أو أهلكته وما تدري

وعن أحمد بن أبي طاهر أنه ألقى على فضل قوله[2]:

علم الجمال تركتني   بهواك أشهر من علم

فقالت على البديهة:

وأبحتني يا سيدي   سقماً يجل عن السقم

وتركتني غرضاً فديتك   للعواذل والتهم

صلة المحب حبيبه   الله يعلمه كرم

وربما وقعت المكاتبة في المجلس فمن ذلك ما وقع للشاعرة فضل حينما أقبلت بوجهها وحديثها على (بنان) وكان شاباً طريراً حسن الوجه حسن الغناء[3]، فاستطير سعيد بن حميد غضباً وأقبل عليها يؤنبها ثم

---

(١) الأغاني ١٩/ ٢٦٢.

(٢) الأغاني ١٩/ ٢٦٢ وبدائع البدائه ص١١٢.

(٣) الأغاني ١٨/ ١٠٠ كذا ورد اسم الشاب ولعله تصحيف أو من سهو النساخ.

أمسك فكتبت إليه[1]:

يـا مـن أطـلـت تـفـرسـي فـي وجـهـه وتـنـفـسـي
أفـديـك مـن مـتـدلـل يـزهـى بـقـتـل الأنـفـس
هـبـنـي أسـأت ومـا أسـا ت بـلـى أقـرّ أنـا الـمـسـي
أحـلـفـتـنـي ألا أسـا رق نـظـرة فـي مـجـلـس
فـنـظـرت نـظـرة مـخـطـىء أتـبـعـتـهـا بـتـفـرسـي
ونـسـيـت أنـي قـد حـلـفـت فـمـا عـقـوبـة مـن نـسـي

أما عنان الناطفية الشاعرة الماجنة التي سجل لها الأدب مهاتراتها مع شيخ الماجنين والخلفاء أبي نواس، والتي قيل عنها إنها كانت تفحمه[2] حتى لا يحير جواباً كما قيل فيها: (وكان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم)[3].

فكثيراً ما كان مولاها الناطفي يدعو بعض الشعراء لمطارحتها[4] في مجلسها في بيته.. وربما كان يقصد بذلك إلى أن يدور ذكرها وحديث شاعريتها وبراعتها على الألسنة فتشتهر فتحظى باهتمام خليفة أو سري من الأسرياء.

فمن ذلك أنه دعا (أبا حنش)[5] فقال له: هلم إلى عنان فطارحها. قال أبو حنش: فعزمت على الغدو، فبت ليلي أقول بيتين ثم غدوت عليها فقلت:

---

(١) الأغاني ١٨/١٠١ والمستظرف ٥٥ ـ ٥٦ مع اختلاف في اللفظ، ورسائل سعيد بن حميد ص٢٦.
(٢) المستظرف من أخبار الجواري ص٤٢.
(٣) الأغاني ٢٢/٥٢١.
(٤) الأغاني ٢٢/٥٢٣ ونهاية الأرب ٥/٧٨.
(٥) في نهاية الأرب ٥/٧٨ (كنيته أبو حبش).

أحب الملاح البيض قلبي وربما   أحب الملاح الصفر[1] من ولد الحبش
بكيت على صفراء في الدهر مرة   بكاء أصاب العين مني بالعمش

فقالت:

بكيت عليها إن قلبي يحبها   وإن فؤادي كالجناحين ذو رعش
تعنيتنا بالشعر لما أتيتنا   فدونك خذه محكماً يا أبا حنش

وعن مروان بن أبي حفصة[2] قال[3]:

لقيني الناطفي فدعاني إلى عنان، فانطلقت معه، فدخل إليها قبلي فقال لها: قد جئتك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة، فقالت: إني عن مروان لفي شغل، فأهوى إليها بسوطه فضربها وقال لي: ادخل فدخلت وهي تبكي فرأيت الدموع تنحدر من عينيها فقلت:

بكت عنان فجرى دمعها   كالدر إذ يستن من خيطه[4]

فقالت وهي تبكي:

فليت من يضربها ظالماً   تجف يمناه على سوطه

ودخل بعض الشعراء عليها فقال لها الناطفي: عاييه فقالت:

سقياً لبغداد لا أرى بلداً   يسكنه الساكنون يشبهها

فقال:

(١) (وكانت عنان صفراء جميلة الوجه) الأغاني ٢٢/٧٨.
(٢) مروان بن أبي حفصة: ويكنى أبا السمط وهو مولى مروان بن الحكم. ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٦٤٩ والأغاني في مواضع متفرقة (١٣/١٤٢ ـ ١٤٦، ٢٢/٥٢٣) وطبقات ابن المعتز: ٤٢ ـ ٥٤.
(٣) الأغاني ٢٢/٥٢٣، ٥٢٤.
(٤) يستن: يذهب، وفي نهاية الأرب: يسبق من خيطه، وفي كتاب الورقة: كالدر قد تويع من خيطه.

كـأنـهـا فـضـة مـمـوهـة أخـلـص تـمـويـهـهـا مـمـوهـهـا

فقالت:

أمـنـاً وخـصـبـاً ولا كـبـهـجـتـهـا أرغـد عـيـشـاً وأرفـهـهـا

ودخل أبو نواس على الناطفي فأومأ إليه أن يحركها بشيء فقال[1]:

عـنـان لـوجـدت لـي فـإن مـن عـمـري فـي آمـن الـرسـول بـمـا[2]

فردت عليه وقالت:

فـإن تـمـادى ولا تـمـاديـت فـي قـطـعـك حـبـلـي أكـن كـمـن ختـمـا

فرد عليها فقال:

عـلـقـت مـن لـو أتـى عـلـى أنـفـس الـمـاضـيـن والـغـابـريـن مـا نـدمـا

فردت عليه:

لـو نـظـرت عـيـنـهـا إلـى حـجـر ولـد فـيـه فـتـورهـا سـقـمـا

وقيل[3] إن العباس بن الأحنف كان يهوى (عنان) فجاء أبا جعفر النخعي يوماً فقال: امض بنا إلى عنان، فكانت كالمهاجرة له فجلسا قليلاً ثم ابتدأ العباس فقال:

قـال عـبـاس وقـد أجـهـد فـي وجـد شـديـد
لـيـس لـي صـبـر عـن الـهـجـر ولا لـذع الـصـدود

(١) الأغاني ٢٢/ ٥٢٥ ونساء الخلفاء ص٤٩.

(٢) يعني أنه في آخر عمره لأن قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ في نهاية سورة البقرة (البقرة/ ٢٨٥) وبعدها آيتان.

(٣) الأغاني ٢٢/ ٥٣٠، ٥٣١.

لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد

فقالت عنان:

من تراه كان أغنى منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني فيه إرغام الحسود
فاتخذ للهجر إن شئت فؤاداً من حديد
ما رأيناك على ما كنت تجني بجليد

فقال العباس:

أو تجودين بصفح عن أخي وجد شديد
وأخي جهل بما كان تجني من صدود
ليس من أحدث هجراً لصديق بسديد
ليس منه الموت إن لم تصليه ببعيد

قال: فقلت للعباس: ويحك ما هذا الأمر؟ فقال: أنا جنيت على نفسي بتتياهي عليها، فلم أبرح حتى ترضيتها له[1].

وعن أحمد بن معاوية قال: قال لي رجل: تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدي أن أجد من يجيزه فلم أجد. فقال لي صديق: عليك بعنان جارية النطاف فأتيتها فأنشدتها[2]:

فلم تلبث أن قالت:

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

وعن أبي الفرج الأصفهاني[3] أن أبان اللاحقي[4] قال لعنان وقد

(١) الأغاني ٢٢/ ٥٣٠.
(٢) المستظرف من أخبار الجواري ص٣٩.
(٣) نساء الخلفاء ص٥٠، ٥١.
(٤) أبان اللاحقي: شاعر عاصر أبا نواس وهو من شعراء المجون.

رآها جالسة في الخيش[1]:

لذة عيش الصيف في الخيش

فقالت:

لا في لقاء الجيش بالجيش

فقال لها:

كل يوم بأقحوان جديد   تضحك الأرض عن بكاء السماء

فقالت:

فهي كالوشي من ثياب يمان   جلبتها التجار من صنعاء

فقال أبان معرضاً بها: ما أحسن قول جرير:

ظللت أراعي صاحبي تجلدا   وقد علقتني من هواك علوق

فقالت غير متوقفة:

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت   بأسراره عين عليه نطوق

ولعنان مع الشعراء الخلعاء مجالس كانت تزخر بالشعر وبالمطارحات الشعرية الماجنة[2]، وهي وإن كانت منافية للأخلاق إلا أنها أغنت الأدب بالكثير من الصور العابثة المستهترة التي صورت لنا جانباً من جوانب المجتمع في العصر العباسي بأسلوب فني جميل وبصور شعرية جديدة هذا بصرف النظر عما تعرضت له أخبار الجواري ومجالسهن من عبث وتزيد وما لحقها من رتوش وأصباغ قصصية[3].

---

(١) الخيش: نوع من الكتان يستعمل للتبريد.

(٢) المحاسن والأضداد ص١٥٦.

(٣) انظر د. علي الزبيدي في الأدب العباسي، فصل القصص وغيره من القصص ومقالات العبث والانتحال في الأدب العباسي، مجلة كلية الآداب.

نتقل منها بعض المطارحات التي دارت في منزل عنان حيث اجتمع[1] داود بن رزين[2] وأبو نواس والحسين الخليع وفضل الرقاشي وعمر الوراق والحسين بن الخياط وتناشدوا الشعر إلى وقت الظهر، فلما أرادوا الانصراف قالوا: أين نحن العشية؟ فكل قال عندي، فقالت عنان بالله ألا قلتم هذا شعراً أو تراضيتم بحكمي فيكم، فأنشأ داود يقول:

قـومـوا إلـى قـصـف لـهـو وظل بيت كنين... إلخ الأبيات

وقال الخليع:

أنـا الـخـلـيـع فـقـومـوا إلـى شراب الـخـلـيـع... إلـخ

وقال الرقاشي:

لـلـه در عـقـار حـلـت ببيت الـرقـاشي... إلخ

وقال عمرو الوراق:

عـوجـوا إلـى بـيـت عـمـرو إلـى سـمـاع وخـمـر... إلـخ

وقال حسين الخياط:

قـضـت عـنـان عـلـيـنـا بـأن نـزور حـسـيـنـا... إلـخ

فقال عنان:

مـهـلاً فـديـتـك مـهـلا عـنـان أحـرى وأولـى
بـأن تـنـالـوا لـديـهـا أشـهـى نـعـيـم وأحـلـى
فـإن عـنـدي حـرامـاً مـن الـنـعـيـم وحـلا

---

(١) أخبار أبي نواس ص٧٢ ـ ٧٨ والمحاسن والأضداد ص١٥٣ والعصر العباسي الأول.

(٢) هو مولى عبد القيس، كان شاعراً محسناً، ورد بغداد وعاش بها أبو نواس وغيره من الشعراء.

لا تطمعوا في سوائي ... من البرية كلا
يا خيرتي خبروني ... أجاز حكمي أم لا

فقالوا لها جميعاً: قد أجزنا.. وأقاموا عندها.

ومن شاعرات المجالس والمناظرات من الجواري محبوبة جارية الخليفة المتوكل التي برعت بنظم ما يحدث في المجلس شعراً في الحال.. وربما صنعت له لحناً وغنته..

قال علي بن الجهم(١): كنت يوماً بحضرة المتوكل إذ دفع إلى محبوبة تفاحة مغلفة بغالية فقبلتها وانصرفت عن حضرته، ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة، فدفعتها إلى المتوكل فقرأها وضحك ثم رمى بالرقعة إلينا فإذا فيها(٢):

يا طيب تفاحة خلوت بها ... تشعل نار الهوى على كبدي
أبكي إليها وأشتكي دنفي ... وما ألاقي من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت ... من رحمتي هذه التي بيدي
إن كنت لا تعلمين ما لقيت ... نفسي فمصداق ذاك في جسدي
فإن تأملته علمت بأن ... ليس لخلق عليه من جلد

قال: فما بقي أحد إلا استظرفها واستملح الأبيات؛ وأمر المتوكل عريب وشارية فصنعتا في الشعر لحنين غني بهما باقي يومه.

ومثل ذلك ما يروى عن علي بن الجهم أيضاً أن المتوكل(٣) قال له وكان يأنس به ولا يكتمه شيئاً من أمره: يا علي: إني دخلت إلى قبيحة

---

(١) ورد هذا الخبر في الأغاني ٢٢/٢٠٣ عن أحمد بن أبي فنن ونسب الشعر فيه إلى فضل الشاعرة، ثم عقب أبو الفرج قائلاً، وقد رويت الأبيات الأولى لمحبوبة شاعرة المتوكل.

(٢) المستظرف ص٦٣.

(٣) نساء الخلفاء ص٩٤ - ٩٥ والمستظرف من أخبار الجواري ص٦٤ - ٦٥.

الساعة[1] فوجدتها قد كتبت اسمي على خدها بغالية، فوالله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد فقل في هذا شيئاً، وكانت محبوبة جالسة من وراء الستار تسمع فإلى أن دعي لعلي بالدواة والدرج قالت على البديهة:

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا ... بنفسي مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطراً بكفها ... لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من لمملوك لملك يمينه ... مطيع له فيما أسرّ وأظهرا
ويا من مناها في السريرة جعفر ... سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

قيل: فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف، وأمر المتوكل عريب فغنت في هذا الشعر.

ولما عرضت نبت[2] على الإمام المعتمد على الله امتحنها في الغناء والكتابة، فرضي بما ظهر له من أمرها ثم قال لابن حمدون[3]: قارضها:

فقال: وهبت نفسي للهوى

فقالت غير متوقفة: فجار لما أن ملك

فقال: فصرت عبداً خاضعاً

فقالت: يسلك بسي حيث سلك

فأمر المعتمد بشرائها، فابتيعت بثلاثين ألف درهم.

---

(١) وردت في نساء الخلفاء ص٩٤ (الشاعرة) بدلاً من (الساعة).

(٢) ونساء الخلفاء ص١٠١.

(٣) ابن حمدون: هو محمد بن حمدون ولد سنة ٢٩٧هـ نادم المعتمد وخص به وكان من ثقاته. معجم الأدباء.

وقال أحمد بن أبي طاهر: دخلت على نبت فقلت لها[1]:

قد قلت مصراعاً فأجيزيه، فقالت: قل، فقلت:

يا نبت حسنك يُغشي بهجة القمر
قد كاد حسنك أن يبتزني بصري

فتوقفت أفكر، فسبقتني فقالت:

وطيب نشرك مثل المسك قد نسمت ريا الرياض عليه في دجى السحر

فزادت فكرتي فقالت:

فهل لنا فيك حظ من مواصلة أولا فإني راض منك بالنظر

قال: فقمت عنها خجلاً.

وحدث أبو الفرج الأصفهاني عن عرفه وكيل بدعة قال[2]:

لما قدم المعتضد من الشام ومعه وصيف الخادم[3] دخلت إليه بدعة في أول يوم جلس فيه فقال لها: يا بدعة: أما ترين الشيب كيف اشتعل في لحيتي ورأسي؟ فقالت له: يا سيدي عمرك الله حتى ترى ولد ولدك قد شابوا فأنت في الشيب أجمل من القمر، وفكرت طويلاً ثم قالت هذه الأبيات[4]:

ما ضرك الشيب شيئاً بل زدت فيه جمالا

---

(١) نشوار المحاضرة ٧/ ١٢٨.

(٢) نساء الخلفاء ص٦٥.

(٣) قال السمعاني في الأنساب: (الخادم: هذه اللفظة اشتهر بها الخصيان الذين يكونون في دور الملوك على أبوابهم ويختصون بخدمة الولد) ووصيف هذا مملوك أراد الاستقلال بالبلاد المتاخمة لبلاد الروم سنة ٢٨٧هـ فسار إليه المعتضد وحاربه فأسره في السنة عينها راجع (الكامل/ لابن الأثير/ حوادث ٢٨٧هـ).

(٤) نساء الخلفاء ص٦٥.

قـد هـذبـتـك الـلـيـالـي وزدت فـيـهـا كـمـالا
فـعـش لـنـا فـي سـرور وانـعـم بـعـيـشـك حـالا
تـزيـد فـي كـل يـوم ولـيـلـة إقـبـالا
فـي نـعـمـة وسـرور ودولـة تـتـعـالـى

وقالت فيه وكانت قد دخلت عليه بعد عودته من حرب وصيف:

إن تكن شبت يا مليك البرايا لأمور عاينتها وخطوب
فلقد زادك المشيب جمالاً والمشيب البادي كمال الأديب
فابق أضعاف ما مضى لك في عـ ـز وملك وخفض عيش وطيب

وكان لأشجع[1] الشاعر جارية يقال لها ريم، وكان يجد بها وجداً شديداً وتجد به وكانت تحلف له دائماً أن لا تحكم إن بقيت بعده رجلاً عليها أبداً، فقال يخاطبها[2]:

إذا غمضت فوقي جفون حفيرة من الأرض فابكيني بما كنت أصنع
تعزيك عني بعد ذلك سلوة وإن ليس فيمن وارت الأرض مطمع

فأجابته ريم:

ذكرت فراقاً والتفرق يصدع وأي حياة بعد موتك تنفع
إذا الزمن الغدار فرق بيننا فمالي في طيب من العيش مطمع
فلو أبصرت عيناك عيني أبصرت شآبيب جدر غيثها ليس تقشع

وقال لها مرة وأشار إلى عدم تطاول ود النساء وطلب إليها أن لا تبخل عليه بالدمع تبكيه به وتذكر أيامها معه، وكأنه كان قد أحس بقرب

---

(١) أشجع: هو أشجع بن عمرو من بني سليم، وكان متصلاً بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة ترجمته في الأغاني ١٨/ ١٤٣ وتاريخ بغداد ٧/ ٤٥ وطبقات ابن المعتز ٢٥١.

(٢) أخبار النساء لابن قيم الجوزية ص١١٧.

منيته فما دام لداته قد مضوا فلا شك عنده في أن بقاءه بعدهم قليل:

وليس لأخوان النساء تطاول ... ولكن أخوان الرجال يطول
فلا تبخلي بالدمع عني فإن من ... يضن بدمع عن هوى لبخيل
فمالي إلى رد الشبيبة حيلة ... ولالي إلى دفع المنون سبيل
وإن لداتي قد مضوا لسبيلهم ... وإن بقائي بعدهم لقليل

فردت عليه ريم تدافع عن نفسها وتدعو عليها أشد الدعوات إن لم تكن وفية له، وهكذا تطمئن حبيبها بأنها سوف لا تحول عن الإخلاص له والوفاء لعهده فتقول:

بكى من صروف خطبهن جليل ... ومن ذابه عمر الحياة تطول
ومن ذا الذي ينعى على حدث الردى ... وللموت في أثر النفوس رسول
وكل جليل سوف يلقى حمامه ... وكل نعيم دائم سيزول
لي الويل إن عمرت بعدك ساعة ... وإن كثير الويل لي لقليل
وتزعم أني لا أجود بعبرة ... إذا نجمه قد حان منه أفول
ومن ذا الذي أبكي له إن فقدته ... سواك ومن دمعي عليه يسيل
فلا وقيت ريم إذاً ما تخافه ... إذا ناب خطب للزمان جليل
ولا لقيت يوم القيامة ربها ... وميزانها بالصالحات ثقيل
إذا ما سخا قلب امرىء بمودة ... فقلبي بود عن سواك بخيل

ووصلنا للحرائر من النساء بعض المخاطبات الشعرية والنثرية يمكننا أن نعدها من أدب المخاطبة، وذلك لمتانة تعبيرها وفصاحة ألفاظها وبلاغة أسلوبها.. فمن ذلك[1]: (أن المأمون جلس يوماً للمظالم فكان آخر من تقدم إليه، وقد هم بالقيام امرأة عليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

---

(١) العقد الفريد ١/٢٨ ونهاية الأرب ٦/٢٧٦.

وبركاته. . فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله تكلمي بحاجتك فقالت:

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة عدا عليها فلم يترك لها سبد[1]
وابتز مني ضياعي بعد منعتها ظلماً وفرق مني الأهل والولد[2]

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

قيل، فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخصم، فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين وأومأت إلى العباس ابنه: فقال: يا أحمد بن خالد: خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وظلم العباس بظلمه لها.

ومثل ذلك ما يروي الأبشيهي[3] (أن امرأة دخلت على هارون

---

(١) السبد: الشعر، ويكنى به عن الإبل، وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت في نهاية الأرب ٦/ ٢٧٦ هكذا: عدا عليها فما تقوى به أسد.

(٢) رواية الشطر الثاني من البيت في نهاية الأرب: لما تفرق عنها الأهل والولد.

(٣) المستظرف ص٤٣.

الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت: (يا أمير المؤمنين: أقر الله عينيك وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت) فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت: (من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم) فقال: أما الرجال فقد مضى أمر الله ونفذ فيه قدره، وأما المال فمردوده إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال؛ أتدرون ما قالت هذه المرأة فقالوا ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك. أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾. وأما قولها: أتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تـم أمـر بـدا نـقـصـه ... تـرقـب زوالاً إذا قـيـل تـم

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾.. فتعجبوا من ذلك..

وفي هذا النص دلالة على سعة اطلاع هذه المرأة وعلى براعتها في الذم بما يشبه المدح قد يقال إن دلائل الصنعة بادية فيه فهو أشبه بنادرة وضعها فقيه، ولكنه يدل على كل حال أن المرأة استطاعت أن توجد لنفسها في ذلك العصر مكاناً مرموقاً من بعض المجالس والمناظرات ودواوين المظالم بفضل ذكائها وأدبها وثقافتها.

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله بن الحسين اعترضته (أم سلمة) امرأته ومعها صبيان فقالت[1]: أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناي منه، أيتمهما سيفك وأضرعهما[2] خوفك، فإن رأيت أن تعطف

---

(١) نهاية الأرب ٥/ ١٣٧ وتاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٣ والبصائر والذخائر ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣ وجمهرة خطب العرب ٣/ ٤٠ وزهر الآداب ١/ ٩٦ وفيها اختلاف في اللفظ.

(٢) اضرعهما: ضرع: خضع وذل يقال: أضرعته إليه الحاجة. اللسان/ ضرع.

عليهما لشوابك القرابة وأواصر الرحم، وألا تصغر خدك لهما فتتبع الأولى الأخرى فافعل.

فقال المنصور: هكذا والله أشتهي أن يكون كلام نساء قريش، يا غلام أردد على ولد محمد ضياع أبيهما، فردت وأحسن إليهما.

والحق أن كتب الأدب تزدحم بمثل هذه الأخبار والنوادر والحكايات وكلها تدل دلالة واضحة على الدور الفعال الذي كانت تقوم به المرأة في أدب المجالس والمخاطبات والظلامات. ولم يقتصر الأمر على الجواري والإماء في قصور الخلفاء كما ذكرنا بل كان عاماً في المجتمع النسوي الذي كان له حظ من الثقافة الأدبية منذ العصر الجاهلي والإسلامي.

الفصل الثاني

أدب المراسلات

لا نقصد بأدب المراسلات هنا الرسائل الديوانية وغير الديوانية ذوات الأغراض المختلفة التي لها علاقة بشؤون الدولة كرسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، ولا نعني بها أيضاً الرسائل الأدبية المتنوعة التي كتبها الجاحظ مثلاً، بل نقصد المكاتبات التي كان يدبجها يراع المرأة في الشؤون والموضوعات والمواقف ذات الصلة الوثيقة بحياتها الخاصة أو موقعها الاجتماعي المتواضع. . .

صحيح أننا قد نجد رسائل نسائية ذات علاقة بالسياسة كرسائل السيدة زبيدة وأم الشريف إلا أن الغالب على مكاتبات النساء والجواري منهن بصورة خاصة وعلى مطارحاتهن الشعرية والنثرية تحركها في دوائر الحب وما يتصل به من وصل وهجر وعتاب واستعطاف وجفاء وحنين وقطيعة ومصالحة. . إلخ. ويبدو أن إعداد المرأة الثقافي والاجتماعي وبخاصة الجواري، اهتم أول ما اهتم بتزويدها المعارف الأدبية اللازمة بطراز الحياة التي تحياها الزوجة الحرة أو الجارية المملوكة، وهو طراز معروف لا يتجاوز في الغالب حدود الحياة المنزلية لطبقة الخاصة، وهي حياة انغمرت في الترف وبما ناسب حياة الترف من آداب ومواصفات أخلاقية واجتماعية. . ولهذا كان الشعر ولا سيما شعر الغزل والحب أهم ما أتقنته المرأة من معارف.

وطبيعي أن نستثني هنا حياة القيان لأن حدودها تتجاوز العلاقة بالبيت ورب البيت أو بالسيد إلى العلاقات بطلاب الأنس واللذة والحب وفي مقدمة هؤلاء الشعراء والكتّاب وسائر عشاق الأدب، وأهل الظرف من المترددين على المقينين الذين كانوا أشبه بسماسرة النساء وأصحاب

الملاهي في زماننا هذا، ولذا أكثرت أخبار الجواري والقيان وكثر أدبهن في كتب الظرف والظرفاء[1].

لا نقصد إذن بـ (المراسلات) النسائية في ذلك العصر ما أطلق عليه مؤرخو النثر العرب مصطلح الرسائل، ولا نعني أيضاً أن موضوعات المكاتبة النسائية تشبه موضوعات رسائل عبدالحميد وابن المقفع والجاحظ بل نعني بها الرسائل والمكاتبات القصيرة التي هي من نوع المراسلات الشخصية والمراسلات الأدبية القصيرة.

وطبيعي أن يكثر هذا النوع من المراسلات والمكاتبات في العصر العباسي لكثرة الجواري ولازدهار الحياة الاجتماعية والأدبية، ولازدياد العناية بتثقيف النساء من جوار وإماء ولانتشار الحضارة وارتفاع مستويات الثقافة بصورة عامة.

وسنلاحظ أن هذه المكاتبات من ناحية الشكل قصيرة مجملة يندر أن تخرج عن النثر الموجز وعن العبارات القصيرة، وبعض أبيات الشعر المناسبة، وهي بعيدة عن التكلف والتصنع والتصنيع في صياغة العبارة، وتغلب عليها السهولة والليونة في الأسلوب.

أما من حيث المضمون فهي لا تعدو ما تضمه دائرة العلاقة بين الرجل والمرأة من الحب والمشاعر والمواقف والأحوال المتعلقة بذلك، وقد ازداد الاهتمام بهذا النوع من المكاتبات في العصر العباسي، وعني به المصنفون والمعنيون بالتراجم والأخبار، وبخاصة أخبار النساء حيث لا يكاد يخلو كتاب أدبي كبير من نادرة أو حكاية أو رسالة نثرية وشعرية من هذا النوع.

ولا نستطيع في فصل صغير كهذا أن نستقصي أهم ما أنتجته المرأة

---

(١) ينظر الموشى (الظرف والظرفاء) للوشاء.

أو نسب إليها لأن الإكثار منه وهو قليل التنوع قد لا يخلو من إملال.. ولكننا نقتصر على الإشارة إلى بعض الشخصيات النسوية المهمة وإلى بعض النماذج المختارة.

رسائل الحرائر:

وممن عرف بالرسائل البليغة: السيدة زبيدة.. ولم يصلنا للأسف الشديد من رسائلها إلا القليل.. إلا أن هذا القليل الذي بين أيدينا يوقفنا على قوة بيانها وفصاحة لسانها. وتمكنها من القول، إضافة إلى عمق إدراكها وبعد نظرها ورصانة تفكيرها.. فعلى الرغم من فداحة مصابها بما وقع بين الأمين والمأمون من خصومة وحرب انتهت بمقتل ولدها الأمين وخلافة المأمون.. لم يقع بين أيدينا ما يشير إلى أن هذه السيدة قد ضيعت زمام عقلها، فتصرفت تصرفاً بعيداً عن الحكمة والوقار.. وإنما كانت دائماً جليلة في قولها، عظيمة في سلوكها بعيدة النظر في مواقفها في الأمور والظروف المختلفة في حالتي القوة والضعف.

فمن ذلك أنه لما نمي الشر بين الأخوين، بعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة علي بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون، فلما أراد علي الشخوص إلى خراسان ركب إلى باب السيدة زبيدة فقالت له[1]:

(يا علي أن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري، فإني على عبدالله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من كروه وأذى، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغارّه[2] على ما في يده والكريم يأكل لحمه ويمنعه[3] غيره، فاعرف لعبدالله حق والده

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦، جمهرة خطب العرب ٣/ ١٠٤.

(٢) غاره: من الغيرة.

(٣) وردت في جمهرة خطب العرب ٣/ ١٠٤ (والكريم يؤكل لحمه ويميته غيره).

وأخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهقه بقيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً، ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوه في المسير، ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراده، ثم دفعت إليه قيداً من فضة، وقالت: إن صار في يدك فقيده بهذا القيد، فقال لها: سأقبل أمرك وأعمل بطاعتك).

يتضح من هذا النص رصانة تفكير السيدة، زبيدة وبعد نظرها واحترامها لإخوّة المأمون للأمين وبنوته للرشيد وإشفاقها على أن يصيبه أذى أو مكروه من سوء المعاملة أو التقصير في احترامه.

ومما يؤكد حكمتها وبعد نظرها أنه لما قتل محمد الأمين دخل بعض خدمها فقال لها: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد؟ فقالت ويلك وما أصنع؟ فقال: تخرجين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: أخسأ لا أم لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال.. ثم أمرت بثيابها فسودت ولبست مسحاً من شعر ودعت بدواة وقرطاس وكتبت إلى المأمون[1]:

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
أصبتُ بأدنى الناس مني قرابة ... ومن زال عن كبدي فقل تصبري
أتى طاهر لا طهر الله طاهراً ... وما طاهر في فعله بمطهر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وخرّب أدؤري
يعز على هارون ما قد لقيته ... وما نالني من ناقص الخلق أعور

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٢٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٣.

فإن كان ما أسدى لأمر امرأته صبرت لأمر من قدير مقدر[1]

(وقيل إن المأمون لما قرأ شعرها بكى ثم قال: اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان (والله ما أمرت ولا رضيت) اللهم جلل قلب طاهر حزنا)[2].

ولما قدم المأمون بغداد بعثت أم جعفر إلى أبي العتاهية وقالت: أحب أن تقول أبياتاً تعطف بها أمير المؤمنين إلي فبعث إليه بهذه الأبيات[3]:

ألا إن ريب الدهر يدني ويبعد ويونس بالألاف طوراً ويفقد
أصابت لريب الدهر مني يدي يدي فسلمت للأقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إذ ذهبت يد فقد بقيت والله يا دهر لي يد
إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ولي جعفر لم يفقدا ومحمد

فلما قرأها المأمون بكى وزاد في ألطافها ورق لها وعطف عليها ومن الرسائل النثرية التي بعثتها السيدة زبيدة إلى المأمون بعد أن قتل (طاهر بن الحسين) ابنها الأمين، وهي صورة بليغة من أساليب الاستعطاف الممزوجة بالعتاب[4]:

(كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عظم، صغير في جنب عفوك، وكل زلل وإن جل حقير عند صفحك، وذلك الذي عودك الله فأطال مدتك

---

(١) وردت الأبيات في تاريخ الطبري: وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر (تاريخ الطبري) ١٠/ ٢١٣.
وورد في ديوان أبي العتاهية (ص١٥٨) أن السيدة زبيدة أرسلت إليه أن يقول على لسانها أبياتاً يستعطف بها المأمون.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٢٧.

(٣) بغداد في تاريخ الخلافة ص١٢. انظر ديوان أبي العتاهية وأشرنا إليه هنا.

(٤) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ص١١٩ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٤.

وتمم نعمتك وأدام بك الخير، ورفع بك الشر. هذه رقعة الواله ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله طالباً، وفيه راغباً فافعل، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك).
فأجابها المأمون برسالة قال فيها[1]:

(وصلتني رقعتك يا أماه حاطك الله وتولاك بالرعاية ووقفت عليها، وساءني ـ شهد الله ـ جميع ما أوضحت فيها، ولكن الأقدار نافذة والأحكام جارية والأمور متصرفة والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات، والغدر والبغي حتف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه، وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه، وأنا بعد ذلك أكثر مما تختارين، والسلام) وهذه الشواهد قليل من كثير بين ما روته كتب الأدب والتاريخ من رسائل زبيدة وأقوالها، ولعل أظهر ما فيها إضافة إلى الحنكة السياسية والقدرة الأدبية تعبيرها الواضح عن مشاعر الأم والمرأة الناضجة فهي تترقرق بالعاطفة المكبوتة والألم المكظوم، على الرغم مما فيها من حصافة وكياسة و (دبلوماسية) ليست غريبة على شخصية نسوية كبيرة كان لها دور فعال في أحداث عصرها السياسية والاجتماعية. ولا ريب في أن هذه الخصيصة أو الميزة الفنية التي تحملها رسائلها وأقوالها يجب أن تضاف إلى الخصائص التي امتازت بها الرسائل الفنية بصورة عامة والمنسوبة منها بوجه خاص فهي تحمل دائماً ملامح من مزاج المرأة وطابعها وشخصيتها المتميزة.

وللنساء بعض الرسائل في حسن الإشارة والموعظة والتبصير بالأمور السياسية نذكر منه ما كان لأم الشريف (عمة محمد بن أحمد بن

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٥.

عيسى) وكان المعتضد قد أناخ بجنده عام ٢٨٦هـ على (آمد)[١] وحاصرها ووجه (شعلة بن شهاب اليشكري) إليه، فلما اتصل الخبر بأم الشريف تحدثت إليه في أمر ابن أخيها ثم كتبت معه كتاباً إليه[٢] أجزلت فيه الموعظة وأخلصت فيه النصيحة. . وكتبت في آخره هذه الأبيات[٣]:

إقبل نصيحة أم قلبها وجع	عليك خوفاً وإشفاقاً وقل سددا
واستعمل الفكر في قولي فإنك إن	فكرت ألفيت في قولي لك الرشدا
ولا تثق برجال في قلوبهم	ضغائن تبعث الشنآن والحسدا
مثل النعاج خمول في بيوتهم	حتى إذا أمنوا ألفيتهم أسدا.
وداو ذلك والأدواء ممكنة	وإذ طبيبك قد ألقى إليك يدا
أعط الخليفة ما يرضيه منك ولا	تمنعه مالاً ولا أهلاً ولا ولدا
وارود أخا يشكر رداً يكون له	رداءاً من السوء لا تشمت به أحدا

فأخذ شعلة الكتاب وسار به إلى محمد بن أحمد، فلما نظر فيه رمى به إليه ثم قال: يا أخا يشكر: ما بآراء النساء تساس الدول ولا بعقولهن يساس الملك، ارجع إلى صاحبك، فرجع إلى المعتضد وأخبره الخبر وأراه كتاب أم الشريف فأعجبه شعرها وعقلها.

فلما عضته الحرب وجه إلى المعتضد يطلب الأمان فأجابه إليه، ثم وجه المعتضد شعلة بن شهاب في طلب أم الشريف فكتبت إليه بهذه الأبيات[٤]:

قل للخليفة والإمام المرتضى	رأس الخلائق من قريش الأبطح

---

(١) آمد: مدينة من مدن الجزيرة قريب ديار بكر وفي بعض المراجع أنها ديار بكر نفسها.

(٢) لم يقع الكتاب بين أيدينا.

(٣) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٩٣ والمنتظم ٦/ ١٦ ـ ١٧ ومروج الذهب ٤/ ١٧٦.

(٤) المصدر نفسه.

بك أصلح الله البلاد وأهلها بعد الفساد وطالما لم تصلح
وتزحزحت بك قبة العز التي لولاك بعد الله لم يتزحزح
وأراك ربك ما تحب فلا ترى ما لا يحب فجد بعفوك واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها هب ظالمي ومفسدي لمصلح

فسار بالكتاب إلى المعتضد فأعجبته الأبيات، وأمر أن يحمل إليها تخوت[1] من الثياب وجملة من المال، وإلى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك، وكان قد عفا عنه.

وكان للجواري والقيان مكاتبات منثورة ومنظومة، ولعل أكثر ما وصلنا منها مكاتبات عريب المغنية الشاعرة.. وكانت لها رقاع ومكاتبات ذكرها ابن المعتز[2] أشار مراراً إلى أنه قد وقعت له رقاع عريب.. ثم ينقل لنا ما قرأ منها وهي مراسلات في أغراض مختلفة.. منها رقعتها إلى المأمون في تهنئته وقد خرج إلى (فم الصلح) لزفاف بوران:

انعم تخطتك صروف الردى بقرب بوران مدى الدهر
درة خدر لم يزل نجمها بنجم مأمون العلى يجري
حتى استقر الملك في حجرها بورك في ذلك من حجر

وينقل ابن المعتز بعض مراسلاتها النثرية إلى (إبراهيم بن المدبر)[3] فيقول: (قرأت في مكاتبات لعريب فصلاً أجابت به إبراهيم بن المدبر في مكاتبة بديعة بعيادة)[4]: (قد استبطأت عيادتك ـ قدمت قبلك

(١) التخوت: جمع تخت بالفتح، وهو وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) الأغاني ٢٢/١٦٩ والمستظرف من أخبار الجواري ص٣٧.

(٣) إبراهيم بن المدبر: وزير من الكتاب المترسلين الشعراء من أهل بغداد استوزره المعتمد العباسي سنة ٢٦٩هـ.

(٤) الأغاني ٢٢/١٦٩.

ـ أستديم اللّه نعمه عندك). . قال وكتبت إليه أيضاً:

(أستوهب اللّه حياتك، قرأت رقعتك المسكينة، التي كلفتها بمسألتك عن أحوالنا، ونحن نرجو من اللّه أحسن عوائده عندنا، وندعوه ببقائك ونسأله الإجابة، فلا تعود نفسك ـ جعلني اللّه فداءها هذا الحفاء والثقة مني بالاحتمال وسرعة الرجوع)[1].

وكتب إليه وقد بلغها صومه يوم عاشوراء:

(قبل الله صومك، وتلقاه بتبليغك لما التمست، كيف ترى نفسك ـ نفسي فداؤها ـ ولم كدرت جسمك في آب أخرجه الله عنك في عافية فإنه فظ غليظ، وأنت محرور، وإطعام عشرة مساكين أعظم لأجرك، ولو علمت لصمت لصومك مساعدة وكان الثواب في حسناتك دوني لأن نيتي في الصوم كاذبة)[2].

ولها معه مراسلات كثيرة في مختلف الأغراض والمناسبات[3].
وعرف عنها كذلك أنها أحبت محمد بن حامد فكانت لها معه مراسلات ينقلها أبو الفرج عن ابن المعتز الذي روى أنه لما توفي محمد بن حامد عثر في تركته على سفط[4] مختوم ففض الخاتم وفتحه فإذا فيه رقاع عريب فقرئت فكان منها قوله[5]:

ويلي عليك ومنكا أوقعت في الحب شكا
زعمت أني خؤون جوراً عليّ وإفكا

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه ٢٢/ ١٧٠.
(٣) ينظر الأغاني ٢٢/ ١٦٩ ـ ١٧٣.
(٤) السفط، الذي يعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء (اللسان/ سفط).
(٥) الأغاني ٢١/ ٧٧.

إن كان ما قلت حقًّا أو كنت أزمعت تركا
فأبدل الله ما بي من ذلة الحب نسكا

وكتبت إليه تستزيره، فكتب إليها: (إني أخاف على نفسي) فكتبت إليه تقول:

إذا كنت تحذر ما تحذر وتزعم أنك لا تجسر
فما لي أقيم على صبوتي ويوم لقائك لا يقدر
تبينت عذري وما تعذر وأبليت جسمي وما تشعر
ألفت السرور وخليتني ودمعي في العين ما يفتر

وممن عرف بالمراسلات النثرية والشعرية واشتهر بالقدرة الفائقة على الكتابة[١] فضل الشاعرة، حتى لقد قيل إن (سعيد بن حميد)[٢] كان قد سئل: لعلك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك). فأجاب السائل ـ وهو يضحك ـ ما أخيب ظنك ـ ليتها تسلم مني لا آخذ كلامها ورسائلها، والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك)[٣]. وقال ابن المعتز: (وكان سعيد يقول بعد موتها: (ما رسائلي المدونة عند الناس إلا من إنشائها)[٤].

ورغم أنه قد يفهم في إجابة سعيد بن حميد بهذه الإجابة وثنائه على رسائل فضل وبراعتها فيه أنه أراد بذلك ضرباً من المجاملة، ونوعاً من الإخلاص لخليلته[٥] فهو يدل على براعتها فيها من جهة وعلى جودة

(١) الأغاني ١٨/ ١٠١.
(٢) سعيد بن حميد: كاتب مترسل قلده المستعين العباسي ديوان رسائله، شعره رقيق (الأعلام ٣/ ١٤٦).
(٣) نساء الخلفاء/ ص٨٨.
(٤) طبقات الشعراء ص٤٢٦.
(٥) رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص٣٩.

الرسائل ومتانتها من جهة أخرى.

وكان بين الشاعرة وبين سعيد بن حميد مواصلة وحب وقد صورا مواقفهما في ذلك بالكثير من المراسلات الشعرية والنثرية التي تبادلاها.

كتبت إليه مرة، وكان كما يبدو قد انشغل عن مواصلتها:

(فإن قطعت عنا عادة البر تمسكنا بعادتنا في الشكر، وحملنا الذنب على الدهر وإن تكن الأخرى فلم نعد الظن ولم تأت بديعاً من الأمر)[1].

ويبدو أن ارتباط فضل بقصر الخلافة كان ينغص عليها وعلى سعيد كثيراً من لذة هذه العلاقة[2]، فهي بحكم كونها جارية من جواري المتوكل لم يكن بوسعها أن تكشف عن حبها له وتصرح به، وإنما كانت تضطر في الكثير من الأحيان أن تجامل هذا وذاك باصطناع المودة فتبديها لهم حتى إذا ما خلت إليه بثته هواها ووجدها وما ذاك إلا لخشيتها من سعي الأعداء والوشاة إلى التفريق بينهما في كتاب كتبته إليه[3]:

وعيشك لو صرحت باسمك في الهوى   لأقصرت في أشياء في الهزل والجد
ولكنني أبدي لهذا مودتي   وذاك وأخلو منك بالبث والوجد
مخافة أن يغري بنا قول كاشح   عدو فيسعى بالوصال إلى البعد

فكتب إليها سعيد:

تنامين عن ليلي وأسهره وحدي   وأنهى جفوني أن تبثك ما عندي
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته   بنا فانظري ماذا على قاتل العمد

---

(١) المستظرف ص٥٤.

(٢) رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص٢١.

(٣) الأغاني ١٩/ ٢٦٣.

ورغم اشتهار كل منهما بحب الآخر، فإن ذاك لم يمنع من أن يكون لكلّ منهما أحباؤه وعشاقه، وهو الأمر الذي شاع في العصر، فقد كان للرجال قلوب طامحة لا تكتفي بالقليل من الأحباب فهي قُلّب تتنقل بينهم وتجول في مسارح اللهو والعبث والفتنة والجمال.. وكذلك كان أمر الجواري والقيان غالباً ما يتصيدن هوى الرجال وقلوبهم، ويصارحن كلاً على انفراد بالعشق واللوعة والصبابة، وهن في ذلك مشركات في الهوى متاجرات بالحب[1].

وكان من أمر سعيد بن حميد أنه عشق جارية من القيان وبلغ ذلك (فضل) فكتبت إليه تقول[2]:

يا حسن الوجه سيىء الأدب	شبت وأنت الغلام في الطرب
ويحك إن القيان كالشرك المنصـ	ـوب بين الغرور والعطب
لا يتصدّين للفقير ولا	يطلبن إلاّ معادن الذهب
بينا تشكى هواك إذ عدلت	عن زفرات الشكى إلى الطلب
تلحظ هذا وذاك وذا	لحظ محبّ بعين مكتسب

فهي تحذره من القيان وتقول له إنهن كالشرك الذي ينصب لطلب معادن الذهب، وتصور له أمرهن مع ذوي الغفلة والغرور من الرجال وكيف أنهن يخدعنهم بالقول والعواطف وكيف يوزعن نظراتهن بين هذا وذاك لأطماعهم فيهن ودعوتهم إلى حبهن. وكأنها ليست مثلهن في ذلك، وقد دل شعرها على كونها تفعل ما يفعلن.

قيل إنها اجتمعت في مجلس مع سعيد بن حميد وبنان المغني،

---

(١) الموشى ٢/١١٦ ـ ١٢٨.

(٢) الأغاني ١٨/ ١٠٠، والمستظرف من أخبار الجواري ص٥٥ والموشى ٢/ ١٢١ مع اختلاف في اللفظ.

فطمح نظرها إلى بنان وأقبلت عليه بوجهها وحديثها حتى لامها سعيد في ذلك فكتبت إليه في المجلس تقول[1]:

يـا مـن أطـلـت تـفـرسـي ... فـي وجـهـه وتـنـفـسـي
الـويـل مـن مـتـدلـل ... يـزهـو بـقـتـل الأنـفـس
هـبـنـي أسـأت ومـا أسـ ... ـأت بـل كـأقـرار الـمـسـي
أحـلـفـتـنـي أن لا أسـ ... ـارق نـظـرة فـي مـجـلـسـي
فـنـظـرت نـظـرة مـخـطـىء ... أتـبـعـتـهـا بـتـفـرسـي
ونـسـيـت أنـي قـد حـلـفـ ... ـت فـمـا عـقـوبـة مـن نـسـي؟

فقام سعيد فقبل رأسها، وقال: لا عقوبة عليه، بل نحتمل هفوته ونتجاوز عن إساءته[2].

وكتب إليها بعض من كانت تجتمع به في مجلس الخليفة[3]:

ألا ليت شعري فيك هل تذكرينني ... فذكراك في الدنيا إليّ حبيب
وهل لي نصيب من فؤادك ثابت ... كما لك عندي في الفؤاد نصيب
ولست بموصول فأحيا بزورة ... ولا النفس عند اليأس عنك تطيب

فأجابته فضل بأنها صبة به وبأنه مصوّر في قلبها حين يغيب عنها فكأنه نصب عينها وكتبت إليه تقول:

نعم وإلهي إنني بك صبّة ... فهل أنت يا من ـ لا عدمت ـ مثيب
لمن أنت منه في الفؤاد مصور ... وفي العين نصب العين حين تغيب

---

(١) الأغاني ١٨/ ١٠١ والمستظرف ص٥٦ ومحاضرة الأبرار ص١٢٨، ورسائل سعيد بن حميد ص٢٦.

(٢) الأغاني ١٨/ ١٠١.

(٣) المصدر نفسه.

فشق بوداد أنت مظهر مثله على أن بي سقماً وأنت طبيب

وللقيان والجواري مراسلات ورد بعضها في الأغراض الخاصة التي تستدعي الظروف الكتابة فيها.. وجاء أكثرها في الحب والغزل وفي العتب والتشوق إلى اللقاء...

فالشاعرة عنان وكانت تطمح إلى أن يجعلها الرشيد من ضمن جواريه وقيانه كتبت إلى الفضل بن الربيع كتاباً تستحثه فيه أن يشفع لها لدى الرشيد ليشتريها وقالت فيه[1]:

كن لي هديت إلى الخليفة شافعاً بوركت يا ابن وزيره من معلم
حث الإمام على شرائي وقل له ريحانة ذخرت لأنفك فاشمم

ولم تحصل على إربتها في شراء الرشيد لها.. وكتبت إلى يحيى بن خالد قصيدة في مدحه والثناء عليه ثم ختمتها بعرض طلبها في أن يمن عليها بالسعي في شرائها كما سبق له أن منّ على اثنتين من زميلاتها فصفت لهما الموارد العذبة بذلك[2] فقالت:

مننت على أختي منك بنعمة صفت لهما منها عذاب الموارد
فمن[3] لي بما أنعمت منك عليهما وقاك إله الناس كيد المكايد
أعوذ من الحرمان منك بخالد وطيب تراب فيه أعظم خالد[4]

وكتبت عنان إلى أبي النضير وكان قد كتب إليها يدعوها للقائه بقوله[5]:

---

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ١/١٢٦، والمحاسن والأضداد ص١٥٦.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢١.

(٣) هكذا وردت ولا يستقيم الوزن إلا بتخفيف النون وقد تكون فمر لي أو فمن بما أنعمت. طبقات ابن المعتز ص ٤٢٢.

(٤) لم يرد البيت الأخير في طبقات ابن المعتز وأورده المحقق في الحاشية عن (الشعراء تيمورية).

(٥) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ص١٨٩.

إن لـي حـاجـة فـرأيـك فـيـهـا ... لـك نـفـسـي الـفـدا مـن الأوصـاب
وهـي لـيـسـت مـمـا يـبـلـغـه غـيـري ... ولا أسـتـطـيـعـه بـكـتـاب

فما كان منها إلا أن أجابته بقوله: إنها مشغولة عنه بمن لا تهواه، وبينت له كيف يجب عليه أن يسر الأمر الذي يريده منها لأحد خلصائه وأن يتحاشى جعله في كتاب لئلا يفتضح أمرهما فقالت:

أنـا مـشـغـولـة بـمـن لـسـت أهـوا ... وقـلـبـي مـن دونـه فـي حـجـاب
فـإذا مـا أردت أمـراً فـأسـرر ... ولا تـجـعـلـنـه فـي كـتـاب

وكثرت مراسلات الجواري لدعوتهن إلى مجالس اللهو ومن ذلك ما كتبه (أبو عامر بن بنق) إلى هند جارية أبي محمد بن مسلمة الشاطبي يدعوها للحضور قائلاً[1]:

يـا هـنـد هـل لـك فـي زيـارة فـتـيـة ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا ... نـغـمـات عـودك فـي الـثـقـيـل الأول

فكتبت إليه على ظهر الرقعة:

يـا سـيـداً حـاز الـعـلا عـن سـادة ... شـم الأنـوف مـن الـطـراز الأول
حسبي من الإسراع نحوك أنني ... كنت الجواب مع الرسول المقبل

ولابن المعتز مراسلات شعرية مع بعض الجواري ننقل منها ما جاء في كتاب إلى خزامى جارية الضبط المقين وكان قد أهدى إليها ورداً يذكرها به بما كان بينهما من مودة ويأسف لإظهارها الزهد والتوبة فقال[2]:

---

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص٧٣.

(٢) الأغاني ١٠/ ٢٩٤ والمستظرف من أخبار الجواري ص٢١ ـ ٢٢.

رأيتك قد أظهرت زهداً وتوبة فقد سمحت من بعد توبتك الخمر
فأهديت ورداً كي يذكر عيشة لمن لم يمتعنا ببهجتها الدهر

وجاء في الأغاني أن (خزامى) هذه كانت تنادم ابن المعتز وهو حدث ثم تركت النبيذ، وكانت مغنية محسنة وشاعرة ظريفة فراسلها مراراً فتأخرت عنه[1] . . ثم أجابته أخيراً برسالة شكرته فيها على حسن قريضه فيها، واعتذرت إليه اعتذاراً رقيقاً مؤدباً قائلة إن ألسن الدهر قد زجرتها عن المضي في سبيل اللهو والمجون وأن شرخ شبابها قد ولى فلم يبق لها غير وجوب لزوم الإنابة والزهد فقالت:

أتاني قريض يا أميري محبر حكى لي نظم الدر فُصّل بالشذر
أأنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي وقد أفصحت لي ألسن الدهر بالزجر
وآذنني[2] شرخ الشباب ببينه فيا ليت شعري بعد ذلك ما عذري

وبعث محمد بن جعفر بن موسى الهادي برقعة إلى جارية لبعض النخاسين ببغداد وكانت بارعة الجمال ظريفة اللسان فيها أبيات يتغزل بها ويستعطفها ويرققها إليه فأجابته بقولها[3]:

وما زلت تقصيني وتغري بي الردى وتهجرني حتى مرنت على الهجر
وتقطع أسبابي وتنسى مودتي فكيف ترى يا مالكي في الهوى صبري
فأصبحت لا أدري أيأساً تصبري على الهجر أم جد التصبر لا أدري

وكتبت (مؤنسة) جارية المأمون رسالة إليه وكان قد سافر دون أن يحملها معه[4]:

---

(١) المصدر نفسه ١٠/٢٩٤.

(٢) وردت في المستظرف (وأدبني) وربما كانت رواية الأغاني أقرب إلى الصحة.

(٣) لباب الآداب ص١٤١ ـ ١٤٢.

(٤) معجم الأدباء ٥/١٧٦.

قد كان عتبك مرة مكتوما فاليوم أصبح ظاهراً معلوما
نال الأعادي سؤلهم لا هنئوا لما رأونا ظاعناً ومقيما
هبني أسأت فعادة لك أن ترى متجاوزاً متفضلاً مظلوما

والذي يلاحظ من هذه الأبيات، ومما ورد على شاكلتها في مراسلات الجواري للخلفاء أن الجواري كن لا يتحرجن في إبداء الحب للخلفاء والتغزل بهم والتشوق إليهم ولا يرى في ذلك أمراً غير مستساغ.

ومثله الرقعة التي بعثت بها محبوبة جارية المتوكل وكان قد دفع إليها تفاحة مغلفة بالغالية، فقبلتها وانصرفت لترسل أبياتاً مع جارية لها في رقعة دفعتها إلى المتوكل، فقرأها وضحك ودفعها إلى من كان في حضرته وكان منهم علي بن الجهم فإذا فيها[1]:

يا طيب تفاحة خلوت بها تشعل نار الهوى على كبدي
أبكي إليها وأشتكي دنفي وما ألاقي من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت من رحمتي هذه التي بيدي
إن كنت لا تعلمين ما لقيت نفسي فمصداق ذاك في جسدي
فإن تأملته علمت بأن ليس لخلق عليه من جلد[2]

وربما كانت عادة إهداء التفاح المعضوض إلى الأحبة وكتابة ما يحلو لهم عليها من شعر أو نثر من مبتكرات العصر.. وفي كتب الأدب والأخبار الكثير من ذلك.. منه ما أورده الخالديان[3] من أن جارية

---

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص٦٤ والأغاني ٢٢/٢٠٢ .

(٢) ورد هذا الخبر في الأغاني ١٩/٢٦٨ ونسب الشعر فيه إلى فضل الشاعرة، ثم عقب أبو الفرج قائلاً:
(وقد رويت الأبيات الأولى لمحبوبة شاعرة المتوكل).

(٣) التحف والهدايا ص٣٥.

ظريفة أهدت إلى فتى كانت تهواه تفاحة معضوضة مكتوباً عليها بماء الذهب:

ليس هذا العض من عيب بها إنما ذاك رسول للقبل

فلما صارت إليه كتب إليها:

تفاحة جاءتك معضوضة قريبة العهد بكفيها
أكرم بها تفاحة أشبهت حمرتها حمرة خديها[1]

ولعل من أجود وأبرع ما كتب في إهداء التفاح رسالة كتبتها إلى المأمون إحدى جواريه.. فدلت فيها على ذكائها وسعة اطلاعها ووفرة علمها.. قالت[2]:

إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك وتواتر ألطافهم عليك، فكرت في هدية تخف مؤونتها وتهون كلفتها، ويعظم خطرها ويجل موقعها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف إلا التفاح، فأهديت إليك منها واحدة في العدد كثيرة في التقرب، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها وأكشف لك عن محاسنها، وأشرح لك لطيف معانيها، وما قالت الأطباء فيها وتفنن الشعراء في أوصافها حتى ترمقها بعين الجلالة وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنه: (أحسن الفاكهة التفاح، فقد اجتمع فيه الصفرة الدرية والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة ولون التبر يلذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والأنف بريحها والفم بطعمها.

---

(١) ورد البيت الأول في الموشى ٢/ ٤٠٤.

تفاحة من عند تفاحة قريبة العهد بكفيها

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٢٧ ـ ٥٢٩.

وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة وقد اجتمع إليه تلاميذه: (التمسوا لي تفاحة أعتصم بريحها وأقضي وطري من النظر إليها). وقال إبراهيم بن هانيء: (ما علل المريض المبتلى ولا مكنت حرارة الثكلى ولا ردت شهوة الحبلى ولا جمعت فكرة الحيران، ولا سكنت حنقة الغضبان، ولا تحبب الفتيان في بيوت القيان بمثل التفاح.

والتفاحة يا أمير المؤمنين إن حملتها لم تؤذك، وإن رميت بها لم تؤذك، وقد اجتمع فيها ألوان قوس قزح من الخضرة والحمرة والصفرة وقال فيها الشعر:

حمرة التفاح مع خضرته أقرب الأشياء من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوة واسقنيها بنشاط وفرح

فإذا وصلت إليك يا أمير المؤمنين، فتناولها بيمينك ولا تبعدها عن عينك، ولا تبذلها لخدمك، فإذا طال لبثها عندك ومقامها بين يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه ويقصدها بصرفه فتذهب بهجتها وتحيل نظرتها، فكلها هنيئاً مريئاً غير داء مخامر[1] والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته).

وربما كان انتشار هذه العادة في إهداء التفاح المعضوض راجعاً إلى التكنية عن إرسال القبل، وقد صرحت إحداهن بذلك وكانت قد أهدت إلى فتى كانت تهواه تفاحة معضوضة مكتوباً عليها[2]:

ليس هذا العض من عيب بها إنما ذاك رسول للقبل

ونخلص مما مرّ بنا إلى أنه كان للجواري من المراسلات النثرية والشعرية.. مما يدل على أن شعر المقطعات القصيرة الخفيفة الوزن

(١) هذا صدر بيت لكثير عزة:
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت
(٢) التحف والهدايا ص٣٥.

الظريفة المعنى كان سمة العصر. وقد سبق أن مر بنا نماذج كثيرة في أدب المجال والمناظرات تكاد تقترب في أسلوبها ومعانيها من أدب المراسلات.. فهي في الغالب أحاديث خفيفة في الحب والغرام أو الصد والهجران أو العتب أو الدعوة إلى اللقاء أو غير ذلك مما كانت تستلزمه حياة اللهو مع الجواري والقيان.

أدب التوقيعات:

ولم تقتصر التوقيعات على الخلفاء وكبار الأمراء والوزراء والكتاب من الرجال بل لكبريات النساء[1] نصيب منها ممن شاركن في شؤون الدولة وسياستها وممن كان لهن دور في توجيه الأمور في السياسة والأموال وفي القضاء والعلاقات الاجتماعية.. كالخيزران زوجة الخليفة المهدي (ت٢١٠هـ) والسيدة زبيدة (أم جعفر) زوج الخليفة الرشيد (٢١٦هـ) وفاطمة القهرمانة (٢٩٩هـ) وثمل القهرمانة (٣١٧هـ) وسواهن.

وقد وقفنا على آثار لهن في أدب التوقيعات إلا أن الذي بين أيدينا منه رغم أنه لا يعطينا فكرة واضحة عن هذا النوع من الأدب عند النساء إلا أنه يدل على أن المرأة كثيراً ما كانت تشارك في إدارة الأمور ويكون رأيها الحد الفاصل في توجيهها..

وتشير كتب الأخبار والأدب إلى أنه كان لهاتيك السيدات كتاب للإنشاء يتولون تحرير الرسائل وتعميم التعليمات التي تصدر عنهن إلى العمال والولاة، فقد كان عمر بن مهران كاتباً مختصاً بالكتابة للخيزران ولم يكتب لغيرها[2]، وكان (علي بن داود) كاتباً للسيدة زبيدة[3]، وذكر

---

(١) أدب التوقيعات ص١٥٢.

(٢) الوزراء والكتاب ص٢١٨.

(٣) الفرج بعد الشدة ١/ ١٢١.

أن لها كاتباً اسمه (مسلم بن سعدان)[1] وإليه أشار الرشيد بقوله حينما قال لأم جعفر: قد تهتك كاتبك سعدان فاعزليه فقالت: وبأي شيء تهتك؟ قال: بالمرافق والرشا حتى قال فيه الشاعر:

صب في قنديل سعـ ـدان مع التسليم زيتا
وقناديل بنيه قبل أن تخفى الكميتا

فقالت له: وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن عبدالرحمن أشنع من هذا، فقال: وما قال؟ قالت: قال:

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل أبي صالح
تراه في مجلسه أخوصا من لمحه للدرهم اللائح

فقال: كذب على كاتبي وكاتبك.

وكان (سباع) كاتباً لعلية بنت المهدي، وكان لحمدونة بنت الرشيد كاتب[2] يتولى أمورها المالية، وكان (أبو يوسف عبدالرحمن بن محمد)[3] كاتباً للسيدة أم المقتدر.

ولم يصلنا الكثير من توقيعات النساء، وربما ضاعت ضمن ما ضاع من أدبهن، ولم يصلنا منها إلا هذا النزر القليل مبعثراً في كتب التاريخ والأدب والأخبار، حتى لقد كان من العسير جمعها والوقوف على ما فيها..

وأكثر توقيعات النساء التي وصلتنا قائمة على المعاملات المالية في إدارة أملاكهن وأموالهن. ومما لا شك فيه أنه كان لهن توقيعات في السياسة والقضاء لأولئك اللائي تولين الحكم والقضاء بصورة مباشرة..

---

(١) بغداد في تاريخ الخلافة ص١٣٦ والوزراء والكتاب.

(٢) الوزراء والكتاب ص١٦٥.

(٣) تجارب الأمم ١/ ١٦٤.

وقد جاءت إشارات كثيرة إلى ذلك منها أن (فاطمة) القهرمانة كانت من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان في عهد المقتدر كانت توقع على مراسم الدولة[1].

كما عرف عن (ثمل) القهرمانة أنها كانت الساعد الأيمن لأم المقتدر في شؤون الدولة وسياستها، وكانت تجلس بالرصافة للمظالم والنظر في كتب الناس، فكانت توقيعاتها تخرج على سداد وينتفع بذلك المظلومون[2].

ولعل من المفيد أن ننقل بعض النماذج لتوقيعات النساء الحرائر لئلا يغفل هذا الجانب من أدب المرأة، نذكر منه توقيعاً للخيزران زوجة المهدي وكان كاتبها (عمر بن مهران) قد كتب إليها وأكثر الاعتداد بنفسه فكتبت إليه توقيعاً قالت فيه: (وقد وصل كتابك تذكر وتذكر، ولا تستكثرن شيئاً يكون منك، واستدم أحسن ما أنت عليه يدم أحسن ما عندي لك، واعلم أنه قل شيء لم يزد إلا نقص، والنقصان يمحق الكثير كما ينمى على الزيادة القليل)[3].

وكانت السيدة زبيدة كاتبة بليغة عميقة الاطلاع مدركة للأمور. قيل إن عاملاً لها كتب إليها كتاباً فأرجعته إليه بعد أن وقعت في أسفله: (أصلح كتابك وإلا صرفناك من عملك) فلما عاد الكتاب إلى العامل تأمله فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه الدعاء لها (وأدام كرامتك) فقال: (إنها تخيلت أنك دعوت عليها فإن كرامة النساء في دفنهن) فغير ذلك وأعاد الكتاب فقبلته)[4].

---

(١) تجارب الأمم: ١/ ٤٠.

(٢) المنتظم: ٦/ ١٤٨.

(٣) الوزراء والكتاب ص٢٢١.

(٤) صبح الأعشى ١/ ٦٤.

وربما فضلت توقيعات السيدة زبيدة على بعض توقيعات الرجال الذين عرفوا بالبلاغة.. فقد ذكر لعمرو بن مسعدة كاتب المأمون توقيعات جعفر بن يحيى وكان مشهوراً بدقته وبلاغته في التوقيعات فقال: (قرأت لأم جعفر[1] توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني)[2].

وقيل إن داود[3] الكاتب كان قد حبس لها وكيلاً وجب عليه في حسابه مائة ألف درهم فكتب الوكيل إلى عيسى بن فلان وسهل بن الصباح[4]، وكانا صديقين له يخبره فسارا ليتكلما له فلقيهما الفيض بن صالح[5] فسألهما عن خبرهما فأخبراه فقال: اكتب إلى أم جعفر، فكتب إليها يعلمها خبر القوم وحضورهم ومسألتهم في الوكيل، فوقعت في الرقعة أن (يعرفهم ما وجب لها عليه من المال ويعلمهم أن لا سبيل إلى إطلاقه دون أداء المال) فأقرأهم داود التوقيع واعتذر إليهم، فقال عيسى وسهل بن الصباح: قد قضينا حق الرجل فقد أبت أم جعفر أن تطلقه إلا بالمال فقوموا ننصرف. فقال الفيض بن صالح: أنما جئنا لنؤكد حبس الرجل؟ قالا له فماذا نصنع؟ قال: نؤدي عنه المال، ثم أخذ الدواة فكتب إلى وكيله في حمل ما على الرجل كتاباً دفعه إلى داود كاتب أم جعفر وقالا: قد أجزنا في المال فادفع إلينا صاحبنا، قال: لا سبيل إلى ذلك حتى أعرفها الخبر. قال: فكتب إليها الخبر فوقعت في رقعته. (أنا

---

(١) أدب الكتاب ص٣٩.

(٢) صبح الأعشى ١/ ٦٤.

(٣) جاء في الوزراء والكتاب ص١٦٥ والفرج بعد الشدة ١/ ١٢١ ذكر كاتب (أم جعفر) بهذا الاسم وأورد صاحب الفهرست الاسم بـ (علي بن داود) وعرفه بأنه كاتب زبيدة بنت جعفر ص١٨٠ ولا نشك في أنه هو المقصود بـ (داود) عند الجهشياري والتنوخي.

(٤) يبدو أنهما كانا من أصدقاء الوكيل.

(٥) الفيض بن صالح: أحد الكرماء المشهورين في العصر العباسي.

أولى بالمكرمة من الفيض بن صالح فأردد عليه كتابه بالمال وادفع إليه الرجل وقل له: لا يعاود مثل ما كان منه)[١].

ومن أمثلة التوقيعات في أمور المال ما أورده صاحب الأغاني أنه كان لعلية بنت المهدي وكيل يقال له سباع، فوقفت على خيانته فضربته وحبسته فاجتمع جيرانه إليها فعرفوها جميل مذهبه وكثرة صدقه وكتبوا بذلك رقعة فوقعت فيها[٢]:

ألا أيهذا الراكب العيس بلغن سباعًا وقل إن ضمّ داركم السفر
أتسلبني مالي وإن جاء سائل رققت له إن حطّه نحوك الفقر
كشافية المرضى بعائدة الزنى تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر

ووصلتنا بعض التوقيعات للجواري تتسم بالخفة والظرف وكانت تكتب في أسافل الرسائل التي تصلهن من عشاقهن.. فمن ذلك ما ذكره صاحب الديارات[٣] من أن (مصابيح)[٤]، الجارية غاضبت يوماً عبد الله بن العباس في شيء بلغها عنه فرام أن يترضاها، فأبت فكتب إليها رقعة يحلف فيها أنه ما أتى شيئاً مما أنكرته ويدعو على من ظلم فلم تجبه عن شيء مما كتبه ووقعت تحت الدعاء: (على الظالم آمين).

وعن ابن جمهور القمي[٥] أنه كتب إلى الجارية (زاد مهر)[٦] وكانت قد هجرته يا سيدة عبدها، والله والله إن الذي بلغك باطل، لكني

---

(١) الفرج بعد الشدة ص١٢٢١ ـ ١٢٢ والوزراء والكتاب ص١١٥.

(٢) الأغاني ١٠/١٩٣ ـ ١٩٤ وأشعار أولاد الخلفاء ص٦٣.

(٣) الديارات ص٦٧.

(٤) من مغنيات العصر العباسي وهي جارية الأحدب المقين كانت تغني في كثير من شعره وكانت موصوفة بالحسن والإحسان وكان عبدالله بن العباس يهواها.

(٥) ابن جمهور القمي: ينظر الديارات.

(٦) في حكاية أبي القاسم البغدادي، الديارات ص٧١ ـ ٧٥ شيء كثير من أخبار هذه الجارية مع ابن جمهور.

أعترف به طاعة لك.. وأطال في ذكر الأشعار معتذراً إليها.. فما كان منها إلا أنها وقعت على ظهر الرقعة:

(ما لك تغم نفسك، وتتنطع في كتب الأشعار، وجه إلي بالغلالة[1]، وقد اصطلحنا)[2].

ويحدثنا أبو العيناء أنه كان قد عشقته امرأة بالبصرة من غير أن تراه وإنما كانت تسمع عذوبة كلامه، فلما رأته استقبحته وقالت: قبحه الله أهذا هو؟.. فكتبت إليه:

ونبئتها لما رأتني تنكرت   وقالت دميم أحول ما له جسم
فإن تنكري مني احولالاً فإنني   أديب أريب لا عيي ولا فدم

فوقعت في الرقعة... ألِديوانِ الرَّسائِل أردُّك[3]؟

نخلص مما مرَّ بنا أنه كان لسيدات القصور من أمثال الخيزران والسيدة زبيدة وعلية بيت المهدي كتّاب يتولون لهن تحرير الأمور المختلفة التي كانت تمارسها كل منهن... إلاّ أن ما وصلنا من توقيعات لا يعدو إلاّ نزراً يسيراً لا يكاد يوقفنا على صورة واضحة لهذا النوع من الأدب، وإن وجود الكتاب لا يعني أن التوقيعات ليس من إنشائهن، فالتوقيع في الغالب ما يكتبه المسؤول على ما يرفعه الكاتب إليهن.

وواضح أنه لا قيمة كبيرة للتوقيعات التي لا تعدو البت باختصار في شؤون مالية أو لقضاء حاجة أو مطلب من حاجات الناس ومطالبهم. ولكن بعض التوقيعات في الأمور المهمة الأخرى ذات قيمة فنية قد تحاذي توقيعات البلغاء من كبار الكتّاب لاتسامها بالإيجاز الشديد الذي

---

(١) الغلالة: لباس شفاف يلبس تحت الثوب.

(٢) الديارات ص٢٦٩.

(٣) الديارات ص٨٥، ٨٦، وجاءت في نهاية الأرب ٤/ ٢١: (ليس لديوان الرسائل أريدك).

لا يضعف فيها قوة التعبير بل يزيدها قوة، ولدته معانيها ولما تتقيد به من تحفظ تفرضه عليها طبيعة الموضوع وما ينطق الشرع والعرف. أما التوقيعات الشعرية فلها وقع خاص وطعم لذيذ إن صحّ التعبير سواء كان الشعر من نظم الموقع أو من محفوظاته. هذا ولا بدّ من الإشارة في خاتمة هذا الفصل إلى أن التوقيعات لا تقع تحت حصر لكثرة شكاوى الناس وتعدد أنواعها فضلاً عن توالي الدول والعصور. لهذا كان القليل الذي ذكرته المصادر من المختارات التي امتازت عن غيرها بما يحسن أن يمتاز به التوقيع الجيد البليغ. وأول هذه الميزة ألا يجاز غير المخل أي ما نطلق عليه اليوم الإيجاز الفني. وطبيعي أن عمل هذا الإيجاز سمة العصر الفنية. فكانت التوقيعات في البداية لا تتقيد بالسجع إلاّ في القليل النادر حتى إذا تقدمنا مع الأعصر العباسية وجدنا السجع، واستخدام الفنون البديعية التي تفرعت وتشعبت وكثرت تفرض نفسها على التوقيعات. ولكن يجب أن ننتبه إلى التوقيعات النسائية، كانت في العصرين العباسيين الأول والثاني أهم ما تركه لنا الأدب من نتاج في هذا الباب، لغلبة العربية على حياة القصور ودواوين الدولة، ولاهتمام الحكام أنفسهم بالثقافة الأدبية واللغوية العربية، بل إن الأعاجم الذين ظهروا على مسارح الحكم منذ القرن الثالث قد اضطرهم الموقف العام إلى الاستعراب والتثقف بالثقافات الأدبية واللغوية، وقد لاحظ المؤرخون ذلك في حكام العهد البويهي والسلجوقي. وبهذا قلت التوقيعات المنسوبة للنساء في العصور المتأخرة على الرغم من أن بعضهن قد تمتعن بنفوذ واسع وفرض سيطرتهن على بعض الحكام.

الفصل الثالث

فنون شعرية مختلفة

الغزل:

ومن أكثر من شهر بشعر الغزل من الحرائر والجواري علية بنت المهدي، وكانت من أكمل النساء عقلاً وأحسنهن ديناً وصيانة ونزاهة[1]، وكانت من أجمل النساء[2] وأحسن الناس وأظرفهم[3]، رقيقة الشعر لطيفة المعنى حسنة مجاري الكلام ولها ألحان حسان[4].

وهي تمثل الفتاة المنعمة المدللة المحصنة المؤدبة، ذات الحس المرهف، والشعور الفياض، أوتيت المال والسلطان والجمال، إلاّ أنها كانت مثقلة بها.. ورغم كثرة ما ورد على لسانها من شعر الغزل والعبث، إلاّ أني كنت أحس في شعرها مرارة الكبت والحرمان وألمح فيه آيات اليأس، وإنك لتحس من صور الحب في شعرها حبس الكثير من مشاعرها في نفسها..

لقد كان قلبها يفيض بالحب، إلاّ أنها وهي بنت السلطان والجاه لا تستطيع أن تبوح باسم من تحب.. ولهذا رأيناها كثيراً ما تكني عن حبيبها باسم فتاة فهي مرة تسميها رشأ ومرة زينب ومرة سلمى وأخرى ظل.

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٥٥.

(٢) المحاسن والأضداد ص٢٣٠.

(٣) الأغاني ١٠/ ١٧٢.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء ص٥٥ والأغاني ١٠/ ١٧٢.

إنها وإن استطاعت أن تنفس بهذا الغزل عن مشاعرها وعواطفها الفياضة إلاّ أنها لم تؤت القدرة على إظهارها صريحة واضحة، فكانت تصدر مثقلة بالآلام والحسرات مفعمة بالكتمان، وكثيراً ما كانت تصرخ صرخات مدوية تعبّر فيها عن ذلك فتقول[1]:

كتمت اسم الحبيب عن العباد ورددت الصبابة في فؤادي
فوا شوقي إلى بلد خليٍّ لعلي باسم من أهوى أنادي

إنها تتلهف إلى بلد خلي من الناس لتستطيع أن تنادي باسم من تهوى فقط.. أليس ذلك غاية الكبت...؟ ألا يتضح في قولها هذا ثقل وطأة الناس والمجتمع عليها وهي امرأة.. وهي أخت الخليفة لا يباح لها ولا يقبل منها تردد اسم من تحبه لخوفها ممن حولها..

وقالت[2] معبّرة عن حرمانها وشدة كبتها:

يا ذا الذي أكتم حبِّيه ولست من خوف أسميه
لم يدر ما بي من هواه ولم يعلم بما قاسيته فيه

ولعلية بنت المهدي معان رائعة في هذا الغرض، وجلّ شعرها نشيد حزين من الأناشيد التي تعبر فيها المرأة عن أساها في كبتها وحرمانها ويأسها، ولعل من المفيد أن نورد بعض النماذج لأناشيدها في الحرمان والألم. قالت مشيرة إلى أنها ستمنع طرفها من النظر وتحجبه بالدمع وتكتفي بقلبها الصابر يمتعها بالفكر ويسليها.

سأمنع طرفي أن يلفت بنظرة وأحجبه بالدمع عن كل منظر
وأشكر قلبي فيك حسن بلائه أليس به ألقاك عند التفكر[3]

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٧١ والمستظرف ص٨٢.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص٧١.

(٣) البصائر والذخائر ١/ ٩٠.

إنها لا تريد أن ترى حبيبها ببصرها وإنما تكتفي برؤيته بقلبها وهذا غاية التحمل. . الذي قد يتجاوز الغزل العذري، وربما سمحت لقلبها بأن يبوح لها بالوجد والحب ما دام حديث قلبها إليها غير مسموع من أحد. . . إلاّ أنها تمنع عينيها من الإفصاح بالبكاء لئلا يفتضح أمرها، فتقول[1]:

باح بالوجد قلبك المستهام   وجرت في عظامك الأسقام
يوم لا يملك البكاء أخو الشـ   ـوق فيشفى ولا يردّ السقام

وتعبّر عن شدة ما تلقى من الهوى فتقول إنه قد تشبث بها وأردفها على مركب صعب منه إلاّ أنها محرومة من كل ما يخفف عنها حر الشوق وحرارة الوجد. . قالت[2]:

ألفت الهوى حتى تشبث بي الهوى   وأردفني منه على مركب صعب
كتابي لا يقرى وما بي لا يرى   ونار الهوى شوقاً توقّد في قلبي

ومثله قولها:

أسعى فما أجزى وأظما فما   أروى من البارد العذب
يحملني الحبّ على مركب   من هجركم يا أملي صعب

وقالت معبّرة عن ضعفها ويأسها وانقطاع رجائها في وصال من تحب[3]:

أيا رب حتى متى أضرع   وحتّام أبكي وأسترجع
لقد قطع اليأس حبل الرجا   ء فما في وصالك لي مطمع

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٦٥.
(٢) نفس المصدر ص٨٠.
(٣) نفس المصدر ص٦٨.

بليت بقلب ضعيف القوى وعين تضر ولا تنفع
إذا ما ذكرت الهوى والمنى تحدّر من جفنها أربع

وقالت في سقمها وعظم جهدها[1]:

أرى جسدي يبلى وسقمي باطن وفي كبدي داء وقلبي سالم
فما السقم إلا دون سقم أصابني ولا الجهد إلاّ والذي بي أعظم

وغاية ما يمكن أن نقوله في علية وشعرها أنها كانت صورة واضحة لمعاناة المرأة في المجتمع الشرقي المتزمت.. فهي تعاني من الوجد والألم والشوق ومن حرارة الحب، إلاّ أنها لا تستطيع التصريح ولا الهمس.. ولهذا رأيناها إذا ما همست حرّفت اسم من تحب إلى اسم فتاة مقصودة أو غير مقصودة.. وربما حولت الفتاة حبها في أمثال هذه المجتمعات إلى فتاة فعلاً فقالت فيها الغزل، ويقبل منها ذلك في غير تحفظ أو حذر.

وصوّرت لنا علية مختلف الانفعالات والأحاسيس الواقعية، فهي كبشر له عواطفه.. قد تثور أحياناً فتكشف لنا عن رغبتها في أن تجتاز الحواجز وتمد لنفسها العنان لتجمح في ملذاتها.. أليست ترى القوم حولها في مجتمعها ذاته وقد جمحوا إلى أبعد الحدود، فتقول[2]:

تعالوا ثم نصطبح ونلهو ثم نقترح
ونجمح في ملذاتنا فإن القوم قد جمحوا

إلا أنها لا تلبث أن تعود إلى واقعها مشدودة إليه مكبلة باليأس والقنوط فتقول[3]:

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٦٤.
(٢) نفس المصدر ص٧٦.
(٣) نفس المصدر ص٧٦.

الشوق بين جوانحي يتردد ودموع عيني تستهل وتنفد
إني لأطمع ثم أنهض بالمنى واليأس يجذبني إليه فأقعد

وأكثرت عليه في شعرها من الكناية عمن تحب بفتاة تصرح باسمها حيناً وتبهمه حيناً آخر. . فمما صرّحت به من الأسماء قولها[(١)]:

وجد الفؤاد بزينبا وجداً شديداً متعبا
أصبحت من وجد بها أدعى شقياً منصبا
ولقد كنيت عن اسمها عمداً لكي لا تغضبا
وجعلت زينب سترة وأتيت أمراً معجبا
قالت وقد عزّ الوصا ل ولم أجد لي مذهبا
والله لا نلت المو دة أو تنال الكوكبا

وقالت مكنية عمن تحب باسم سلمى[(٢)]:

أليست سليمى تحت سقف يكنها وإياي هذا في الهوى لي نافع
ويلبسها الليل إذا دجى وتبصر ضوء الفجر والفجر ساطع
تدوس بساطاً قد أراه وأنثني أطاه برجلي كل ذا لي شافع[(٣)]

إن هذا هو غاية القناعة في الحب، وإنه ليقرب من شعر العذريين في العصر الأموي لولا هبوط أسلوبه إلى مستوى السهل المقبول، فهي ترى السعادة في أن يكنها مع حبيبتها سقف واحد ويلبسهما الليل البهيم معاً، وتبصران ضوء الفجر، وتدوسان البساط. . إنها قانعة من الحب بهذه اللقيا. . وهي السعادة لديها. .

---

(١) الأغاني ١٠/١٧٥ وأشعار أولاد الخلفاء ص٦١.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص٦٢.

(٣) في البيت ضرورة شعرية قبيحة، فالصواب (أطؤه).

ومما نسب إلى علية من الصور الشعرية الرائعة في العفة والقناعة باليسير للتخفيف من أوار الحب ولتحسس السعادة واللذة قولها وقد حجّ (رشأ)[1]:

بين الإزارين من المحرم تدليه عقل الرجل المسلم
في قد غصن البان لكنه من طيبات الشجر المطعم
مرّ إلى الركن فزاحمته فالتمس الركن ولم يلثم
وفات بالسبق إلى زمزم وكانت اللذات في زمزم
شربت فضل الماء من بعده فلست أنسى طعمه في الفم

وقد توصلت عليه في شعرها الغزلي إلى القول فى أحكام الحب وفلسفته وبيان أحواله.. فكانت ترى أن الحب إنما بني على الجور.. فإن كان المعشوق منصفاً فقد سمج.. وهي لا ترى عيباً في مذلة المحب فإن تنازله وتذلله لمحبوبه هو المفتاح المؤدي إلى الفرج، وترى أن القليل من الحب الخالص خير من الكثير الممزوج. قالت[2]:

بني الحب على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تعيبن في محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج

وتؤكد الفكرة وتوضحها بالبيتين التاليين إذ تبين أنها تتخذ التذلل في الهوى سبيلاً لإدراك العزة فيه، فلو كانت قادرة على سواه لسوء فعاله

(١) ذكر الصولي أن الأبيات رويت لأبي العتاهية، أشعار الخلفاء ص٧٣. إلاّ أني لم أعثر عليها في ديوانه..

(٢) الأغاني ١٠/ ١٨٥ وأشعار أولاد الخلفاء ص٦٦ ونزهة الجلساء في أشعار النساء ص٨٣ وفيه اختلاف في اللفظ ونقص في الأبيات.

لوجدت في إقصائه لها ما يحملها على ذلك، ولكنها ضعيفة أمامه مسلوبة الإرادة. قالت[١]:

أذل لـمـن أهـوى لأدرك عـزة ... وكم عـزة قـد نـالـهـا الـمـرء بـالـذل
فـلـو كـنـت أسـلـوه لـسـوء فـعـالـه ... لـقـد كـان في إقـصـائـه لي ما يـسـلـي

ولكنها لا تهدأ على حال ولا تثبت على رأي فهي مضطربة قلقة في موقفها من الحبيب إذ تعود فتقول إنها رأت من ألقى نفسه على الناس هان لديهم فلتكن زيارة المحب حبيبه غباً وليمسك نفسه على البعد وإن جرع الآلام والأحزان بسبب ذلك.. قالت[٢]:

أمـا والله لـو جـوزيـت ... بـالإحـسـان إحـسـانـا
لـمـا صـدّ الـذي أهـوى ... ولا مـلّ ولا خـانـا
رأيـت الـنـاس مـن ألـقـى ... عـلـيـهـم نـفـسـه هـانـا
فـزر غـبًّـا تـزد حـبًّـا ... وإن جـرّعـت أحـزانـا

وقالت علية مبينة أحكام الحب موضحة رأيها فيه[٣]:

تـحـبـب فـإن الـحـب داعـيـة الـحـب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تـبـصّـر فـإن حـدّثـت أن أخـا هـوى ... نجا سـالـمـاً فـارج الـنـجـاة من الحب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا ... فـأيـن حـلاوات الـرسـائـل والـكـتـب

فهي راضية بالحب على متاعبه وتقلبات أحواله لأنها ترى في ذلك طعم السعادة وحلاوة الرسائل والكتب التي تؤججه وترسخه.

ونكتفي عند هذا القدر من شعر علية وضعناه بين يدي القارىء

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر ص٧٩.

(٣) الأغاني ١٠/ ١٨٥.

الكريم لنبين من خلاله أي نوع من الحب عانت، وأي نوع من الغزل قالت. . ولعلنا وضحنا إلى حد ما صورة حبها وغزلها. .

وبوسع القارىء أن يستدل مما ذكرناه على الموقع الاجتماعي للفتاة الحرة في المجتمع المحافظ. . ورغم أن علية استطاعت أن تسمع صوتها. . فقد وصلنا ذلك الصوت متهدجاً مفعماً بالحرمان والأسى والكبت واليأس. . ولم ألمح في شعرها تبذلاً أو تحللاً، وإنما كان عبارة عن معاناة عاطفية تنهض في نفسها فيشدها العقل والدين والمركز الاجتماعي إلى الواقع. . وربما كانت صادقة في قولها عن نفسها: (لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط) ولا بدّ أن أشير إلى اضطراب الأخبار وتناقضها حول علية واختلاف الأشعار وتعدد نسبتها أحياناً، وطبيعي أن شخصية من دار الخلافة لا بدّ أن تتعرض أخبارها وأشعارها إلى الآفات المختلفة التي تتعرض لها الأخبار والنصوص الشعرية وفي مقدمتها الصراع السياسي بين العباسيين وخصومهم الذي كان يدفع إلى وضع الأخبار والأشعار والزيادة فيها والعبث بها لتشويه سمعة السلالة العباسية الحاكمة.

وربما تزيد أنصار العباسيين والمولعون بالقصص الغرامية بالمبالغة فيها، وربما أسقط الذين يلتزمون بالضمير التاريخي والمنهج العلمي عمداً بعض الأخبار والأشعار. وأخبار علية وأشعارها المبعثرة في كتب التراجم والأدب خير شاهد على هذا، وقد حاولت أن أتجنب الخوض في هذا النقد التاريخي بل اكتفيت بالإشارة إليه لأن طبيعة البحث لا تحتمل هذا التفصيل، إلاّ أن من يدرس علية وأشعارها لا بدّ له من زيادة الاهتمام بهذه الناحية الخطيرة. ومنهجي كما هو واضح أن أمرّ على هذه الموضوعات مراً سريعاً ولو وقفت عند كل موضوع وقفة طويلة لطالت الرسالة إلى حد لا يحتمل.

وأرى من المناسب أن أشير إلى شاعرة أخرى من بنات السلطان

هي خديجة بنت المأمون. . قيل إنها كانت تقلد عمتها في التشبيب والتلحين، ونسب إليها ما نسب إلى عمتها من حبها لخادم من خدم أبيها، فقالت فيه الشعر وتمنت أن تكون حماماً له أو باشقاً يفعل به ما يشاء[1]:

بالله قولن لمن ذا الرشا	المثقل الردف الهضيم الحشا
أظرف ما كان إذا ما صحا	وأملح الناس إذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له	أرسل فيه طائراً مرعشا
يا ليتني كنت حماماً له	أو باشقاً يفعل بي ما يشا
لو لبس القوهيّ[2] من رقة	أوجعه القوهيّ أو خدشا

ويبدو مما سبق أن جلّ ما وصلنا من غزل الحرائر كان ما اشتهرت به علية بنت المهدي، ولا أشك أن هذا القليل الذي دونه ابن المعتز في طبقاته والصولي في أشعار أولاد الخلفاء وغيرهما لم يقع الاهتمام به، إلاّ لكون علية من بنات الخلفاء، ولقد لاحظنا اهتماماً واضحاً في كتب الأخبار والتاريخ بحرائر القصور وأخبارهن. . ولا ننسى أن علية بنت المهدي كان لها علم بالغناء والضرب على الأوتار، فهي أخت إبراهيم ابن المهدي المغني المشهور، ولهذا اهتم بها صاحب الأغاني ونسب إليها عدداً من (الأصوات)، وأشار إلى غنائها بأصوات أخرى لأخيها وللمغنين المعروفين.

واهتمام علية بالغناء ربما كان من أشد البواعث لها على نظم الشعر وعلى إرهاف حسّها وعنايتها بـ (جرس) الألفاظ والعبارات. فالمغني يحرص على أن تكون ألفاظه جميلة الوقع في الآذان مناسبة لطبيعة النغم وقد يدفعه هذا وخاصة إذا كان من غير المتضلعين من

---

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء ص٥٤.

(٢) القوهي: ثوب منسوب إلى قوهستان.

الثقافة اللغوية والأدبية إلى التساهل بقبول اللحن واللفظ غير الفصيح.

إلاّ أن هذا لا يعني أنه لم يكن لسواها من الحرائر شعر في الغزل لأن طبيعة الحياة الحرمان الذي كانت تعانيه الحرائر مع الروح الأدبية التي سادت العصور كانت تدفعهن إلى الإفصاح بقول الشعر عمّا في نفوسهن من عواطف مكبوتة، ومشاعر مخنوقة همساً بين الجدران أو ترديداً خافتاً لا يسمح له أن يمتد في النور مما لا يمكن الوقوف عليه، ولئن وصلنا اليسير من فلتاته، فربما لأن أفلت من بين الجدران لتصطاده آذان بعض السامعين كالذي أورده ابن الجوزي عن فتاة سمعها الرشيد ـ وكان يتفقد شؤون الرعية ـ تردد آناتها وتبدي زفراتها بين جمع من النساء كنّ يبكين لبكائها.. فطلب إلى أحد خدمه أن يدنو من الباب ليتسمع ما تقول، فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات التي تقول فيها متحسرة على فراق حبيب لها:

هل أرى وجه حبيب شفني ... بعد فقدانيه إفراط الجزع
قد برى شوقي إليه أعظمي ... وبلى قلبي هواه وفزع
ليت دهراً مرّ والقلب به ... جذل والعيش حلو قد رجع
وعفت آثاره منه فيا ... ليت شعري ما به الدهر صنع
قد تمسكت على وجدي به ... بجميل الصبر لو كان نفع

وربما كان نصيب الحرائر الأعرابيات في الغزل أكثر منهن فيه.. وقد رأينا نماذج على ذلك في (أدب الأعرابيات) وذلك لأن الصراحة في الأقوال والأفعال في البادية أكثر منها في الحاضرة.. ولأن الاختلاط بين الرجال والنساء كان مباحاً إلى حد أبعد بكثير مما هو عليه في المدن.. إلاّ أن الغالب على شعر الأعرابيات أغراض أكثر جدية، كالرثاء والفخر والمديح والوصف، لأن الأعرابية لا تحيط بها الظروف المعقدة والأجواء الحساسة المخيمة على دور الخلفاء ونسائهم.

أما ما عرف للجواري من غزل فأكثره عبارة عن مطارحات تلقى في مجلس من مجالس اللهو والأدب أو مراسلات بينهن وبين محبيهن تكون في الغالب مجالاً لإظهار البراعة في النظم والسرعة في البديهة والتفوق في الإتيان بالمعاني البديعة أو نظم الشعر للغناء في نغم من الأنغام.

فالشاعرة عنان مثلاً في إجابتها لمن طلب منها إجازة قوله[1]:

وما زال يشكو الحب حتى رأيته ... تنفس في أحشائه وتكلما

بقولها:

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه ... إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

تدل على البراعة في النظم وفي معرفة صور الحب وأحواله.

ومثل ذلك ما وصلنا من معارضات فضل ونبت وعريب ومحبوبة وغيرهن[2]. إنها صناعة وتلاعب وبراعة في المعاني والألفاظ وليس غزلاً بالمعنى المعروف، والغزل الأصيل قليل، وبعض الأصيل أصيل من حيث العاطفة وصدقها.

والمهم في هذا الغزل أنه يعكس نفسية المرأة... إنه غزل امرأة لا غزل رجل، إنه يتسم بالرقة العاطفية الشديدة ويصور محن المرأة وأحاسيسها.

على أن من المفيد أن نلاحظ أن المرأة في كثير من الأحيان كانت تعمد إلى تقليد ومحاكاة الرجل في غزله، ولهذا فقد بقي أكثر ما وصل إلينا من شعرها من غزل الجواري بصورة خاصة محصوراً في نطاق ما عهدنا من معان وصور شعرية قيلت في الغزل، في التعبير عن عواطف

---

(١) ينظر أدب المجالس والمناظرات والمطارحات ص٣٠٣.

(٢) ينظر: أدب المجالس والمناظرات.

مصطنعة في مواقف معينة.

وربما نستطيع أن نستثني منه القليل من الغزل الأصيل الذي صدر عن تجربة عاطفية وعبّر عن الأحاسيس والعواطف الرقيقة.

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مواضعه من البحث.

شعر الزهد والتصوف:

وكان للتطور الشامل الذي حدث في العصر العباسي أثره الكبير في انتشار الزهد وذكر الموت والحساب والعقاب والثواب واستخلاص العبرة بأسلوبي الترغيب والترهيب... إلخ.

وبعد أن كان الزهد دائراً في الحدود والأطر المذكورة رأيناه يتطور بالتدريج فيتعقد ويتحول إلى التصوف.. فإذا بإنكار الذات الذي هو من أول خصائص الزهد فيتعدى حدّ الانقطاع عن الدنيا والعزوف عنها في حدود الحلال والحرام ويصير إلى انقطاع متطرف يشمل حتى الكسب الحلال.. فإذا ما انتهى القرن الثاني وصرنا في القرن الثالث اكتسب الزهد أبعاداً فلسفية وروحية وفكرية، واتخذ رسوماً وأنماطاً أوصلته إلى التصوف.

وكان لذلك كله عوامله الكثيرة المباشرة التي أدت إليه وساعدت على تقويته، فقد كانت الأموال تتدفق على طبقات معينة دون غيرها فانغمست في الحياة تعبّ من مباهجها ومباذلها وتعيش حياة الترف والإباحية والتحلل.. وقد أذكى ذلك كله كما رأينا ازدياد الجواري والقيان وانتشارهن في كل مكان يبثثن الفسوق والمجون ويلهبن النفوس بالمفاتن فتطفح أفعالاً رذيلة وأقوالاً دنيئة يقولها الشعراء الذين يلتفون حولهن.. فتتناقلها الألسن، وما أخف حملها وما أسرع انتشارها فهي

رجع النزق ونغمة المجون وحديث اللهو، وما أخفها نقلاً للأحاديث تذاع في المجالس فتؤجج المشاعر وتدفع إلى الإقبال على الحياة والانغماس فيها . .

وقد أدى وجود مثل هذه الطبقة إلى إحداث حركة مضادة جرفت بتيارها أولئك الذين حرموا الثروة والملذات ويئسوا من الحصول عليها، فصاروا يداورون الواقع بالرضا عنه والسخط على ضده. . . أولئك الذين أوتوا من العقل والشعور ما أوقفهم وقفة المتمحص في أحوال أهل المجون فأنكروا أعمالهم وسخطوا عليها واشمأزوا منها، فنادوا برفض مباهج الحياة رغم قدرتهم على الانسياق وراءها للأخذ بنصيب منها فكانوا بموقفهم المعارض المنكر هذا (رد فعل) معاكس لذلك التيار الصاخب، أدى إلى توسع حركة الزهد وتطورها .

نقول إنه أدى إلى التوسع لأن حركة الزهد والتصوف كانت نتيجة عوامل كثيرة تتجاوز الفعل ورد الفعل، وهي العوامل التي صنعت حضارة عظيمة ذات ذخيرة فكرية وروحية غنية جداً، فكان من الطبيعي بعد أن تطورت العلوم وانتشرت وتطور العقل الإسلامي وتعقد، أن تتطور حركة الزهد والتصوف كما تطورت الحركات الأخرى فتؤلف مدرسة دينية وفكرية وروحية وأدبية جديدة متميزة . .

وهناك من أطلق لنفسه العنان فترة من الزمن فأسام سرح اللهو حيث أمكنه أن يسيمه حتى إذا أشبع غرائزه وعواطفه ورأى تفاهة ما هو فيه انثنى تائباً زاهداً ليطهر نفسه من أدرانها ويعيد إليها كرامتها بعد أن هانت فيشتط في ذلك ويبالغ متأثراً بما سبق أن ذكرنا في أجواء دينية وفكرية واجتماعية وروحية ـ حتى يصل إلى درجة الزهد أو التصوف .

ولست بعد هذا بصدد تبيان كافة العوامل التي أدت إلى الزهد وترجيح بعضها على البعض الآخر، فهناك دراسات وافية تناولت

الموضوع وأشبعته بحثاً[١]، وإنما غرضي من هذا أن أصل إلى تقرير وجود الكثير من الناسكات المتزهدات من النساء، وكتب السير والتراجم غنية بالإشارات إلى ذلك.

وكان من الطبيعي أن تسهم المرأة في حركة الزهد والتصوف كما أسهمت في الحركات الأخرى وأن يكون لها دور يناسب الظروف والعوال التي أحاطت بها، ولعل ما كانت تعانيه المرأة من ضغوط مختلفة أشرنا إليها مراراً في هذا البحث كان من الأسباب المهمة التي دفعتها إلى الإسهام بنصيب وافر في حركة الزهد والتصوف، بل إن كثيراً مما قد يحد نشاطها في الميادين الأخرى لا يجد له مكاناً في مجال الزهد والتصوف فالأبواب تتفتح لها هنا على مصارعها، ولن يجد أهلها والمجتمع من ورائهم ذرائع يتذرعون بها للحد من نشاطها في هذا المجال، وربما كان الانقطاع إلى الله زهداً أو تصوفاً أكبر متنفس لهموم المرأة في مجتمع محافظ يتمسك بغير قليل من العادات الموروثة.. ولهذا وجدنا المرأة في ميدان الزهد والتصوف تحتل مكاناً بارزاً، فظهور شخصية مثل شخصية رابعة التي أسهمت بلا ريب في تقدم الزهد نحو التصوف لم يكن من قبيل الصدفة، فهي التي وضعت الحركة على أعتاب الحب الإلهي الذي أصبح بعد ذلك الطابع الملازم للتصوف في القرون التالية.

لقد نالت المرأة حظاً أوفر من الغذاء الروحي الذي قدمه الدين بوجه عام، وتيار الزهد والتصوف بوجه خاص. فلم يكن من الغريب أن تسهم في هذا التطوير وأن يكون لها دور رئيس فيه..

ولهذا لمن نجد في المجالات الأخرى شخصية نسوية تحدث

---

(١) تاريخ التصوف الإسلامي، د.عبد الرحمن بدوي، الصوفية في الإسلام د. را. نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون.

تحولاً مهماً يشبه ما أحدثته رابعة من الزاهدات والمتصوفات. . .

ولقد شهد العصر العباسي بالإضافة إلى رابعة العدوية عدداً من الزاهدات والمتصوفات وصلتنا عنهن بعض الإشارات والقليل من أدبهن وشعرهن نذكر منهن الزاهدة ريحانة وحيونة ورابعة الشامية وسلمونة وميمونة وأخوات بشر الحافي، ومصنفة ومخة وزبدة وغيرهن[١] وفاطمة بنت عبد الرحمن الحرانية[٢] وأمة الواحد[٣] بنت المحاملي (ستيتة) والعابدة اليمنية[٤] وسواهن.

وأشار الجاحظ إلى عدد من زاهدات العصر العباسي وما قبله فقال[٥]: (والناسكات المتزهدات من النساء في الزهد والرياسة من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء، فمن نساء الجماعة أم الدرداء[٦] ومعاذة العدوية[٧] ورابعة القيسية.

ومن نساء الخوارج: الشجاء وحمادة الصفرية[٨] وغزالة الشيبانية[٩] قتلن جميعاً وصلبت الشجاء وحمادة، وقتل خالد بن عتاب

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٩٤.

(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٤١.

(٣) الوافي بالوفيات ٩/ ٣٨٧ ترجمة رقم ٤٣١٧.

(٤) المنتظم ٥/ ٦٢، ٦٣.

(٥) الحيوان ٥/ ٥٩٨.

(٦) أم الدرداء: هي زوج أبي الدرداء واختلف علماء التراجم فيها فبعضهم يجعلها شخصين: أم الدرداء الصغرى وأم الدرداء الكبرى وبعضهم يقول هي واحدة ويختلفون في ذلك. (انظر الإصابة ٣٨٤) (قسم النساء).

(٧) معاذة العدوية: معاذة بنت عبدالله العدوية البصرية، كانت من العابدات وزوجها أشيم كان من نساك البصرة وزهادها.

(٨) الصفرية: قوم من الحرورية الخوارج.

(٩) غزالة الشيبانية: هي زوج شبيب بن يزيد الخارجي الشيباني وكانت من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكان الحجاج قد هرب في بعض الوقائع منها، فعيره سفيان البجلي

غزالة وكانت امرأة صالح بن مسرّح[1].

ومن نساء الغالية الميلاء وحميدة وليلى الناعظية. ولعل رابعة العدوية العلم الأول الذي عرف للمرأة في هذا الباب وقد أدى الاهتمام بها وبسيرتها وأخبارها إلى الحفاظ على جزء لا بأس به من المقطوعات الشعرية والنثرية التي قالتها في مختلف المناسبات.

وكانت رابعة قد شهدت في القرن الثاني للهجرة ألواناً من الصراع السياسي والمذهبي تأثرت حياتها بالفوارق الاجتماعية التي كانت تفصل بين الطبقات في البصرة.

يقول الرواة إنها ولدت في أسرة فقيرة فذاقت مرارة الفقر والحرمان، ثم جرفها تيار اللهو والمجون حتى غشيها الإثم من كل جانب إلا أنها ما لبثت أن أفاقت من ذلك فتجلت صحوتها في اعتزال الحياة والناس وفي اعتكافها على نفسها تنشد الاتصال الروحي بالله وقد ارتفعت فيها موجة التنسك والزهد حتى بلغت نزعة التصوف، فاختارت لحياتها الحرمان والشظف لتطهر نفسها من شوائب الحياة المادية فتصفو وتستجيب للاتصال الروحي بالإله[2].

وكان من أسس مذهبها الزهدي الاستغراق في حب الذات الإلهية.. وهي تصور في شعرها ذلك الحب الذي ملك عليها زمام

بقوله:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الضحى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

(١) صالح بن مسرح التميمي الخارجي كان يرى رأى الصفرية، وقيل إنه أول من خرج من الصفرية وكان ناسكاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان زعيماً لشبيب الخارجي الذي خلفه على الزعامة بعد مصرعه كما خلفه كما يبدو على زوجه غزالة.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية: رابعة العدوية.

نفسها فتقول[1]:

أحبك حبين: حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا وذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولها في التجرد قولها[2]:

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنسي وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنسي ما تشتت في فسيح البلاد
كم بدت منة، وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأياد
حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك يا حبيب براح أنت مني مكمن، في الفؤاد
إن تكن راضياً عليَّ فإني يا منى القلب قد بدا إسعادي

وقالت مصورة غاية التجرد وأنها لا تبيح جليسها ومحدثها إلا الجسم وإنما روحها متصلة بالذات الإلهية:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

فحبيبها وإن غاب عن بصرها فهو شاخص قبالة فؤادها لا يغيب عنه[3].

---

(١) شهيدة العشق الإلهي ص٧٣.

(٢) شاعرات العرب ص١٢٤.

(٣) شاعرات العرب ص١٢٥.

حبيب ليس يعدله حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن عن فؤادي ما يغيب

وكثيراً ما كانت تناجيه قائلة إن زادها من العمل الصالح ومما يرضيه قليل فهي حائرة... أتبكي لقلة زادها أم لطول مسافتها عنه... فهي تتشوق إلى لقائه وتخشى الناس وترجو أن يجيبها إلى رجائها في الغفران لها فتقول:

وزادي قليل ما أراه مبلّغي ألِلزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك أين مخافتي

إلاّ أنها لم تلبث أن تجردت في حبها للذات الإلهية في غير رهبة أو رغبة. فهي لا تعبد خوفاً من النار أو طمعاً بالجنة وإنما تعبد استغراقاً في الحب لذاته، ذكر العطار[1] أن رابعة كانت تقول:

(إلهي إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقني بالنار، أو طمعاً في الجنة فحرمها علي، وإن كنت لا أعبدك إلاّ من أجلك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك). وقالت أيضاً: (إلهي كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك، لأني لا أسعى إلاّ إليك أنت وحدك)[2].

وهذه الأقوال تدل على زهدها في الحياة الدنيا وخيراتها وعلى زهدها حتى بالحياة الآخرة.. فهي لا تريد خيراً في الدنيا وترجو الله أن يجعل الخير لأعدائه ويمنح ما قدره لها في الجنة لأصدقائه لأنها لا تريد بعبادتها إلاّ وجه الله.

ولما طهرت رابعة نفسها من معنى العبادة رهبة أو رغبة راحت

---

(١) تذكرة الأولياء ١/ ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) تذكرة الأولياء ١/ ٧٢ ـ ٧٣.

تدعو الناس إلى هذا التطهر. . قيل إنها سئلت مرة: لماذا تعبدين الله فأجابت: إنما أعبده لذاته أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته.

ويعلق الأستاذ عبد الرحمن بدوي على هذا النص فيقول[1]: (على أن المقصود والأبْعَدَ في ذهن رابعة هو أن تسمو بالحياة الدينية في الإسلام بأن تزيل ما في القرآن من معان حسية وتحيلها إلى معان روحية خالصة فلها الفضل الأكبر في بدء هذه الحركة. . . ومن هنا يظهر دورها البارز في الحياة الروحية في الإسلام عامة).

ورويت عن رابعة أقوال كثيرة تدل على تقشفها وزهدها واستغنائها عن الحياة. . قيل إن سفيان الثوري لقي رابعة وكانت زرية الحال فقال لها: يا أم عمرو، أرى حالاً رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغير بعض ما أرى فقالت له: (يا سفيان وما ترى من سوء حالي؟ ألست على الإسلام فهو العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه والأنس الذي لا وحشة معه، والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها)[2] فقام سفيان وهو يقول: ما سمعت مثل هذا الكلام. وقالت رابعة لسفيان: (إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل).

وقال يوماً سفيان الثوري عندها: واحزناه! فقالت: لا تكذب بل قل واقلة حزناه، لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس ومن وصاياها: أكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم).

ومما يتفق مع عزوفها عن الحياة وزهدها فيها عزوفها عن الزواج وكانت ترفض الزواج وتجيب من يخطبها الإجابات التي تدل انصرافها عن الحياة بكل ما فيها.

---

(١) شهيدة العشق الإلهي ص٩٢.

(٢) الحيوان ٥/٥٩٨ ووفيات الأعيان ٢/٢٨٦.

ويروي الزبيدي[1] خبر خطبتها فيقول: وخطبها عبدالواحد بن زيد فحجبته أياماً حتى سئلت أن يدخل عليها، فقالت له: (يا شهواني اطلب شهوانية مثلك، أي شيء رجيت فيّ من آلة الشهوة).

ويروي ذلك الخبر أيضاً عبدالرؤوف المنادي فيقول: (كتب سليمان الهاشمي، وكانت غلّة ملكه كل يوم ثمانية آلاف درهم إلى كبراء أهل البصرة في امرأة يتزوجها، فأجمعوا على رابعة فكتبت إليه: (أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فهيىء مزادك وقدم لمعادك، وكن وصيّ نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك، وصم الدهر واجعل فطرك الموت، وأما أنا فلو خولني الله أمثال ما حزت وأضعافه لم يسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين والسلام)[2].

وقيل إن الحسن البصري[3] كان قد خطبها فرفضته وقالت في ذلك:

راحتي يا إخوتي في خلوتي ... وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً ... وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجداً وما ثم رضا ... وا عنائي في الورى وا شقوتي
يا طبيب القلب يا كل المنى ... جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً ... نشأتي منك وأيضاً نشوتي

---

(١) شهيدة العشق الإلهي ص٥١ عن إتحاف السادة المتقين ٩/٧٥٦.

(٢) شهيدة العشق الإلهي ٥١ عن طبقات الأولياء ورقة (١٠٤) أ، ب مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤.

(٣) وربما كان هذا الخبر موضوعاً لأن ولادة الحسن البصري سنة ٢١هـ ووفاته سنة ١١٠هـ بينما كانت وفاة رابعة سنة ١٨٠ أو ١٨٥هـ (شهيدة العشق ص٤٩).

قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي منك وصلاً فهو أقصى منيتي

ولم تكن رابعة العدوية وحيدة زمانها في الزهد كما ذكرنا وإنما كانت أشهرهن في التصوف وأكثر من وصلنا من أدبهن.

وتذكر في هذا المجال (ريحانة الزاهدة) قال إبراهيم بن الأدهم[١] رحمه الله، ذكرت لي ريحانة فخرجت إلى الأُبُلّة فإذا أنا بجارية سوداء قد أثر البكاء في خديها خطاً، فذاكرتها شيئاً من أمر الآخرة فأنشأت تقول:

من كان راكب يوم ليس يأمنه وليلة تائهاً في عقب دنياه
فكيف يلتذ عيشاً لا يطيب له وكيف تعرف عين الغمض عيناه

وكانت ريحانة ترى أن النفس بما تعتاده فإن فسح لها المجال وبذلت لها الملذّات لم تقف عند حد وإنما تاقت إلى المزيد وإن هي عودت على الحرمان والصبر تصبرت وتسلّت قالت:

صبرت عن اللذات حتى تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقت وإلا تسلّت

وقالت: إن الموت مدرك كل إنسان لا محالة فكم من ملك أدركه الموت ومن معه حتى أخرج من العيش الرغيد الذي كان يحياه[٢]:

وما عاشق الدنيا بناج من الردى ولا خارج منها بغير غليل
فكم ملك قد صفر الموت بيته وأخرج من ظل عليه ظليل

وقالت تدعو إلى القيام في الليل لذكر الله وإلى عدم الاستكانة إلى لذيذ النوم فإن في ذلك المباءة والخسران:

---

(١) عقلاء المجانين ص١٤٧.

(٢) عقلاء المجانين ص١٤٧.

اجعل لنفسك في الليالي نبهة تنبهك من خلل المنام قياما
وأنس إلى طول القيام مخلداً واترك لذيذ النوم والأحلاما

وقالت[1]:

تعوّد سهر الليل فإن النوم خسران
ولا تركن إلى الذنب فإن الذنب نيران
فكن للوحي درّاساً وللقرآن أخدان
إذا ما الليل فاجاهم فهم في الليل رهبان
يميلون كما مال من الأرياح أغصان

وكانت ترى أن الحياة الدنيا عذاب، وكلما أقبلت على صاحبها وعظم شأنها لديه كبر عذابه فيها، إنها تهين المكرمات فإذا ما هانت على صاحبها كرمت وتوصي الإنسان بعد ذلك بألاّ يأخذ منها إلاّ ما هو بحاجة إليه وأن يستغني عمّا يستطيع أن يدعه منها فقالت:

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كبرت لديه
تهين المكرمات بها بصفر وتكرم كلما هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما كنت محتاجاً إليه

وميمونة الزاهدة[2] من شواعر العشق الإلهي في القرن الثاني الهجري، كانت إذا جنها الليل تقول في دعائها يا واحدي: تمنعني بالليل التلاوة، ثم تقطعني عنك بك في ضياء إلهي! وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك.

وقيل: طلعت الشمس عليها يوماً فآذتها فقالت[3]:

---

(١) المصدر نفسه ص١٤٨.

(٢) عقلاء المجانين ص١٤٨.

(٣) المصدر نفسه ص١٤٩ وشهيدة العشق الإلهي ص١١٥.

إن كـنـت تـعـلـم أنـنـي بـك والـه   فاصرف سموم الشمس عني سيدي

وصامت مرة حتى اسودت فليمت في ذلك فرفعت طرفها إلى السماء وقالت (قد لامني خلقك في خدمتك، وعزتك وجلالك لأخدمنك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب)[1] ثم أنشأت تقول:

يا ذا الذي وعد الرضى لحبيبه   إن الـذي مـا إن سـواك أريـد

وقال سلام[2] سمع حيونة تقول: (من أحب الله أنس ومن أنس طرب، ومن طرب اشتاق، ومن اشتاق وله ومن وله خدم، ومن خدم وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل عرف، ومن عرف قرب، ومن قرب لم يرقد وتسوّرت عليه بوارق الأحزان) وكانت تقول: (اللهم هب لي سكون قلبي بعقد الثقة بك واجعل جميع خواطري واثقة برضاك، ولا تجعل حظي الحرمان منك يا أمل الآملين).

وميمونة الزاهدة المتصوفة.. ومن شعرها قولها في المكاشفة وفيه إشارة للخمر الرمزية عند المتصوفة[3].

قـلـوب الـعـارفـيـن لـهـا عـيـون   تـرى مـا لا يـراه الـنـاظـرونـا
وألـسـنـة بـسـرٍ قـد تـنـاجـي   تـغـيـب عـن الـكـرام الـكـاتـبـيـنـا
وأجـنـحـة تـطـيـر بـغـيـر ريـش   إلـى مـلـكـوت رب الـعـالـمـيـنـا
فـتـسـقـيـهـا تـراب الـصـدق صـدقـاً   وتـشـرب مـن كـؤوس الـعـارفـيـنـا

وممن يذكر من الزاهدات (آسية البغدادية)[4].

---

(١) القصب: عظام اليدين والرجلين ونحوها.

(٢) عقلاء المجانين ص١٥٠.

(٣) عقلاء المجانين ١٥١ واتجاهات الشعر العربي ص٣١٥.

(٤) آسية البغدادية: من ربات العبادة والزهد والتقى والصلاح عكف عليها العام والخاص وتوفيت سنة ٢٥٩هـ (أعلام النساء ١/٧).

قيل إنها ذكرت لعبد اللّه بن طاهر، فدعاها فأدخلت عليه ولزمت الصمت خمسة أيام فقال لها عبد الله: أخرساء أنت ما لك لا تنطقين، قالت لا ولكني أقول[1]:

قالوا نراك تطيل الصمت قلت لهم ... ما طول صمتي من عي ولا خرس

الصمت أحمد في الحالين عاقبة ... عندي وأحسن بي من منطق شكس

أأنشر البز في من ليس يعرفه ... أم أنثر الدر بين العمي في الغلس

ومثلها زاهدة متصوفة أخرى تعارف الناس على أنها مجنونة، شوهدت في خيمة أعراب وعليها جبّة صوف، فسلم عليها فلم ترد السلام ثم قالت[2] وقد بينت كيف أن الناس يظنون الجنون في أولئك الزاهدين الذين أجاعوا بطونهم وأسهروا عيونهم في عبادة الله فتقول: إنهم الباء ذوو عقول إلاّ أنهم لما رأوا الخلق وما هم عليه وعرفوا حقيقة الحياة شجاهم الأمر فاعتزلوا:

زهد الزاهدون والعابدون ... إذ لمولاهم أجاعوا البطونا

أسهروا الأعين القريحة فيه ... فمضى ليلهم وهم ساهرونا

حيّرتهم محبّة الله حتى ... علم الناس أن فيهم جنونا

هم أِلبَّا ذوو عقول ولكن ... قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال عتبة الغلام[3]: فدنوت إليها فقلت: لمن الزرع؟ فقالت: لنا إن سلم، فتركتها وأتيت بعض الأخبية، فأرخت السماء كأفواه القرب فقلت: والله لآتينّها فأنظر قصتها في هذا المطر، فإذا أنا بالزرع قد غرق، وإذا هي قائمة نحوه وهي تقول: والذي أسكن قلبي من طرف

---

(١) الوافي بالوفيات ٩/ ٢٦٤ رقم الترجمة ٤١٨٦.

(٢) مصارع العشاق ص١٨٢.

(٣) مصارع العشاق ص١٨٣.

سحر بصفي محبة اشتياقك أن قلبي ليوقن منك بالرضا، ثم التفتت إلي فقالت:

يا هذا! إنه زرعه، فأنبته، وأقامه، فسنبله، وركبه وأرسل عليه غيثاً فسقاه واطلع عليه فحفظه، فلما دنا حصاده أهلكه، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت: العباد عبادك وأرزاقهم عليك، فاصنع ما شئت! فقلت لها: كيف صبرك؟ فقالت: اسكت يا عتبة.

إن إلـــهـــي لـــغـــنـــيّ حـــمـــيـــد   فـــي كـــل يـــوم مـــنـــه رزق جـــديـــد
الـــحـــمـــد لـــلّـــه الـــذي لـــم يـــزل   يـــفـــعـــل بـــي أكـــثـــر مـــمـــا أريـــد

وتحسن الإشارة إلى عابدة أخرى هي (آمنة الرملية)[1] من عابدات القرن الثالث للهجرة انقطعت للتبتل فكان أكثر زهاد زمانها يترددون عليها ويتبركون بها.. فدخل عليها بعض العابدين يزورونها فقالت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: نسألك الدعاء، فقالت: لو أن الخاطبين خرسوا ما تكلمت عجوزكم من البكم ولكن الدعاء سنة ثم قالت: (جعل الله قراكم من بيتي الجنة وجعل ذكر الموت بيني وبينكم على بال وحفظ علينا الإيمان وهو أرحم الراحمين).

ويذكر في هذا المجال (ست النساء بنت طولون[2] وكانت ذات أموال عظيمة ونعمة ظاهرة وعطاء وافر فلم تلبث أن ضربت الدنيا بضرباتها فشاهدها بعض الأغنياء تتعرض للسؤال فقال لها: أين ما كنت فيه من النعيم؟ قالت: كنا نرصد نوائب الدهر فجاءتنا وتركت ديارنا بلاقع. قال: فما تشتهين؟ قالت: ملء بطني طعاماً. فقال: هذا وكيلي، انصرفي إلى المنزل، وأمر لها بعشرة آلاف درهم. فقالت: يا أخي عليك بمالك، بارك الله لك فيه، أما إنه قد كان عندنا أكثر من ذلك فلم

---

(١) أعلام النساء ١/ ١٠.

(٢) نساء الخلفاء ص١٢٧.

يبق. ثم أكلت شيئاً وولت وهي تقول:

دع الدنيا لعاشقها سيصبح من ذبائحها
أرى الدنيا وإن مدحت تنص على فضائحها
فلا تغررك رائحة تصيبك من روائحها
فإن سرورها ألم وحتفك في منائحها
ومطربها بمعزفه يؤوب إلى نوائحها

وقبل أن ننتهي من الوقوف عند الزاهدات وزهدهن وأدبهن لا بد من الإشارة إلى أنه قد يقع لبعض الجواري من المصائب والمحن ما يجري الزهد على ألسنتهن والتقشف على حياتهن، كالذي كان من (تتريف) إحدى حظايا الخليفة المأمون فقد وفت له بعد موته وقصرت نفسها على البكاء عليه وزهدت بالحياة فقالت في ذلك شعراً كثيراً[1] وصلنا منه قولها:

إن الزمان سقانا من مرارته بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا ثم انثنى تارة أخرى فأبكانا
إنا إلى الله فيما لا يزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا نراها ترينا من تصرفها ما لا يدوم مصافاة وأحزانا
ونحن فيها كأنا لا نزايلها للعيش أحياؤنا يتلون موتانا

وقد تمتد السنون ببعضهن فتثار في نفوسهن بعض نزعات إلى الزهد والتوبة وإلى تصوير صروف الزمان وتغير الأيام كما في قول عريب[2] التي عمرت ستة وتسعين عاماً:

من صاحب الدهر لم يأمن تصرفه غبًّا وللدهر إحلاء وإمرار

---

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص١٨.
(٢) طبقات ابن المعتز ٤٢٦.

وكـل شـيء وإن طـالـت إقـامـتـه   إذا انـتـهـى فـلـه لا بـد إقـصـار

وإلى ذلك أشار ابن المعتز في كتابه الذي أرسله إلى (خزامى) يذكرها بما كان بينهما من تواصل فقال[١]:

رأيتك قد أظهرت زهداً وتوبة   فقد سمجت من بعد توبتك الخمرُ

فأجابته بقولها:

أتـانـي قـريـض يـا أمـيـري مـحـبـر   حكى لي نظم الدر فصّل بالشذر
أأنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي   وقد أفصحت لي ألسن الدهر بالزجر
وأدبـنـي شـرخ الـشـبـاب بـبـيـنـة   فيا ليت شعري بعد ذلك ما عذري

وقد يكون ذلك زهداً اعتيادياً أعني من النوع الذي لجأ إليه الإنسان بعد أن يودع الشباب ويحس بقرب الموت وبخاصة عند أمثال هؤلاء الجواري اللائي سبق أن ملأن الدنيا فجوراً وعبثاً ومجوناً.

ولا بد لنا بعد هذا الاستعراض الوجيز لأدب الزهد والتصوف عند النساء نقف عند بعض الملاحظات العامة. فهو يحمل طابع أدب العصر وخصائصه، ذلك أن شعرهن يمتاز بما امتاز به الشعر العباسي عامة من رقة العبارة وسهولتها وليونة التراكيب والعبارات واستخدام ألفاظ وأفكار العصر المستعارة من العلوم المختلفة وأفكارها وبخاصة العلوم الدينية.

وقد رأينا أن النثر الذي نسبته مصادر الأدب والتصوف إليهن لا يختلف من حيث الأسلوب والأفكار عن نثر زهاد العصر في العصر العباسي الأول، فيتسم بما تتسم به أقوال الحسن البصري[٢] وسليمان

---

(١) المستظرف ص٢١.

(٢) تاريخ التصوف الإسلامي ص١٦٠ ـ ١٧٠.

الداراني[١] وعبد الله بن المبارك وبشر الحافي ومعروف الكرخي[٢] وغيرهم، حتى إذا تجاوزنا هذا العصر إلى العهود التالية وجدنا متصوفات تنسب إليهن أقوال تحمل الخصائص والأبعاد الجديدة لحركة التصوف مما لا مجال لتفصيل الكلام فيه.

وبساطة شعر المرأة الزهدي والصوفي من حيث الألفاظ والتعابير والأفكار تعبير مطابق لما تتميز به طبيعة المشاعر النسائية من رقة وليونة ورشاقة في التعبير تلفها في الغالب غلالة شفافة من الكآبة، وأبرز ما نجده سهولة التعبير ولينه مما سنشرحه عند الكلام عن الملامح الفنية في الأدب النسوي، والبعد عن التعقيد في العبارة الشعرية والنثرية والعزوف عن أثقالها بفنون الصنعة البديعية وتجنب الإغراب اللغوي والغموض والعمق الفكري والفلسفي، وهي خصائص واضحة فيما تناقلته المصادر من أشعار وأقوال النساء الزاهدات والمتصوفات، وما سبق أن عرضناه منها.

الرثاء:

وهو أهم الأغراض التي حذقتها المرأة في مختلف العصور بحكم الظروف المحيطة بها والحياة التي كانت تحياها ولما كان يملأ نفسها من عواطف جياشة سرعان ما تثيرها الآلام والأحزان فتتدفق على لسانها كلمات مؤثرة وأقوالاً أو أشعاراً تنفس فيها عن لوعتها وأساها.

وقد اشتهرت المرأة أكثر ما اشتهرت بالرثاء من بين الأغراض الشعرية فقد تبكي المرأة زوجها أو الأم ولدها أو البنت أباها أو الجارية سيدها ومولاها..

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخ ص٦.

(٢) المصدر نفسه، ٥.

ولئن كثر رثاء الآباء والأبناء والأزواج في الشعر الجاهلي والإسلامي.. لقد كثر في العصر العباسي رثاء الجواري الوفيات لأسيادهن[(١)].. وسنعرض لبعض ما وصلنا من شواهد شعرية تدل على ذلك وتوضح صورته إلى حد ما..

رثاء الحرائر:

أما ما قيل في رثاء الأمهات لأبنائهن فيذكر منه رثاء السيدة زبيدة لابنها الأمين قالت[(٢)]:

أودى بإلفك من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا
والموت دان له والهم قارنه ... حتى سقاه الذي أودى به الكاسا
رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردوداً لنا أبدا ... حتى يرد علينا قبله ناسا

وقد يكون هذا الرثاء من ضمن ما نظم على لسان السيدة زبيدة وقد وردت إشارات كثيرة إلى مثل ذلك إلا أني لا أجد في الأبيات حرارة العاطفة وشدة اللهفة على الأم الثاكل، وإنما هي أبيات في التصبر والتأسي بما وقع للناس وهذا ما لا يمكن أن يستقر في نفس الأم التي فقدت وحيدها.

ومما وقع بين أيدينا من رثاء الزوجات لأزواجهن قول لبابة ابنة علي بن المهدي في الخليفة الأمين[(٣)] ولم يكن دخل بها:

أبكيك لا للنعيم والأنس ... بل للمعالي والسيف والترس

(١) المستظرف ص٦٣ والأغاني ٢٢/ ٢٠٥.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٢٣.
(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٢٣ وتاريخ الطبري ٨/ ٥٠١ وأعلام النساء ٤/ ٢٧٤.

أبكي على سيد فجعت به   أرملني قبل ليلة العرس
يا مالكاً بالعراء مطرحاً   خانته أشراطه مع الحرس

وقالت بوران بنت الحسن ترثي المأمون[1] زوجها:

أسعداني على البكاء مقلتيا   صرت بعد الإمام للهمّ فيّا
كنت أسطو على الزمان فلما   مات صار الزمان يسطو عليّا

ومما قيل في التعزية ما ورد عن السيدة زبيدة حينما علمت بجزع الأمين لموت (فطيم)[2] أم ولده موسى.. وطلبت أن تحمل إليه فاستقبلها فقال: يا سيدتي ماتت فطيم فقالت[3]:

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف   ففي بقائك ممن قد مضى خلف
عوضت موسى فهانت كل مرزئة   ما بعد موسى على مفقودة أسف

وقالت: (أعظم الله أجرك، ووفر صبرك، وجعل العزاء عنها ذخرك).

ولعل من أروع الرثاء وأصدقه وأبلغه معنىً وأفصحه عبارة من شعر النساء القصيدة الفائية للفارعة بنت طريف في رثاء أخيها الفارس الوليد بن طريف[4] الخارجي الذي قتل بعد حرب شديدة فلما علمت أخته الفارعة بذلك لبست عدة الحرب وحملت على جيش يزيد بن مزيد

---

(١) نساء الخلفاء ص٧١.

(٢) وقيل (نظم).

(٣) تاريخ الطبري ٨/ ٥١٤.

(٤) الوليد بن طريف: ثائر من الأبطال كان رأس الشراة في زمنه خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧هـ في خلافة هارون الرشيد، سير إليه الرشيد جيشاً كثيفاً بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني فقتله بعد حرب شديدة (الأعلام).

الشيباني[1] الذي كشف أمرها فواجهها وطاردها قائلاً: اغربي لقد فضحت العشيرة[2]، وقيل إنها استحيت وانصرفت[3].

فقالت تبكت شجر الخابور وتعاتبه على عدم تساقط ورقه لاحتراقه بنار الحزن على قتل الوليد[4] وتعدد الصفات الحميدة التي كان يتصف بها من شجاعة وكرم وتقىً ومروءة:

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتىً لا يلوم السيف حين يهزه إذا ما اختلى من عاتق وصليف
فتىً لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء صلدم وأجرد ضخم المنكبين عطوف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدو أو لجاً لضعيف
حليف الندى إن عاش يرضى به النـ ـدى وإن مات لا يرضى الندى بحليف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيا رب خيل فضها وصفوف

ثم تمضي في تصوير أحزانها وفجيعتها بفقدان أخيها فتقول:

ألا يا لقومي للنوائب والردى ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى وللشمس همت بعده بكسوف

---

(١) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير من القادة الشجعان انتدبه هارون الرشيد لقتال الوليد بن طريف الشيباني وكان والياً بأرمينية وأذربيجان وهو ابن أخي معن بن زائدة (الأعلام).

(٢) يشير إلى عشيرة بني شيبان التي ينتسب إليها كل من يزيد والوليد والفارعة.

(٣) مرآة الجنان ١/ ٣٧٠.

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦١ سنة ١٧٩ والعقد الفريد ٣/ ٢٦٩ والعيون والحدائق ٣/ ٢٩٧ ومرآة الجنان ١/ ٣٧٢ والشعر والشعراء في العصر العباسي ص٤٦٣ وشاعرات العرب ٣٧٤ - ٣٧٦.

ولليث فوق الشمس إذ يحملونه إلى حفرة ملحودة وسعوف
بكت تغلب الغلباء يوم وفاته وأبرز منها كل ذات نصيف
يقلن وقد أبرزن بعدك للورى معايد حلي من برّى وشنوف
كأنك لم تشهد مصاعاً[1] ولم تقم مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ولم تبد في خضراء ذات رفيف
دلاص ترى فيها كدوماً من القنا ومن ذلق يعجمنها بحروف[2]
وطعنة خلس قد طعنت مرشة على يزني كالشهاب رعوف[3]

ثم تقف الفارعة أيامها على البكاء على أخيها وتوبخ قومها لأنهم ضيعوه وأضاعوا أنفسهم بعدم الثبات معه. بل توبخ السيوف لأنها أصابته ولم تعلم أي فتى أصابت فتقول[4]:

ذكرت الوليد وأيامه إذ الأرض من شخصه بلقع
فأقبلت أطلبه في السماء كما يبتغي أنفه الأجدع
أضاعك قومك فليطلبوا إفادة مثل الذي ضيّعوا
لو أن السيوف التي حدها يصيبك تعلم ما تصنع
نبت عنك إذ جعلت هيبة وخوفاً لصولك لا تقطع

رثاء الجواري:

ومن صادق الرثاء ورقيقه ما قالته بعض الجواري في رثاء أسيادهن ووفاء منهن لهم، وعرفاناً لأياديهم عليهن في حياتهم وسنلحظ من خلال ما سنعرضه من أمثلة شعرية صدق الشعور وعمق العاطفة ولوعة الحزن.

---

(١) المصاع: القتال.
(٢) الدلاص: اللين البراق، صفة للدروع، الذلق: الحاد.
(٣) الرعوف: والراعف: الفرس الذي يتقدم الخيل.
(٤) وفيات الأعيان ٦/ ٣٣ والشعر والشعراء في العصر العباسي ص٤٦٤.

فالشاعرة عنان تود وقد فاضت نفسها حسرات أن تسوق أيامها سوقاً تعجلاً لوفاتها بعد مولاها[(١)]، إذ لا انتفاع لها بالبقاء.. وهي تبكي خشية أن تطول حياتها بعده قالت[(٢)]:

نفسي على حسراتها موقوفة ... فوددت لو خرجت مع الحسرات
لو في يدي سياق أيامي إذا ... خطرفتهن[(٣)] تعجلاً لوفاتي
لا خير بعدك في الحياة وإنما ... أبكي مخافة أن تطول حياتي

ولما مات المأمون وفت له جاريته (تتريف) وقصرت نفسها على البكاء عليه، واشتد جزعها وأقبلت ترثيه وتنوح عليه وتبكيه حتى ماتت، ومن شعرها في ذلك[(٤)]:

يا ملكاً لست بناسيه ... نعى إليَّ العيش ناعيه
والله ما كنت أرى أنني ... أقوم في الباكين أبكيه
والله لو يقبل فيه الفدا ... لكنت بالمهجة أفديه
عاذلتي في جزعي[(٥)] أقصري ... قد علق الرهن بما فيه

وقالت[(٦)]:

إن الزمان سقانا من مرارته ... بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا ... ثم انثنى تارة أخرى فأبكانا
إنا إلى الله فيما لا يزال لنا ... من القضاء ومن تلوين دنيانا

---

(١) قالت الأبيات في رثاء مولاها الناطفي.
(٢) نساء الخلفاء ص٥٢.
(٣) خطرفتهن: خطرف: جعل خطوتين بخطوة واحدة، سار بسرعة (اللسان/ خطرف).
(٤) المستظرف من أخبار الجواري ص١٨.
(٥) وردت في المستظرف ص١٨ (جذعي) ولعل الصواب ما أوردناه.
(٦) المستظرف من أخبار الجواري ص١٨.

دنيا نراها ترينا من تصرفها ما لا يدوم مصافاة وأحزانا
ونحن فيها كأنا لا نزايلها للعيش أحياؤنا يتلون موتانا

وفاء الجواري لأسيادهن بعد موتهم وقصر حياتهن على النواح والبكاء عليهم وعدم الانتفاع بالحياة والاستمتاع بمباهجها بعدهم أمر اشتهرت به بعضهن في العصر العباسي فدنانير[1] أيضاً وفت لسيدها يحيى بن خالد وآلت أن لا تغني بعده أبداً حتى أنها امتنعت عن الغناء للرشيد[2] ومحبوبة جارية المتوكل لزمت لبس الثياب البيض بعده حداداً عليه وعزفت عن الغناء.. وقيل إنها لما اضطرها (وصيف) وكانت ضمن جواريه اللائي وقعن من نصيبه ـ على الغناء أخذت العود وغنت وهي تبكي[3]:

أي عيش يطيب لي لا أرى فيه جعفرا
ملكاً قد رأته عيـ ـني قتيلاً معفرا
كل من كان ذا هيام وحزن فقد برا
غير محبوبة التي لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
إن موت الكئيب أصلح من أن يعمرا

فاشتد ذلك على وصيف وهمَّ بقتلها لولا أن استوهبها بعض الحاضرين فوهبها له فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون بحيث تختار من البلاد، فخرجت من سر من رأى إلى بغداد وأخملت ذكرها طول عمرها[4].

---

(١) الأغاني ١٨/١٧.
(٢) الأغاني ١٨/١٧.
(٣) الأغاني ٢٢/٢٠٣ ـ ٢٠٥ والمستظرف ص٦٦ ـ ٦٧ مع اختلاف في اللفظ.
(٤) الأغاني ٢٢/٢٠٤.

وسئلت فضل عما نزل بها صبيحة قتل المتوكل فقالت باكية[1]:

إن الزمان بذحل[2] كان يطلبنا ... ما كان أغفلنا عنه وأسهانا
ما لي وللدهر قد أصبحت همته ... مالي وللدهر ما للدهر لا كانا

وكانت الفتح ممن قتل مع المتوكل فرثته هند جارية أبي محمد بن مسلمة الشاطبي وكان قد اشتراها فحظيت عنده، بقولها[3]:

قد قلت للموت حين نازله ... الموت مقدامة على البهم
لما تبينت ما فعلت إذن ... قرعت سناً عليه من ندم
فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به ... ما بعد فتح للموت من ألم

فهي لا يهمها بعد أن ذهب الموت بالفتح أن يذهب بعده بمن يشاء فلن تألم نفسها ذلك الألم على أحد سواه.

ومثل ذلك ما قالته نسيم في رثاء مولاها أحمد بن يوسف الكاتب الكوفي:

ولو أن ميتاً هابه الموت قبله ... لما جاءه المقدار وهو هيوب
ولو أن حياً قبله جازه الردى ... إذ لم يكن للأرض فيه نصيب[4]

وقالت أيضاً ترثيه[5]:

نفسي فداؤك لو بالناس كلهم ... ما بي عليك تمنوا أنهم ماتوا

---

(١) المصدر نفسه ١٩/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٢) ذحل: الذحل: الثأر (اللسان/ ذحل).

(٣) المستظرف من أخبار الجواري ص٧٣.

(٤) معجم الأدباء ٥/٧٩ والمستظرف ص٧١.

(٥) معجم الأدباء ٥/٧٩ والمستظرف ص٧١ وقد ورد البيتان مع البيتين السابقين في المستظرف دفعة واحدة والغريب أن المحقق لم يفطن إلى اختلاف القافية.

ولـلـورى مـيـتـة فـي الـدهـر واحـدة   ولـي مـن الـهـم والأحـزان مـوتـات

ويلاحظ المتأمل في المعاني الواردة في رثاء الجواري بصورة عامة لأسيادهن أنهن لم يتناولن إلا كدر العيش بوفاتهم وعدم انتفاعهن بالحياة بعدهم وحرصهن على اللحاق بهم.. ولا شك في أن العلاقة العابرة القائمة على اللذة والأنس والتمتع بمباهج الحياة معهم هي التي قيدت الجواري بذكر هذه المعاني في شعر الرثاء.

وهناك سبب آخر في غاية الأهمية إضافة إلى الحزن الطبيعي الذي ينتج عن فقدان سيد الجارية المحب لها، وهو أن مصيرها بعد وفاته مجهول في كفة الأقدار، فهي جزء من المال الموروث وغالباً ما يباع لتقسيمه على الورثة فإذا حصل مثل ذلك فقدت الجارية ما اعتادت عليه من راحة وطمأنينة أو من عناية فائقة ورعاية وتدليل.

ونجاح الجارية في منازل السادة التي تكثر فيها الجواري في اجتذاب قلب سيدها ليس بالأمر الهين، فقد يرافقه صراع مرير مع عدد كبير من الجواري..

ولم يتعد ما ورد من الشعر في رثاء الجواري المعاني ذاتها والصور نفسها فالبكاء على الجارية بكاء على فقدان النعيم والأنس ومباهج الحياة.

إلا أن هذا لا يعني انعدام ورود الرثاء بذكر بعض الصفات والمثل العربية الأصيلة فقد قالت تيماء[١] جارية أبي العباس خزيمة بن خازم النهشلي ترثي سيدها[٢]:

---

(١) أعلام النساء ١/ ١٨٠.

(٢) المستظرف ص١٧.

إن أبا العباس خدن العلى خزيمة البأس فتى الجود
والمتلف المخلف رب الندى أودى فما جود بموجود
لئن حواه القبر ميتاً فقد تضيق عنه سعة البيد
كأنه لم يفن يوماً ولم يعد على الشم الصناديد
ولم يفل الخطب في مأزق ضنك بقلب غير مزؤود[1]
كم فرقت آراؤه جحفلاً وبددته أي تبديد

فهي تصفه بالبأس والشجاعة وقوة البطش وبالجود حتى لكأن الجود قد انعدم بعد وفاته.. ثم بالرأي الثاقب والفكر السديد.. إذ يمكنه بحزمه وذكائه أن تفرق آراؤه جحفلاً وتبدده أي تبديد.

وهناك دوافع أخرى ربما يمكننا أن نضيفها إلى ما سبق أن عرضنا في رثاء الجواري لأسيادهن يساعد عليها تزود الجواري بقسط وافر من الثقافة الأدبية وكثرة حفظهن للشعر والعادات والتقاليد التي تقضي بنظم الشعر لإنشاده في مجلس الندب والبكاء والعزاء.. وقد مرت بنا أمثلة لندب الجواري أسيادهن في بعض المجالس[2].

المديح:

وكان للنساء الحرائر والإماء شعر في المديح وردتنا نصوص بعضه ولم نقف لبعضه الآخر إلا على إشارات مقتضبة أو على أبيات قليلة لا تكاد تغني، وليس من شك في أن الحياة الثقافية والاجتماعية التي كانت تحياها المرأة، حرة أو أمة، في العصر العباسي تتيح لها إلى حد كبير أن تمارس القول في هذا الغرض، فقد كان لبعض النساء الحرائر والجواري مدائح وصلنا منها القليل، وضاع ضمن ما ضاع الكثير.

---

(١) المزؤود: المذعور إذا فزع (اللسان/ زأد).

(٢) الأغاني ٢٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤، والمستظرف ص٦٦ ـ ٦٧.

وكان لبعض الحرائر[1] أن يحضرن مجالس الخلفاء لينشدن الأشعار في المديح والتهاني أسوة بالشعراء، وقد أشار التنوخي[2] إشارات كثيرة على ذلك، كما ذكر ابن المعتز أنه كان لعدد من الجواري في الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة[3].

ومع ذلك فلم يرد بين الشعراء المحترفين للمديح ذكر شاعرة اتخذت من الشعر حرفة ومن المديح وسيلة للتكسب، اللهم إلا إذا عددنا الحجناء بنت نصيب من المتكسبات لقصرها مدائحها على طلب النوال، وسنورد لها نماذج شعرية تؤيد ذلك..

ورغم الإشارات الواردة في طبقات ابن المعتز عن كثرة مدائح فضل في الخلفاء والملوك، إلا أني لم أعثر فيما بين يدي من المصادر على شعر لها في المديح، وهذا يعني أن الكثير من شعرها ضائع لم يعثر عليه بعد.. وقد ذكر مثل هذا عن خنساء الشاعرة (التي نازعت الشعراء ومدحت الخلفاء)[4]. يضاف إلى ذلك أن من المعقول أن يكون لأمثال هؤلاء الجواري مدائح في أسيادهن من الخلفاء الوجهاء وممن يواصلهن.

أما ما ذكر عن بعض السيدات الحرائر، وحضورهن مجالس الخلفاء لمشاركة الشعراء في إلقاء قصائد التهاني والمدائح، فيقول التنوخي[5]:

(حضرت بغداد في مجلس الملك عضد الدولة في يوم عيد الفطر

---

(١) الأغاني ١٠/ ١٩٠ ـ ١٩١ وأشعار أولاد الخلفاء ص٦٠ ـ ٧٢ ونشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٧.

(٢) نشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٧ رقم ١٣٥، ١٣٦.

(٣) طبقات ابن المعتز (أخبار فضل ص٤٢٦).

(٤) طبقات ابن المعتز (أخبار فضل ص٤٢٦).

(٥) نشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٧ رقم ١٣٥.

سنة سبع وستين وثلاثمائة والشعراء ينشدونه التهاني، فحضرت عابدة الجهنية[1] امرأة عم أبي محمد المهلبي الوزير، فأنشدت قصيدة لم أظفر منها بشيء).

وقال في حديثه عن عاتكة المخزومية[2]: (حضرت مجلس عضد الدولة ببغداد في عيد الفطر سنة ٣٦٧هـ وحضر الشعراء فأنشدوا التهاني، وحضرت أم الحسن البغدادي السلامي[3] فأنشدته لنفسها قصيدة طويلة بعبارة فصيحة وإنشاد صيت مستقيم ولسان سليم من اللحن لم أصل إلى جميعها، تقول فيها عند ذكرها الممدوح[4]:

شتّان بين مدبّر ومدمّر صيد الليوث حصائد الغزلان
روّعته من بعد دهر راعني وسقيته ما كان قبل سقاني
فلقد سهرت لياليا ولياليا حتى رأيتك يا هلال زماني

ويذكر التنوخي كذلك أن ابنة خال الشاعر السلامي كانت قد أنشدته لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة الحمداني:

لولا حذاري من أن ألام على عتاب يوم منه وإعتابه
لسرت والليل هودجي وذبـ ـاب السيف في نحره إلى بابه[5]

(١) شاعرة فاضلة: وخطاطة ماهرة، وأديبة فصيحة، روى عنها القاضي أبو علي المحسن بن علي بن محمد التنوخي (أعلام النساء ٣/١٩٨).

(٢) عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية أم الحسن بن محمد بن عبدالله السلامي الشاعر وكانت شاعرة فصيحة روى عنها القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة ٥/٢٦٩ وأعلام النساء ٣/٢٠٨).

(٣) أبو الحسن السلامي: شاعر عباسي استقر لدى الصاحب بن عباد فألحقه بخدمة عضد الدولة توفي سنة ٣٩٤هـ (اليتيمة ٣/٣٩٦).

(٤) نزهة الجلساء ص٧٧ ونشوار المحاضرة ٥/٢٦٩.

(٥) نزهة الجلساء ص١٠٩.

وللسيدة زبيدة في المديح والاستعطاف قولها في المأمون[1]:

لخير إمام قام من خير عنصر   وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم   وللملك المأمون من أم جعفر

ولعلية بنت المهدي في أخيها الرشيد قولها[2]:

قل للإمام ابن الإمام   مقال ذي النصح المصيب
لولا قدومك ما انجلى   عنّا الجليل من الخطوب

وقالت فيه وكان قد زارها إثر دعوة منها فسرت بزيارته[3]:

تفديك أختك قد حبوت بنعمة   لسنا نعدّ لها الزمان عديلا
إلاّ الخلود وذاك قربك سيدي   لا زال قربك بالبقاء طويلا
وحمدت ربي في إجابة دعوتي   فرأيت حمدي عند ذاك قليلا

وأتبعتهما بأبيات أخرى في الاستعطاف أوردناها في (أدب المراسلات)وربما ألقيت بعض المدائح مواجهة في مجالس الخلفاء أو الأشخاص الممدوحين.. وربما بعثت في رسالة.. وقد أشرنا إلى بعض ذلك في (أدب المخاطبات) و (أدب المراسلات).

ومما قيل في المديح قول الحجناء، وقد دخلت مع أبيها نصيب الشاعر على الخليفة المهدي فقالت[4] مادحة ومهنئة وواصفة لقصره:

رب عيش ولذة ونعيم   وبهاء بمشرق الميدان
بسط الله فيه أبهى بساط   من بهار وزاهر الحوذان

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٢٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٣.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص٧٢.

(٣) الأغاني ١٠/ ١٩١.

(٤) الأغاني ٢٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

ثم من ناضر من العشب الأخضـ ـر يـزهـو شـقـائـق الـنـعـمـان
مـدّه الـلّـه بـالـتـحـاسـيـن حـتـى قـصـرت دون طـولـه الـعـيـنـان
خـفّـفـت حـافـتـاه حـيـن تـنـاهـى بـخـيـام فـي الـعـيـن كـالـظـلـمـان
زيّـنـوا وسـطـهـا بـطـارمـة مـثـ ـل الـثـريـا يـحـفـهـا الـنـسـران
ثـم حـشـو الـخـيـام بـيـض كـأمـثـا ل الـمـهـا فـي صـرائـم الـكـثـبـان[1]
يـتـجـاوبـن فـي غـنـاء شـجـي أسـعـدانـي يـا نـخـلـتـي حـلـوان
وبـقـصـر الـسـلام مـن سلّـم الـلّـه وأبـقـى خـلـيـفـة الـرحـمـن
ولـديـه الـغـزلان بـل هـن أبـهـى عـنـده مـن شـوارد الـغـزلان
يـا لـه مـنـظـراً ويـوم سـرور شـهـدت لـذتـيـه كـلّ حـصـان

ولها في مدح المهدي أيضاً قولها[2] ترققه عليهم:

أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ألا تـرانـا خـنـافـس بـيـنـنـا جـعـل كـبـيـر
أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ألا تـرانـا كـأنـا مـن سـواد الـلـيـل قـيـر
أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ألا تـرانـا فـقـيـرات ووالـدنـا فـقـيـر
أضـرَّ بـنـا شـقـاء الـجـدّ مـنـه فـلـيـس يـمـيـرنـا فـيـمـن يـمـيـر
وأحـواض الـخـلـيـفـة مـتـرعـات لـهـا عـرف ومـعـروف كـثـيـر
أمـيـر الـمـؤمـنـيـن وأنـت غـيـث يـعـمّ الـنـاس وابـلـه غـزيـر
يـعـاش بـفـضـل جـودك بـعـد مـوت إذا عـالـوا ويـجـتـبـر الـكـسـيـر

وقد نقل السيوطي عن ابن النجار قوله في الحجناء: (إن لها مدائح في المهدي قد جمعت). إلا أننا لم يصلنا من تلك المدائح غير ما ذكرت.

---

(١) الصرائم: المنصرمة من الرمال ذات الشجر (الأساس/ صرم).

(٢) نزهة الجلساء ص٣٤.

ودخلت الحجناء على العباسة بنت المهدي فأنشدتها قولها[1]:

أتيناك يا عباسة الخير والحيا ... وقد عجفت أدم المهارى وكلّت
وما تركت منا السنون بقية ... سوى رمّة منا من الجهد رمّت
فقال لنا من ينصح الرأي نفسه ... وقد ولّت الأموال عنّا فقلّت
عليك ابنة المهدي عوذي ببابها ... فإن محل الخير في حيث حلّت

فأقرت لها بثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب، فقالت:

أغنيتني يا ابنة المهدي أيّ غنى ... بأعجرين كثير فيهما الورق[2]
من ضرب تسع وتسعين مملكة ... مثل المصابيح في الظلماء تأتلق
أما الحسود فقد أمسى تغيّظه ... غماً وكاد برجع الريق يختنق
وذو الصداقة مسرور لنا فرح ... بادي البشارة ضاح وجهه شرق

ورغم أن هذه الأبيات في طلب النوال فإنها مما يدل على أن النساء في العصر كن يقصدن ويمدحن طلباً للمال والعطاء.

وكان للأمين الخليفة نصيب من مدائح النساء فقد قالت فيه عمته علية بنت المهدي تمدحه بكرم النسب والأصل وبالمكرمات وبالقدرة والبأس. قالت[3]:

يا ابن الخلائق والجحاجحة العلى ... والأكرمين مناسباً وأصولا
والأعظمين إذا العظام تنافسوا ... بالمكرمات وحصّلوا تحصيلا
والقائدين إلى العزيز بأرضه ... حتى يذل عساكراً وخيولا

وقالت مغنية في الأمين وكانت قد جزعت جزعاً شديداً لموت

---

(١) الأغاني ٢٢/٤٢١.

(٢) اي اغنيتني عقب ما اغناني أخوك بأعجرين: كيسين.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص٨٢.

الرشيد فتركت النبيذ والغناء.. فلم يزل الأمين حتى عادت[1]:

أطلت عاذلتي لومي وتفنيدي   وأنت جاهلة شوقي وتسهيدي
قد رنّحته شمول فهو منجدل   يحكي بوجنته ماء العناقيد

ولعنان الشاعرة في مدح جعفر البرمكي قولها تذكر براعته في حل الأمور إذا ما التبست حتى لتستوي لديه البديهة والفكر.. وتصفه بسعة الصدر والحزم في الرأي.. قالت[2]:

بديهته وفكرته سواء   إذا التبست على الناس الأمور
وصدر فيه للهمّ اتساع   إذا ضاقت من الهمّ الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأياً   إذا عجز المشاور والمشير

ومن القصائد الشهيرة التي وصلتنا للجواري في الخلفاء قول (سكن) جارية محمود الوراق في مدح الخليفة المعتصم تذكر فيه أعماله وإصلاحاته، وتشير إلى بابك وأخيه كيف أنهما شقا عصا الطاعة واغترا بجهلهما فحاولا القدح في حق المعتصم.. وكيف أنه قضى[3] على ثورتهما بالعقل والسيف. قالت[4]:

إن الإمام إذا أرقى إلى بلد   رقى إليه لعمران وإيناس
أما ترى الغيث قد جاءت أوائله   والعود نضر الذرى مستورق كاسي
وأصبحت سر من را دار مملكة   قطينها بين أنهار وأغراس
يا غارس الآس والورد الجني بها   غرس الإمام خلاف الورد والآس

(١) الأغاني ١٠/ ١٩٤.
(٢) الورزاء والكتاب ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٣) تاريخ الطبري ٩/ ١١ ـ ١٦.
(٤) المستظرف من أخبار الجواري ص٣٢ ـ ٣٣، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.

غـراسـه كـل عـات لا خـلاق لـه عبل الذراع شديد البأس قنعاس[1]
كـبـابـكٍ وأخيـه إذ سـمـا لـهـمـا ببـاتـر لـلشـوى في الـجيـد خـلاس
فذاك بـالـجسر نـصـب لـلعيـون وذا بسرّ من را على سامي الذرا راسي
وهـكـذا لـم يـزل في الدهـر نـعرفه غـرس الـخـلائـق مـن أولاد عـبـاس
شقّا عصا الدين واغترا بجهلهما بعصبة شهرت في الحرب بالباس
وحاولا القدح في حق الإمام ودون الـملك قد علما آساد أخياس[2]
في ظـل معتقـد لـلحق معتصم بـالله لـلأسـد غـلاب وفـراس
ودونه غـصـص يشجى العدو بـهـا مـثـل الـمبـارك أفـشيـن وأشـنـاس
أما ترى بابكاً في الجود منتصباً على مـلـمـلـمة مـن صنـعـة الـنـاس
بيـن الـسـمـاء وبيـن الأرض منزلـه وقـائـمـاً قـاعـداً جـسـمـاً بـلا راس

ومن القصائد التي رددتها كتب الأدب لعنان في المديح قولها تمدح يحيى بن خالد البرمكي وتذكر امتنانه على أختين لها من الجواري وتسأله إلحاقه بهما[3]:

نفى النوم عن عينيّ حوك القصائد وآمـال نـفـسـي هـمّـهـا غـيـر نـافـد
إذا ما نفى عني الكرى طول ليلة تعوّذت منها باسم يحيى بن خالد
وزيـر أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ومـن لـه فـعـالان مـن حـمـد طـريـف وتـالـد
مـن الـبـرمـكـيـيـن الـذيـن وجـوهـهـم مـصـابـيـح يـطـفـي نـورهـا كـلّ واقـد
علـى وجه يحيى غرة يهتدى بها كما يهتدي ساري الدجى بالفراقد
تـعـوّد إحـسـانـاً فـأصـلـح فـاسـدا وما زال يحيى مصلحاً كل فاسد
وكـانـت رقـاب فـي رجـال تـعـطـلـت فـقـلّـدهـا يـحـيـى كـريـم الـقـلائـد

(١) القنعاس: الرجل الشديد المنيع.
(٢) أخياس: يقال: كأنه أسامة في خيسه أي في أجمته (الأساس: خيس).
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢١.

على كل حيّ من أياديه نعمة وآثاره محمودة في المشاهد
حياضك في المعروف للناس جمة فمن صادر عنها وآخر وارد
وفعلك محمود وكفّك رحمة ووجهك نور ضوؤه غير خامد
بلغت الذي لا يبلغ الناس مثله فأنت مكان الكف من كلّ ساعد
فيا رب زده نعمة وكرامة على غيظ أعداء وإرغام جاحد
مننت على أختيّ منك بنعمة صفت لهما منها عذاب الموارد
فمن[1] لي بما أنعمت منك عليهما وقاك إله الناس كيد المكايد
أعوذ من الحرمان منك بخالد وطيب تراب فيه أعظم خالد.

ونخلص مما مر بنا أن حظ النساء فيما وصلنا من مدائحهن لم يكن بخير منه في الأغراض الأخرى وربما كان سبب ضياعه أن الرواة لم يحفلوا به كثيراً لعجز أكثره عن مجاراة المديح الجيد الذي شاع في العصر، وأن كثرة مديح الشعراء من الرجال كان قد غطى على شعر النساء في هذا المجال.

ويلاحظ أن أكثر المعاني التي تناولتها النساء في مديحهن تكاد تكون تقليدية فصفات الممدوح لا تتجاوز تلك الصفات التي عهدناها في الشعر العربي من شجاعة وبأس وعقل وحزم وتدبير وجود وكرم وغيرها مما عرف من الصفات المحمودة.

الهجاء:

لا أشك في أنه كان لشواعر العصر العباسي هجاء كثير لم يصلنا منه إلا النزر القليل. ومعلوم أن التنافس الشديد بين الجواري والقيان للحصول على المعجبين بشاعريتهن أو جمالهن أو غنائهن يدفعهن إلى

(١) فمن في الأصل، ولا يستقيم الوزن إلا بتخفيف النون، وقد تكون: فمر لي أو فمن بما أنعمت.

التنافس والتهاجي، كما أن العلاقة العابرة المبتذلة بين بعض شعراء العصر وبعض الجواري الشاعرات قد تؤدي إلى التراشق بالشعر والتهاجي[1] به، وقد مر بنا في الحديث عن القيان صور من هجاء الشعراء لهن. . .

وكثيراً ما تقع منافسة بين أبناء العصر فتميل جماعة إلى قينة أو تعجب بجارية دون الأخرى فتنبري للثناء على محاسنها وبراعتها وتقف للذود عنها ودفع ما يقال فيها من عيب أو ينسب إليها من نقص، وقد تهجو من يهجوها، كالذي وقع بين شارية وعريب، يروي لنا صاحب الأغاني[2]: (وكان أهل سر من رأى متحازبين، فقوم مع شارية وقوم مع عريب لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب هذه).

وكالذي وقع بين فضل وخنساء جارية هشام المكفوف، وكانت شاعرة وكان أبو شبل عصم بن وهب[3] يعاون فضلاً عليها ويهجوها مع فضل، وكان الفصيدي والصلحي يعينان خنساء على فضل وأبي شبل، فقال أبو شبل على لسان فضل[4]:

خنساء طيري بجناحين	أصبحت معشوقة نذلين
من كان يهوى عاشقاً واحداً	فأنت تهوين عشيقين
هذا الفصيدي وهذا الفتى	الصلحي قد زارك فردين
نعمت من هذا وهذا كما	ينعم خنزير بحشين[5]

(١) أبو نواس في تاريخه وشعره ص٣٧، والمحاسن والأضداد ص١٥٦.

(٢) الأغاني ١٥/٨.

(٣) أبو شبل: من شعراء الدولة العباسية في أيام المأمون وأدرك المتوكل ومدحه وعمر طويلاً.

(٤) الأغاني ١٩/٢٦٥ ـ ٢٦٦ق.

(٥) موضع قضاء الحاجة.

فقالت خنساء تجيبها:

ماذا مقال لك يا فضل بل مقال خنزيرين فردين
يكنى أبا الشبل ولو عاينت عيناه شبلاً راث كرّين

وقالت فضل في خنساء[1]:

إن خنساء لا جعلت فداها اشتراها الكسار من مولاها
ولها نكهة يقول محاذيها أهذا حديثها أم. . . . .

ورغم بذاءة هذا الهجاء وسوقية الصورة الواردة فيه، إلا أنه هجاء مر على كل حال وهو مقذع بارع، ويتضح ذلك إذا ما تذكرنا مكانة الحديث ووقعه وجماله وكثرة القول فيه وجعله من السمات الأساسية للجمال. .

وقد رأينا اهتماماً كبيراً وولعاً شديداً في جعل الحديث مظهراً للجمال حتى لقد أكثر الشعراء من التفنن في ذكره على أنه مما يصبي القلوب ويجتذب الأسماع ويريح النفوس ويلذ العقول. . فهم مرة يتغزلون بجمال الصوت ومرة يتغزلون بتنوع أفانين القول فيشبهونه بالعسل أو الدر أو الرياض وغير ذلك.

وقد أدرك النخاسون والمقينون أهمية هذا فكان من ضرورات مهنتهم تدريب الجواري على أساليب التحدث والحوار والعناية بتثقيفهن وتزويدهن بالمادة والطريقة الساحرة للتعبير عنها واستخدام الصوت والإشارات وحركات الغنج وسائر عناصر الأداء التي تجعل الجارية متحدثة بارعة ذات سحر وتأثير، وهذا كله يدلنا على مرارة هجاء فضل الشاعرة لصاحبتها خنساء بقبح نكهة الحديث.

---

(١) ديوان المعاني ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وقالت خنساء تهجو أبا الشبل[1]:

ما ينقضي فكري وطول تعجبي   من نعجة تكنى أبا الشبل
لما اكتنيت بما اكتنيت به   وتسمّت النقصان بالفضل
كادت بنا الدنيا تميد ضحى   وترى السماء تذوب كالمهل

ولعنان الشاعرة الماجنة في هجاء أبي نواس الكثير من الشعر الفاحش والذم المقذع حتى زعم أنه كان يدور على السنة العامة، فقد وقع بينهما شر أدى بها إلى أن تدس إليه سفهاء الكرخ والعيارين[2] ليرددوا إذا ما رأوه:

أبو النواس اليماني   وأمّه جلبّان
والنفل[3] أفطن شي   إلى حروف المعاني[4]

وقد حاول أبو نواس أن ينتقم منها لكنها غلبته وأخجلته في مناظرات شعرية فاحشة[5]. إلا أنه لم يلبث أن ثأر منها في أبيات قالها فيها بعد ذلك وكان الرشيد يسعى لابتياعها من مولاها الناطفي وكان قد بلغته أخبارها مع أبي نواس فأعجب بها واستظرفها، فما إن سمع مقالة

---

(١) الأغاني ١٩/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ وطبقات ابن المعتز ص٤٢٥ وفيها اختلاف.

(٢) العيارون: جمع عيار وهو النشيط في المعاصي أو الغلمان لا تحمل لهم يتسابون ويتشاتمون.

(٣) رويت بالغين وبالفاء. وكلتاهما يستقيم معها المعنى. فالنفل بالفاء: أصل النفل النفي. يقال: نفلت الرجل عن نسبه. (اللسان/ نفل).
والنغل بالغين: الفاسد النسب أو ولد الزنية (اللسان/ نغل).

(٤) ورد البيتان في طبقات ابن المعتز، ص٤٢١ منسوبة إلى أبان بن عبدالحميد اللاحقي ومعهما بيت ثالث هو:

إن زدت بيتاً على ذي   ما عشت فاقطع لساني

(٥) أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله ص٣٧، والمستظرف ص٤٢، ٤٧.

أبي نواس فيها حتى قال: (لعن الله أبا نواس وقبحه، فقد أفسد علي أمري في عنان بما قال فيها ومنعني من شرائها)[1].

وقالت عنان في هجائه، وكان قد اجتمع بها يوماً فجعلت تطلب عثراته وتؤذيه فتجشأ في وجهها فقالت[2] من أبيات مبتذلة هجته فيها بقبح ريح ما ينطق به، وقد سبق أن رأينا فضلاً الشاعرة تهجو غريمتها خنساء بمثل ذلك، وربما كان الهجو بقبح رائحة الحديث من الصور الجديدة في العصر أو مما شاع القول فيه:

يا نواسيّ يا نفاية خلق اللّه قد نلت بي سماءً وفخرا
مت إذا شئت قد ذكرتك في الشعر وجرّر أذيال ثوبك كبرا

ولا بد لي في هذا المجال أن أقول: إنني مع أستاذي (الدكتور علي الزبيدي) في أن الرواة والقصاص[3] قد جعلوا من أمثال هذه المشاهد والمواقف والمحاورات مادة للقصص الغرامي الفاحش القريب من الأدب المكشوف، وأنها شكلت شطراً كبيراً من مادة القصص، وأن العبث والانتحال وسائر أنواع التحوير والتغيير واضحة جلية فيها. إلا أني لا أذكرها على أنها حقائق وروايات موثقة بل نماذج يمكن أن نتخذ منها شواهد على ما نقول..

المهم أن ظروف المجتمع العباسي كانت توجد هذا اللون من الأدب وتحتويه.. وأن بعضها صحيح أو قريب من الصحة، وهذا يكفي لبحث لا يتخصص في دراسة القصص الغرامي العباسي بل يمسه مساً خفيفاً، وبحثي من هذا النوع.

---

(١) وقيل إن السيدة زبيدة كانت قد أوعزت إلى أبي نواس أن يقول شعراً في عنان ليصرفه عن شرائها (الأغاني ٢٢/٥٢٨).

(٢) المستظرف ص٤٠ ـ ٤١.

(٣) في الأدب العباسي ص٩٥.

ومما قيل في الهجاء ما نسب إلى علية بنت المهدي في هجاء جارية يقال لها (طغيان) لأم جعفر، وكانت قد وشت بعلية وحكت عنها ما لم تقل[١]:

لطغيان خف مذ ثلاثين حجةً جديد فلا يبلى ولا يتمزّق

وأضافت بعض الأبيات التي فيها من الفحش ما لا يصح ذكره هنا.

ورغم قلة ما وقع بين أيدينا من هجاء النساء للنساء أو الرجال، فإن أهم ما تميز به هذا القليل هو صدوره عن الدوافع الشخصية في الأحقاد والمنافسات وتدهور الأخلاق والرغبة في التندر والسخرية والتباهي بالمقدرة على نسبة أكبر ما يمكن من المعايب إلى المهجوة أو المهجو، بأسلوب عامي يقرب من الابتذال وبألفاظ نابية فاحشة. وهو ما يتفق مع السمة العامة لبعض موضوعات الهجاء التي شاعت في العصر العباسي بصورة عامة، حيث (اتخذ الهجاء أداة للتسلية والمداعبة والعبث والمجون... وقويت هذه الظاهرة واتسعت منذ عصر بشار وتبادله الهجاء مع أبي الشمقمق)[٢].

ومن المعاني التي شاعت في الهجاء، تناول العاهات الجسدية والمظاهر الشخصية والعادات والمبالغة في ذم الأنوف واللحى والشوارب والصلعات والطول والقصر وغير ذلك[٣].

ولعابدة بنت محمد الجهنية[٤] في هجاء أبي جعفر محمد بن

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء، ص٦٢ والأغاني ١٠/١٧٦.

(٢) محاضرات الدكتور علي الزبيدي (المعاني والأفكار والأخيلة بين النقد وتاريخ الأدب/ الهجاء) ص٥٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) عابدة بنت محمد الجهنية: شاعرة وخطاطة وأديبة فصيحة (أعلام النساء ٣/١٩٨).

القاسم الكرخي[1] تعيبه بقصر قامته وهزاله.. قولها فيه وقد جعلت منه لعبة يلعب بها الصبيان أيام النيروز[2]:

شاورني الكرخي لما دنا   النيروز والسنّ له ضاحكه
فقال ما نهدي لسلطاننا   من خير ما الكف له مالكه
قلت له كل الهدايا سوى   مشورتي ضائعة هالكه
اهد له نفسك حتى إذا   أشعل ناراً كنت دوباركه[3]

وقال التنوخي معلقاً على هذا الهجاء: (فهجته هذه المرأة بما تحقق عندي أنها صادقة فيه لأنه يليق بكلام النساء، وقد كانت تنشدني أفحل من هذا الكلام وكتبت ذلك عنها وهو ثابت في مواضع من كتبي وما تعلق بحفظي لها غير هذه الأبيات)[4].

ويبدو من كلام التنوخي أن هذه الشاعرة كانت تكثر من هجاء أبي جعفر الكرخي ربما لأسباب شخصية أو سياسية وهو ما يوضح أنه كان لبعض النساء مواقف عداء أو كره لبعض الشخصيات أدت إلى الهجاء الذي وصلنا منه هذا النزر القليل.

(١) أبو القاسم: أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي من رجال الدولة العباسية تقلد عدة دواوين كبار ثم تقلد الوزارة للراضي وكان قصير القامة فاحتيج بسبب قصره إلى أن ينتقص من ارتفاع سرير الملك (معجم البلدان ٤/ ٢٥٣).

(٢) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٣ ونزهة الجلساء ص٧٦.

(٣) دوباركه: دمية كانت تتخذ من القماش في النيروز.

(٤) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤ ونزهة الجلساء ص٧٦.

الفصل الرابع

أدب الأعرابيات

وكان للأعرابيات نصيب في الأدب ولا شك في ذلك فقد كانت الفصاحة فيهن سليقة تصدر عنهن دون عناء أو تكلف، إضافة إلى أنه كان فيهن عدد غير قليل من ذوات العقل الراجح والنظر السديد والفكر الثاقب وقد عثرت لهن على الكثير من النصوص الشعرية والنثرية في أغراض مختلفة. . ففي الشعر. الرثاء والمديح والغزل والهجاء والأمومة.

أما الأغراض التي وردت في نثرها فمتنوعة المرامي يمكن حصرها بما يلي: ندب الموتى، التعزية، الدعاء، السؤال والاستجداء، الوصايا، الحكمة، والموعظة، المخاصمات، الوصف، النوادر.

١ ـ الرثاء وندب الموتى:

وكان الرثاء وذكر الأحباب الأموات من أزواج أو أبناء أو أقارب من أكثر ما ورد على لسان النساء الأعرابيات في الشعر لأن المرأة كانت قد ألفت منذ أقدم العصور أن تكون هي الراثية والنائحة والمعددة للمزايا التي تصور الفضائل والسجايا والقيم التي يرتضيها المجتمع من فروسية وشجاعة وكرم ومروءة ونجدة وتضحية وإباء وشرف. . . إلخ.

والملاحظ أن ما وصلنا عن النساء من رثاء وندب شعري لا يزيد على نوعين: إما أن يكون ندباً عاماً تقوله النادبات المحترفات لا يخرج عن المعاني التقليدية التي تتردد في المراثي وتدور حول الصفات التي تمثل القيم الأخلاقية والاجتماعية للعصر، وإما أن يكون رثاءً صادقاً وندباً أصيلاً يصدر عن المرأة المنكوبة نفسها فيلتقي حينئذ والشعر

التقليدي في بعض المعاني والصور ويبتعد عنه في العواطف والشعور الصادق.

جاء عن الأصمعي[1] أنه قال[2]: (رأيت امرأة جالسة عند قبر تبكي وتقول:

هــل خــبــر الــقــبــر ســائــلــيــه	أم قــرّ عــيــنــاً بــزائــريــه
أم هــل تــراه أحــاط عــلــمــاً	بــالــجــسـد الــمــسـتـكـن فــيــه
لــو يــعــلــم الــقــبــر مــن يــواري	تــاه عــلــى كــل مــا يــلــيــه
تــحــلــو نــعــم عــنــده ســمــاحــاً	ولــم تــدر قــط لا بــفــيــه
أنــعــى بــريــداً لــمــقــتــفــيــه	أنــعــى بــريــداً لــمــجــتــديــه
أنــعــى بــريــداً إلــى حــروب	تــحــسـر عــن مــنــظــر كــريــه
أنــدب مــن لا يــحــيــط عــلــمــاً	بــكــنــهــه بــلــغ نــادبــيــه
يــا جــبــلاً كــان ذا امــتــنــاع	وطــود عــز لــمــن يــلــيــه
ونــخــلــة طــلــعــهــا نــضــيــد	يــقــرب مــن كــف مــجــتــنــيــه
ويــا مــريــضــاً عــلــى فــراش	تــؤذيــه أيــدي مــمــرضــيــه
ويــا صــبــوراً عــلــى بــلاء	كــان بــه الــلّــه يــبــتــلــيــه
يــا دهــر مــاذا أردت مــنــي	أخــلــفــت مــا كــنــت أرتــجــيــه
دهــر رمــانــي بــفــقــد إلــفــي	أشــكــو زمــانــي وأشــتــكــيــه

(١) الأصمعي: عبدالملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي رواية العرب، وأحد أئمة العلم واللغة والشعر والبلدان توفي بالبصرة كان كثير التطواف في البوادي يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. كان الرشيد يسميه (شيطان الشعر) قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي، وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. تصانيفه كثيرة أشهرها الأصمعيات (الأعلام للزركلي ج٤ ص٣٠٧ ـ ٣٠٨).

(٢) الأمالي ج٢ ص٣٢١ ـ ٣٢٢.

أمـــنــــك الله كـــل روع وكـــل مـــا كـــنـــت تـــتـــقـــيـــه

ويلاحظ أن المعاني التي وردت في هذه الأبيات معانٍ تقليدية مألوفة وأن ما وصفت به المرأة زوجها من صفات لا تتعدى الفضائل والقيم المعروفة عند الأعراب من كرم وشجاعة ومنعة ومروءة، والمرجح أن استعمال هذا البحر من المخلع البسيط ذي الإيقاع الحزين ملائم كل الملاءمة لهذا النوع الأصيل الحزين من الندب.

وعن الأصمعي أيضاً أنه رأى امرأة في البادية عند قبر تبكي وتقول[1]:

فـمـن لـلـسـؤال ومـن لـلـنـوال ومـن لـلـمـقـال ومـن لـلـخـطـب
ومـن لـلـحـمـاة ومـن لـلـكـمـاة إذا مـا الـكـمـاة جـثـوا لـلـركـب
إذا قـيـل مـات أبـو مـالـك فـتـى الـمـكـرمـات قـريـع[2] الـنـسـب
فـقـد مـات عـز بـنـي آدم وقـد ظـهـر الـنـكـد بـعـد الـطـرب

ومن طريف ما رواه الأصمعي عند ذكره لهذا النص قوله: فملت إليها فقلت لها: من هذا الذي مات هؤلاء الخلق كلهم بموته؟

فقالت: أو ما تعرفه؟.. قلت: اللهم لا، فأقبلت ودمعتها تنحدر.

فقالت: فديتك هذا أبو مالك الحجام ختن أبي منصور الحائك..!

فقلت عليك لعنة الله، والله ما ظننت إلا أنه سيد من سادات العرب.

---

(١) الأمالي ١/ ٦٢.

(٢) القريع: القراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف، وقيل: مضاربة القوم في الحرب وقد تقارعوا، وقريعك: الذي يقارعك (اللسان/ قرع).

ولعل هذا من تزيد الرواة وكلفهم في إضافة الطرائف والملح إلى الأخبار، وهو من نوادر الأصمعي التي صنعها الرواة أيضاً، فليس من المألوف أن تكون المرأة بدوية ويكون زوجها حجاماً وختنه حائكاً لأن الحجامة والحياكة من حرف الحاضرة، ولكن الذي يهمنا أن هذا الشعر من الندب الخاص الذي تندب به المرأة فقيداً عزيزاً.

ولا غرابة في عملها ومقالها.. أليس عزيزاً عليها.. أليس من واجبها أن تفي له بتعداد المآثر والمزايا أو أن تنسب إليه ما تحب من فضائل ومناقب، وما عليها إلا أن تفعل ذلك وليقل الناس ما يقولون..!

ومعروف أن الأصمعي كان يكثر التجواب والتنقل بين الأعراب يلتمس من أفواههم اللفظة ويتصيد الخاطرة.. فهذه ميزته وبضاعته وثروته.. وقد يمر بالغريب والعجيب والنادر والطريف فينقله إلينا ويحدثنا به.. قال[1]:

(دخلت بعض مقابر الأعراب ومعي صاحب لي فإذا جارية على قبر كأنها تمثال وعليها من الحلي والحلل ما لم أر مثله وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي، فالتفت إلى صاحبي فقلت: هل رأيت أعجب من هذه؟ قال لا والله ولا أحسبني أراه.. ثم قلت لها: يا هذه إني أراك حزينة وما عليك زي الحزن فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني فإنني رهينة هذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يراني
أهابك إجلالاً وإن كنت في الثرى مخافة يوم أن يسوؤك لساني

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي بالاً ويكثر في الدنيا مواساتي

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٧٨.

قد زرت قبرك في حلي وفي حلل كأنني لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيئاتي
فمن رآني رأى عبرى مولهة عجيبة الزي تبكي بين أموات

وهذا الخبر سواء أكان نادرة مصنوعة أم حادثة حقيقية يدل في صيغته التي ورد فيها، وفي تحقيق هذه الصيغة والتعبير عنها هذا التعبير الواضح من الأبيات نفسها. . على معان عميقة معبرة عن الأبعاد النفسية الغائرة في أعماق النفس الإنسانية، فكأن المرأة هنا لا تريد الاعتراف بحقيقة الموت على الرغم من تسليمها بها وإقرارها إياها أمراً واقعاً مفروضاً عليها وعلى البشر، لا تريد أن تعترف بأن الموت قادر على أن ينتزع منها الرجل الذي أحبته وألفت أن تتحلى له بفاخر الثياب والحلي، ولعمري إنه ندب لا يسير في النهج التقليدي للندب، فالتقاط هذه الصور النادرة، وتلونها بهذه الألوان وتشخيص هذا الموقف العاطفي النفسي مناسب كل المناسبة للجو الذي يشيعه الندب ولا سيما الندب الذي يبكي حبيباً عزيزاً كان جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه في حياة النادبة.

كل هذا يدل على أن الندب كان غنياً بالعواطف والمعاني والصيغ اللفظية والمعنوية والنفسية وأن حظه من الابتكار والإبداع لم يكن قليلاً، وقال: رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهي تبكي وتناجيه بحرقة ولوعة فتقول(١):

خدي تقيك خشونة اللحد وقليلة لك سيدي خدي
يا ساكن القبر الذي بوفاته عميت علي مسالك الرشد
اسمع أبثك علتي فلعلني أطفي بذلك حرقة الوجد

وإني وإن كنت أشك في كون الجارية المذكورة بدوية لما في

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٧٨.

الأبيات من ألفاظ وتعابير لينة الأسلوب ذات طابع لغوي حضري واضح، إلا أنني أثبتها لأنها جاءت في سياق ما روي عن الأصمعي من حكايات نقل أغلبها عن الأعرابيات. مهما يكن فالأبيات لا تخرج عن دائرة الندب المعبر عن الألم والحزن الذاتيين، أو ما تركه فقدان رجل عزيز في نفس النادبة ومشاعرها. وعنصر (الغيرية) أو الموضوعية ضئيل هنا بل معدوم فليس فيه أثر لفضائل البادية أو الحاضرة.

وقال: رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تقول[1]:

يا من بمقلته زها الدهر ... قد كان فيك تضاءل الأمر

زعموا قتلت وما لهم خبر ... كذبوا وقبرك ما لهم عذر

يا قبر سيدنا المجن سماحة ... صلى الإله عليك يا قبر

ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن ... ألا يمر بأرضه القطر

فلينبعن سماح جودك في الثرى ... وليورقن بقربك الصخر

وإذا غضبت تصدعت فرقاً ... منك الجبال وخافك الذعر

وإذا رقدت فأنت منتبه ... وإذا انتبهت فوجهك البدر

والله لو بك لم أدع أحدا ... إلا قتلت لفاتني الوتر[2]

فالمرثي في هذه الأبيات هو زهوة دهر صاحبته ويسر أمورها، وهو القطر للأرض، وجوده نبع يورق الصخر، وهو قوي شجاع تتصدع الجبال فرقاً منه، ويخشاه الذعر نفسه وهو واع لكل ما حوله عارف به كاشف سره، فرقدته انتباهة وانتباهه بدر ينير ما حوله فلا يدع مستوراً مخفياً، وتختم المرأة أبياتها بقولها إنها لو ثأرت له بالناس جميعاً لما مسحت عن نفسها الظلم في الأخذ بثأره، ولا شك في أن هذه القطعة

---

(١) الأمالي ١/٣٩ ـ ٤٠.

(٢) الوتر: الظلم في الذحل: والذحل هو الثأر (اللسان/وتر، ذحل).

صورة أصيلة لندب الأعرابيات شكلاً ومعنىً وروحاً.

وللأعرابيات في رثاء أبنائهن شعر من أرق الشعر وأعذبه وأصدقه لأن الحرقة صادرة من الأعماق.. من أكباد الأمهات، قيل لأعرابية مات ابنها وقد رئيت متجملة متصبرة..! ما أحسن عزاءك فقالت: إن فقدي إياه أمنني كل فقد سواه..، وإن مصيبتي به هونت علي المصائب بعده، ثم أنشأت تقول[1]:

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
كنت السواد لناظري فعمي عليك الناظر
ليت المنازل والديار حفائر ومقابر
إني وغيري لا محالة حيث صرت لصائر

ألا ترى ما ينطق به هذا الخبر من عمق الشعور الصادق وفداحة مصاب القلب الرؤوم، وما ترقرق في هذا الشعر من أصدق المشاعر وأعمق الأحزان والأشجان؟

وللأعرابيات في الرثاء والندب والتحدث عن الموتى قطع نثرية لا تقل أهمية عن القطع الشعرية. ينقل لنا الأصمعي ما رواه وقد خرج إلى البادية يتلمس اللغة فظمىء ورأى بيتاً منفرداً في واد خلاء، لا أنيس به، فقصده، فرأى عجوزاً فسألها ريه من ماء فقدمت له لبناً.. ثم قال لها: (إني أراك معتنزة في هذا الوادي الموحش، والحلّة منك قريب فلو انضممت إلى جانبهم فأنست بهم، فقالت[2]:

(يا ابن أخي، إني لآنس بالوحشة، وأستريح إلى الوحدة ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر من عهدت، فكأني أخاطب

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٥٤ وعيون الأخبار ٣/ ٥٦ مع اختلاف.
(٢) جمهرة خطب العرب ٣/ ٢٧٤ والأمالي ٢/ ٦ ـ ٧.

أعيانهم وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم ومغدى أموالهم، والله يا بن أخي لقد رأيت هذا الوادي بشع اللديدين[1] بأهل أدواح وقباب، ونعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قماً[2] بغرفة فأصبحت الآثار دارسة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به.. ثم قالت: ارم بعينك في هذا الملأ المتباطن فنظرت، فإذا قبور نحو أربعين أو خمسين فقالت: ألا ترى تلك الأجداث؟ قلت: نعم..! قالت: ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ أو عم أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمأت[3] عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غالهم، إنصرف راشداً رحمك الله...!).

ومثل هذا ما رواه عن عبدالرحمن بن عمر قال[4]:

(دخلت على امرأة من العرب بأعلى الأرض في خباء لها وبين يديها بني لها قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته وعصبته وسجته ثم قالت:

(يا بن أخي، قلت: ما تشائين؟ قالت: ما أحق من ألبس النعمة وأطيلت به النظرة أن لا يدع التوثق من نفسه قبل حل عقدته والحلول بعقوته والمحالة بينه وبين نفسه، قال: وما يقطر من عينها قطرة صبراً واحتساباً، ثم نظرت إليه فقالت: والله ما كان مالك[5] لعرسك) ثم

---

(١) اللديد: الصفحة (الأساس/لود).

(٢) قما بغرفه: قمم جمع وقبض (الأساس: قمم).

(٣) المأت: ذهبت بهم (الأساس/لمأ).

(٤) الأمالي ٢/٢٧٨ والبيان والتبيين ٣/٢٣١ وجمهرة خطب العرب ٣/ ٢٧٥ والعقد الفريد ٣/ ٢٤٣.

(٥) جاء في العقد الفريد ٣/٢٤٣: (والله ما كان ماله لبطنه ولا أمره لعرسه) وهو أدل على المعنى.

أنشدت تقول:

رحيب ذراع بالتي لا تشينه   وإن كانت الفحشاء ضاق بها ذرعا

وقالت أعرابية إن الرزية لا تكون بفقد المال أو موت الشاة أو البعير... ولكنها بفقد سيد من سادات القوم.. يموت بموته بشر كثير..

لعمرك ما الرزية فقد مال   ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد قرم   يموت بموته خلق كثير[1]

ويطول البحث لو أكثرت من الشواهد وهي كثيرة في بداية العصر العباسي لعناية الأصمعي وغير الأصمعي من علماء اللغة ورجال الأدب بأدب الأعرابيات لدوافع وأسباب كثيرة فرضتها حركة جمع التراث الشعري ونشأة علوم العربية وتطورها، ولعوامل ودوافع أخرى لا تخفى على الباحثين.. وقد أشرنا إلى طبيعة هذا الندب بنوعيه العام والخاص.. والحق أن ندب الأعرابيات وإن كان غنياً بالخصائص الذاتية التي تجعل كثيراً من عناصره مشدودة إلى الندب الخاص لما فيه من ذاتية أو (خصوصية) تبدو في التعبير الصادق الأصيل عن مشاعر النادبة وعواطفها وما يعتلج في قلبها ويحرق ذاتها من أشجان وأحزان..

إلا أن ندب الأعرابيات قوي الصلة برؤية فنية أوسع لأنه يتجاوز في الأعم الأغلب الذاتية الضيقة لينطلق عن الفصل توكيد وترديد ووصف الفضائل والمناقب والسجايا التي يتمسك بها المجتمع البدوي إلى آفاق أبعد وأرحب من ذكر العواطف والمشاعر الذاتية.. لأن حياة الأعرابية بحاجة دائمة إلى هذه الفضائل التي لا غنى عنها في حياة

---

(١) الأمالي ١/ ٢٧٢.

القبيلة في السلم والحرب.. ولهذا كان البكاء على الفروسية والشجاعة والمروءة والكرم وغيرها من السجايا الحميدة وهي الصفة الملازمة لندب الأعرابيات شعراً كان أم نثراً، وحتى الندب المصنوع الذي يؤيد افتعاله ما يحفل به من سجع أو محسنات لفظية تحمل طابع (المقامة) وغيرها من ألوان النثر المتأخر لأن المصنوع والمنحول مضطر إلى محاكاة الأصيل الصحيح.

وطبيعي أن يكون هذا الندب من حيث الأسلوب (أعرابي البناء) أي فصيح الألفاظ قوي التراكيب بعيداً عن الألفاظ والعبارات التي تدور في أساليب الحضريين الذين رققت الحضارة ونعومة العيش ألفاظهم وتراكيبهم، فضلاً عن التصوير المتمثل في العديد من مشاهد الحياة البدوية وأجوائها الطبيعية والاجتماعية، ولا نقصد بالتصوير هنا صياغة المعاني والأفكار بل نعني الصور والمشاهد والمواقف التي تتوارد أمام العيون في الأحياء والمجتمعات القبلية والبيئة الصحراوية التي تعيش فيها.. والتي تؤلف عناصر الرؤية البصرية الموصوفة وصفاً فنياً واقعياً.

٢ ـ الوصايا:

وللأعرابيات في وصايا أبنائهن نصيب.. وإنها لتدل على بعد النظر وسلامة التفكير، وفهم أسرار الحياة والعلاقات الاجتماعية.. فمن ذلك ما رواه الأصمعي عن أبان ابن تغلب[1] قال: (مررت بامرأة بأعلى الأرض وبين يديها ابن لها يريد سفراً وهي توصيه فقالت: اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، وقليل أجدائها عليك أنفع من كثير عقلك: إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن، ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة، فإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن يتثلم.. ومثل لنفسك مثالاً فيما

(١) أبان بن تغلب: هو أبو سعد أبان بن تغلب الربعي الكوفي كان من النساك الثقات في البصرة وكان ممدوحاً بالفصاحة توفي سنة ١٤٠هـ.

استحسنته من غيرك فاعمل به وما كرهته منه فدعه واجتنبه، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها. ثم نظرت فقالت: كأنك عراقي أعجبت بكلام أهل البدو. ثم قالت لابنها: إذا هززت فهز كريماً، فإن الكريم يهتز لهزتك، وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعومل به، وعليك بالوفاء ففيه النماء، وكن بمالك جواداً وبدينك شحيحاً، ومن أعطى السخاء والحلم فقد استجاد الحلة: ريطتها وسربالها، انهض على اسم الله)[1].

وقالت أعرابية توصي ابنها بعدم سؤال الناس، لأن سؤالهم ما في أيديهم هو الافتقار إليهم، وهي لا تريد له أن يفتقر إليهم، لأنه سيهون عليهم، إلا إذا ألحت عليه الحاجة فعليه أن يجعل سؤاله إليهم حاجة السائل والمسؤول:

(يا بني إن سؤالك الناس ما في أيديهم من أشد الافتقار إليهم، ومن افتقرت إليه هنت عليه، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل وترغب، فإذا ألحت عليك الحاجة، ولزمك سوء الحال، فاجعل سؤالك إليه حاجة السائل والمسؤول فإنه يعطي السائل)[2].

وهناك بعض الوصايا التي قدمتها الأمهات لبناتهن في بعض المواقف كالزواج مثلاً.. وهي مثبتة في كتب الأدب إلا أن من العسير تحديد أوقاتها وتواريخها.. لعدم وجود إشارات واضحة إلى ذلك.

٣ ـ السؤال والاستجداء:

وقد يجور الدهر بموت الرجال ونفاد الأموال فتنفد الحيلة وتشتد

---

(١) البيان والتبيين ح٤ ص٧٢ والأمالي ج٢ ص٧٩ وجمهرة خطب العرب ج٣ ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ وبلاغات النساء ٥٢ مع اختلاف.

(٢) جمهرة خطب العرب ج٣ ص٢٤٥.

الحاجة على نساء كنّ يرفلن بالعز والمنعة، تحميهن الرجال وترعى أمورهن وتعيل أولادهن، فيلجأن إلى السؤال..

ذكر الحصري عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال: (وقفت علينا أعرابية فقالت: يا قوم تعثر بنا الدهر، إذ قل الشكر، وفارقنا الغنى، وحالفنا الفقر، فرحم الله امرءاً فهم بعقل وأعطى من فضل وواسى من كفاف، وأعان على عفاف)[1].

وروي أن المهدي خرج بعد هدأة من الليل، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهي تقول: (قوم متظلمون، نبت عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضتهم السنون، بادت رجالهم وذهبت أموالهم، وكثر عيالهم، أبناء سبيل وأنضاء طريق وصية الله ووصية رسوله ﷺ فهل من آمر بخير، كلأه الله في سفره، وخلفه في أهله فأمر نصيراً الخادم فدفع إليها خمسمائة درهم[2].

ودخلت أعرابية على عبدالله بن أبي بكر بالبصرة فوقفت بين السماطين فقالت: (أصلح الله الأمير وأمتع به، حدرتنا إليك سنة اشتد بلاؤها وانكشف غطاؤها، أقوت صبية صغاراً وآخرين كباراً في بلدة شاسعة تخفضنا خافضة، وترفعنا رافعة لملمات الدهر، برين عظامي، وأذهبن لحمي، وتركنني والهة أدور بالحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض، فسألت في أحياء العرب: من الكاملة فضائله، المعطى سائله، المكفي نائله، فدللت عليك، أصلحك الله تعالى، وأنا امرأة من هوازن، قد مات الوالد، وغاب الرافد، وأنت بعد الله غيائي، ومنتهى أملي، فافعل بي إحدى ثلاث خصال: إما أن تردني إلى بلدي أو تحسن

(١) زهر الآداب ج٤ ص١٠٨٧.

(٢) جمهرة خطب العرب ج٣ ص٢٧٠ والعقد الفريد ج٣ ص٤٢٨ وزهر الآداب ج٣ ص٢٤٤.

صفدي[1] أو تقيم أودي فقال: بل أجمعهن لك، فلم يزل يجري عليها كما يجري على عياله حتى ماتت)[2].

يتبين من النص السابق أن المرأة لم تلجأ إلى السؤال إلا بعد اضطرارها إليه وأنها صانت سؤالها إلا عن الكاملة فضائله ـ على حد قولها ـ الذي لا يخيب سائله ويكفي نائله فكان عند حسن ظنها وأجابها سؤالها وأجرى عليها ما كان يجريه على عياله حتى ماتت.

وقال الأصمعي[3]: (رأيت أعرابية ذات جمال تسأل بمنى فقلت لها: يا أمة الله تسألين ولك هذا الجمال؟ قالت: قدر الله فما أصنع؟ قلت فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحاج نسقيهم ونغسل ثيابهم قلت: فإذا ذهب الحاج فمن أين؟ فنظرت إلي وقالت: يا صلت الجبين[4] لو كنا نعيش من حيث نعلم ما عشنا).

وقريب من ذلك ما يرويه التنوخي[5] عن أحدهم أنه قال: (حججت في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وأنا في بعض المنازل راجعاً إذ غشينا فقراء المدينة يستميحون، فوقفت على جارية تتصدق بوجه كأنه القمر حين استدار، ولون الشمس حين أنار، فرددت طرفي عنها واستعذت الله من الفتنة بها، فلم تزل بين رجال الحاج وتعود إلى رحلي حتى وقفت وقلت لها: أما تستحين أن تبدي مثل هذا الوجه في مثل هذا الوقت والموضع بحضرة الخلائق؟ فلطمت وجهها وقالت:

لم أبده حتى تقضت حيلتي   أبديته وهو الأعز الأكرم

---

(١) الصفد: العطاء.

(٢) جمهرة خطب العرب ج٣ ص٢٦٢ وبلاغات النساء ص٤٢ وزهر الآداب ج٣ ص٣٠٦.

(٣) العقد الفريد ج٣ ص٢١٠.

(٤) الصلت الجبين: الواضح.

(٥) الفرج بعد الشدة ج٢ ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

ويــعـــز ذاك عـــلـــي إلا أنـــه   دهـر يـجـور كـمـا تـراه ويـظـلـم
قـد صـنـتـه وحـجـبـتـه حـتـى إذا   لـم يـبـق لـي طـمـع ومـات الـهـيـثـم
أبـرزتـه مـن حـجـبـه مـقـهـورة   و الله يـشـهـد لـي بـذاك ويـعـلـم
كـشـف الـزمـان قـنـاعـه فـي بـلـدة   قـل الـصـديـق بـهـا وعـز الـدرهـم
أصـبـحـت فـي أرض الـحـجـاز غـريـبـة   وأبـو ربـيـعـة أسـرتـي ومـحـكـم

قال: فأعجبني ما رأيت من جمالها وفصاحتها وأدبها وشعرها فبررتها وكتبت الأبيات منها وقلت لها: ما اسمك قالت: المهنأة بنت الهيثم الشيباني... إلخ الخبر).

فواضح أن لجوء النساء الأعرابيات إلى السؤال كان بدافع الحاجة وبدافع الحرص على صيانة العفة والشرف.. وقد وجدنا أنهن كن يجدن فيمن يسألن أمناء على الحرم كرماء في العطاء، وقد تتفنن الأعرابية في السؤال فتعرضه بصورة لبقة بارعة فتحصل على بغيتها من العطاء فمن ذلك أن (عبدالله بن جعفر نزل إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة وقد دجنت عندها فذبحتها وجاءت بها إليه فقالت: يا أبا جعفر هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأعلفها من قوتي، وألمسها في آناء الليل فكأنما ألمس بنتي زلت عن كبدي فنذرت أن أدفنها في أكرم بقعة تكون. فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك فأردت أن أدفنها فيها.. فضحك عبدالله بن جعفر وأمر لها بخمسمائة درهم.

٣ ـ الطرائف والمداعبات:

وللأعرابيات عبارات موجزة في الدعاء والموعظة والحكمة أو المخاصمة أو الإجابات أو الوصف تدل على البلاغة والفصاحة وبعد النظر والبراعة في حسن توجيه الكلام والإيجاز البليغ كما نعلم من أبرز خصائص النثر الأعرابي وإن صح هذا التعبير فخير الكلام ما قل ودل.

عن البر القاضي أنه قال: رأيت امرأة بالبادية وقد جاء البرد

فذهب بزرع لها فجاء الناس يعزونها، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: (اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف، وبيدك العوض عما تلف، فافعل ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك وآمالنا منصرفة إليك) قال فلم أبرح حتى مر رجل من الأجلاء فحدث بما كان فوهب له خمسمائة دينار[١].

وقال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول[٢]: (اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتنعم بترك التنعم، رجاء لما وعدت وخوفاً مما أوعدت).

وقال[٣]: سمعت أعرابية تقول: (إلهي ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله، وأوحشه على من لم تكن أنيسه).

وللأعرابيات في المخاصمة كلمات ظريفة وأقوال فصيحة. فقد جاء عن عبدالرحمن عن عمه أنه قال: (سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول: والله إن شربك لاشتفاف[٤]، وإن ضجعتك لانجعاف[٥] وإن شملتك لالتفاف، وإنك لتشبع ليلة تضاف وتنام ليلة تخاف) فقال لها: (والله إنك لكرواء[٦] الساقين قعواء[٧] الفخذين مقاء[٨] الرقفين، مفاضة[٩] الكشحين، ضيفك جائع، وشرك شائع)[١٠]

---

(١) الفرج بعد الشدة ج١ ص٤٦.
(٢) جمهرة خطب العرب ٣/٣٣٦ وزهر الآداب ج٤ ص١٠٣٤.
(٣) البصائر والذخائر ١/١٥.
(٤) الاشتفاف: اشتف ما في الإناء شربه كله.
(٥) الانجعاف: الانصراع.
(٦) الكرواء: دقيقة الساقين.
(٧) قعواء: المتباعدة ما بين الفخذين.
(٨) المقاء: الدقيقة الفخذين.
(٩) المفاضة: المسترخية.
(١٠) جمهرة خطب العرب ج٣ ص٢٩٨ والأمالي ج١ ص١٠٤.

وقال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه:

(والله لو صور الجهل لأظلم معه النهار، ولو صور العقل لأضاء معه الليل، إنك من أفضلهما لمعدم فخف الله، واعلم أن من ورائك حكماً لا يحتاج المدعي عنده إلى إحضار بينة)[1].

ولهن في الإجابات والوصف عبارات قصيرة خفيفة تدل على البراعة فقد دخلت أعرابية على حمدونة بنت المهدي، فلما خرجت سئلت فقالت: (والله لقد رأيتها فما رأيت طائلاً، كأن بطنها قربة، كأن ثديها دبة، كأن وجهها وجه ديك نفش عفريته يقاتل ديكاً)[2].

ويلاحظ بساطة التشبيه وبراعته وظرفه مع دقة في الوصف وفصاحة في التعبير.

كما يلاحظ ذكاء الأعرابية وجسارتها فضلاً عما في هذه النادرة من دلالة على شعور هذه المرأة الذكية بالحيف والغبن لما أصابها من فقر وما حل بها من حرمان حتى اضطرت إلى اختراق الحجب الكثيرة للوصول إلى القصر والوقوف أمام حمدونة. فالأعرابية تمثل بنات ونساء الشعب وحمدونة تمثل نسوة القصور اللائي ينعمن بالنعيم والترف والمال والجاه ويرفلن بأفخر الثياب والحلل ويلبسن أغلى الحلي ووصف الأعرابية لها وسخريتها منها فيه دلالة نقمة نساء العامة من أعراب وحضر وتعبيرهن عن هذه النقمة بهذا الأسلوب الساخر[3].

وسئلت أعرابية عن ابنها فقالت: (أنفع من غيث وأشجع من ليث،

---

(١) زهر الآداب ج٣ ص١٦٣ وجمهرة خطب العرب ج٣ ص٢٩٧.

(٢) عفريته: ريش عنقه.

(٣) عيون الأخبار ٤/٣٩، العقد الفريد ٢/ ٩٢، والأمالي ٢/١٥٦، وجمهرة خطب العرب ٣/ ٢٩٧.

ويحمي العشيرة ويبيح الذخيرة ويحسن السريرة)[1].

وقد استطاعت هذه الأعرابية أن تسم ابنها بأرفع السمات التي تعتبر مثل المجتمع العربي مع إيجاز في التعبير وبلاغة في التصوير.

جاء في صبح الأعشى[2]: (تعرضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة أبي العباس السفاح فقالت: (يا أمير المؤمنين احتسب الصبر، وقدم الشكر، فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين، وأعظم عليك المنة في الحادثين، سلبك خليفة الله، وأفادك خلافة الله، فسلم فيما سلبك، واشكر فيما منحك، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين).

وروى الجاحظ[3] قال: (عزت امرأة المنصور عن أبي العباس حين مقدمه من مكة قالت: أعظم الله أجرك فلا مصيبة أجل من مصيبتك ولا عوض أعظم من خلافتك).

وحكى العتبي[4] (أن أعرابية قالت لخل لها: حديثك توديع، وزيارتك توقيع).

وحكى البيهقي[5] أن المهدي وقف على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممن العجوز؟ قالت: من طيىء، قال: ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟ قالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك.. فأعجب بقولها ووصلها.

---

(١) البصائر والذخائر ص١٥٠.

(٢) صبح الأعشى ج٩ ص٢٧٨ وجمهرة خطب العرب ج٣ ص٥٣.

(٣) البيان والتبيين ج٣ ص٨٥.

(٤) أدب الكتاب ص١٣٤.

(٥) المحاسن والمساوىء ج٢ ص٢١٩ وأخبار الظراف والمتماجنين ص١٤٤.

ويطول الحديث عن الإجابات والعبارات الموجزة البليغة التي تفوهت بها الأعرابيات.. لذا نكتفي بهذا القدر لأن غرضنا الإشارة لا التفصيل.

٤ ـ الغزل:

للحب والغزل لدى الأعرابيات قصص وشعر، ورغم قلة ما وصلنا منه إلا أن هذا القليل يدل على أن فيه الكثير من الصفاء والنقاء ومن السذاجة والبساطة والطرافة...

يحدثنا الأصمعي(١) أنه بينما كان يطوف بالبيت إذا به بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول:

لن يقبل الله من معشوقة عملاً   يوماً ووامقها(٢) غضبان مهجور
وكيف يأجرها في قتل عاشقها   لكن عاشقها في ذاك مأجور

قال: فقلت لها: يرحمك الله أفي مثل هذا الموضع تنشدين هذا؟ فقالت: إليك عني يا عراقي لا رهقك الحب.. فقلت لها وما الحب فقالت: هيهات: جل والله عن أن يحصى وخفي عن أن يرى فهو كامن ككمون النار في حجرها إن قدحته ورى وإن تركته توارى.. فقلت لها(٣): قاتلك الله ما أوصفك للحب، ثم أنشأت تقول:

حور حرائر ما هممن بريبة   كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام زوانياً   ويصدهن عن الخنا الإسلام

---

(١) النصف الأول من كتاب الزهرة ص٦٧ وطبقات الشافعية ١/٢٦٦ والموشى ١/٩٠ وفيه اختلاف.

(٢) الوامق: المحب.

(٣) في طبقات الشافعية ١/٢٦٦ (فهو كامن في الأحشاء).

وقد تضطر الأعرابية إلى أن تسر عاطفتها وتجن مشاعرها فتلجأ أحياناً إلى التكنية عمن تحب أو إلى التمويه على من حولها لتستر عواطفها عنهم . . فمن ذلك ما كان من زهراء الكلابية[1] الأعرابية وكانت قد اتصلت بإسحاق الموصلي تحدثه وتناشده الشعر، ومالت إليه فصارت تكني عنه في عشيرتها إذا ذكر بجمل . . كتبت إليه وقد غابت عنه تقول[2]:

وجدي بجمل على أني أجمجمه … وجد السقيم ببرء بعد إدناف
أو وجد ثكلى أصاب الموت واحدها … أو وجد مغترب من بين ألاف

ومن ذلك ما كان من ستيرة العصيبية[3] وقد نودي برحيل أحبابها ولما تفض ما في نفسها منهم، فاحتالت بإرخاء عمامتها على عينيها بحجة أن قذاهما قد سال، وما ذاك إلاً لتترك لهما العنان في أن تذرفا الدموع على فراق الأحبة قالت[4]:

ونادى بالترحل بعض صحبي … فرحت ومقلتي غرقى بماها
فراحوا والشقيّ له ديون … وأشيا من حوائج ما قضاها
فأرخيت العمامة دون صحبي … على عيني وقلت جرى قذاها
فقالوا من ضراري كيف بكر … وكيف تراك ترجو أن تراها
فقلت الله حمّ فراق بكر … فأرجو أن يحمّ لنا لقاها

ولستيرة العصيبية غزل اتسم بالكثير من الصراحة والقوة، قالت[5]:

---

(١) أعلام النساء ٢/ ٤٠.

(٢) الأغاني ٥/ ٣٠٠ والأمالي ١/ ٥٥.

(٣) شاعرة في العصر العباسي ربما كانت من شواعر الأعراب، ذكر الأصفهاني شعرها في (الزهرة ٣١٤) ولم يورد لها ترجمة، ولم أعثر في ما بين يدي من مصادر على ذكر لها.

(٤) الزهرة ص٣١٤.

(٥) الزهرة ٦٤.

بتنا بأطيب ليلة وألذها يا ليتها وصلت لنا بليال
حتى إذا ما الليل أشعل لونه بالصبح أو أودى على الأشغال
نادى مناد بالصلاة فراعنا ومضى جميع الليل غير نوال
فنهضن من حذر العيون هواربا نهض الهجان بدكدك منهال
ثم اطّلعن كأنهنّ غمائم زمن الربيع هممن باستهلال
حتى دفعن إلى فتى جشّمنه ردّ الكرى وتعسف الأهوال

وكثر في شعر الأعرابيات ذكر الظعائن والنوق والأطلال والفراق، نذكر منه ما قالته أعرابية وقد ذكرت أطلال أحبابها وظعائنهم(١):

تبصّر خليلي هل ترى بين دائش وبين أحيّ من ظعائن كالأثل
ظعائن يسلبن الفتى الغر عقله وذا الأهل حتى لا يبالي بالأهل

أو ما قالته أخرى(٢):

أرقت وطالت ليلتي بأبان لبرق سرى بعد الهدوء يماني
فيا عمّ عمّ السوء فرقت بيننا ونحن جميعاً شملنا متداني

وقالت ستيرة العصيبية وقد ألمّ بها خيال الحبيب في نومها فحيّا جميع الركب ولم يسلّم عليها(٣):

ألمّ خيال طيبة أجنبيا فحيّا الركب دوني والمطيا
لما حييتهم يا طيف دوني وأنت أحبهم شخصاً إليا
ألمّ بنا فسلّم ثم ولّى على الهجّاد تسليماً خفيّا

---

(١) الزهرة ص٢٤.

(٢) الزهرة ص٢٩٢.

(٣) الزهرة ص٢٦٢.

فلما أن كشفت غطاء رأسي أذاناً لا أرى إلاّ النضيّا[1]
وأينقنا الثلاث ملقّيات على متن الطريق وصاحبيا
وزرقاً بالجفير منشّبات وشوحطة ترنّ ومشرفيا[2]
فكلّفنا سراها إن رحلنا وأحشنا الأمير العامريا

وربما صرحت الأعرابية بحبها ووصفته وصفاً رقيقاً كقول صبية من الأعراب في حضرة الرشيد[3]:

تقول لأتراب لها وهي تمتري دموعاً على الخدين من شدة الوجد
أكلّ فتاة لا محالة نازل بها مثل ما بي أم بليت به وحدي
براني له حبّ تنشّب في الحشا فلم يبق من جسمي سوى العظم والجلد

وربما لجأت الأعرابية إلى التكنية عمن تحب باسم فتاة، وهي طريقة كانت تلجأ إليها الحضرية أيضاً وبخاصة إذا كانت من بيت معروف لا من الجواري والقيان.

فمن ذلك ما شاع على لسان علية بنت المهدي[4] التي كانت تكنّي في أكثر غزلها بمن تحب باسم فتاة لعدم جرأتها على البوح بالاسم الحقيقي له . . .

فقد روى لنا الأصفهاني[5] أبو بكر محمد بن أبي سليمان أن أعرابية بالبادية أنشدته قولها في الغزل:

هل الشوق إلاّ مثل ما أتكلف أبين وعيني ما تني الدهر تذرف

---

(١) النضي: المتقدم من الخيل.
(٢) الشوحط: من شجر القسي (الأساس: شحط).
(٣) الأغاني ٥/ ٢٢٥.
(٤) ورد ذكره في غزل الحرائر.
(٥) الزهرة ص٢٠٢.

تذكّرت بيتاً من نعيمة والنوى قريب وقد كان الذي أتخوف
فقد ظنّ هذا القلب أن ليس ناظراً إلى وجهها ما كذّب الله خندف
فيا قلب صبراً واعترافاً بما قضى لك الله إن الحرّ بالصبر يعرف
تجلّد وأجمل واصطبر وازجر الأسى لعلّ النوى يوماً بنعمة تسعف
عسى دارها أن ترعوي بعد بعدها عليك وتلقاها كما كنت تعرف

وقالت أعرابية وصرحت بعفتها في الحب وبأنها لم يكن ليجري بينها وبين من تحب غير كلام المودة والحب.. فإن تهممت نفساهما لغير ذلك صدهما عنه رقيبان عليهما من نفسيهما، هما التقى والتعفف[1]..

ويوم كإبهام الحبارى لهوته بقمعة والواشون فيه تحرف
بلا حرج إلاّ كلام مودة علينا رقيبان التقى والتعفف
إذا ما تهمّمنا صددنا نفوسنا كما صدّ من بعد التهمّم يوسف

ولئن وقفنا على هذه النماذج من شعر الأعرابيات لقد افتقدنا مثل ذلك للحرائر الحضريات، وهذا ما يدل على أن الأعرابية كانت أكثر من الحضرية حرية وصراحة وأنها كان يباح لها الاختلاط إلى حدّ ما الأمر الذي حظر على حرائر الحواضر، وقد بدا ذلك في غزل الحرائر.

ونعود فنقول: إن خصائص أدب الأعرابيات بصورة عامة لا تكاد تبعد عن الخصائص العامة للاتجاه الأعرابي في الشعر والنثر وهو اتجاه كان واضحاً في نتاج الشعراء الأعراب ولاسيما الرّجاز في العصر العباسي الأول.

ولا بدّ أن نشير إلى أن مشكلة قلة الأخبار والروايات في أدب الأعرابيات كانت واضحة، وأن الكثير من أشعار الأعرابيات وأقوالهن

---

(١) الزهرة ١/٦٦.

قد ضاعت، وذلك لتقلص الاهتمام به بعد عصر الجمع والتدوين، ولقلة من كان يعنى به من جامعي المنظوم والمنثور، ولاتجاه الأوساط الأدبية بعد عصر التدوين إلى نتاج المراكز والمناطق الحضرية.

الفصل الخامس

نظرة عامة في أدب المرأة وملامحه الفنية

لقد خضع (أدب المرأة) أسوة بأدب العصر العباسي عامة لتأثير المجتمع المتطور الذي تجلت فيه انعطافات الحضارة، فاستجاب لسمات الثقافة العصرية وآل إلى الانطلاق في المعاني والتجديد في الأغراض والابتكار في الأساليب والمعاني ملاءمة منه لروح العصر ومتطلباته.

ولعلّ من أهم المجالات التي تجلت فيها براعة المرأة في الانطلاقة الحضارية كان في (أدب المجالس والمناظرات) ثم في (أدب المراسلات) إضافة إلى ما بدا لنا من ومضات فنية تميز بها أدبها في الفنون الأدبية الأخرى التي أوردناها والتي سنتناول بعضها بالدراسة لتشخيص السمات البارزة وإبداء الملاحظات فيها.

فقد برعت المرأة براعة فائقة في أدب المجالس والمناظرات حتى شهد لها بالسبق في هذا المجال.

ومعلوم أن حظ الجواري من مخالطة الرجال ومجالستهم والتناظر معهم كان أوفى وأوفر. ولذلك كان نصيبهن من هذا النوع من الأدب أكثر من نصيب الحرائر فيه.

فالشاعرة عنان يدخل عليها مروان بن أبي حفصة وهي تبكي فيرى الدموع تنحدر من عينيها فيقول في ذلك:

بكت عنان فجرير دمعها كالدر إذ يستن من خيطه

فتقول مسرعة:

فليت من يضربها ظالماً تيبس يمناه على سوطه

فيشهد لها بأنها أشعر الجن والإنس[1].

ويذكر أبو زهير رزين العروضي أنه دخل على عنان وعندها أعرابي فقالت له: يا عم جاء الله بك على حاجة، فيقول لها: وما هي؟ فتقول: هذا الأعرابي يسألني أن أقول بيتاً ليجيزه وقد عسر عليّ الابتداء فابتدىء أنت عليّ بالقول. فقال أبو زهير:

لقد قل العزاء فعيل صبري غداة حمولهم للبين زمّت

فقال الأعرابي:

نظرت إلى أواخرها ضحيّا وقد رفعوا لها عصباً فرنّت

فقالت عنان:

كتمت هواهم في الصدر منّي على أن الدموع عليّ نمّت

ويعلق أبو زهير على ذلك فيقول: فكانت عنان أشعرنا[2].

يتبين من هذا إذا صحّ الخبر أن الشاعرة عنان كانت أقدر على المعارضة منها على المبادأة بالقول.. فهي أكثر براعة فيما لو حددت لها جوانب القول ورسمت فيه معالم السير في الفكرة المطروحة. وكذلك كان الأمر مع الشاعرة محبوبة حينماخرج الخليفة المتوكل من عند قبيحة (زوجه) وكانت قد كتبت اسمها على خدها بغالية، فأعجبه سواد تلك الغالية على بياض خدها الجميل، فطلب إلى علي بن الجهم وكان في المجلس أن يقول شيئاً في ذلك، فما كان من محبوبة، وكانت جالسة من وراء الستار تسمع الكلام حتى بادرت بنظم أبيات في وصف

---

(١) الورقة، ص٤١ والمستظرف من أخبار الجواري ص٣٩.

(٢) الورقة، ص٣٤ ـ ٣٥ والشعر والشعراء في العصر العباسي، ص٤٦٩.

ذلك ولم تمهل علياً، ولم تدع له مجالاً للتفكير، فقالت:

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا   بنفسي مخط المسك من حيث أثرا[١]

وقيل: (فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف)[٢].

وأمثال هذه الأخبار في براعة الجواري كثيرة، فأحمد بن أبي طاهر (قام خجلاً)[٣] حينما طلب إلى نبت أن تجيز مصراعاً ألقاه عليها فسبقته بالشعر ينثال على لسانها انثيالاً حتى لم تدع له مجالاً للتفكير أو القول.

وفضل التي قيل إنها كانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء بحضرته[٤].

وغيرهن ممن عرفن بالإجابات الذكية والمناظرات البارعة، وقد فصلنا ذلك في (أدب المجالس والمناظرات).

وبديهي أن يكون أكثر ما قالته الجواري في هذا الباب غير بعيد عن أحاديث الحب والغرام ومطارحة الهوى، وكان ما عرفناه لبعض الجواري القيان من مجون وتبذل لا يمنعهن من فحش القول وهجر الكلام، كالذي كان من عنان في مطارحاتها مع عدد من شعراء المجون كأبي نواس[٥] ودعبل وأبي النضير، أو كالذي كان من فضل في المساجلة الشعرية التي جرت بينها وبين أبي دلف.

---

(١) تنظر الأبيات.

(٢) نساء الخلفاء ص٩٤ والمستظرف من أخبار الجواري ص٦٤ ـ ٦٥.

(٣) نشوار المحاضرة ٧/١٢٨.

(٤) بدائع البدائه ص١١ والأغاني ١٩/٢٧١ ونساء الخلفاء ص٨٧، والمستظرف من أخبار الجواري ص٥٢.

(٥) المستظرف من أخبار الجواري ص٤١ ـ ٤٢.

ومما يلاحظ في مقطعات المجالس الشعرية رشاقة اللفظ ونعومة المعنى ولطف الأسلوب.. وكان لا بدّ لها أن تكون كذلك، فهي من مكملات الحسن ومتممات الأنس ومن مستلزمات البراعة والظرف والذكاء التي يجب أن تزدان بها الجواري السميرات في مجالس اللهو والجمال والفتنة.

على أننا يجب أن لا نغفل نصيب الحرائر من أدب المناظرات[1] رغم قلة ما وصلنا لهن منه إذا قيس إلى أدب الجواري في هذا الميدان.. وهو مع ذلك يدل على البراعة والقدرة.. ومن ذلك معارضته زبيدة للأبيات التي ألقاها عليها الرشيد، في كاتبها سعدان.

وغيرها مماوصلنا من شعر المعارضات والمناسبات في أبيات أو مقطعات شعرية لها أو لغيرها من الحرائر[2].

على أن من الملاحظ في معارضات الحرائر ومطارحاتهن غلبة طابع الجد ورصانة التفكير.. وفرق بين أن تلقى الإجابات أو تجاز الأشعار في معرض اللذة والأنس في المجالس أو المواقف التي تجمع بين الجواري والقيان الشاعرات بالخلفاء والسادة والشعراء.. وبين أن تعرض الأفكار من قبل الحرائر في بعض مواقف الجد كأن تقدم إحداهن طلباً لأمر أو وصفاً له أو أن تجيب على سؤال يوجه إليها في دواوين المظالم ومجالسها أو أن تشير إلى مهمة من المهمات الجادة.

أما أدب المراسلات، فقد رأيناه على نوعين: مراسلات الحرائر وكان في أغلب ماوصلنا منه لأغراض رفيعة ومهام كبيرة كالرسائل النثرية

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٥١٤.

(٢) العقد الفريد ١/ ٢٨ ونهاية ٦/ ٢٧٦ والمستظرف للأبشيهي ص٤٣ وزهر الآداب ١/ ٩٦ وتاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٣ والبصائر والذخائر ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣.

والشعرية التي وصلتنا عن السيدة زبيدة وأم الشريف. . ولقد اتصفت تلك الرسائل بفخامة اللفظ وجزالة المعنى ومتانة السبك.

وتميزت رسالة السيدة زبيدة ببعد النظر وسعة الصدر وحدة الذكاء مع إدراك عميق لآثار مواطىء الكلام في النفوس. .

وكان كتاب أم الشريف في موعظة ابن أخيها وتبصيره بالسياسة مثلاً في بعد النظر وفهم دخائل السياسة وإدراك الواقع بكافة مظاهره وخوافيه مع دقة في اللفظ وبراعة في الأسلوب ومتانة في السبك. . .

أما المراسلات التي عرفت للجواري فكان جلها في أغراض الحب والغرام من دعوة إلى وصال أو عتب على هجران أو وصف لوعة لفراق. .

وكان لبعضهن مكاتبات للخلفاء تشتمل على المكاشفة بالحب والمطالبة بالوصل. . ويبدو أن ذلك كان مستساغاً مقبولاً. . وكثيراً ما تضمن الجارية رسالتها إلى الخليفة ما يدل على وفرة علمها وسعة اطلاعها كالرسالة التي كتبتها إحدى جواري المأمون إليه وكانت قد أهدت إليه تفاحة[1].

وكان اللفظ في رسائلهن واضحاً ميسوراً بعيداً عن الغرابة والتعقيد متفقاً مع خفة الأفكار وظرفها مع رشاقة في التعبير ولطف في الأسلوب. كما يلاحظ في شعرهن كثرة الأوزان الخفيفة والضربات القصار كقول عريب في رسالة لها إلى محمد بن حامد:

ويلي عليك ومنكا   أوقعت في الحب شكا

أو قول فضل، وقد لامها صاحبها (سعيد بن حميد) لطموح نظرها

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٢٧ ـ ٥٢٩.

في مجلس إلى بنان المغني وإقبالها عليه بالحديث، وكانت قد ضمنته رسالة إلى صاحبها[1]:

يـــا مـــن أطـــلـــت تـــفـــرّســـي فـــي وجـــهـــه وتـــنـــفـــســـي

وغير ذلك مما أثبتناه في (أدب المراسلات).

وربما كان ميل الجواري الشاعرات إلى استعمال مثل هذه الأوزان واهتمامهن بجرس الألفاظ والعبارات بسبب حرصهن على اتساق الأوزان الخفيفة ذات الوقع الجميل لطبيعة النغم الذي قد يجرينه على منظوماتهن للتغني بها في المجالس.

وكثيراً ما يمر بنا أن الشاعرة الفلانية قالت أبياتاً وصاغت لها لحناً وتغنت في المجلس.

أما سائر الأغراض الشعرية التي نظمت فيها المرأة فأهمها المديح والهجاء والغزل والرثاء.

وقد وصلنا من مديح المرأة القليل وضاع كما يبدو الكثير منه، بدليل ما وصلتنا من إشارات تؤيد ذلك، فابن المعتز يذكر في طبقاته عن (خنساء) أنها (مدحت الخلفاء)[2] ولم يصلنا من مدحها كثير ولا قليل.. كما يورد للجارية (سكن)[3] قصيدة طويلة في مدح المعتصم تذكر فيها إصلاحاته وقضاءه على ثورة بابك الخرمي وأخيه حينما شقّا عصا الطاعة عليه..

ومن القصائد التي رددتها كتب الأدب لعنان في المديح[4]

---

(١) الأغاني ١٨/١ أو محاضرة الأبرار ص١٢٨ ورسائل سعيد بن حميد ص٢٦ والمستظرف ص٥٦.

(٢) طبقات ابن المعتز ص٤٢٦.

(٣) المصدر نفسه ص٤٢٢ والمستظرف من أخبار الجواري ص٣٢.

(٤) المصدر نفسه ص٤٢١.

قصيدتها في مدح يحيى بن خالد البرمكي. .

وكان يباح لبعض الحرائر أن يحضرن مجالس الخلفاء لمشاركة الشعراء في إلقاء قصائد التهاني والمدائح. . كالذي كان من الحجناء بنت نصيب التي كانت تدخل على الخليفة المهدي في مجلسه فتنشده المدائح والتهاني[1].

أو كالذي أورده (التنوخي)[2] عن عابدة الجهنية وعاتكة المخزومية أنهما حضرتا مجلس عضد الدولة ببغداد في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٧هـ مع الشعراء فأنشدته كل منهما قصيدة في المديح.

على أننا إذا ما تأملنا قصائد المديح التي قالتها النساء من الحرائر والجواري، وجدناها غالباً طويلة فخمة اللفظ متينة السبك رصينة المعاني ملائمة لفخامة الموقف وسمو الغرض، وربما جاءت أحياناً على شكل مقطعات قصيرة تلقى في مناسباتها على أن المدائح في أكثرها تقليدية في أساليبها وأفكارها تدور حول الفضائل العامة المتعارفة في المجتمع.

وكانت أكثر مدائح الشاعرات في الخلفاء، ورغم أن عدداً كبيراً من الشعراء قالوا في مديح بعض سيدات العصر الجليلات ممن كان يقصد للنوال كالخيزران والسيدة زبيدة. . فلم نعلم من شاعرات العصر من مدحت امرأة إلاّ ما وصلنا من مديح الحجناء للعباسة بنت المهدي طلباً لعطائها[3]. . .

أتيناك يا عباسة الخير والحيا وقد عجفت أدم المهارى وكلّت
وما تركت منا السنون بقية سوى رمّة منا من الجهد رمّت

---

(١) الأغاني ٢٢/ ٤٢٠.
(٢) نشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٧.
(٣) الأغاني ٢٢/ ٤٢١.

فقال لنا من ينصح الرأي نفسه وقد ولّت الأموال عنا فقلّت
عليك ابنة المهدي عوذي ببابها فإن محل الخير في حيث حلّت[1]

وربما كانت هذه الأبيات استهلالاً لقصيدة في المديح إذ إن نفس هذا المطلع يدل على أن هناك مديحاً لا يمكن أن تقف فيه الشاعرة عند باب الممدوحة دون أن تفصل في صفاتها وتعدد مآثرها..

ووقعت بين الجواري ملاحاة وخصومات أدت بهن إلى التهاجي، فلقد ذكر أن شارية وعريب القينتين اشتدت بينهما المنافسة حتى جعلت أهل سامراء حزبين متنافرين فقوم مع شارية وقوم مع عريب (لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب هذه)[2].

وقد تؤدي مثل تلك المنافسة إلى أن تقول كل منهما شعراً في هجاء الثانية.. إلاّ أن شيئاً منه لم يصلنا...!

كما وقع بين فضل وخنساء جارية هشام المكفوف تنافس وتهاج.. وتصدى لكل منهما بعض من يعين إحداهما على الأخرى وقد تبادلتا ومن والاهما الهجاء الفاحش وتراشقتا من السب البذيء والقول الفاحش ما لا يسمح المجال بذكره[3] ولا غرابة في ذلك فإن كلاً منهما كانت تعيش حياة التحلل والخلاعة والاستهتار، وما شعرهما في هذه الأغراض إلاّ فيض وامتداد لطراز حياتهم وانعكاس لما في نفوسهم، وقد جاء ذلك منسجماً مع الاتجاه العام للهجاء في ذلك العصر الذي كان يصدر عن الأحقاد والمنافسات الفردية وتدهور الأخلاق والرغبات في التسلية والتندر[4].

---

(١) ولها في العباسة أبيات أخرى في المديح ينظر ص٣٨٩ من البحث.

(٢) الأغاني ١٥/٣٢٨.

(٣) المستظرف من أشعار الجواري ٤٠ ـ ٤٢.

(٤) محاضرات الدكتور علي الزبيدي ص٥٤ (المعاني والأفكار والأخيلة بين النقد وتاريخ الأدب).

وكان من الحرائر من تصدى لهجاء بعض شخصيات العصر، وأكبر الظن أن خصومة وقعت بين عابدة بنت محمد الجهنية امرأة عم الوزير المهلبي وبين أبي جعفر محمد بن القاسم حينما ولي الوزارة، أدت إلى أن تهجوه بشعر وصلتنا منه بعض المقطعات، كقولها[1]:

شاورني الكرخي لما دنا النيروز والسن له ضاحكه
فقال ما نهدي لسلطاننا من خير ما الكف له مالكه
قلت له كل الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكه
أهد له نفسك حتى إذا أشعل ناراً كنت دوباركه

وذكر التنوخي في حديثه عن الشاعرة (أنها كانت تهجو أبا جعفر وأن لها فيه شعراً أفحل مما بين أيدينا منه، ما تعلق بحفظه لها غير هذه الأبيات)[2].

ويلاحظ في هذا الهجاء خفة الوزن وبساطة المعنى وواقعية الصورة وسهولة الألفاظ... وقد رأى فيه التنوخي ـ كما يبدو ـ من تعليقه على الأبيات رقة الأنثى وبساطتها فقال: (إن للشاعرة في هجاء أبي جعفر شعراً أفحل من هذا)[3].

كما يلاحظ فيه أنه هجاء بالعيوب الجسمية والشخصية، وهو ما شاع استعماله في العصر العباسي حيث تجاوز الهجاء حد تجريد المهجو من الفضائل إلى المبالغة في نسبة المعايب والرذائل، واتجه الهجاء إلى الفرد بالذات لأن الحضارة أدت إلى تراجع الكثير من القيم الاجتماعية[4] والنظر إلى معايبه بمنظار ضيق محدود.

(١) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٣ ونزهة الجلساء ٧٦.

(٢) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٢٤.

(٤) محاضرات الدكتور على الزبيدي ٥٤.

ويلاحظ في غزل الحرائر أن حبهن كان يعيش على اليأس، وأن طابع التشاؤم والحزن يكسوه ويغلب عليه.

فهن لا يتحدثن عن بهجة اللقاء أو الوصال.. نقرأ فلا نجد وصفاً للقاء.. إذ لا لقاء للمرأة مع من تحب... وهو إن ظفرت به لا يتعدى أن يكون لقاءً خائفاً حذراً لا يتعدى النظرة الخاطفة التي لا تقدر على تثبيتها لأنها تخشى أن يلاحظها من حولها فتكون الفضيحة الكبرى، وربما كان لقاء خيال مع طيف قد يلم بها أحياناً.

ولاحظنا في غزل المرأة الحرة أنه وإن وجد طريقه إلى الظهور، إلاّ أنه بدا مثقلاً بالآلام مفعماً بالحسرات.. فعلية بنت المهدي مثلاً لا تستطيع حتى البوح باسم حبيبها فتتلهف إلى أن تعيش في بلد خلي، لعلها تستطيع أن تصرح باسمه وتناديه[1]:

كتمت اسم الحبيب عن العباد ... وردّدت الصبابة في فؤادي
فوا شوقي إلى بلد خلي ... لعلي باسم من أهوى أنادي

ولقد صوّرت علية في غزلها الاستكانة للواقع وردّدت أناشيد رائعة في الحرمان والألم والكبت بأرق الألفاظ وألطف المعاني. قالت:

سأمنع طرفي أن يلف بنظرة ... وأحجبه بالدمع عن كل منظر
وأشكر قلبي فيك حسن بلائه ... أليس به ألقاك عند التفكر

ولاحظنا في غزل علية وهي (صورة المرأة الحرة) تمرد اليائس، فقد كانت تثور أحياناً فتدعو إلى إطلاق العواطف المكبوتة فما بالها تقاسي وحدها شدة الكبت والحرمان وهي ترى القوم حولها جامحين يرتعون في ملذاتهم ويبالغون في مسراتهم.. قالت:

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص٧١ والمستظرف من أخبار الجواري ص٨٢.

تعالوا ثم نصطبح ونلهو ثم نقترح
ونجمع في لذاذتنا فإن القوم قد جمحوا

إلا أنها لا تلبث أن تعود لتشد إلى الواقع الذي يكبلها باليأس والقنوط فتقول:

الشوق بين جوانحي يتردد ودموع عيني تستهل وتنفد
إني لأطمع ثم أنهض بالمنى واليأس يجذبني إليه فأقعد

ولعلها في تكنيتها عمن تحب باسم فتاة محاولة منها لتغطية الحقيقة، أو ربما كان مجرد تنفيس للعواطف المكبوتة والأحاسيس المحرمة.. لقد تحملت من وطأة المجتمع، ورضخت له ولكننا مع ذلك لم ننصفها على بعد مئات السنين فوصفها البعض بالعبث واللهو والمجون وجعلها البعض فيمن سلك سبيل الجواري وعاش حياتهن[1] وذنبها في ذلك أنها أفصحت عن الشكوى.. وجرمها فيه أنها صرحت بالألم.

أما غزل الجواري فقد اتصف بالصراحة والجرأة إلا أنه كان في الغالب مصطنعاً متكلفاً لا يعبر عن عاطفة حقيقية، وإنما هو تلاعب بالألفاظ ومهارة في سبك المعاني.. وإنما هو اصطناع لمواقف الحب حسب ما تمليه الظروف والمناسبات.

إلا أن هذا لا يمنع أن يكون لبعضهن غزل صادق.. وفرق بين غزل الحرائر والجواري.. تلك خنقت عواطفها وحبست مشاعرها فجاء غزلها ترانيم في الحرمان والألم.. وهذه أطلقت لها المجال فغنت أناشيد المحبين في اللقاء والفراق والهجران والمواصلة.. وتلك مشيئة المجتمع يفرض إرادته ويوجب طاعته.

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص٤٨٣.

وقد أسهمت المرأة في هذا العصر في حركة الزهد والتصوف وكان لها دور يناسب الظروف والعوامل التي أحاطت به.. وربما كان لما تعانيه المرأة من ضغوط اجتماعية كثيرة سبقت الإشارة إليها أثره المباشر في توجهها إلى الإسهام بنصيب وافر في حركة الزهد والتصوف، إذ إنها لم تجد في هذا المجال بالذات من أهلها أو من مجتمعها ما يحول دون مساهمتها أو يعمل على الحد من نشاطها فيه.. وربما وجدت المرأة في الزهد والتصوف متنفساً لهمومها وتخفيفاً لعواطفها من ثقل ما كانت تلقاه في المجتمع المحافظ ونالت فيه حظاً وافراً من الغذاء الروحي الذي قدمه الزهد والتصوف في العزوف عن الحياة واللجوء إلى الذات الإلهية تروي الظمأ العاطفي في نفسها إلى الحب والعبادة في محرابه..

ويلاحظ فيما سبق أن استعراضنا من نماذج شعرية ونثرية في أدب الزهد والتصوف بساطة الألفاظ والتعابير ومطابقتها لطبيعة المشاعر النسائية التي تتسم بحكم الظروف التي أحاطت بها بالرقة والليونة والرشاقة في التعبير كقول رابعة:

حبيب ليس يعدله حبيب   وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي   ولكن عن فؤادي ما يغيب

أو قول ريحانة الزاهدة:

من كان راكب يوم ليس يأمنه   وليلة تائهاً في عقب دنياه
فكيف يلتذ عيشاً لا يطيب له   وكيف تعرف طعم الغمض عيناه

كما يلاحظ فيها غلبة أسلوب العصر السهل في استخدام هذه الألفاظ وعطفها على بعضها. وهو أسلوب قد لا نجده كثيراً في غزل العصر الأموي والإسلامي.. وربما أدت به السهولة إلى أن يصل إلى حد الركاكة كالذي نلحظه في البيت الأخير من قول رابعة العدوية في

التجرد لحب الذات الإلهية[1]:

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنسي ما تشتت في فسيح البلاد
كم بدت منّة وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأيادي
حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك يا حبيب براح يا منى القلب قد بدا إسعادي

وإذا ما لاحظنا بعض النماذج النثرية وجدنا فيها ظاهرة استخدام الضمائر وتواليها وهي بلا شك سمة من سمات الأسلوب الصوفي الذي يتسم بالغموض وباللجوء إلى الضمائر وبخاصة في الأقوال الموجزة.. ويمكننا ملاحظة ذلك في قول حيونة[2] الزاهدة في الدعاء.

يا واحدي تمنعني بالليل التلاوة ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار.. وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك أو قولها وقد لامها بعض الناس في كثرة صيامها: (قد لامني خلقك في خدمتك وعزتك وجلالك لأخدُمَنَّك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب وأنشأت تقول:

يا ذا الذي وعد الرضى لحبيبه أنت الذي ما إن سواك تريد

وهكذا رأينا المجتمع يتيح للفتاة أن تركع في محراب الحب الإلهي، وأن تنقطع إلى صب عواطفها وأحاسيسها ومشاعرها وآلامها وأحزانها في عبادة الله.. ولهذا رأينا كتب التراجم والسير تزدحم بذكر العدد العديد من النساء المتزهدات المنقطعات إلى العبادة.. ولا شك أن للتوجيه الديني الذي حرص كثير من الأولياء على تزويد فتياتهم به

(١) شهيدة العشق الإلهي ص٧٣.
(٢) عقلاء المجانين ص١٤٨.

لعصمتهن عما في ذلك المجتمع الصاخب من مباذل ومفاتن ومفاسد أثره في ذلك كله.

وقد عملنا على جعل أدب البادية متمثلاً في (أدب الأعرابيات) وتناولنا دراسته مستقلاً عن أدب الحواضر..

أما أهم الأغراض التي تناولتها الأعرابيات فالرثاء والمديح والوصايا والسؤال ثم الدعاء والموعظة والغزل وغيرها من الفنون الشعرية والنثرية.

وقد بدا رثاء الأعرابيات على صورتين الأولى منهما تقليدية لا تكاد تتجاوز المعاني المألوفة التي تدور حول القيم المعروفة في الأوساط البدوية كالكرم والشجاعة والقوة وإعانة المحتاجين وغير ذلك مما عرف في الأوساط البدوية كقول إحدى الأعرابيات(1):

ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن ... ألا يمر بأرضه القطر
فلينبعن سماح جودك في الثرى ... وليورقن بقربك الصخر
وإذا غضبت تصدعت فرقاً ... منك الجبال وخافك الذعر
وإذا رقدت فأنت منتبه ... وإذا انتبهت فوجهك البدر

أما الثانية فهي الصورة الواقعية التي تبدو في التعبير الصادق الأصيل عن مشاعر النادبة وعواطفها وما يدور في نفسها من آلام وأحزان تمزق ذاتها وتلهب أحاسيها.

ولهذا رأينا بعض النماذج من رثاء الأعرابيات وقد تجاوز المعاني التقليدية المعروفة في الرثاء وجاء بمعان ذاتية طبيعية تلائم حياة الأعرابية ونفسيتها وشخصيتها.

---

(1) الأمالي ١/٣٩. وقد وردت الأبيات بصورة أوسع ص٤٠٦.

فمن ذلك ما أوردناه عن تلك الأعرابية التي شاهدها الأصمعي وصاحبه في بعض مقابر الأعراب وعليها من الحلي والحلل ما لم ير مثله وهي تبكي بعين غزيرة فسألها الأصمعي بقوله: يا هذه إني أراك حزينة وما عليك زي الحزن فأنشأت تقول[1]:

فإن تسألاني فيم حزني فإنني رهينة هذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يراني
أهابك إجلالاً وإن كنت في الثرى مخافة يوم أن يسوك لساني

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي بالاً ويكثر في الدنيا مواساتي
قد زرت قبرك في حلي وفي حلل كأنني لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيئاتي
فمن رآني رأى عبرى مولهة عجيبة الزي تبكي بين أموات

فالأبيات تعبر عن أعماق نفسية هذه المرأة التي ترفض أن تعترف بحقيقة الموت وبأنه قد انتزع منها حبيبها الذي ألف أن تتجلى أمامه بفاخر ثيابها وحلاها وهو رثاء لا يسير في النهج التقليدي للرثاء وإنما يشخص شعورها النفسي والعاطفي تجاه هذا الموقف. وهو إلى ذلك يتصف بالواقعية والسذاجة في التفكير والبساطة في التعبير.

وقيل إن أعرابية رثيت وهي متجملة متصبرة وكانت قد فقدت ولداً لها فقيل لها: ما أحسن عزاءك فقالت: (إن فقدي إياه أمنني كل فقد سواه، وإن مصيبتي هونت علي المصائب بعده) وأنشدت[2]:

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٧٨.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٥٤ وعيون الأخبار ٣/ ٥٦ مع اختلاف راجع ص٤٠٧.

كـنـت الـسـواد لـنـاظـري فـعـمـي عـلـيـك الـنـاظـر

لـيـت الـمـنـازل والـديـار حـفـائـر ومـقـابـر

إنـي وغـيـري لا مـحـالـة حـيـث صـرت لـصـائـر

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من صدق الشعور في تعبير الأم عن فداحة مصابها بفقد ولدها رغم تغطية مشاعرها بهذا الغشاء الرقيق الذي يبدو للآخرين تصبراً وتجملاً . .

أما الوصايا التي أوصت بها الأعرابيات أبناءهن فكانت خلاصة للمثل العربية والخلق القويم، مع براعة في إدراك جوانب النفوس ومع قدرة على انتقاء أفضل الخبرات وأحسن التجارب لتنوير الموصى وتوجيهه خلال سيره في دروب الحياة. . وربما بلغت المرأة حد الحكمة في وصاياها الأمر الذي يدل على حسن إعدادها وبعد نظرها وحدة ذكائها وقوة إدراكها كما يدل على مدى انتفاعها من تجارب الحياة.

وبيئة الأعرابيات في الغالب بيئة فقيرة. . وقد يجور الدهر بموت الرجال ونفاد الأموال فتقع الحاجة وتشتد حتى تضيق السبل أمام الأعرابية فلا تجد أمامها سبيلاً غير السؤال وكثيراً ما تبدو الأعرابية في سؤالها أبية شريفة عفيفة ذكية فصيحة بليغة. . كقول إحداهن في الاستجداء: (يا قوم: تعثر بنا الدهر، إذ قل الشكر وفارقنا الغنى وحالفنا الفقر، فرحم الله امرءاً فهم بعقل وأعطى من فضل وواسى من كفاف، وأعان على عفاف[١].

وللأعرابيات عبارات موجزة في الموعظة والحكمة تدل في أكثرها على بعد النظر والبراعة في توجيه الكلام قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول: اللهم ارزقني عمل الخائفين وخوف العاملين حتى أتنعم بترك

---

(١) زهر الآداب ٤/١٠٨٧.

التنعم رجاء لما وعدت وخوفاً مما أوعدت[1].

أما وصفهن فهو رغم سذاجته يدل على براعة ودقة وذكاء، دخلت أعرابية على حمدونة بنت المهدي، فلما خرجت سئلت كيف رأيتها فقالت: (والله لقد رأيتها فما رأيت طائلاً، كأن بطنها قربة، كأن ثديها دبة، كأن استها رفعة[2]، كأن وجهها وجه ديك نفش عفريته[3] يقاتل ديكاً[4].

وللأعرابيات في الحب أحاديث وأشعار.. ورغم قلة ما وصلنا منه إلا أننا نستطيع أن نستنتج من هذا القليل شيئاً من المميزات العامة له.. فهو يتميز غالباً بالنقاء والسذاجة والعفة والصراحة كالذي رواه الأصمعي عن إحداهن حينما سمعها تقول وقد تعلقت بأستار الكعبة:

لن يقبل الله من معشوقة عملاً يوماً ووامقها غضبان مهجور
وكيف يأجرها في قتل عاشقها لكن عاشقها في ذاك مأجور

فلما سألها وما الحب؟.. قالت: (هيهات: جل والله عن أن يحصى وخفي عن أن يرى فهو كامن ككمون النار في حجرها إن قدحته ورى وإن تركته توارى) فقال لها قاتلك الله ما أوصفك للحب!..

وكان في بعض المواقف إطلالة للأعرابيات على الحواضر كالذي كان من زهراء الكلابية التي أحبت إسحٰق الموصلي حتى صارت تراسله وتناشده الشعر، ويبدو أنها أخذت عن الحاضرة الاحتراس في كشف الحب والتكنية عمن تحب.. كتبت إليه وقد غابت عنه تقول[5]:

---

(١) زهر الآداب ٤/ ١٠٣٤ وجمهرة خطب العرب ٣/ ٣٣٦.

(٢) الرفعة: الشجرة العظيمة.

(٣) عفريته: ريش عنقه.

(٤) عيون الأخبار ٤/ ٣٩ والعقد الفريد ٢/ ٩٢ والأمالي ٢/ ١٥٦ وجمهرة خطب العرب ٣/ ٢٩٧.

(٥) الأغاني ٥/ ٣٠٠ والأمالي ١/ ٥٥.

وجدي بجمل على أني أجمجمه وجد السقيم ببرء بعد إدناف
أو وجد ثكلى أصاب الموت واحدها أو وجد مغترب من بين آلاف

يتبين مما سبق أن مر بنا من شعر النساء أننا من الممكن أن نجعل ما بين أيدينا من شعرهن في أطارين أساسيين:

الإطار الأول منهما هو إطار الأبيات أو المقطوعات الشعرية ذات الوزن الخفيف والإنشاد الناعم والمناسبة الطريفة واللفظ السهل والمعنى الرقيق. أما الإطار الثاني: فهو إطار القصيدة المتينة السبك ذات اللفظ الفخم والمعنى الجميل والأسلوب الرصين والسبك المتين..

ولا أظن أن من الممكن أن نضع حداً يفصل بين مميزات شعر الحرائر والجواري في هذا المجال فنخص الإطار الأول بالجواري ومن سلك سلوكهن وعاش حياتهن[1]، ونجعل الإطار الثاني مذهباً مميزاً للحرائر ومن يسلك سبيلهن وهو ما ذهب إليه الدكتور (الشكعة)... إن المسألة ليست مسألة حرائر أو جوار وإنما هي الظروف التي تفرض سمة القول وصفة الشعر.. وقد مرت بنا نماذج كثيرة من شعر الحرائر مقطعات شعرية في أغراض مختلفة.. فهل يمكننا أن نجعل السيدة زبيدة[2] ولبابة زوجة الأمين[3] وبوران زوجة المأمون[4] وخديجة ابنته[5] وغيرهن، من الجواري أو ممن سلك سبيلهن وعاش عيشهن.

كما وصلنا من شعر الحرائر والجواري كثير من القصائد الطويلة

---

(١) ينظر الشعر والشعراء في العصر العباسي ص٤٨٣.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٢٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٣.
(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٢٣ ونزهة الجلساء ص٨٨.
(٤) نساء الخلفاء ص٧١.
(٥) الأغاني ١٤/ ١١٤ ونزهة الجلساء ص٥٤.

كقصيدة السيدة زبيدة والحجناء بنت نصيب[1] وأم الشريف[2] والفارعة بنت طريف الشيبانية[3] وعابدة الجهنية[4] وعاتكة المخزومية[5] وولادة المهزمية[6] من الحرائر وعنان[7] وسكن[8] وريم[9] وعائشة العثمانية[10] من الجواري، إضافة إلى الإشارات الكثيرة التي وردت عن فضل ومحبوبة وخنساء في كثرة ما كان لهن من المدائح والمراثي في الخلفاء والأمراء مما يستدعي القصيدة الطويلة.

---

(١) الأغاني ٢٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١ ونزهة الجلساء ص٣٤.

(٢) المنتظم ٦/ ١٦ ومروج الذهب ٤/ ١٧٦ وجمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٩٣.

(٣) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦١ والعقد الفريد ٣/ ٢٦٩ والعيون والحدائق ٢/ ٢٩٧.

(٤) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤، ٢٦٧ ونزهة الجلساء ص٧٦.

(٥) نشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٩ ونزهة الجلساء ص٧٧.

(٦) شاعرات العرب ص٤٨١.

(٧) طبقات ابن المعتز ٤٢١.

(٨) المصدر نفسه ص٤٢٢.

(٩) أخبار النساء لابن الجوزية ص١١٧.

(١٠) طبقات ابن المعتز ص٤٢٣.

الخاتمة:

أما وقد شارفت على الانتهاء من كتابة البحث أجدني لا أنفك أردد النظر وأقلب الفكر فيما قدمت من الحقائق العامة التي يجدر توضيحها وتأكيدها لأقول:

إني قد استنطقت التأريخ والأخبار والأدب في العصر العباسي لتحكي لنا عن صورة المرأة في ذلك العصر، فاستطعت أن أصحح النظرة الخاطئة التي تصور المرأة بصورة عامة بالمجون والعبث والتحلل، وتوصلت إلى أن هذه الصورة هي صورة الجواري والقيان لا صورة الحرائر العربيات.

وكشفت عن الحالة الاجتماعية والثقافية للمرأة الحرة والجارية وأوضحت مشاركات بعضهن في مجالات المعرفة المختلفة كالحديث والشعر والرواية والكتابة واللغة وغير ذلك.

ثم كشفت في هذا البحث عن أعمال المرأة في العصر العباسي، وأردت أن أبين أنها كانت تمارس بعض الأعمال وأنه قد أتيح لبعضهن الاستقلال الاقتصادي واستقريت ذلك من كتب الأدب والتاريخ والأخبار والحكايات والرسائل والسير والتراجم وأنها كانت تمارس بعض الأعمال المهنية والحرفية بشكل مقبول.

وبينت أنه كان للمرأة دور في السياسة وأنها كانت تدين بالآراء والمعتقدات وتشارك في التخطيط للدعوات السياسية، وكانت في بعض الأحيان على قدر جيد من الثقافة الفكرية فكانت تناقش في أمور السياسة وتأخذ دروساً فكرية من قادة الفكر وزعماء الثورات المختلفة ولها مساهمات مباشرة في ذلك.

وقد ميزت الأدوار السياسة التي قامت بها النساء العربيات من الحرائر عن الأدوار التي قامت بها الأجنبيات من الجواري والقيان وأكدت أن أعمال السيدات العربيات كأمثال زينب بنت سليمان والسيدة زبيدة وأم الشريف وجميلة بنت ناصر وست الملك وغيرهن كانت لهن أعمال مشرفة يذكرها التاريخ بكثير من التقدير والإجلال.. وأنه لم ينسب إلى شخصيات هؤلاء النسوة إلا أسمى الصفات وأجل المواقف، وأن أدوارهن في السياسة كانت تتسم دائماً بالحرص على العروبة في عصر استفحلت فيه القوى الأجنبية من كل مكان.

وقد فصلت ذلك في مواضعه من البحث.

أما النساء الأجنبيات من جوار وقيان، فقد كان تدخلهن مظهراً من مظاهر ضعف الخلافة، لأنه كان لا يتجاوز في الغالب التدخل الأهوج الذي يتوخى المنافع الشخصية كالإثراء عن طريق الوساطات في العزل أو التعيين. وقد رأينا الخيزران وحرصها على أن تغدو المواكب ببابها محملة بالهدايا الثمينة لتشفع لهذا وذاك.. والسيدة أم المقتدر وقهرماناتها اللائي أثرين ثراءً فاحشاً حتى اضطر الخليفة إلى أن يشكل ديواناً عند القبض على القهرمانة أم موسى بـ (ديوان المقبوضات من أم موسى).

وعرضت بعد ذلك لبيان صورة المرأة الجارية في حياة العامة والخاصة من خلال الأدب.. وقد أبنت المواقف المختلفة للشعراء منهن.. تبعاً لشخصياتهم وظروفهم من جهة ولطراز حياة الجواري والقيان وأخلاقهن.. من جهة أخرى من مخلصات وعفيفات منيعات، أو عابثات متقلبات.. فكان الغزل العفيف والقول الشريف، وكان الغزل الماجن الفاحش..

وعملت على إبراز جانب من جوانب غزل الخلفاء بالجواري وهو

ما شاع في قصورهم ومجالسهم:

واتخذت من الغزل الحسي للشعراء بالجواري معرضاً تتجلى فيه معالم المدنية، وذلك لدراسة معايير الجمال في العصر ولمعرفة أحوال المرأة في ملابسها وشعرها وزينتها.

ويعتبر الباب الثالث من البحث دراسة أدبية ونقدية لأدب المرأة في العصر العباسي.. ولعل أهمية هذا العمل تتجلى قبل كل شيء في هذا الجهد الذي بذلته في جمع شتات هذه النماذج المبعثرة في مئات المصادر والمراجع وفي تنظيمها وإبرازها في منهج واضح يسهل على الباحثين الاستفادة منه..

وربما كنت أول من قام بهذا العمل في دراسة أدب المرأة في العصر العباسي وإظهارها بهذا الشكل.

وكان من متممات حرصي على إفادة الباحثين في هذا المجال أني ألحقت بالبحث استعراضاً لشهيرات أعلام النساء في العصر من حرائر وجوار، مبينة لكل منهن مصادر دراستها محددة ذلك بالجزء والصفحة ليستطيع من يريد أن يسلك الطريق أن يكمل ما بدأت به ويضيف إلى ما قدمته ما قد ينصف أدب المرأة ويدلل على مكانته ويشير إلى مكانته في التراث العربي.

ملحق

من أعلام النساء في العصر العباسي

تعريف بأعلام النساء:

١ ـ إسحاق الأندلسية:

جارية مولدة كانت للمتوكل فولدت له المؤيد إبراهيم والموفق أبا أحمد، ماتت ببغداد سنة ٢٧٢هـ ودفنت بالرصافة فرثاها الأديب الشاعر يحيى بن علي بن يحيى المنجم وعزى بها ابنها الموفق بقصيدة طويلة مطلعها:

عزاء فإن الدهر يعطي ويسلب وصبراً فللدنيا صروف تقلّب

تاريخ الطبري سنة ٢٥٢، ونساء الخلفاء ص٨٢ والمستظرف من أشعار النساء ص١٠ والوافي بالوفيات ٨/ ٤٣٢.

٢ ـ بنان الشاعرة:

من جواري المتوكل لها مقدرة على الإجازة الشعرية ذكرنا لها بعض ذلك في: (أدب المجالس والمناظرات). أعلام النساء ١/ ١٤٨ وزهر الآداب ٣/ ٦٤٤ المستظرف ص١٢ ونساء الخلفاء ص٩١.

٣ ـ بدعة الكبيرة:

جارية عريب مولاة المأمون، ذكرها أبو الفرج الأصفهاني في (كتاب الإماء الشواعر) وقال إنها كانت أحسن دهرها وجهاً وغناءً وكانت تقول شعراً ليناً يستحسن من مثلها.

حظيت عند المعتضد وقالت الشعر في شيبه. مدحها ووصف غناءها وجمالها الشاعر ابن الرومي بقصيدة مطلعها:

بـدعـة عـنـدي كـاسـمـهـا بـدعـه   لا شــك فــي ذاك ولا خــدعــه
كــأنــمــا رقــة مــســمــوعــهــا   رقــة شــكــوى ســبــقــت دمــعــه

اختلف في تاريخ وفاتها . . قيل إنها عاشت ستين سنة وتوفيت سنة ٣٠٢هـ وقيل عاشت ٩٢ سنة وتوفيت سنة ٣٤٢هـ المستظرف ص١٥ ونساء الخلفاء ٦٣ وأعلام النساء ١/ ١٢٣ ونشوار المحاضرة ١/ ١٣٢، ٨٩ و٨/ ٢٠ والديارات ص٦٤، ٩٩ والأغاني ٢٢/ ١٧٩.

٤ ـ بوران:

هي بوران بنت الحسن بن سهل تزوج منها المأمون عام ٢١٠هـ وأنفق على عرسها أموالاً جمة. . وقيل إن أباها الحسن بن سهل خلع على القواد مراتبهم وحملهم ووصلهم فبلغت النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم، وقيل إنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر فقالت الشعراء فأكثرت، فمما استظرف مما قيل في ذلك قول محمد بن حازم الباهلي:

بــارك الــلــه لــلــحــســن   ولــبــوران فــي الــخــتــن
يــا بــن هــرون قــد ظــفــر   ت ولــكــن بــبــنــت مــن

فلما نمي هذا الشعر إلى المأمون قال: والله ما ندري خيراً أراد بنا أم شراً. أعلام النساء ١/ ١٥٩ وتاريخ الطبري ٨/ ٦٠٦ ـ ٦٠٩ ومروج الذهب ٣/ ٣٥١ ونزهة الجلساء ص٣٠ ونساء الخلفاء ص٦٧ وأخبار بغداد ص١١٥ ومطالع البدور في منازل السرور ص١٢٩.

٥ ـ ثيماء:

شاعرة محسنة من مولدات المدينة وهي جارية أبي العباس

خزيمة بن خازم النهشلي قالت الشعر في مولاها ورثته بقصيدة مطلعها :

إن أبا العباس خدن العلى خزيمة اليأس فتى الجود

أعلام النساء ١/ ١٨٠ والمستظرف ص١٦.

٦ ـ تتريف :

جارية المأمون من مولدات البصرة بارعة الجمال بديعة الظرف موصوفة بالكمال. وكانت تقول الشعر فوصفت للمأمون فاشتراها فوقعت بقلبه وقدمها على حظاياه. ولما مات المأمون وفت له وقصرت نفسها على البكاء عليه حتى ماتت، ومن شعرها في رثائه :

يا ملكاً لست بناسيه نعى إليّ العيش ناعيه

المستظرف ص١٨ وأعلام النساء ١/ ١٧٢.

٧ ـ ثمل القهرمانة :

من ربات النفوذ والسلطان في عصر المقتدر، اعتمدت عليها السيدة أم المقتدر في إدارة سياسة الدولة وشؤونها. وكانت موصوفة بالشر والإسراف في العقوبة.

وكانت تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس في كل جمعة وتصدر عنها التوقيعات. توفيت سنة ٣١٧هـ وقد ورد اسمها (مثل) في بعض المصادر.

نشوار المحاضرة ٣/ ١٧٩ وتجارب الأمم ١/ ٨٤ والمنتظم ٦/ ٤٨ وأعلام النساء ١/ ١٨٥ وتاريخ الخلفاء ٣٨١ وبين الخلفاء والخلعاء ص

٨ ـ جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني :

شاركت شقيقها أبا تغلب بالحكم في ميافارقين وكانت من أقرب أولاد ناصر الدولة إليه في أخريات أيامه وهي المدبرة لجميع أموره،

وكانت عالية المكانة عند أخيها أبي تغلب حتى أنه لم يكن يقرر أمراً دون الرجوع إلى مشورتها. وكانت كريمة سخية محسنة إلى الفقراء حتى ضرب المثل بحجها عام ٣٦٦هـ.

وتدل سيرتها في كتب التاريخ على الدهاء والشجاعة، فقد وقفت إلى جانب أخيها في حربه وسلمه وضربت معه في الآفاق حتى لقي مصرعه فضمت إلى جواري عضد الدولة ونسائه بعد أن سلبها البويهيون جميع أموالها وختمت حياتها ختاماً مريراً.

قيل إن عضد الدولة كان قد خطبها لنفسه فامتنعت عليه ترفعاً فحقد عليها فلما وقعت في أساره هتك سترها وأذاقها مر العذاب حتى قيل إنها ألقت بنفسها في دجلة أو ألقي بها فيه.

نشوار المحاضرة ١/ ١٩٣، تجارب الأمم ٢/ ٤٠٤، الحضارة الإسلامية ٢/ ١٦٨ وأعلام النساء ١/ ٢١٤ ولطائف المعارف ٨٢.

٩ ـ خزامى جارية المقين:

شاعرة ظريفة ومغنية من مغنيات الدولة العباسية كانت في شبابها تنادم ابن المعتز وغيره ثم تابت. كاتبها ابن المعتز بمواصلته فاعتذرت بأنها قد بلغت من العمر حداً لا يسمح لها بذلك.

الأغاني ١٠/ ٢٨٤ وأعلام النساء ١/ ٣٥٠ والمستظرف ص٢١.

١٠ ـ خليدة السوداء:

فتاة ابن شماس المكية أخذت الغناء عن ابن سريح ومعبد ومالك، أراد محمد بن عبدالله بن عمر بن عثمان أن يتسراها ولكنها رفضت قائلة لأبي عون، وكان قد جاءها في ذلك (فإن أراد صاحبك نكاحاً مباحاً أو زنى صراحاً فهلم بنا إليه فنحن له، وقالت: وأما نكاح السر فلا والله لا فعلته أبداً ولا كنت عاراً على القيان).

أعلام النساء ١/ ٣٥٦ والمستظرف ص٢٢.

١١ ـ خنساء جارية هشام النحوي المكفوف:

كانت خنساء جارية هشام المكفوف جليلة نبيلة أديبة شاعرة حسنة العقل فائقة الجمال من حواذق المغنيات المحسنات، وقد نازعت الشعراء ومدحت الخلفاء وأعطى بها هشام مالاً جليلاً فقال: والله لو أعطيت بها خراج السواد ما بعتها، وما أصنع بالمال ومتعتي بها يوماً واحداً أجل من كل ذخر وأمتع من كل فائدة. كانت تهاجي فضل الشاعرة ومن يشايعها، ومن شعرها قولها في أبي شبل الشاعر تهجوه:

ما ينقضي عجبي وطول تفكري   من نعجة تكنى أبا شبل
لما اكتنيت بما اكتنيت به   ووصفت ذا النقصان بالفضل
كادت تميد الأرض من جزع   وترى السماء تذوب كالمهل

١٢ ـ الخيزران:

من ربات السياسة والنفوذ والسلطان، وهي مولاة المهدي وزوجه وأم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد، ولما صارت الخلافة إلى الهادي استبدت بالأمر حتى شاركته في شؤون الدولة، وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي، وكانت الخيزران كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، وانثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلاً فاعتل بعلة، فقالت لا بد من إجابتي. فقال: لا أفعل. قالت: قد تضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك فغضب موسى وقال: ويل على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لأقضيتها لك، قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذا والله لا أبالي وحمي وغضب، فقامت مغضبة فقال: مكانك لتستوعبي كلامي. والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من

قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك، إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي، فانصرفت ما تعقل ما تطأ. . ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها).

وقيل إنها سعت بعد ذلك في قتل الهادي وتولية الرشيد بعده، وبلغ من ثرائها أنها كانت تغل في السنة مئتين ألف وستين ألفاً.

تاريخ الطبري ٨/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢ ـ ٢١٦، العيون والحدائق ٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٩، المكافأة ص٧٩، ٨٠، مروج الذهب ٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، الوزراء والكتاب ١٧٤، ١٧٥، ٢٢١، نشوار المحاضرة ٨/ ١٥٤، المستظرف من أخبار الجواري ص٢٤، أعلام النساء ص٢٤، أعلام النساء ١/ ٣٩٥، تاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٠، ٤٣١، تاريخ الخلفاء ص٢٩٠.

١٣ ـ دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي:

كانت لرجل من أهل المدينة أدَّبها وخرَّجها، وكانت أروى الناس للغناء القديم وللشعر، وكانت صفراء صادقة الملاحة من أحسن الناس وجهاً وأظرفهن وأحسنهن أدباً ولها كتاب مجرد في الأغاني، أخذت عن فليح وإبراهيم وابن جامع وإسحاق ونظرائهم.

اشتراها يحيى بن خالد فأخذت بمجامع قلبه وكان يسمعها الرشيد فاشتد إعجابه بها ووهبها هبات سنية منها عقد ثمنه ثلاثون ألف دينار، أقامت بعد نكبة البرامكة على الوفاء لهم ولمولاها، وقالت المراثي فيهم ورفضت أن تغني بعدهم لأحد حتى للخليفة هارون الرشيد الذي أمر بإطلاق سراحها.

الأغاني ١٨/ ١٣ وأعلام النساء ١/ ٤١٧ والمستظرف ٢٨.

١٤ ـ دنانير مولاة محمد بن كناسه:

أديبة شاعرة مغنية، كان أهل الأدب يقصدونها للمذاكرة والمساجلة في الشعر. وكان لابن كناسه صديق يكنى أبا الشعثاء وكان عفيفاً مزاحاً فكان يدخل إلى ابن كناسه ويسمع غناء جاريته ويعرض لها بأنه يهواها، فقالت فيه:

لأبي الشعثاء حب باطن ليس فيه نهضة للمتهم

أعلام النساء ١/ ٤١٦، ذم الهوى ص٢٧٤ والأغاني ١٣/ ٣٤١.

١٥ ـ دقاق:

مغنية محسنة جميلة الوجه أخذت الغناء عن أكابر مغني الدولة العباسية فأتقنت الأداء والصنعة وانقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ثم إلى غضيض وكانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة.

أعلام النساء ١/ ٤١٤، المستظرف من أخبار الجواري ص٢٦، ٢٧، مختار الأغاني ٣/ ٤٩٨.

١٦ ـ ذات الخال:

جارية إبراهيم الموصلي.. ويقال لها (خنث) مغنية من أجمل النساء وأكملهن. قال فيها إبراهيم الموصلي الشعر وغنى به فشهرها فبلغ خبرها الرشيد فاشتراها بسبعين ألف درهم ثم أهداها إلى حمويه.. وقيل إن الرشيد أهداها هدايا ثمينة.

محاضرات الأدباء ٣/ ٤٢ والعقد الفريد ٦/ ٤٦ وتزيين الأسواق ص١١، أعلام النساء ١/ ٤٢٣، والأغاني ١٦/ ٢٦٨.

١٧ ـ رابعة العدوية:

صوفية كبيرة وعابدة شهيرة وصلت في معرفة التصوف مكاناً علياً،

وكان كبار المتصوفة في عصرها يقصدونها ويستفتونها. قال سفيان الثوري: مروا بنا إلى المؤدبة ولا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها.

قال الرواة إنها ولدت في أسرة فقيرة رقيقة الحال فذاقت مرارة الفقر والحرمان ثم جرفها تيار اللهو والمجون حتى غشيها الإثم من كل جانب ثم أفاقت فاعتزلت الحياة والناس واعتكفت تنشد الاتصال الروحي بالذات الإلهية لها شعر كثير في الغزل الصوفي، اختلف في تاريخ وفاتها بين ١٨٠هـ أو ١٨٥هـ، ألفت فيها الكتب.

دائرة المعارف الإسلامية: رابعة العدوية، شهيدة العشق الإلهي، رابعة تذكرة الأولياء ١/ ٧٢، ٧٣، الحيوان ٥/ ٥٩٨ ووفيات الأعيان ٢/ ٢٨٥، شاعرات العرب ص١٢٤ وأعلام النساء ١/ ٤٣٠.

١٨ ـ زبيدة بنت جعفر:

أم جعفر أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروفة بزبيدة زوجة هارون الرشيد وأم ولده الأمين كانت معروفة بالخير والأفضال على أهل العلم والأدب والبر للفقراء والمساكين، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة وليس في بنات هاشم عباسية ولدت خليفة إلاّ هي. . كانت سيدة جليلة ذات يد طولى في الحضارة والأدب، وكانت من ذوات العقل والرأي والفصاحة والبلاغة، لها شعر ورسائل ووصايا وتوقيعات تدل على ذلك، كثيراً ما كان الخليفة الأمين يمدح بكونها أمه. أثنى عليها عدد من الشعراء والأدباء. توفيت ببغداد سنة ٢١٦هـ.

أعلام النساء ٢/ ١٧ والأغاني ٤/ ٦٨، ١٠/ ١٨١، ١٨٢، ١٨/ ١٥٦، ٨/ ٣٧٢، والفرج بعد الشدة ١/ ١٢١ والمحاسن والمساوىء ٢/ ١٥٣، والفهرست ١٨٠، وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٤، وبغداد في تاريخ الخلافة ص١٢، ١٦٣، ١٦٤، ومروج الذهب ٣/ ٤١٤، وتاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٣ وأدب التوقيعات ص١٥٢، ومروج الذهب ٣/ ٣٩٦،

وجمهرة خطب العرب ٣/ ١٠٤ والديارات ص٤٥، ١٨٥، ووفيات الأعيان ٢/ ٣١٤ والوزراء والكتاب ص٢٥٦، وتاريخ الطبري ٨/ ٥١٤ و٧/ ٢١٣ وتاريخ الخلفاء ص٢٩١ والعقد الفريد ١/ ٣١٣ وديوان أبي نواس ص٤١١ ومروج الذهب ٤/ ٢٤٤، وديوان أبي العتاهية ص١٥٨، ٢١٥، وزهر الآداب ٤/ ٩٨٨، ٢/ ٣٧٠.

١٩ ـ زيدان القهرمانة:

من ذوات النفوذ والدهاء في العصر العباسي اشتد سلطانها في عهد المقتدر وبلغ من نفوذها أن كبار رجال الدولة كانوا يتقربون إليها ملتمسين منها الجاه والقوة، وكان لها طبيب خاص هو عيسى البغدادي يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها إليها لتعرض ذلك على الخليفة.

وقد استطاعت أن تجعل دارها سجناً لأكابر الدولة ممن يغضب عليهم فقد وكل بابن الفرات عندها وسلم إليها الأمير الحسين بن حمدان وسجن عندها علي بن عيسى بن داود بعد وزارته.

أعلام النساء ٢/ ٤٣، تاريخ الحكماء للقفطي ص٢٤٩، المنتظم ٦/ ٧٠ أدب التوقيعات ص١٥٣، تجار الأمم ١/ ٤٠، ١٠٤، ونشوار المحاضرة ٤/ ١٧٩ بين الخلفاء والخلعاء ص١٥.

٢٠ ـ زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس:

سيدة جليلة من ذوات العقل والرأي والسلطان والفصاحة والبلاغة. حدثت عن أبيها سليمان وروى عنها الكثيرون.

كان محمد بن أبي العباس يهواها فخطبها لما قدم البصرة أميراً عليها فرفضوا تزويجها به لشيء كان في عقله.. له فيها أشعار كثيرة في الغزل وكانت أقعد ولد العباس نسباً وأكرمهم بيتاً. ولما قدم المأمون بغداد اجتمع إليها الهاشميون وسألوها أن تكلم الخليفة في تغييره الخضرة فضمنت لهم ذلك، وجاءت المأمون فقالت: (يا أمير المؤمنين

إنك على بر أهلك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منهم على برهم لنا من غير أن تزيل سنّة من مضى من آبائك، فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحداً فيما كان منك) فقال لها: يا عمه ما كلمني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك وأقصر لما أردت، ورجع إلى لبس السواد، وكان المأمون وحاشيته ورجال دولته شديدي الاحترام لها، توفيت بعد سنة ٢١٨هـ.

مروج الذهب ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧، الفرج بعد الشدة ٢/ ٣٧٩، ٣٨٠، المكافأة ص٧٩، ٨٠ وأعلام النساء ٢/ ٦٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص٥ ـ ١٠.

٢١ ـ سامر أو ساهر:

جارية لبعض المغنين بسر من رأى، كان إبراهيم بن العباس الصولي يهواها، وقد شهر بها ولها معه مراسلات شعرية.

المستظرف من أخبار الجواري ص٣١، أعلام النساء ٢/ ٤٤١، الأغاني ١٠/ ٦٠، معجم الأدباء ١/ ١٧٤.

٢٢ ـ ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي:

وقد لعبت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، ذلك أن أخاها الحاكم بأمر الله الفاطمي كان متقلب الرأي وقيل إنه ادعى النبوة، وكان يقدم البربر والترك على المصريين فحملهم ذلك على كرهه. وكانت أخته ست الملك من أحسن نساء زمانها جمالاً وعقلاً وأشدهن حزماً وعزماً. فنالت أول الأمر ثقة الخليفة فصار لا يقطع أمراً إلاّ برأيها، وحظيت بمحبة الناس حتى صاروا يؤيدونها عليه فأوجس الحاكم بأمر الله من أخته خيفة وشرع يترقب الفرصة لقتلها، ولكنها سبقته إلى ذلك، فتآمرت عليه مع دارس أحد قواده فتم قتله، ولما أيقن الناس بقتله اجتمعوا عليها وولوها وصية على ابن أخيها الظاهر لصغر سنه، ولما حضر ابن

دارس بأمر من ست الملك أوعزت إلى خادم لها فضربه بالسيف فقتله وهو ينادي: يالثارات الحاكم. . وقد قوبل عملها بالامتنان من الشعب. .

وراحت ست الملك تصرّف أمر الدولة قرابة أربع سنوات وهي تعدل في الرعية وتنصف المظلومين حتى أحبها الجميع ماتت سنة ٤١١هـ فمال الخليفة الظاهر بعد ذلك إلى اللهو اصطنع الترك فكان عهده بداية انحطاط الدولة الفاطمية.

أعلام النساء ٢/ ١٦٦، المرأة في حضارة العرب ص٢٠٩، الكامل في التاريخ ٩/ ٣١٥.

٢٣ ـ سكن:

جارية محمود الوراق. اشتهرت بالشعر. رفعت قصيدة بكتاب إلى المعتصم ليبتاعها. . فلما نظر فيها خرقها ورمى بها. . قيل لأنه كان أراد مرة ابتياعها فأبت. فقالت سكن في ذلك قصيدة طويلة تمدحه فيها مطلعها:

ما للرسول أتاني منك بايأس أحدثت بعد وداد جفوة القاسي

طبقات ابن المعتز ص٤٢٢ وأعلام النساء ٢/ ٢٠٠ والمستظرف من أخبار الجواري ص٣٢، ٣٣.

٢٤ ـ شاجي:

جارية عبيدالله بن طاهر وهي مغنية من مغنيات العصر العباسي في خلافة المعتضد. . وكان الخليفة إذا استحسن شعراً بعث به إليها لتلحنه وتغنيه. . وكانت صنعتها في عهد المعتضد تسمى (غناء الدار) توفيت في حياة مولاها عبيدالله فرثاها أحر الرثاء، وكان قد تزوجها فخلفت له أبناء كثاراً. . قال في رثائها:

زرعت وشاجي بيننا في شبيبتي غراس الهوى فاعتمّ بالثمر العذب
فشاب بنو شاجي لظهري وأدركوا وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي

الأغاني ٩/ ٤٠ والديارات ص١١١، ١١٢.

٢٥ ـ شارية:

مولدة من مولدات البصرة اشتراها إسحاق الموصلي، كانت من أحسن النساء غناءً.. ثم اشتراها إبراهيم بن المهدي فأخذت غناءه كله أو كثره وبذلك يحتج من يقدمها على عريب المغنية، وكان قد ملكها سبع سنين ورباها تربية الولد وقيل إنه كان يسميها (بنتي).

تزعمت شارية حركة الغناء بعد وفاة المعتصم حتى أواخر خلافة الواثق وكان الواثق يسميها (ستي) اتصلت العداوة والمنافسة بينها وبين عريب وانقسم أهل سامراء حزبين كل جماعة تؤيد واحدة منهما على الأخرى.

أعلام النساء ٢/ ٢٨٠ والمستظرف من أخبار الجواري ص٣٥ والأغاني ١٥/ ٣٢٠ ـ ٣٢٨ وتاريخ الطبري سنة (٢٥٦هـ) والديارات ص٦٥، ٧١، ٧٢، ٩٩ ونساء الخلفاء ص٩٢.

٢٦ ـ أم الشريف:

سيدة جليلة وشاعرة من شواعر العصر العباسي ذات عقل وحكمة وفصاحة وبلاغة عاصرت المعتضد، وفي سنة ٢٨٦هـ أناخ المعتضد بجنده على أمد، وقد تحصن بها محمد بن أحمد بن عيسى، فبث المعتضد جيوشه حولها وحاصرها، ووجه شعلة بن شهاب اليشكري إليه ليأخذ بالحجة عليه، فسار إليه واتصل الخبر بأم الشريف عمة محمد بن أحمد فتحدثت إليه في أمر ابن أخيها ثم كتبت إليه كتاباً أجزلت فيه الموعظة وأخلصت النصيحة.. لها مواقف تدل على بعد نظرها وتعقلها

في معالجة الأمور.

أعلام النساء ٢/ ٢٩٣ وجمهرة رسائل العرب ١٤/ ٣٩٤ ومروج الذهب ٤/ ١٧٥ ـ ١٧٧ والمنتظم ٦/ ١٦.

٢٧ ـ شغب:

(السيدة أم المقتدر) من ربات النفوذ والسلطان والسياسة والدهاء، أمرت ونهت وحكمت وتصرفت في أمور المملكة لضعف ابنها وآل بها الأمر إلى أن أمرت (ثمل) قهرمانتها بالجلوس للمظالم والنظر في رقاع الناس، وكان لها ديوان تجالس فيه الوزراء والقواد للتدول في نظر الدولة ولها كاتب خاص بها، ولما قتل المقتدر قبض عليها القاهر فعذبها صنوف العذاب حتى قيل إنه علقها بثدييها يطالبها بالأموال التي كانت تمتلكها.

أعلام النساء ٥/ ٦٧ وتجارب الأمم ١/ ١٣، ٨٤، ١١٧، ١٦٤ ونشوار المحاضرة ١/ ٢٤٢، ٢/ ٧٦ ـ ٧٨ وتاريخ الخلفاء ص٣٨١ والعيون والحدائق ص٢٣١ والكامل في التاريخ ٨/ ٢٤٥.

٢٨ ـ عابدة بنت محمد الجهنية:

شاعرة فاضلة وخطاطة ماهرة وأديبة فصيحة روى عنها التنوخي أبو علي الحسن بن علي قال: حضرت بغداد في مجلس الملك عضد الدولة في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٧هـ والشعراء ينشدونه التهاني فحضرت عابدة الجهنية امرأة عم أبي محمد المهلبي الوزير فأنشدت قصيدة لم أظفر منها بشيء.

وقال: أنشدتني عابدة لنفسها، وهذه امرأة فاضلة كانت تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي لما ولي الوزارة.

شاورني الكرخي لما دنا النيـ روز والسن له ضاحكة

أعلام النساء ٣/ ١٩٨، نزهة الجلساء في أشعار النساء ص٧٥ ونشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤.

٢٩ ـ عاتكة المخزومية:

عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية شاعرة فصيحة مدحت عضد الدولة ببغداد وكانت تحضر مجلسه أسوة بالشعراء لإنشاد التهاني والمدائح، روى عنها التنوخي في مدح المعتضد:

شتان بين مدبر ومدمّر صيد الليوث حصائد الغزلان

نزهة الجلساء ص٧٧ ونشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٩.

٣٠ ـ عريب:

وهي مغنية محسنة وشاعرة ذات فصاحة وبلاغة وحسن وجمال، قيل إنها ابنة جعفر البرمكي تزوج جعفر أمها خفية ولما ماتت أمها دفع (عريب) إلى امرأة نصرانية وجعلها داية لها فلما حدثت نكبة البرامكة باعتها الداية إلى البرامكي صاحب مراكب الرشيد عبد الله بن إسماعيل فرباها وأدبها وعلمها الغناء.

قال الفضل بن مروان: كنت إذا نظرت إلى قدمي عريب شبهتها بقدمي جعفر، وذكروا بلاغتها في كتبها فقيل: فما يمنعها من ذلك وهي ابنة جعفر بن يحيى.

وقال أبو بكر الصولي: كانت عريب المأمونية تدّعي أنها بنت جعفر بن يحيى بن خالد من امرأة شريفة، ولها شعر وصنعة في أشعار كثيرة ولغنائها ديوان مفرد من شعرها والصنعة فيه لها.

وقال ابن المعتز: كانت عريب جارية المأمون من أحسن النساء وجهاً وأفصحهن لساناً وأبلغهن بياناً وأصنعهن كفاً، وكانت شاعرة مفلقة مطبوعة وكان المأمون يعشقها وهي عند مولاتها..

وكانت تجيد المراسلات الشعرية والنثرية، وقد ذكر ابن المعتز أن رقاعاً لعريب فيها مكاتبات منثورة ومنظومة وقعت إليه، وكانت تجيد صوغ الألحان، وكان المعتمد يوجه شعره إليه لتلحنه فكانت تستضعف الشعر وتقول: ويلي كم أغني في حروف الف باء تا ثا. لها مراسلات مشهورة مع إبراهيم بن المدبر ومحمد بن حامد.. توفيت سنة ٢٧٧هـ.

الأغاني ١٠/ ٢٠٢، ٢١/٥٨ ـ ٩٥، ٢٢/ ١٥٦، ١٦٢، ١٦٩، ١٧١، ١٧٩. طبقات ابن المعتز ٤٢٥ ونساء الخلفاء ٥٥ ـ ٥٧ والمستظرف ص٣٧، والديارات ص٩٩، ٦٤، ٦٥، ١٠٥، ١٦٥، ونشوار المحاضرة ١/ ١٣١، ٢٧٠ نهاية الأرب ٥/ ٩٥ ـ ١١٢، وأخبار بغداد لابن طيفور ١٥٠، ١٥١، ١٦٩، ١٧٧، ١٧٩، والوزراء والكتاب ١٥٤ ـ ١٥٥، المحاسن والأضداد ص١٥٧، ١٥٢، وتاريخ الخلفاء ص٣٢٥، وبغداد في تاريخ الخلافة ص١٦٨ والحضارة الإسلامية (متز) ١٥٩ وأعلام النساء ٣/ ٢٦١ والبصائر والذخائر ٢/ ١٥٠ والكامل لابن الأثير (وفيات ٧٧،٢٧٧) وديوان أبي نواس ص٢٧٥.

٣١ ـ عنان جارية الناطفي:

شاعرة ظريفة ذكرها الأصفهاني فقال: كانت عنان جارية النطاف صفراء مولدة من مولدات اليمامة وبها نشأت وأدبت، اشتراها النطاف وهمّ الرشيد بابتياعها منه فمنعه منها اشتهارها وما هجاها به الشعراء (ومنهم أبو نواس) مع ميله إليها.. وقيل إنه أحضرها ليبتاعها من سيدها فطلب ثمنها مائة ألف درهم، فلما مات مولاها بيعت بمائتي ألف درهم. وكانت أول من اشتهر بقول الشعر وأفضل من عرف من طبقتها، ولم يزل فحول الشعراء في عصرها يلقونها في منزل مولاها فيقارضونها الشعر وتنتصف منهم. لها مطارحات شعرية ماجنة مع الشعراء المجان أمثال أبي نواس، ولها معارضات شعرية مع مشاهير الشعراء كالعباس بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة.

نساء الخلفاء ص٣٧ ـ ٥٣، المحاسن والأضداد ١٥٢ ـ ١٥٦ الوزراء والكتاب ٢٠٤، ٢٠٥، الأغاني ٢/ ٥٢١ ـ ٥٣٢، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ١/ ١٢٦، ١٢٧، أخبار أبي نواس ص٧٢ـ ٧٨ وبدائع البدائه ص١٤٩، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢١ والمستظرف ص٣٨، وزهر الآداب ٤/ ٩٧١، أعلام النساء ٣/ ٣٦٩ ـ ٣٧٢ والأعلام ٥/ ٢٦٧ والفهرست ص٢٣٩، العصر العباسي الأول ص٣٢٨، أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله لابن منظور ص٣٧، المرأة في حضارة العرب ١٦٠.

٣٢ ـ علية بنت المهدي:

سيدة عباسية جليلة ولدت سنة ١٦٠هـ، فكانت من أحسن النساء وأظرفهن وأعقلهن، ذات صيانة وعفة وأدب بارع، تقول الشعر وتصوغ فيه الألحان الحسنة.

قيل: كانت علية حسنة الدين وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ إلاّ إذا كانت معتزلة الصلاة، فإن طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب فلا تلذ بشيء غير قول الشعر. وكانت تقول: ما حرم الله شيئاً إلاّ وقد جعل فيما حلل منه عوضاً. فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته؟ وكانت تقول: لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط، ولا أقول شعري إلاّ عبثاً.

وكان الرشيد يبالغ في إكرامها واحترامها ويستصحبها في بعض أسفاره، وقيل إنها اختصت خادماً يقال له طل من خدم الرشيد فكانت تراسله بالأشعار، فبلغ ذلك الرشيد فحلف عليها أن لا تكلم طلاً ولا تسميه باسمه فضمنت له ذلك، واستمع الرشيد إليها يوماً وهي تدرس آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجل: ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ وأرادت أن تقول (فطل) فقالت: (الذي نهى عنه أمير المؤمنين).

فدخل فقبل رأسها، وقال: قد وهبت لك طلاً، ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه.

وربما كان هذا من الأخبار الموضوعة من قبل الفرس وعيرهم على الرشيد وأخته عليه.. فقد تضاربت الآراء واختلفت الأخبار في كثير من الشخصيات في هذا العصر.

الأغاني ١٠/١١١، ١٧١ ـ ١٩٥، ٢٢/ ٥٠، ٥٣، ٥٧، وزهر الآداب ١/ ١٣، البصائر والذخائر ١/ ٩٠، ديوان العباس بن الأحنف ٦٢، والوافي بالوفيات ٢/ ١٩٧ والمحاسن والأضداد ٢٢٩، ٢٣٠ ونشوار المحاضرة ١/ ١٩٥، وأشعار أولاد الخلفاء ص٥٥، ونزهة الجلساء ص٨٠ ـ ٨٦، وأعلام النساء ٣/ ٣٣٤.

٣٣ ـ الفارعة بنت طريف:

هي أخت الوليد بن طريف بن الصلت الشيباني الخارجي وكان أخوها الوليد قد خرج عن الطاعة في خلافة الرشيد فأرسل إلى حربه يزيداً بن زائدة الشيباني فغلبه وقتله عام ١٧٩هـ فماأن سمعت الفارعة بخبر قتل أخيها حتى لبست عدة الحرب وحملت على جيش يزيد وأبلت بلاءً حسناً إلاّ أن يزيد خرج إليها فضرب بالرمح فرسها وقال لها: اغربي غرب الله عينك فقد فضحت العشيرة، فانصرفت، وللفارعة في أخيها مراث كثيرة سلكت فيها سبيل الخنساء في مراثيها لصخر، منها مرثيتها التي تقول فيها:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد من التقى ولا المال إلاّ من قنا وسيوف

أعلام النساء ٤/ ٢٠، تاريخ الطبري ٨/ ٢٦١ ومرآة الجنان ١/ ٣٧٠، والعيون والحدائق ٣/ ٢٩٧، العقد الفريد ٣/ ٢٦٩ وزهر الآداب ٤/ ٩٩٢.

٣٤ ـ فاطمة القهرمانة:

من ذوات الدهاء والنفوذ والسلطان، كانت توقع على مراسيم الدولة فتقول: (أمر أمير المؤمنين بحمل أربعين بدرة عيناً من بيت المال الخاصة إلى حضرته) وكان توقيع ابن الفرات في آخره بامتثال المرسوم منه، وبالأمر بتنفيذه. وقد غرق بها طيارها في يوم ريح عاصف تحت جسر بغداد سنة ٢٩٩هـ.

أعلام النساء ٤/ ٩١ ونشوار المحاضرة ٣/ ٢٦٩، ٤/ ١٧٩، وتجارب الأمم ١/ ٢٠.

٣٥ ـ فضل:

شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار مدونة ملاح.. قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت مولدة ولدت باليمامة ونشأت بالبصرة وكانت سمراء أديبة فصيحة سريعة الهاجس مطبوعة في قول الشعر، أحسن خلق الله خطاً وأفصحه عبارة وأبلغه مخاطبة وأثبته في محاوره، وكانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء. قيل إنها يوم أهديت إلى المتوكل قال لها: أشاعرة أنت قالت: كذا يزعم من باعني ومن اشترى، فضحك وقال: أنشدينا شيئاً من شعرك فأنشدته قولها الذي مطلعه:

استقبل الملك إمام الهدى   عام ثلاث وثلاثينا

وكانت بارعة في إجازة الشعر بسرعة بديهة وبلاغة معنى.. وقيل إنها كانت تهوى سعيداً بن حميد ولها معه مراسلات كثيرة.. قيل يوماً له أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك، فقال وهو يضحك: ما أحسن ظنك، ليتها تسلم مني لا آخذ كلامها ورسائلها والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وكبراؤهم وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك. توفيت سنة ٢٥٧

وقيل سنة ٢٦٠هـ.

طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦، ونساء الخلفاء ص٨٤ والمستظرف ص٥٠ ـ ٥٤، وأمالي القالي (الذيل) ص٦٧، والمنتظم ٥/ ٧٠٦، وفوات الوفيات ٢/ ٣٤٨، والمحاسن والأضداد ص١٥٢، وتاريخ الخلفاء ص٣٦٠، وبدائع البداءة ص٢٩، ٦٠، ١١١، ١١٢، ١٥٠، وسيدات البلاط العباسي ص٨٢، والبصائر والذخائر ٢/ ٦، ٣٠، وطبقات الشافعية ١/ ٢٦٣، والأغاني ١٨/ ١٠١، ١٩/ ٢٥٧ ـ ٢٧٠، وجمهرة رسائل العرب ٤/ ٢٨٥، وألف با البلوى ٢/ ٤٩٣.

٣٦ ـ فريدة جارية الواثق:

وكانت لعمرو بن بانة المغني، وأهداها للواثق وكانت من الموصوفات المحسنات ومن المحظيات عنده. ولما مات الواثق أمر المتوكل بإحضار فريدة جارية أخيه الواثق فأحضرت مكرهة ودفع إليها عوداً فغنت غناءً كالندبة، فأمرها أن تغني غيره فبكت وغنت غناءً شجياً بحزن.. إلا أنها لم تثبت على وفائها للواثق فقد تزوجها المتوكل بعد ذلك فولدت له ابنه أبا الحسن.

المستظرف من أخبار الجواري ٤٩، ومعجم الأدباء ٢/ ٢١٠، والديارات ص١١، ١٢، ونساء الخلفاء ص١٠٠، وأعلام النساء ٤/ ١٦٤.

٣٧ ـ قبيحة أم المعتز:

سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها (من أسماء الأضداد) وهي من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان.

ولما تمت البيعة للمعتز ابنها وخلع المستعين اجتمع غلمان المتوكل وصاروا إلى أم المعتز وبينوا تخوفهم من المستعين، فشاورت في الأمر وكتبت إلى أحمد بن طولون: إذا قرأت كتابي فجئني برأس المستعين وقد قلدتك واسط فأجابها: والله لا يراني الله عز وجل أقتل

خليفة له في رقبتي بيعة وإيمان مغلظة أبداً، وكانت تحرض المعتز على الأتراك: وتقول: يا بني اقتلهم في كل مكان.. وقيل إنها أخرجت إليه قميص أبيه المتوكل مخضباً بدمائه قال لها المعتز: يا أماه أرفعيه وإلاّ صار القميص قميصين... وقد أخذت أموالها ونعمها لما قتل ولدها المعتز فخرجت إلى مكة فأقامت بها مدة ثم عادت إلى سامراء وتوفيت سنة ٢٦٤.

المستظرف من أخبار الجواري ص٥٧، والديارات ص١٦٩، ١٧٠ والإيجاز والإعجاز ص٢١، وأعلام النساء ٤/ ١٨٤.

٣٨ ـ قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون:

واسمها أسماء تزوجها الإمام المعتضد بالله وهي عند أبيها بمصر وزفت إليه وكان معها من الجهاز ما لا يكاد يوجد مثله في خزائن الملوك، وكانت من أعقل النساء.. قيل إن المعتضد قال لها يوماً: (بم تشكرين الله إذ جعل أمير المؤمنين زوجك)؟ فقالت: (بما يشكر به أمير المؤمنين إذ جعل أحمد بن طولون من رعيته) توفيت سنة ٢٨٧هـ.

تاريخ الطبري حوادث سنة ٢٨٧هـ ومروج الذهب ٤/ ١٦٩ والمنتظم ٦/ ٢٦ ووفيات الأعيان ١/ ١٩٢ وسيدات البلاط العباسي ص٩٤ ونساء الخلفاء ص١٠٤.

٣٩ ـ لبابة بنت علي بن المهدي:

شاعرة من شواعر العرب في الدولة العباسية تزوجها محمد الأمين وقتل ولم يدخل بها فقالت ترثيه:

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والسيف والقوس

نزهة الجلساء في أشعار النساء ص٨٨، تاريخ الطبري ٨/ ٥٠١، أعلام النساء ٤/ ٢٧٤، مروج الذهب ٣/ ٣٢٣.

٤٠ ـ محبوبة جارية المتوكل:

مولدة من مولدات البصرة، شاعرة سريعة البديهة مطبوعة لها قدرة عجيبة على ارتجال الشعر في المناسبات وهي مغنية حسنة الوجه حسنة الغناء. ملكها المتوكل وهي بكر أهداها إليه عبيدالله بن طاهر في جملة أربع مئة جارية فتقدمتهن جميعاً وحظيت عنده.. كانت تقول الشعر بداهة فتتفوق على فحول الشعراء. وقد وفت للمتوكل بعد وفاته فلم تزل حزينة عليه هاجرة لكل لذة حتى ماتت، ولها فيه مراث كثيرة.

قال علي بن يحيى المنجم: إن جواري المتوكل تفرقن بعد موته فصار إلى وصيف عدد منهن محبوبة فأمر يوماً بإحضارهن فحضرت وعليهن الثياب الفاخرة المرونة وقد تزين وتعطرن سوى محبوبة، فإنها جاءت مرهاء متسلبة عليها ثياب بياض.. ثم قال لمحبوبة غني فأخذت العود وغنت وهي تبكي المتوكل وتقول:

أي عـــيـــش يـــطـــيـــب لـــي لا أرى فـــيـــه جـــعـــفـــرا

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها، فاستوهبها منه بغا وكان حاضراً فوهبها له فأعتقها فخرجت إلى بغداد فأقامت بها وأخملت نفسها حتى ماتت.

الأغاني ٢٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٥ وذم الهوى ص٣٤٣ ومروج الذهب ٤/ ٧٣ ـ ٧٥ وتاريخ الخلفاء ص٣٥٧، ٣٦٠ ووفيات الأعيان الترجمة ١٣٣ وأعلام النساء ٥/ ٢٥ ونهاية الأرب ٥/ ١٠٨ والمستظرف من أخبار الجواري ٦٣ ـ ٦٧ ونساء الخلفاء ٩٢ ـ ٩٨.

٤١ ـ أم موسى القهرمانة:

كانت إحدى نسوة ثلاث سيطرن على أمور الدولة العباسية في زمن المعتضد هن: السيدة أم المقتدر، وخالته، وأم موسى القهرمانة، وقد تمكنت من الدولة وأثرت ثراءً فاحشاً، وفي سنة ٣١٠ سخط عليها

الخليفة وقبض عليها وعلى أسبابها ومن كانت تعنى به واستخرج منها ألف ألف دينار لاتهامها في إزاحة المقتدر عن الخلافة ونقلها إلى أبي العباس محمد بن إسحاق بن المتوكل الذي زوجته بابنة أخيها.

المنتظم ٦/ ١٦٦ وتجارب الأمم ١/ ٨٣ ونشوار المحاضرة ١/ ٢٤٢.

٤٢ ـ نبت جارية المعتمد على الله:

مغنية حسنة الغناء، شاعرة سريعة الهاجس، عرضت على المعتمد فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها وكانت بارعة في المعارضة.

نساء الخلفاء ص١٠١ والمستظرف من أخبار الجواري ص٦٩ ونشوار المحاضرة ٧/ ١٢٨.

٤٣ ـ هيلانة جارية الرشيد:

قيل إنه أخذها من يحيى بن خالد البرمكي وكانت بديعة الجمال ظاهرة الكمال فحظيت عنده وأقامت معه ثلاث سنين ماتت سنة ٢٧٣هـ، فوجد عليها وجداً شديداً فقال في رثائها:

قد قلت لما ضمنوك الثرى   وجالت الحسرة في صدري
اذهب فلا والله ما سرني   بعدك شيء آخر الدهر

نساء الخلفاء ص٥٤ والمستظرف من أخبار الجواري ص٧٢ وتاريخ بغداد ١/ ٩٨ وتاريخ الخلفاء ص٢٩٥ وديوان العباس بن الأحنف ص٢٠٨ والديارات ص١٤٦.

٤٤ ـ ولادة المهزمية البصرية:

إحدى الشاعرات الحرائر روى لها أبو هفان شعراً جزلاً فخماً فيه فحولة الأوائل ورصانة المجيدين وقوة المتمكنين، وقالت تفخر بشمائلها

ومكانتها وبقومها بأبيات منها:

لـولا اتـقـاء الله قـمـت بـمـفـخـر   لا يـبـلـغ الـثـقـلان فـيـه مـقـامـي

قيل إنها توفيت نحو سنة ٢٠٠هـ.

الأعلام للزركلي ٩/ ١٣٦، وشاعرات العرب ص٤٨١، أعلام النساء ٥/ ٢٩٠.

المصادر والمراجع

- **أبو نواس، قصة حياته في جده وهزله** ـ الدكتور عبد الرحمن صدقي، الدار القومية للطباعة والنشر.
- **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري** ـ الدكتور محمد مصطفى هداره، دار المعارف ١٩٦٣م.
- **اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري** ـ الدكتور يوسف حسين بكار.
- **أخبار أبي نواس لابن منظور**، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم وعباس الشربيني مطبعة الاعتماد.
- **أخبار أبي نواس لأبي هفان**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.
- **أخبار الحمقى والمغفلين** لابن الجوزي ط١، ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م.
- **أخبار الدولة العباسية** لمؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري، مطابع دار صادر بيروت ١٩٧١م.
- **أخبار الظرف والمتماجنين لابن الجوزي**، تحقيق السيد بحر العلوم، ط٢ مطبعة الغرى، النجف ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م.
- **أخبار النساء لابن قيم الجوزية** إصدار دار الفكر.
- **اختيار المنظوم والمنثور**.
- **أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي**، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥م.
- **أدب التوقيعات**: خالدة ناجي (أطروحة ماجستير) جامعة بغداد ١٩٧٦م.
- **أدب الكتاب لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي**، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١هـ.
- **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**، مصطفى الشكعة ١٩٦٨م.
- **الأدب والسياسة منذ قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الثالث**

الهجري (أطروحة دكتوراه) من جامعة بغداد ١٩٧٧.
- الأذكياء لابن الجوزي، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- آراء أبي العلاء المعري معروف الرصافي ط١، ١٩٥٥م، مطبعة دار المعارف، بغداد.
- الأساس للزمخشري دار ومطابع الشعب، القاهرة.
- اشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي، نشر ج هيورث دن ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م.
- أشعار النساء للمرزباني، تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، بغداد، دار الرسالة للطباعة ١٩٧٦.
- الأعلام خير الدين الزركلي ط٢، مكتبة كوستا توماس، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- أعلام النساء، عمر كحالة ط٢، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٩م.
- أعيان الشيعة تأليف السيد محسن الأمين ط٢، ١٩٥٣م، مطبعة الإنصاف، بيروت.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - دار الثقافة - بيروت.
- الف ليلة وليلة. الشيخ محمد قطة العدوي، مصر مطبعة بولاق ١٩٥٢م.
- ألف ليلة وليلة، د. سهير القلماوي، دار المعارف بمصر.
- الحان ألحان عبد الرحمن صدقي، دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.
- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة.
- أمثال العرب للمفضل الضبي مطبعة الجوائب ١٣٠٠هـ.
- الأوراق لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، قسم أخبار الشعراء ط١، ١٩٣٤م.
- بدائع البدائة لعلي بن ظافر الأزدي، تحقيق محمد أبو الفضل، مكتبة الأنجلو ١٩٧٠م.
- بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام. ملحم إبراهيم الأسود بيروت

١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م.
- البرصان والعميان والعرجان للجاحظ، دار الاعتصام للطبع، تحقيق محمد مرسي الخولي ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- بشار بن برد - أعلام الإسلام، عبدالقادر المازني.
- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني ١٩٦٤م.
- بغداد في تاريخ الخلافة العباسية لابن طيفور ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
- بغداد في القرن الثالث الهجري. مكية سلمان العبيدة (أطروحة ماجستير) من جامعة بغداد - كلية الآداب.
- بلاغات النساء لأبي الفضل ابن طيفور، منشورات مكتبة بصيرتي.
- بلاغة الكتاب في العصر العباسي، محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة ط١ ١٩٦٥م.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط٣، ١٩٦٨م.
- بين الخلفاء والخلعاء، د. صلاح الدين المنجد. دار الحياة ١٩٥٧م.
- التاج في أخبار الملوك للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٧٠م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٧م.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي ط٤، ١٩٧٠م.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط٢، مطبعة السعادة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠م.
- تاريخ الشعر العربي في العصرين الأول والثاني من خلافة بني العباس، د. محمد عبد العزيز الكفراوي، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٤م.
- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ط٤، دار العلم للملايين ١٩٦٥م، بيروت.

- تاريخ الطبري، دار المعارف، د.أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٦م.
- تجارب الأمم لابن مسكويه، تحقيق.
- تحفة الأبيه فيمن نسب إلى أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م .
- التحف والهدايا للخالديين، دار المعارف. سامي الدهان ١٩٥٦م.
- التعازي لأبي الحسن علي بن محمد المدائني، تحقيق د. إبتسام مرهون ود. بدري محمد فهد، مطبعة النعمان، النجف ١٩٧١م.
- التزين والحلي في العصر العباسي، زكية عمر العلي، دار الحرية للطباعة ١٩٧٦م.
- تزيين الأسواق للأنطاكي. المطبعة الأميرية ١٢٩١هـ.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د.شكري فيصل ١٩٥٩م.
- تكملة تاريخ الطبري للهمداني، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية ط٢، ١٩٦١م.
- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.
- تيارات ثقافية بين العرب والفرس د. أحمد محمد الحوفي، دار النهضة مصر ١٩٦٨م.
- ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ط٢، ١٣٨٢هـ، المطبعة السلفية.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة، دار نهضة مصر ١٩٦٥م.
- جمال المرأة عند العرب، د. صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٥٧م.
- جمهرة خطب العرب، د. أحمد زكي صفوت ط٢، ١٩٦٢م.
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، د. أحمد زكي صفوت، ط١، ١٩٧٣م.
- جمهرة المغنين، خليل مردم، المطبعة الهاشمية ١٩٦٤م.

- الجواري، د. جبور عبدالنور، دار المعارف بمصر ط٢.
- الجواري المغنيات، فايد العمروسي، دار المعارف بمصر ١٩٦١م.
- الحجاب لأبي الأعلى المودودي، دار الفكر الإسلامي، تعريف محمد كاظم السباق، ط١، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- حديث الأربعاء، د. طه حسين، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
- الحركة الأباظية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم (أطروحة ماجستير) بغداد ١٩٧٧.
- الحضارة الإسلامية لآدم متز.
- حكاية أبي القاسم البغدادي، لمحمد بن أحمد بن أبي المطهر الأزدي، مكتبة المثنى بغداد.
- الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، د. أحمد كمال زكي، دار الفكر بدمشق ط١، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- الحياة الأدبية في العصر العباسي، محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة، رابطة الأدب الحديث ١٩٥٤م.
- الحياة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، الدكتورة مليحة رحمة الله عليها بغداد مطبعة الزهراء ١٩٧٠م.
- الحياة الجنسية عند العرب. د. صلاح الدين المنجد، بيروت مطابع دار الكتب ١٩٥٨م.
- الحيوان للجاحظ. تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط١ مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م.
- خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٦م.
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب فواز، المطبعة الأميرية، بولاق ١٣١٢هـ.
- دولة النساء للبرقوقي، مطبعة الاعتماد بمصر ط١، ١٩٥٤م.
- الديارات للشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، ط٢ منشورات المثنى، مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

- ديوان ابن الرومي، تحقيق كامل كيلاني، مطبعة التوفيق الأدبية، ١٩٢٤م.
- ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
- ديوان ابن هرمة، تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب، النجف ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٩م.
- ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، القاهرة دار المعارف ١٩٧٢ م.
- ديوان أبي الحسن التهامي، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق.
- ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
- ديوان أبي نواس، تحقيق عبدالمجيد الغزالي، مطبعة مصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٤٣م.
- ديوان أبي نواس، تحقيق بهجت عبد الغفور حمد أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد كلية الآداب ١٩٧٨ م.
- ديوان إسحاق الموصلي، تحقيق ماجد العزي، مطبعة الإيمان، بغداد ١٩٧٠م.
- ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣م.
- ديوان بشار محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م.
- ديوان دعبل الخزاعي، تحقيق د. عبد الكريم الأشتر، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
- ديوان السري الرفاء، مكتبة القدسي ١٣٥٥هـ.
- ديوان الشافعي، دار الثقافة، بيروت، تحقيق زهدي يكن ١٩٦١م.

- ديوان الشريف الرضي، دار صادر، دار بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- ديوان صريع الغواني، تحقيق د. سامي الدهان، دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.
- ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة ١٩٧٠م.
- ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق د. عاتكة وهبي الخزرجي.
- ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م.
- ديوان عماره بن عقيل، تحقيق شاكر العاشور، مطبعة البصرة ط١، ١٩٧٣م.
- ديوان علقمة الفحل، تحقيق أحمد الصقر، المطبعة المحمدية بالقاهرة، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م.
- ديوان قيس بن الخطيم، د. إبراهيم السامرائي ود. أحمد مطلوب.
- ديوان المتنبي، تحقيق عبدالرحمن البرقوقي، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٥٤م.
- ديوان محمد بن عبدالملك الزيات، د. جميل سعيد.
- ديوان المعاني - أبو هلال العسكري - مكتبة الأندلس، بغداد ١٣٥٢هـ.
- ديوان الوأواء الدمشقي، تحقيق سامي الدهان، المجمع العلمي العربي ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
- ذم الهوى، لابن الجوزي. مصطفى عبد الواحد، مطبعة السعادة ط١، ١٩٦٢م.
- ذيل الأمالي، تأليف أبي علي إسماعيل القالي البغدادي، دار الفكر.
- ذيل زهر الآداب، المطبعة الرحمانية.
- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١م.
- رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، لابن بطلان - نوادر المخطوطات - تحقيق عبدالسلام هارون ط١، ١٩٥٤م.
- رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار بيروت، دار صادر، ١٣٧٦هـ -

١٩٥٧م.
- رسائل الجاحظ، مطبعة التقدم ط١، ١٣٢٤هـ.
- رسائل الخوارزمي، ط١ مطبعة الجوائب ١٢٩٧هـ.
- رسائل سعيد بن حميد وأشعاره، جمع وتحقيق د. يونس أحمد السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧١م.
- رسائل الصابي والشريف الرضي، تحقيق محمد يوسف نجم، الكويت، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦١م.
- رسائل الصاحب بن عباد، تحقيق د. عبدالوهاب عزام ود. شوقي ضيف ط١.
- رسوم دار الخلافة لأبي الحسين هلال بن المحسن الصابىء، تحقيق ميخائيل عواد مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- زهديات أبي نواس، تحقيق د. علي الزبيدي، القاهرة سنة ١٩٥٩م.
- زهر الآداب للحصري، تحقيق د. زكي مبارك.
- الزهرة لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهاني، مطبعة الأدباء اليسوعيين، بيروت ١٩٣٢م (النصف الأول).
- الزهرة لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهاني، تحقيق د. نورى القيسي.
- سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي، تحقيق أحمد عبيد ط١ مطبعة الترقي بدمشق.
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية.
- سيدات البلاط العباسي، مطبعة دار الكشاف بيروت ١٩٥٧م.
- شاعرات العرب، جمع وتحقيق عبد البديع صقر، منشورات المكتب الإسلامي، ط١ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ط١ مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥٣م.
- شرح ديوان المتنبي. عبدالرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي بيروت.

- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢ مطبعة المدني ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢م.
- شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين (أطروحة ماجستير) من جامعة بغداد ـ كلية الآداب ١٩٧٥م.
- شعر ابن المعتز لأبي بكر الصولي، دراسة وتحقيق د. يونس السامرائي، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٧م.
- شعر أبي هلال العسكري، تحقيق ودراسة د. محسن غياض، بيروت ١٩٧٥م.
- الخوارج، تحقيق. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوك، تحقيق أحمد نصيف الجنابي، مطبعة الآداب في النجف ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
- الشعر والشعراء في العصر العباسي د. مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين ١٩٧٣م.
- شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) لعبدالرحمن بدوي، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨م.
- صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية ط١، ١٩٥٣م محمد أحمد خلف الله مطبعة نهضة مصر.
- صفة الصفوة لابن الجوزي ط١ حيدر أباد الدكن ١٣٥٥هـ.
- الصوفية في الإسلام، تأليف نيكلسن وترجمة نور الدين شربيه، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٥١م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٣م.
- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب، تحقيق الطناجي طبع عيسى البابي ط١.
- طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي.
- طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف.

- طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق د. الطاهرة أحمد مكي، دار المعارف بمصر ط١، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
- طبيعة الدعوة العباسية د. فاروق عمر ـ دار الإرشاد، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.
- عالمات بغداديات في العصر العباسي، بغداد، دار الجمهورية ١٩٦٧م.
- العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بدري محمد فهد ١٩٦٧م. مطبعة الإرشاد ببغداد.
- العباسيون الأوائل د. فاروق عمر فوزي، دار الإرشاد، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.
- العبر في خبر من غبر للجاحظ الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٦٠م.
- العصر العباسي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ط٥، ١٩٧٥م.
- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الإبياري وعبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩م.
- عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، تقديم محمد بحر العلوم ط٢، المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٧هـ ـ ١٩٦٨م.
- العمدة لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة مصر ١٩٥٥م.
- عيون الأخبار لابن قتيبة، مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.
- العيون والحدائق لمؤلف مجهول. مكتبة المثنى.
- العيون والحدائق لمؤلف مجهول ج٤، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود، جامعة بغداد ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
- غزل النساء عيسى سابا، دار العلم للملايين، بيروت ط١، ١٩٥٣م.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تأليف محمد بن علي بن طباطبا دار صادر، بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

- الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٦٠م.
- الفهرست لابن النديم، مطبعة الاستقامة، الحاج مصطفى محمد.
- فوات الوفيات. محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، السعادة. مصر ١٩٥١م.
- في الأدب العباسي د. علي الزبيدي. دار المعرفة ط١، ١٩٥٩م.
- في الأدب العباسي د. محمد مهدي البصير ط٣ النجف ١٩٧٠م.
- القاضي التنوخي وكتاب النشوار، د. بدري محمد فهد، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٦م.
- القرآن الكريم.
- قصة الحضارة (ول ديورانت) ترجمة بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢، ١٩٥٦م.
- القيان والغناء، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف ط٢، ١٩٦٨.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير. ليدن (أوفست) بيروت، دار صادر ١٩٦٦.
- كليلة ودمنة، تحقيق د. صابر يوسف، ط٢، ١٩٦٠م.
- لباب الآداب لأسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد شاكر، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
- لسان العرب لابن منظور، بيروت، دار صادر، ١٩٥٥م.
- لطائف المعارف للثعالبي، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق أحمد محمد الحوفي وبدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٩م.
- مجمع الأمثال للميداني ١٣٥٢هـ.
- المحاسن والأضداد، مكتبة العرفان، مطبعة الساحل الجنوبي.

- المحاسن والمساوىء للبيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر.
- محاضرات الأدباء، دار الحياة، بيروت ١٩٦١م.
- المختار من شعر بشار، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م.
- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية ط١، ١٣٢٥هـ.
- مختصر تاريخ العرب سيد أمير علي، دار العلم للملايين، بيروت ط١، ١٩٦١م.
- المخصص لابن سيده، القاهرة. المطبعة الكبرى ١٣١٠هـ.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي، مطبعة دار المعارف النظامية، بيروت ط٢، ١٩٧٠م.
- المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي ط١ دمشق ١٩٦٢م.
- المرأة في التاريخ والشرائع محمد جميل بيهم، بيروت ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢١م.
- المرأة في الجزيرة في القرن الأول الهجري د. عبداللطيف جاروك (أطروحة دكتوراه).
- المرأة في حضارة العرب، محمد جميل بيهم، دار النشر للجامعيين.
- المرأة في شعر البحتري، د. نعمان أحمد فؤاد، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
- المرأة في الشعر الجاهلي د. محمد الحوفي.
- المرأة في الشعر الجاهلي د. علي الهاشمي مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٠م.
- المرأة في جاهليتها وإسلامها، عبدالله عفيفي، مطبعة الاستقامة.
- مروج الذهب للمسعودي مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨م.
- مروان بن أبي حفصة وشعره، د. قحطان رشيد التميمي، مطبعة النعمان ١٩٧٢م.

- المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي، تحقيق محمد كرد علي ١٩٧٠م.
- المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ط١، ١٩٦٣م.
- المستظرف من كل فن مستظرف للأبشيهي، مطبعة المشهد الحسيني ١٣٦٨هـ.
- مصارع العشاق، طبع الجوائب باستانبول سنة ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون، مكتبة عيسى البابي.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، منشورات مكتبة الأسدي، طهران ١٩٦٥م.
- المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب. دوزى زينهارت، ترجمة أكرم فاضل بغداد، دار الحرية للطباعة ١٩٧١.
- المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي. القاهرة، مطابع الشعب ١٣٧٨هـ.
- مفاخرة الجواري والغلمان، تحقيق شارل بيلا، دار المكشوف ط١، بيروت ١٩٥٧م.
- المفضليات للضبي، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣م.
- المكافأة لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب ط١، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.
- المنتظم لابن الجوزي ط١ مطبعة دار المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ - ١٩٧٦م.
- من تاريخ الأدب العربي د. طه حسين، دار العلم للملايين ط٢، ١٩٧٦م.
- من نسب إلى أمه من الشعراء، تأليف محمد بن حبيب بن جعفر ضمن مجموعة نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون ١٩٥٤م.
- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة مؤسسة فرانكل للطباعة والنشر ١٩٦٥م.

- الموشى أو الظرف والظرفاء لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء تحقيق د. كمال مصطفى ط٢، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.
- المؤتلف والمختلف، نشر فريتس كرنكو، مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤هـ.
- نزهة الجلساء في أشعار النساء، تأليف السيوطي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المكشوف ط١، ١٩٥٨م.
- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تأليف الساعي الخازن البغدادي، تحقيق د. مصطفى جواد. دار المعارف.
- النساء العربيات كرم البستاني دار صادر.
- النوادر لأبي علي القالي، دار الفكر.
- نهاية الأرب في فنون الأدب النويري، مطبعة دار الكتب، ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.
- الوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق محمد يوسف نجم، دار النشر، فرانز شتاينر ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
- الورقة لابن الجراح. تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار أحمد فراج، القاهرة، دار المعارف ١٩٥٣م.
- الوزراء والكتاب للجهشياري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ط١، مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.
- الهجاء عند ابن الرومي، عبدالحميد جيدة، المكتب العالمي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٤م.
- يتيمة الدهر، للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ط٢.

المخطوطات والمقالات

- أنساب الأشراف للبلاذري ج٣ مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد برقم ١٦٣٦.
- تاريخ بغداد للفتح بن علي بن محمد بن الفتح البنداري، مكتبة الدراسات العليا برقم ١٢٣٧.
- التذكرة الحمدونية لمحمد بن حمدون ج١٢، مكتبة الدراسات العليا برقم ١٢٨٢.
- ري الظمأ فيمن قال الشعر من الإما، دار الكتب المصرية برقم ١٩٨٧٨ى.
- محاسن النساء لأحمد بن هشام، مكتبة تيمور برقم ١٨٠٣ أدب المقالات.
- ألف ليلة وليلة جنى على المرأة ألفة الإدلبي مجلة العربي العدد ١٠٩ آب ١٩٦٧.
- (التصوف تهجد وتعبد وفناء (رابعة العدوية)) وداد سكاكيني مجلة العربي العدد ٤ آذار ١٩٥٩.
- الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي) (محمد جمال الدين سرور) مجلة العربي العدد ٥٧ سنة ١٩٦٣.
- (دور المرأة السياسي في العصر العباسي) للدكتورة مليحة رحمة اللّه عليها. مجلة كلية الآداب العدد ١٤ المجلد الثاني ١٩٧٠ ـ ١٩٧١م.
- (عناية المرأة بشعرها عبر العصور) للدكتورة بتول سعيد مجلة الأديبة العدد الثاني ١٩٦٩.
- (ما ألف عن النساء في العصر العباسي) الدكتور صلاح الدين المنجد مجلة المجمع العلمي العربي العدد ١٦ سنة ١٩٤١.
- (المرأة في شعر أبي نواس) مجلة الهلال (عدد خاص) ١٩٤٢م.

ABSTRACT

Three motives were behing the writing of this thesis.

The Woman in Literature During the Abbaside Period.

First, to correct the common idea that the Abbaside period was one of decay and degeneyation, and that the picture of the woman as represented in the poetry of Bashshar and Abu Nuwas, for example; was not the true picture of her. As those poets were only depicting the foreign slave-firl **(jawari)** but not the non-slave woman **(harair)**.

Second, to show, through literature, the role played by woman in cultural and political life of the time, and to assert her effectivenuess in society.

Third, to render a truthful service to our legacy by disclosing some obscure adpects concerning the woman's literature. And to collect the mateial related to the subject in our sources.

I found it necessary to sketch, in brief, the picture of the woman in the pre-Islamic and Islamic periods. Then I discussed, in detail the condition of the woman in the Abbaside period, in which the slave-girls **(jawari)** played an important and rather strong role in the political and cultural life. This urged for action to counteract this foreign penetration in the society.

Also we foundid in useful to present the economic and cultural status of the woman. It was proved that, in some cases, she had had economic independence, and practised some professions. Some of them took part in revolutionary activukties, war, and politics. Generally speaking, in politics, the role played by the **jawari** was rather subversive, while that played by the **harair** constructive.

The thesis, the, is divided into three parts **part one** deals with the position of the **harair** in the family, and was entitled (the woman in the family). This part was divided into five chapters as follows

Chapter one: The picture of the daughter in literature.

Chapter two: The picture of the mother in literature.

Chater three: The picture of the Wife in literature.

Chatper four: The picture of the sister in literature.

Chapter five: The picture of the beloved in literature.

Part two deals with the jawari in literature, and consists of a short introduction on (Love), a phenomenon that was widely spread that time,

and four chapters.

Chapter one deals with the picture of the **jariya** (both chaste and unchaste) as represented in the poetry of some famous poets of the time such as Abu Nuwas, Bashshar Ibn Burd, Al-Abbas Ibn al-Ahnaf and Abu al-Atahiya.

Chapter two discusses the **jawari** in the court, and their relationships with the Caliphs. Also discussed, the poetry comoosed by the Caliphs on their **Jawari**.

Chapter three deals with a group of **Jawari** known as **Qiyan** (songstresses) whose influence on literature (both poetry an prose) was quite perceptable.

Chapter four deals with the standards of beauty of the time compared with previous times. It also deals with the aspects of beauty in the woman (such as, clothes, make-up, trinketry dyestuff etc.) poetry of the time was of course, the best source that furnishes the material for this chapter.

Part three concerned with (the Literature of the Woman), and is divides into five chapters.

Chapter one deals with the literature of the **majalis** (entertainment gatherings where the participants engaged in literary conversations and through which they listen to music and songs) and **munazarat** (debates) where the woman took part and showed characteristics supremacey.

Chater two designated to the study of the literature of epistle (**murasalat**), where distinction is made between those written by the **harair**, dealing mainly with politics and administration, and those written by the **jawari** dealing mainly with love affairs and the like.

Chapter three studies the poetic genres the woman wrote about i.e. amourous poetry, panegyric poetry, satiric poetry, elegiac poetry and ascetic poetry.

Chatper four deals with the literature of the Bedin-women (**Arabiyyat**).

Chapter five analyse the artistic features of that literature. Its esential characteristics and traits were discussed.

At the end of this abstract I found it necessary to state that I did my best to present the subject systematically and to dis-close some absure aspects of it.

محتويات البحث